سادة القافلة 16

# الهِداية الثّالِثة

## ذكريات محمد جعفر الأسدي حول الثورة الإسلامية والدفاع المقدّس

تدوين السيد حميد سجادي منش

دار المعارف الإسلامية الثقافية

دار المعارف الإسلاميّة الثقافيّة

الـــكـــتـــاب: **الهداية الثالثة** – ذكريات محمد جعفر الأسدي حول الثورة الإسلامية والدفاع المقدَّس – سادة القافلة 16

تـــدويـــن: **السيد حميد سجادي منش**

تـــرجـــمـــة: **مركز المعارف للترجمة**

إصـــــدار: **دار المعارف الإسلامية الثقافية** ـ بيروت 2017

تصميم الغلاف: WE.

إخـــراج فـنـي: علي عليق

طـــبـــاعـــة: DBOUK 00961 3 336218

ISNB 978-614-467-002-6

books@almaaref.org.lb
00961 01 467 547
00961 76 960 347

سادة القافلة 16

# الهداية الثالثة

ذكريات محمد جعفر الأسدي
حول الثورة الإسلامية والدفاع المقدّس

تدوين السيد حميد سجادي منش

# الفهرس


مقدمة الترجمة 7
المقدمة 9
العطر الدفين 11
أول بقعة حمراء 19
البداية بعد النهاية 25
بيت الكويت 33
الحصاة السوداء 42
التهمة: الغياب لمدة شهرين 47
هذان الشخصان 58
القضبان الأولى 71
تثبيت الأمن 76
وديعة الوداع 82
انطلاق الشرارة الأولى 86
الشعلة الأولى 90
نيران الأرض 96
لباس التقوى 100
بقي مكانه خاليًا 102
الخطأ 104
الخلاص من العبسة 106
الطعام البيتي 109
الهجوم الحديدي 111
معلومات روحية 114
الاشتياق 117
فرصة للتعلم 120
عاشوراء هاشم 122
توحيد اللغة 127
الراصد 134
فدائيون مخمليّون 141
العرس الأسود 144
إيزد داريوش كبير 148
ضيافة السمك 151
المشاريع الفاشلة 156
واحد مقابل واحد، تعادلنا 159
حرب الرؤى 171
المتحف الميداني 176
الاستخارة 183
رواية الفتح 191
فراشات اليقين 201

من صباح الانتظار إلى ليل الانطلاق 204
الشجار انطلق 212
تحمل اللسع لتذوق العسل 219
وثيقة الحاج عمران 227
الشهادة والأحجية 234
رحلة الصخور 242
جبين مرتضى 248
الاسم العظيم 253
قمرتشين 255
تصديق المهندس 258
آه لما أنت عليه 260
دائرة الرسالة 262
لا هذا ولا ذاك 265
واسطة إلهية 276
بدر المهدي! 283
حصة ساقي الماء! 291
الاعتماد على العين! 295
في صف الجنة! 297
خمس سنوات تأخير! 299
المعجزة المائية 306
الفراشة التي لا تخاف 311
برج العروج 313
الهداية الثالثة 316
الانتقام لإيران غيت! 320
من الفرعي إلى الأساس 326
بقيت وحدي و... 335
طردته إلى السماء! 338
شمس حلبشة! 340
الصخور الشاهقة 345
هل أذهب أيضًا؟ 348
الاعتداء مجددًا! 351
الكذبة الخالدة! 355
الوثائق والصور 359

# مقدمة الترجمة

« إن الأيــام العظيمــة لأيّ بلـدٍ وأيّ شعبٍ هي تلك الأيــامِ التي تحقّقت فيها حادثـة إلهية بواسطة النـاس وعلـى أيديهم. ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّام الله﴾؛.. أيام اللّه هي هذه الأيام العظيمة الصانعة للتاريخ. وعلى هذا، فإنّ الأعوام الثمانية مـن الدفاع المقدس هي من أيام اللّه، بل إنّنـا لو نظرنا إلى كل يوم من أيامها، لوجدناه، بمعنى من المعاني، يوماً من أيام اللّه. يجب علينا ألّا نسمح بأن تُرمى هـذه الأحـداث في مطاوي النسيان. إنّ القرآن هو الـذي يعلّمنا هذه الذكريات ويأمرنـا بالتذكر: ﴿وَاذْكُـرْ فِي الْكِتَـابِ إِبْرَاهِيمَ﴾، ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَـى﴾، ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَـرْيَمَ﴾؛ ويطالبنا بتذكرهـا وتكرارها... انظـروا إلى قصة النبي موسى، وقصة النبي إبراهيـم، وسائر القصص، كم قـد تكرّرت في القرآن الكريم؟!..». ثم يكمل الإمام الخامنئي حديثه؛ في لقائه القائمـين على قوافل النور (6-3-2017)؛ حول الثروات الثقافية لحرب الدفاع المقدس: « إذا أردنا إحصاء ثرواتنا الثقافية، لاستخرجنا قائمة طويلة موجودة لدينـا وتمنحنا القوة والطاقة، ولو أحييناها، أو أخرجنا المنسيّ منها من دائرة النسيـان وأنزلناه إلى الساحة لتحقّقت إنجازات كبرى، إنّ روح الجهاد وتقبّل الجهـاد والإيمان به، ثروة ثقافية، وهذه موجودة في بلدنا ولا توجد في كثير من البلدان؛ الإيمان بالصمود في وجه المتسلّط قيمةٌ ثقافية أيضاً؛ الاعتقاد بأننا لو صمدنا وثبتنا، فسوف ننتصر على العدو لا محالة، هو قيمة وثروة ثقافية..».

إنّ الاستفـادة مـن التجـارب وتطويرها ونقلهـا هاجسُ القـادة وأصحاب القـرار؛ خاصة عند تظاهر التهديدات وتضاؤل الفرص ومحدودية الإمكانات.

يعمد القـادة في المعركة-مثل محمـد جعفر أسدي- إلى استخـدام الإمكانات وتفعيـل الطاقات والابتكار في الوسائل والخطـط. لقد حدثَ في الجبهات كثيرٌ مـن الابتكارات والتحـولات؛ إلا أن التحـوّل الأعظم كان علـى مستوى القلوب والنفوس؛ وهنـا مكمن صمود الثورة بالرغم من وجـود الإخفاقات العسكرية. فقد كانـت الحسابات المعنوية والإيمان بالغيب والثقـة بوعد الله وقهر الأنا،.. وسائـر القيـم التي عدّهـا القائد دام ظله في مـتن ثقافة الجبهة وثـروات البلاد الثقافية؛ وكذلك وجود قائد رباني مثل الإمام قدس سره حيث كان يدفع بهذه القيم في قلـوب الجماهير ويلقّنها دروسَ «إننا قادرون» و«الثقة بوعد الله» و«الله حرّرَ خرمشهـر»..؛ ويحثها على العمل والإبداع ؛ كلّ ذلـك من العوامل الحاسمة في مختلـف الميادين، وكان النصـر الكبير «بقاء الثورة» وديمومـة مكتسباتها؛ في قيمهـا وأدبياتها، وفي ابتكاراتها المعنوية والماديـة.. وما دعوة الإمام الخامنئي لإدراج كتب ذكريات الجبهة في مناهج التعليم وعرضها في قالب الفن وترجمتها إلى اللغات الأخرى إلا أحد وجوه إشعاعها وتجذّرها..

حـول تجربته في الثورة والحـرب المفروضة؛ يروي القائـد أسدي مجموعة رائعـة مـن ذكرياته - مع حسـرةٍ لعدم تدوين مذكراتـه اليومية خلال الحرب نفسهـا- مساهمًا في ترويج هذه الثقافة ونقل التجربة إلى ساحة أخرى؛ ساحة الحرب الثقافية الصامتة، لتكون رصيدا مهمّا للشباب ضباط الحرب الناعمة والحرب الصلبة على السواء ..

يفخر مركز المعارف للترجمة أن يساهم في نقل هذا التراث الثقافي؛ ويضيف إلى ساحة الثقافـة والأدب هذه المجموعة التي دوّنت بأسلوب قصصي جاذب؛ الكتاب السادس عشر من سلسلة «سادة القافلة». ويشكر كل من ساهم في نقله إلى اللغة العربية؛ لا سيما المترجم: الحاج موسى قصير؛ وفريق التحرير: نهى عبـد الله وفاطمة منصور. والشكـر موصول لدار المعـارف الإسلامية الثقافية التي نشرت الكتاب.

**مركز المعارف للترجمة**

# المقدمة

كانـت المقابلةُ المصوّرة الشرارةَ الأولى لتدوين هذا الكتاب؛ كاميرا وقاعـدة ومصوّر، وإصرار المحـاور أو المصوّر علـى السكوت في غرفة المقابلـة. القائـد «محمد جعفر الأسدي» من قادة قـوات حرس الثورة الإسلاميـة في الحرب المفروضـة، الذين لا يتحدثون أمام الكاميرا إلا بشكل رسمي وعام، ولا يترك مجالًا للخوض بتفاصيل الأحداث؛ وكأنّ هذه المقابلات قد سُجّلت حتى يحين الوقت المناسب لوجود من يدوّنها، ومن ثم إنتاجها وثائقيًّا.

عندما اقتُرح عليّ تدوين كتاب ذكريات القائد الأسدي، كان المرجع الوحيـد الذي يمكنني الاستفادة منه هو الأشرطـة المصوّرة للمقابلة، لكنّ الأهم منها، كان القائد نفسه. وفضلًا عن محبّتي القديمة له منذ زمـن الحرب المفروضـة، فقد أُتيحت لي الفرصـة مؤخّرًا –بدافع من الزمالة الكبيرة بيننا– لأسأله مباشرة عن التفاصيل التي لم تُذكر في تلـك الأشرطة، في ظلّ علاقتنا الوطيدة والجوّ المفعم بالحميميّة. كان يبدو لي دومًا أنه يحمل في ثنايا قصصه أسرارًا لم يبُح بها، وقد يبوح لي بعيدًا عن الاحتياط الأمنيّ لنشر الذكريات بعد ثلاثة عقود.

ونتيجـةً للحوارات المصوّرة والمقابلات المسجّلـة صوتيًا، بدا لي أن أُقسّـم المدونـات في دفتريـن، وأودع الوثائـق والصـور في دفتر ثالث،

ليكون الدفتر الأوّل استعراضًا منهجيًّا للذكريات منذ الطفولة وحتى نهاية الحرب المفروضة، والدفتر الثاني مختصًّا بالذكريات القصيرة والمؤثّرة من دون الالتزام بالتسلسل الزمني. لكنّ اقتراحًا صائبًا لأصدقائي الأعزاء في مكتب دراسات وأدب المقاومة في مركز المحافظة التابع للدائرة الفنيّة (حوزة هنري) دفعني إلى دمج الذكريات وضمّها مع تسلسل أحداث القصة، ما جعل الكتاب أكثر تنظيمًا - خلافًا لتوقّعي المبدئي- وصدر كما هو الآن بين يديّ القرّاء الأعزاء.

وقد أدّى الشيخ «علي الشيرازي» دورًا كبيرًا في إخراج هذا الكتاب، إن لجهة التشجيع والتحضير والمتابعة، أو لجهة الإرشادات العلمية التي نصح بها «بابك الطيبي»؛ وليس في جعبتي ما أقدّمه لهما هدية سوى فاكهة الشكر الجزيل.

والآن مع الأسطر الأخيرة، أجيل فكري في الأيام المشعّة التي نشرت شعاع الرجولة والمقاومة والاستقامة، وأتطلّع إلى النظرات السماوية للشهداء العظام، الذين تزيّن هذا الكتاب بأسمائهم وذكرهم الثري الخالد، هؤلاء حملة الفجر والنور والضياء، الذين نسعى دومًا للثناء على عظمتهم والسير على هديهم.

**سجادي منش**

آب 2012

## العطر الدفين

يتأثر كلّ إنسان في طفولته بشخص يترك أثرًا هامًا في بناء شخصيته، وعندما يكبر ويتأمّل في نفسه، يجد أنّ كثيرًا من أفكاره، وحتى الحوادث التي تحصل معه في حياته، لها جذور ممتدّة من شخصية ذاك البطل الذي تأثّر به.

كانت جدتي بطلتي منذ طفولتي، منذ أشهري الأولى؛ إنها البطل الذي أحرز بطولته في قلبي. من خلال رائحة عناقها الحنون، التي تشبه رائحة أي إنسان، خاصة به، رائحة جسمه وملابسه، أو عرقه أو العطور التي يستعملها. ما إن تحتضنني، يلتقط أنفي رائحتها ويحفظها دماغي لتستقرّ في ذاكرتي، فتطبق عيناي وأغفو.

مُذ بلغتُ الثالثة من العمر، كنت أشعر أنّ جدتي لها مكانة خاصة في محلة «ده كره»[1] في شيراز؛ مسقط رأسي. وكأنّي ما زلتُ أرى من خلف الستارة البيضاء ملامح المرضى يحملهم أقرباؤهم على ظهورهم، ليأتوا بهم إليها.

- حاجة «ملا فضل الله»، أدركينا وإلا سنفقده، آجركِ الله.
- لقد أخذنا طفلنا هذا إلى أماكن عدة، لكنّهم قالوا إنّ أنفاس

1- محلة «ده كره»: تغيّر اسمها بعد انتصار الثورة الإسلامية ليصبح «مهدي آباد» (معمورة المهدي)، تقع وسط بساتين غرب شيراز، وتبعد عن الحرم المطهر لشاه تشيراغ (ابن الإمام الكاظم عليه السلام) مسافة خمسة كيلومترات.

الحاجـة ملا فضل الله فيها بركة، وعلى يدهـا الشفاء. فليس لنا أمل بعد الله إلا بكِ.

لعـلّ كثيريـن، ومنهـم «فضـل الله» عمي الأكـبر بين أبنـاء جدتي الخمسـة، لم يروا ولم يدركـوا أن لقب «الملا» استخـدم لمناداة جدتي لأنها متعلمة.

كانـت تضع يدها علـى المريض، وتتمتم ببعض الكلمات، ثم تدسّ يدهـا في صـرّة أدويتها العشبيـة المحليـة لتستخرج بعض الأعشاب الجافـة والأدوية ثـم تسلّمها لذوي المريض، وتوصـي بوصفات لازمة. كان التلقـين والاعتقاد والإيمـان والنفَس المبارك أو أي شيء آخر، هي الأمـور التي تمنـح المريض الاطمئنـان والراحة، فتظهـر على شفتيه ابتسامة رضى.

كانت غرفتها مليئـة دومًا بعدة أوانٍ نحاسية مرهونة بدل القروش المعدودة التي كانت تقرضها للناس، لذلك كانت تقبل بعض المال الذي يدفعه المرضى.

دعك من هذا، لعلّ جسمها القوي زاد من ثقتي بها وتأثيرها عليّ.

في أول ليلـة جمعة من كل شهر، يسير أهـالي المحلة طبق عاداتهم مشيًـا على الأقدام مسافة خمسة كيلومـترات للوصول إلى حرم «شاه تشـيراغ»، ليبيتوا فيه حتى صباح يوم الجمعـة. وكانت جدتي تحملني معها طوال الطريق وتضمّني إليها.

أحيانًـا، كنـت أتململ لتضعني علـى كتفيها وتمسـك يديها بيديّ. بينمـا أستمتـع وأنا أجول بنظـري من الأعلى، وأنفهـا كمؤشر لتوجيه نظـري حيث تنظر هي. أحرك رأسي يمنـة ويسرة بافتخار، بينما أبي وأمي وأعمامي يقولون لها:

- يا حاجة دعيه لنا، لقد أتعبكِ.

- كلا يا أعزائي، ولدي هذا خفيف لا يزن أوقيتين، إنّني مرتاحة!

حينها، لم يكن الضريح بالعظمة التي عليها الآن، كان هناك المرقد والمقبرة حوله، وتعلو بعض القبور تماثيل أُسود، أظنّ أنّني كنتُ أحب الذهاب إلى المرقد لاعتلائها فقط.

كنت أرغب باعتلاء أحد تلك الأسود، فأشير إليه بإصبعي، لتُركبني جدتي عليه. وكنت أوكزه بعصا، وأتخيّله يسير بي، يسير ويسير حتى يرفرف شعري الطويل. بل كنت أخال ذلك الأسد يحلّق أحيانًا فأصرخ، وعندما يشعر بخوفي ينزل سريعًا، ويدور حول القبور ثم يعود إلى مكانه، فأشعر أني أصبحت أكبر!

لم أكن أدرك شيئًا مما حُفر على القبور، وكأني كنت أجدُ علاقة غريبة وخفية بين تلك القبور وامتطائي الأسد، والكلمات العربية التي يهمس بها الزائرون بالتشديد على حرفي «السين» و«الحاء»، والنقر بأصابعهم على القبور.

حينما انفجر مستودع الذخائر في «معسكر- 4» شيراز، كان الصوت رهيبًا، بثّ الرعب في قلوب الناس، فخافوا البقاء في بيوتهم، كأنّ بلاءً سماويًا قد حلّ بهم، وخشوا أن يتكرّر مرة أخرى.

فقرّر أهالي محلّة «مهدي آباد»، على الرغم من بعدهم عن مكان الانفجار مسافةً لا تقلّ عن كيلومترين، أن يلجأوا إلى مرقد «محمد» من سلالة الأئمة عليهم السلام في محلة «قصر دشت». وأخذوا معهم حاجياتهم من وسائل المبيت والأكل، وباتوا هناك ثلاث ليالٍ، إلى أن اطمأنوا أنّ كل شيء عاد إلى مجراه، ويمكنهم العودة إلى بيوتهم ومعيشتهم.

أما ذكرياتي عن تلك الأيام الثلاثة؛ فهي صورة جدتي وأبي وأمي

يلتصقــون بالمرقــد، ويتمتمون بكلمــات، ويتضرّعــون ويبكون، في حين كانــت خطوط النــور تتسلّل من السقف على الضريــح، وتنعكس بريقًا على دموعهم...

سُمّــي ذلك العــام بعــام الذخائر، حينهــا لم يكن النــاس يهتمون بالتاريــخ الرسمــي، فقــد كانــوا يُطلقــون على الأعــوام أسمــاء أبرز الحوادث الجارية فيها، فلكل عام اسم؛ عام الوباء، عام الزلزلة، عام السيــل، وهكذا، وقــد تمرّ أعوام من دون اسم، فتنســب لما قبلها أو ما بعدهــا؛ وذلك لقولهــم: عامان قبل عام الوباء، ثلاثــة أعوام بعد عام الجفــاف وهكذا، لذلك على سبيل المثال؛ لا يقولون ولد «محمد جعفر» عام 1948، بل ولد قبل عامين من عام الذخيرة!

علــى الرغم من صغر سنّــي، أحسستُ أن أسرتــي، خاصة جدتي، تحرص عليّ أكثر مــن المألوف، من دون أن أدرك السبب. عرفتُ فيما بعد أنّ لي ثلاثة إخوة هم: «أمان اللّه»، «محمد جعفر» و«محمد كاظم» وُلــدوا قبلي، أصابهم مرض مجهول في تلــك السنوات، وماتوا قبل أن يُتمّوا عامهم الثالث.

عندما ولدتُ أنا، تولّت جدتي أمري منذ الولادة، وتعهّدتني بالطب التقليدي لتُبعد عني الأمراض. خوفًا من موتي، صارت تصحبني معها أينمــا تذهب، وتهتم بــكل التفاصيل: أين أجلــس ومن يحتضنني ومن يلاعبنــي؟

ولهــذا السبب نفسه، لم يسمح والدي باقتراب الشفرة والمقص من شعــري، حتى بلغتُ السادسة. حتــى إنّي ما زلت أتذكر يوم ذهبتُ إلى المدرســة، لم تصــدّق معلمتي أنّني صبي حتى تأكــدت بنفسها. وقالت لوالدتي منبّهة:

عليكِ بحلاقة شعر غلام حسين، لا يصح هكذا.

منــذ ذلك الحين، أصبح اسمي الرسمي «محمد جعفر» فقد حملت هويــة أخي المرحوم «محمد جعفر». لكن والدتي بقيت تناديني باسمي الأصلي «غلام حســين»[1]. وحافظت أمي على كنيتها «أم غلام حسين» إلى أن توفّيت بعمر الثمانين.

أجابـت أمي المعلمة بقولها: «اسمحي لي أن أشذّب شعره فيما بعد، فأريــد أن يكون ذلك في مشهد تحت الميزاب الذهبي»؛ وهذا ما حصل بعــد الانتهــاء من الصــف الأوّل. عندما اطمأنت أسرتــي من مناعتي ضــدّ الأوبئة والأمراض، توجّهنا لزيارة الإمام الرضا عليه السلام في مشهد، وتحت الميــزاب الذهبي للحرم، شذّبوا شعــري الطويل، وقدموا بوزنه ذهبًا هدية للحرم بنيّة أن أبقى سالمًا.

وربمــا بسبب هذا التوسّل إلى الإمــام الرضا عليه السلام رُزقنا بعد ذلك بأخت وستة إخوة، لنصبح أسرة مكوّنة من عشرة أفراد.

وبالعــودة للحديث عن جدّتي التــي كان لها الفضل في زواج والديّ. فقــد كان لهــا جارة تستودع ابنتهــا الصغيرة عندهــا كلّما ذهبت إلى المدينة لمتابعة شؤون ولديهــا هناك. وكان لجدّتي ولدٌ يكبر تلك الفتاة بأربعــة أعوام، وكانا يلعبــان في طفولتهما معًا. ومنذ ذلك الحين أحب الصبيّ تلك الفتاة، وخطّطت جدتي لتزويجهما.

لذلــك عندمــا بلــغ ابنهــا ســن السابعة عشــرة والتحــق بالخدمة العسكرية، عرضت جدتي مسألة الزواج هذه على أم الفتاة التي كانت قــد بلغت الثالثة عشرة. ولم يكــن من والدتها إلا أن قالت: إنّها ابنتكم وأمرها بيدكم!

1- علمًا بأن أحد إخوتي الذي ولد بعدي سمّي غلام حسين أيضًا.

جدتي التي أثّرت كثـيرًا ‌في حياتي وحياة أهالي مهدي آباد غادرت الدنيـا عـام 1955 في فصل الربيع الـذي صار خريفًـا عندنا جميعًا. حينهـا، اسودّت الدنيـا في عيني. كنت حينهـا في السابعة من عمري، لكنـي عنـد دفنها كنـتُ مهمومًا وأبكـي كالكبار، بكيـتُ إلى درجة أنّ الجميع قلقوا خشية أن أموت لشدة حزني عليها.

بعـد موتهـا بأربعة أيام، لم أجـد ما يبرّد حزني سـوى التوجّه إلى «سبز بوشان»[1] ابن الامام المدفون عند قمة جبل «زيبا»[2] في جنوب شرق شـيراز. كانت طريقه وعرة تمرّ بين كثير من المرتفعات والمنخفضات، وحتى الآن، وعلى الرغم مـن كل الإمكانات الكثيرة والمتطوّرة، ما زال الوصول إليه صعبًا.

كانوا يقصدونه على الحمير التي تحمل كل ما يحتاجون، ويقطعون بتـأنٍّ ورويّة طريقًا ملتوية بعد أخـرى، حتى يصلوا إليه، فيقيموا عنده عـدة أيام، يقدّمـون الأضاحـي، ويتوسّلـون إلى اللّه بشفاعته لقضاء حوائجهـم، بينما يستغلّ الأطفال الفرصة المتاحة للّعب في الجو البارد بين الأشجار، وعند النبع.

زرتـه مرتين محمولاً على كتفـي جدّتي، لذلك شعـرت بعد فقدها أنّ حـزني الشديد عليها، لن يسكّنــه سوى زيارته. لكنّ مراسم العزاء المتواصلـة -وهي بخلاف العرف اليوم حيـث أصبحت مراسم العزاء تقتصـر على الثالـث والأسبوع- لم تسمـح باصطحابي إلى هناك. إلا أنّ شـدة بكائي وتململي زادت من مصابهم، فاضطرت أمي أن تطوي لأجلـي ذلك المسـار الصعب، وتأخذني إلى ذلك النبـع لأزور الضريح وأجلس تحت الأشجار.

1- ذو الرداء الأخضر.

2- جميل.

بعد وفاة جدتي، أتذكر أنّ والدي توقف عن العمل في البساتين، وشيئًا فشيئًا تولّى مهمة بيع الخبز في فرن أخيه الأكبر «صدر الله»، وبقي في عمله هذا مدة ستة عشر عامًا، حتى ابتُلي بأوجاع شديدة في ساقيه بسبب الوقوف المستمر، فظهرت الدوالي الغليظة فيهما، وتقاعد عن العمل.

كانت «ابتدائية مرداويج» هي المدرسة الوحيدة في منطقتنا، يقصدها أبناء الضواحي الأخرى للدراسة فيها. تابعت دراستي فيها إلى حين تأسّست مدرسة أخرى في محلة «قصر دشت»، حيث أكملتُ دراسة السنوات الأربع الأخرى، متحمّلًا عناء السير ذهابًا وإيابًا مسافة ستة كيلومترات يوميًا، لأتوقف بعدها عن الدراسة كالكثيرين من أقراني بسبب الفقر والفاقة، وضرورة مساعدة الأهل في تأمين المصاريف.

كان عمري حينها أربعة عشر عامًا، استأجرنا بيتًا في المدينة، وبحثتُ عن عمل في كلّ مكان، حتى سنحت لي فرصة لدى بائع فاكهة، قرب حرم «شاهتشيراغ».

بعد أيام من بدء عملي، زارنا أحد أقارب الوالد «قلي خان» عند الغروب، وبعد أن ارتشف آخر جرعة شاي قال لأبي:

- عزيزي «أمر الله» ألا تفكر بوظيفة رسمية لمحمد جعفر؟

وقبل أن يجيب والدي بادرته قائلًا: أي وظيفة هي؟

بدا أنّ السيد «قلي خان» انزعج من تدخّلي، ولم يعرني اهتمامًا، بل أجاب من دون اكتراث: لا أدري في الجيش أو الشرطة. ثم التفتَ إلى والدي قائلًا: يمكنني أن أزكّيه ليعمل حارسًا.

نظر إليّ أبي نظرة استفهام من دون أن ينطق بأي كلمة، ليعرف ما

هـو رأيي. هذه المرة جاء دوري لأتجاهل قلـي خان وأنظر مباشرة إلى أبي وأسأل: «هل يقصد الزعيم الإقطاعي الفلاني؟».

أجاب قلي خان بصوت مرتفع: «ماذا؟ بل قصدته هو بذاته».

لم أحـرّك عينـي عـن والـدي، وقلـتُ: «آه، لا تذكـر اسمـه، إنه لا يناسبني».

تبادل الجميع النظرات؛ كلّ منهم كان ينتظر ردّ فعل الآخر بالنظر أو الـكلام. فنظـرتُ إلى كل واحـد منهم وقلـتُ: «ما بكـم؟ إني أكره الزعماء الإقطاعيين وأخاف منهم».

لاحظت أنّ والديّ أطبقا على شفاههما خجلًا من ضيفهما.

أما قلـي خان الذي كان أحد الزعماء أيضًـا، وله نفوذه في عائلتنا الكبيرة، فقد احمرّ وجهه، وأخذ يفرك يديه بشدّة وقال: «سلمت يداك يا «أمر الله» على هذه التربية!».

عندهـا، أدركتُ أني تجاوزت الحدود، وأنـه لا يجدر بي البوح بكلّ مـا يجول في خاطري. وتداركتُ ما حصل بقولي: «عمي قلي خان، أنت تختلـف عن باقي الإقطاعيين، لم أكن أعنيـك بكلامي، لكني لا أرتاح لمثل هذا العمل... أقسم إنني أحترمك».

لم ينجـح هذا الـكلام والاعتذار في إنقاذ الموقـف أو التخفيف من حمـرة وجه قلـي خان الذي نهض وهـو يمرّر إصبع يـده اليسرى على شاربيه ليسوّيهما، وهو يردّد كلمات غير مسموعة، وبنصف وداع خرج من البيت.

## أول بقعة حمراء

لم يـدرِ صاحب المحل بماذا يجيبني، هـل أحضر غدًا للعمل أم لا؟ فقبل دقائق، عند الغروب، جاء رجل ذو لحية كثيفة، وتناول تفاحة من الصندوق، ومسحها بكمّه وقضمها.

- يا سيد قاسم، دع الأمر بيننا. غدًا كل الحوانيت مغلقة، ومن غير المناسب أن تفتح وحدك.

- لماذا ستغلق؟ من أمر بذلك؟

- اقـتربْ مني وأنصتْ... إنه أمر مراجع التقليد، قالوا: إنّ الكسب والعمل غدًا حرام، هكذا قالوا لنا! في أمان الله.

لم يقل لي صاحب العمل تعال غدًا أو لا تأتِ، وإن كان سيفتح المحل أو يغلقـه، والحياء لا يسمح لابن خمسـة عشر عامًا أن يسأل معلّمه في العمل هل سيأتي غدًا أم لا؟

لكني، من بـاب الاحتياط، طلبت من عامل الفـرن القريب أن يعدّ لي ستة أرغفة من خبز الـ«**سنگك**»[1]. كان الشاب صديقي ويقاربني في العمر، وكنتُ بدوري أعدّ له الفاكهة التي يريدها، وهو يهيّئ لي خبزي.

تلك الليلة، سألتني والدتي: ما الأمر، لمَ كل هذا الخبز؟ لم ننذر نذرًا! حينهـا، كنّا نشتري الخبز لـكل وجبة، طازجًا وساخنًـا. فأجبتُها:

1- نـوع من الخبز طولي الحجـم؛ يعد من القمح غير المقشور ويوضـع في الفرن على الحصى لينضج من حرارة الحصى.

«المحلّات كلّها ستغلق غدًا، ولن يكون في السوق خبز».

تعجبت أمي وتساءلت: «ما هي مناسبة الغد؟ هل هو التاسع أو العاشر من محرم، أم حلّ علينا الحادي والعشرون من شهر رمضان المبارك باكرًا؟!».

لا أدري، يقولون إنّ مراجع التقليد أمروا بذلك. لكنّي في الغد صباحًا لن أتمكّن من الغياب، فصاحب العمل لم يطلب منّي عدم المجيء.

لا أذكر أي يوم كان ولا أي شهر، كل ما أذكره هو العام 1963م. كان الجو حارًا يومها، أبكرت في التوجّه إلى المحل قبل الموعد المعتاد كل يوم، لعلّ حسّ الفضول عند الشباب هو الذي دفعني لمعرفة ما سوف يجري، وهل سيطيع كسبة السوق كلام العلماء أم لا؟

سرتُ في شارع الأحمدي ذهابًا وإيابًا. كان حضور الناس عند مدخل «شاه تشيراغ» مختلفًا عن كل يوم، كانوا يتحرّكون بشكلٍ يوحي بأنّ أمرًا ما سيحصل خلال الساعات القادمة.

عندما عدتُ للمرة الثالثة، وصل صاحب المحل. أخذ يسألني عن أبي وعمي وجدي وعدد إخوتي، أسئلة لم يطرحها عليّ سابقًا، كما إنّه لم يتحدث معي بهذه الحميمية. وكأنه أراد إمرار الوقت، ليرى ما سيحصل؛ هل سيفتح الباعة محلاتهم أم لا؛ لئلّا يُتّهم بأنه خالف كلام العلماء من أجل حفنة قروش.

خلال حديثي غير المعهود، لاحظت أنّ الساحة المواجهة للحرم اكتظّت بالناس، وارتفعت أصواتهم بالشعارات.

وبسرعة، سبقتُ صاحب المحل إلى هناك. بدا أنّ الحوض الذي يتوسط الساحة اختفى من شدة ازدحام الناس. لم أكن أعلم سبب كل هذا الزحام، لكنه جذبني لاكتشافه. كان بعض الناس يهرولون نحو الجامع الجديد، فسرتُ خلفهم، بينما دخل بعض أفراد الشرطة

بأسلحتهم من الباب الخلفي للجامع، بحالٍ من الغضب، وتوجّهوا واندفعوا نحو الناس الذين هرعوا هربًا من الجامع باتجاه الساحة.

لاحظتُ شابًّا عشرينيًّا يرتدي فوق ثيابه قطعة قماش بيضاء، وقد عقد أربطتها خلف ظهره، فسألتُ عجوزًا كان موجودًا بجانبي، يستند إلى عصاه: «أبي العزيز، ما هذه القطعة من القماش؟ لمَ يرتديها؟».

شرح لي أنّها الكفن، وهو يرتديه ليؤكد أنه مستعد للموت. لم يسبق لي أن رأيتُ من قبل إنسانًا يرتدي الكفن وهو ما زال حيًّا؛ لم أرَ ولم أسمع.

تقدّم شاب آخر يرتدي طقمًا وربطة عنق، وانحنى بين أقدام مرتدي الكفن، ورفعه عاليًا. استطاع الجميع، في تلك اللحظة، أن يروا صاحب الكفن الذي كان ينادي بصخب شديد، حتى إنّ شرايين عنقه برزت عن بُعد أمتار وباتت واضحة، أطلق شعارات ضد الشاه وأمريكا، وردّدها الآخرون. كانت الشعارات موزونة ذات قافية، ردّدها الناس بجدٍ وشدّة حينًا، وبابتسامة حينًا آخر. صاحب الكفن أطلق أربعة شعارات، لم يتمكن من تكرار كل منها أكثر من ثلاث مرات، فقد ظهرت سيارات الشرطة من جهة تقاطع شارع «الأحمدي»، وهي تطلق صفارتها متّجهة نحو الساحة، وقد أطلقوا بضع رصاصات في الهواء كانت كافية ليتفرق الناس قليلًا، لكن ما إن توقف إطلاق النار حتى عاد الناس إلى تجمعهم، بينما يصرخ أحدهم ويلتفّ الآخرون حوله.

كان بائع الزجاجات رجلًا أربعينيًّا، رأيته من قبل مرتين فقط، كان كباقي أصحاب المحلات هادئًا، لا يخطر بالبال أنّ رصاصةً ستصيبه بعد أيام وسيلفظ أنفاسه الأخيرة خلال دقيقة واحدة. أذكر أنّني تخطيتُ كل الجموع حوله لأصل إليه وهو يلفظ أنفاسه؛ كانت الرصاصة قد أصابت وجهه مباشرة.

لا أدري من الذي أحضر ذلك الباب الخشبي، ومن أين أتى به. بل

كيـف خطر بذهنه أن يُحضر كفنًا أبيض من أحد لابسي الأكفان ليلف بـه جنازة بائـع الزجاجات ويربطه كحبـة شوكولاتـه، ويضعه سريعًا فوق البـاب الخشبي، ليرتفع على أكتاف الجموع ويُشيّع من دون غسل باتجاه تقاطع الأحمدي.

بقع الدم الحمراء التي صبغت الكفن أثارت الحماسة في كل من رآها، لم يعد أحد يفرّ من سماع الطلقات في الهواء، والكل ينادي بقوة واقتدار: «الله أكبر، لا إله إلا الله». ويتزاحمون للمس الباب الخشبي، ذاك الذي كان لدقائق مضت لا يساوي شيئًا، وأضحى الآن نعشًا مهمًّا ومقدسًا.

حضـر العقيد «عزتي» من ضباط شرطة شـيراز. الجميع يعرفون هذا الاسم، وكثيرون يعرفون وجهه، وبعضهم يعلم أنّ هذه الرصاصات انطلقت بأمره. كان يريد أن يشهدوا له عند الأمير أنه حضر إلى مكان التظاهـرة شخصيًـا، لكنّـه ربما لم يمتلـك الخبرة الكافيـة ليعلم أنّ وجوده بين الناس بعد أن شاهدوا إراقة الدماء كان خطأً جسيمًا. فبين الشعارات الدينيـة والسياسية لتشييع الجنـازة، صرخ أحدهم بأعلى صوته: «ها هو ذلك اللعين عزتي داخل تلك السيارة».

فجـأة خفّ الزحام حول الباب الخشبـي، تناول كلّ متظاهر أقرب شيء وجده ليرميه نحو سيارة عزتي؛ أحجار، عصيّ، قوارير زجاجية محطّمة. لم يكن الجمع شخصًا أو شخصين ليسهل تفريقهم بطلقات في الهواء، ولا يمكن قتلهم جميعًا.

لن أنسى أبدًا رأس «عزتي» ووجهه الداميين، كان دمه مختلفًا كثيرًا عن بقع الدم التي لوّنت قطعة القماش الأبيض. حينها لم يجد حلًّا سوى الفرار والاختفاء في بيت خلف مسجد «بيت العباس». ولمّا هرب «عزتي» ترجّل سائقه ولاذ بالفرار هو الآخر نحو زقاق ضيّق في «شارع الأحمدي». في ذلك اليوم، كانت المرة الأولى التي أشاهد فيها القوات التي سفكت

دمًــا حرمًا عن قرب. فقد تقــدّم أربعة شبان مدنيّــين وأمسكوا بسيارة العقيد «عزتي» ليرفعوها، فساندهــم جمع آخر حتى قلبوها، وبعد ثوانٍ ابتعد الجمع عنها وتعالى صوت «اللّه أكبر» وهم يشاهدونها تحترق.

كانت الحماسة شديدة إلى درجة أني لم ألحظ أين أصبحتْ جنازة الشهيد بائع الزجاجيات، وإلى أي شارع وصل بها مشيّعوها.

تقدّم شخصٌ تلك الجموع وأطلــق شعارًا ردّده الآخرون خلفه، إلى أن وصلنــا نحو مدخل «سوق الوكيل»؛ من بين كل المحلات المقفلة، كان هناك صرّاف يُدعى «رجب علي» داخل محلّه المشرع. لم يدع مجالًا لأن يعترض عليه أحد، لأنّه تقدّم أمام الجموع وبرّر موقفه قائلًا: «هناك حسابــات للناس متبقية.... لستُ كلبًا لأحــد لأخالف كلام السيد، ها أنا ذا أغلق محلّي».

كان خائفًــا لدرجــة أنــه أغلق محله مــن دون أن يطفــئ الأضواء. أضحكني تصرفه، وسررتُ كيف أن «رجب علي الصراف»، الذي كنت أسمع أنّه إنسان متكبّر لدرجة أنّه من بين ألف سلام يجيب على واحد فقط، ها هو قد شعر بالحقارة أمام قدرة الناس.

خلال يوم واحد، أحسست أنّني – ابن الخمسة عشر عامًا – كبرتُ عدة أعوام، ولم أفعــل شيئًا سوى أنّني سمعت ورأيت. فقبل أن أساعد في قلب سيارة أخرى وإحراقها، وتشييع جنازة، سرتُ مع الجموع حتى وصلنــا إلى تقاطع «زند»، ثم إلى تقاطع «مشير» حيث محل المشروبات المحرمــة الــذي لم يمتلك صاحبه ذكاء «رجب علــي الصراف» ليعتذر قبــل أن يعترضوا عليــه، أو أن يعدهم بإغلاق المحل؛ كان محله يشتعل بالكحول كمستودع البارود، وسرعان ما تحوّل إلى فحم.

لم تبق الشرطة مكتوفة الأيدي، بل أصابت أكثر من عشرة أشخاص بالرصاص، وتفرّق الجمع. عدتُ ظهرًا إلى البيت ورويتُ لوالدي كل ما

جرى بتفاصيله وبحماسة شبابيّة لم أعتدها.

عصر ذلـك اليوم، اختفت الشعارات والحماسة والتجمعات، وكأنّ كل ذلك كان حلمًا رأيته في المنام، أو كأنّي شاهدت رواية في فيلم. كان يقف عسكريّ كل عدة أمتار، قوات الدرك والشرطة والجيش اجتمعت لتمنـع الطائر من أن يرفرف من دون إذن الحكومة. بات اجتماع أكثر من شخصين ممنوعًا.

لم أطـق البقاء في الشارع، وعلى الرغم مـن أنّ المحل مغلق، ولديّ الفرصة للسير والاطلاع، إلا أني عدتُ إلى البيت قبل الغروب.

لم أستطع النوم حتى انتصف الليل، فصورة القماش الملطّخ بالبقع الحمـراء ظلّـت ماثلة أمامي. أخـذتُ أفكّر كيف يمكنـني رؤية الناس الذين انتفضوا اليوم ثانية، ثقلت عيناي واستغرقتُ في نوم عميق حتى الصباح لأتوجه نحو المحل...

بعد أيـام من تلك المواجهات، ألقى آيـة الله دستغيب[1] خطبة قوية ضـد النظام والدعم الأمريكي له، وحـول مظلومية المرجعية الدينية، وتكـريم شهداء المواجهات، فكانت سببًا كافيًـا لاعتقاله هو وعدد من العلماء الثوريّين.

ظـنّ النظام أنّه باعتقالاته هذه قد قضى على التحرّكات الشعبيّة، في حين أنّ الخلايـا الأوّلية لمواجهة النظام الملكي كانت تنظّم من قبل العلمـاء والشباب، ويلتحق بهم اليافعون من عمري لينتقموا لبقع الدم الحمراء تلك.

1- آيـة الله السيـد عبد الحسين دستغيب، ولد في شيراز عـام 1909م ، بدأ جهاده بالتزامن مع نهضة الإمام الخميني عام 1963م، وكان السبّاق في الجهاد بمحافظة فارس، بعد انتصار الثورة الإسلاميـة عام 1979م عين إمام جمعة لشيراز، كان هـذا العالم المجاهد الصبور معلم أخلاق ومهـذّب نفوس كما قـال عنه الإمام الخمينـي، استشهد يوم الجمعـة 1981/12/10م عند توجهه نحـو الصلاة، استشهد مع ابنه وتسعة ممن كانوا معه ومن مرافقيه إثر تفجير انتحاري لجماعة المنافقين (مجاهدي خلق) الإرهابية.

## البداية بعد النهاية

أجابني: «افتح يا بني»، فعرفته.

قبل الغروب ومع حلول الظلام، قلت في نفسي: «ماذا يريد المختار في هذا الوقت؟». فتحتُ الباب، فكرّر عبارة «يا الله» ودخل. كان أبي قد توضّأ ليذهب إلى المسجد للصلاة، لا تزال يداه ووجهه مبتلّين بالماء، استقبل السيد «زيبايي»، وبعد السلام والاطمئنان إلى الأحوال، جلس المختار في زاوية البهو على حافة الحوض، وأخذ يحرك الماء بيده.

- الحمد لله على السلامة يا «أمر الله»، كيف كانت إقامتكم في شيراز خلال هذين العامين؟

كان في كلامه إشارات ومزاح. فأجابه والدي بنفس اللهجة: «مكانك خالٍ. لم يكن ينقصنا سوى مختار».

بدت على وجه المختار علامات الجدّ حينها، ودخل في صلب الموضوع مباشرة: «أتيتُ لأقول لك إنّه قد مضى عامان على موعد تجنيد ابنك جعفر، وحان الوقت ليذهب ويلتحق».

ما إن سمعتُ كلام المختار حتى اهتزّ بدني وانقبض صدري. سوّى أبي أكمامه، وطأطأ رأسه. وجلس على زاوية أخرى من الحوض وردّ عليه: «عدتَ للحديث عن التجنيد مجدّدًا يا مختار؟ لا يزال طفلًا، لم يبلغ السابعة عشرة بعد».

أزعجنـي كلام أبي. بينمـا المختار ما زال غاضبًـا من كلامي قبل سنتين، تبسّـم بمرارة وقال لأبي: «عندما مـات ابنك رفضت أن تُلغي هويته لئـلّا تدفع خمسة تومانات، وتركتها لابنـك هذا، كان عليك أن تفكّر في مثل هذا اليوم، لا بدّ أن يذهب إلى التجنيد، وأن يتزوّج أيضًا».

في «مهـدي آباد» عندما يولـد الطفل يجب أن تدفع خمسة تومانات للسيد «زيبايي» هذا ليؤمّن له هوية. لكن والديّ رفضا دفع ذلك المبلغ، فقـد كان كبيرًا حينها، لذلك احتفظ بهوية أخـي المتوفّى لتصبح لي، لكنّه كان يكبرني بخمس سنوات، وكانت ولادتي عام 1948م بينما كان تاريخ الولادة في الهوية 1943م.

كان المختـار قـد طرح الموضوع نفسه قبل عامـين، حين كان عمري خمسة عشر عامًا فقط. يومئذ حضر إلى البيت وقال لي: «أخبر أباك أنّ اسمك ورد في اللائحة، يجب أن تذهب إلى التجنيد».

فسألته حينها: أنا أم أبي؟!

فاغتـاظ مـن جوابي قائلًا: «لا تمـزح مع من هم أكـبر منك سنًّا، طبعًـا أعنيـك أنت». ثم صمت وهمّ بالمغادرة، لكنّـه بعد أن مشى عدة خطوات التفت وصاح: «سآتي غدًا صباحًا بطلبك، كن جاهزًا!».

في اليـوم التالي، ذهبـت برفقة المختـار وأحد أبنـاء المحلة، الذي كان عمـره أدنـى من العمر المذكور في بطاقة الهويـة أيضًا، إلى مركز التجنيد الإجباري.

مـا إن رآنا الضابـط السمين ذو الشارب الكبير الـذي كان جالسًا خلف الطاولة، حتى قال: ما هذا الذي أتيت به؟

فأجبته ببساطة الأطفال: سيدي، احسبنا معًا جنديًّا واحدًا.

فضحـك الضابـط وخاطب المختار قائـلًا: أيها المختـار يبدو أنك

أخطأت المكان، لسنا في مدرسة ابتدائية!

بعد مضي عامين، يبدو أنّ المختار لاحظ زيادة طولي وقرّر أني أصبحتُ مناسبًا للتجنيد، فجاء ليصطحبني. بينما لم يصدّق أبي أنّه حان وقت تجنيدي، فكان يجيب المختار مستبعدًا ذلك. إلا أنّ السيد «زيبايي» لم يكن يصغي إلى كلامه؛ بل قال: «يا أمر الله، هويته تقول إنّ عمره اثنان وعشرون عامًا، ما علاقتي إذا كنت لا تريد أن تصدّق أنّ ابنك قد كبر؟!».

عندما ذهب المختار، تنفس والدي بعمق وقال: «يبدو أنه لا مفرّ من ذلك، اذهب وجهز نفسك، عليك الذهاب إلى التجنيد».

وفي اليوم التالي، أظنّ أنّه كان الأوّل من شهر تموز 1965م، يومها سرتُ مع اثنين من أبناء المحلة إلى المخفر، ومن هناك إلى مقر درك شيراز. فأرسلونا سريعًا لتلقّي دورة لمدة شهرين في «جهرم». وبعد انتهاء التدريب التحقنا بالفرقة المدرعة الثامنة لخوزستان، تسمّى حاليًا الفرقة (92)، فأرسلونا من هناك إلى لواء دزفول(24) المدرع للخدمة العسكرية لمدة عامين.

حصلت معنا حوادث كثيرة في «جهرم»، لكن أكثرها إثارة هو ما حصل مع ضابط الصف لكتيبتنا. كان أستاذًا بارعًا في كيل الشتائم والكلام القبيح واللعن، بسببٍ ومن دون سبب، كان يبحث عن ذريعة ليُسمع الجنود كلامًا سيّئًا، بدا لنا كأنّه مَن اخترع الكلام البذيء والشتائم، كان فمه يلوك عبارات عجيبة غريبة ويطلقها، مما لم نسمعه من قبل.

كان من ضواحي «جهرم»، له شارب كثيف، وشكل مفزع، ما إن تراه حتى تقشعرّ فزعًا منه. وكان يُتبع كلامه البذيء برفسة لا تذر لأحد

كرامة! والأسوأ من ذلك، مكانته؛ فقائد معسكر التدريب يهابه ويحسب له ألف حساب، ولا يحاسبه على أي خطأ، ربما لأنه لا يستطيع ذلك!

أذكـر تلـك الأيام، فأكثر مـا كان يسيطر على الشبـاب هو الجهل والابتـذال. حينها كان التدريب يشكّل فرصة لتقويم السلوك الخاطئ، لكن ضابط الصف هذا بكلامه البذيء، أغلق تلك المنافذ.

في ظهـيرة أحد الأيـام الحارّة، كنّـا مجموعة من الجنـود نتبادل الحديـث، وإذ بضابط الصف يدخل المعسكـر بدراجته الهوائية. وما إن رآنـا جالسـين معًا حتى عبس وتقـدّم نحونا، وقبـل أن يتوقف رفع رجله عن الدراجة ليترجّل عنها، لعلّه فرّغ غضبه ببعض الشتائم، لكنّ حذاءه العسكري «البوتين» علق بسلسلة الدراجة فسقط وعلا صراخه بقوة. تلوّى حـول نفسه كالثعبان المجـروح، إلى أن وصلنا إليه، فرفعه الحراس، ونقلوه بسرعة نحو سيارة الجيب، وأخرجوه من المعسكر.

في اليـوم التالي، عند الاجتماع الصباحي، أُبلغنا أنّ مقود الدراجة أصاب عين الضابط اليمنى، مما اضطرهم إلى إبقائه في المستشفى.

بعـد عشرة أيام، انتهـت الدورة التدريبية، وبـدأت مراسم خاصة بالجنـود، وقفنا بالصـف لتسلّـم رسائلنا، وإذ بضابـط الصف يطلّ بعينـه المضمّدة، ولكنّه ما لبث أن تسمّـر في مكانه وأطال التحديق بنا جميعًـا، كنّا ننظر إليه بدورنا، كان من الصعب علينا أن ننسى سلوكه المشين، لذلك صارعنا تردّدنا؛ هل نتقدم نحوه أم لا؟ وإذ بأحد الجنود يتحـرك ويكسر جمود الموقف، تقدّم نحـوه، فَلَحِقْنا به. عندما تحلّقنا حولـه، قام بعض الجنود بتقبيله، حينها فقط لمحنا بضع قطرات دمع تسكبها عينه اليسرى!

في مدينـة «دزفـول»، لديّ ذكريـات أيضًا عن عامـين من الخدمة

العسكريـة، مــا زلــت أخشى البوح عــن أيامهــا. فالحديــث عن تلك السنتــين المليئتين بالحوادث والقصص يتعبني؛ الجو المغلق للمعسكر، وجـوه القادة القاسية، تجـبرّ ضابط الصف، الغربـة والوحدة، كانت القصة المشتركة بين جميع الجنود.

لم يكـن التدريب العسكري القاســي والتمارين الشاقة سوى وسيلة لترقيـة الرتب العسكرية أكثر مما تنفع وتقوّي. عن ماذا أتحدّث؟ هل أتحــدّث عن المنامات الموحشة والاستيقاظ ليلًا، والهموم التي لا تغادر الجنــود أبدًا؟ لــن أستطيع اتّهامهــم بطريقة سيئة جــدًا، فبذلك قد أجانب الإنصاف، لكن لم يصدر عنهم شيء يمكن أن أصفه بالحسن. ربمــا لم يكن الأمر بإرادتهم، فقد تلقّوا تربيــةً عسكريةً خاصة جعلت من الجندي دابّة، يمكنهم أن يحمّلوا عليه ما يشاؤون.

مــن النــادر أن تجـد بينهم أحــدًا ليّن الطبـع، سهـل العريكة. من الصعـب جدًا أن تنسى المحتالين والمتملّقين هناك، الذين يرون كلّ مَنْ هــم أعلى منهم آلهةً، وكل مَنْ دونهــم درجة عبيدًا لا قيمة لهم. سأدع كل ذلك، وأكتفي بالإشارة إلى بعض الحوادث التي أظن أنها أدّت دورًا هامًا في تكوين نظرتي إلى المجتمع حولي وفي الجهاد الثوري.

رافقتنــي صورة تلك البقع الحمراء إلى الخدمة العسكرية، لأذهب بحــوادث عام 1963م ومواجهات شيراز، التــي أولدت داخلي وعيًا بما يــدور حولي، وبتّ لا أصدّق كل ما يُقال ببساطة، بل كنت أدقّق أكثر في أي حدث.

ففي الأيام الأولى، سمعنا أنّ عدة ناقلات جند أمريكية تمّ تسليمها إلى فرقــة خوزستــان، وإنّ أوّل نقطــة لتجربتها هي لــواء دزفول. بعد عــدة أيام، شاهدنا ناقلة جند (ملالة) واحدة تدخل المعسكر من دون أن تتوقّــى شيئًــا، وتتخبّط كأنها لا تبصر أمامهــا، كما بدت كأنّ أحدًا

مـا يطاردها، فقـد اقتلعت في طريقهـا نصف البـاب، وحملته معها. فيمـا انفجر الجنـود وضبّاط الصـف بالضحك، لكنّهـم سكتوا عند مشاهدتهـم نائـب اللواء أي العقيـد «خزائي» وهو يخـرج غاضبًا من ناقلة الجند بهيئة غريبة؛ لأنّهم يعلمون أنّه لن يتورّع عن فعل أي شيء لشفـاء غليله وتفريـغ غضبه. لكن هيبة الموقـف لم تمنع ضابطين من ضباط الصف من شتمه همسًا بينهما.

بعـد عدة أيـام من هـذه الحادثـة، أعلن قائـد اللـواء في المراسم الصباحية أنّ ضيفًا عزيزًا سيحلّ علينا من الولايات المتحدة الأمريكية، وعمّـم علينـا منع الخروج مـن المعسكر مـدة أسبوع. إنّـه شاويش من الجيش الأمريكي جاء يشرف على وضع ناقلات الجند تلك.

تعلّمنـا خلال الدورة التدريبية أن الرتـب والدرجات في العالم كله تتبـع قانونًا واحـدًا، وعلـى صاحب أي رتبـة أن يحترم مـن هو أعلى منـه رتبـة، في حين رأينا ذلك اليوم أنّ علـى ضباطنا أن يؤدوا التحية لشاويش!

كانت هذه الإهانة سببًا لغضب ضباطنا طيلة الأسبوع. كان الجميع منزعجًا من جهل ذلك الشاويش الأمريكي وسلوكه المتكبّر.

بعـد أربعة أشهر مـن خدمتنا في المعسكر، سمعنـا أنّ اثنتي عشرة طائرة مقاتلة وصلت إلى «قاعدة وحدتي الجوية» الملاصقة لمعسكرنا، لإجـراء تجربة دفع الطيـار إلى خارج الطائرة. أذكـر أنهم قالوا أنها تعمل على ثلاثة أنظمة، وعليهم أن يحدّدوا أيّها أفضل.

الأول؛ إطلاقـه إلى الخـارج بانفجار، والثاني؛ عـبر رفاص دافع، والثالـث؛ عبر الغاز. لكن ما حصل كان حادثًا مؤلمًا جدًا؛ لأنه لم تفتح أي من قمرات القيـادة للطائرات الاثنتي عشرة، وقتل أربعة وعشرون

طيــارًا ومساعد طيار مــن طيارينا. لكن أصداء هــذا الحادث خُنقت سريعًا قبل أن تتسرب إلى الناس.

كان أمــرًا مؤلمًــا لنا، وصُدمنا بشــدة حين اتضح لنــا أننا أصبحنا حقلًا للاختبارات العسكرية الأمريكية.

حينهــا أحضــروا هواتــف أمريكيــة، وتوليتُ بنفســي الخدمة على أحدها. كان السبب زيارة شقيق الشاه للفرقة المدرعة، وقد يزور لواءنا أيضًــا. فقدموا لنا مجموعــة أسئلة وأجوبة جاهــزة، أمرونا بحفظها خلال يومين لنتمكّن من الإجابة فورًا عندما تُطرح تلك الأسئلة.

مثــلًا؛ إذا سألــوا: ما هو هذا الهاتف؟ علينــا أن نجيب: إنه هاتف يدوي أمريكي يا سيدي، وقد تمّ شراؤه للجيش الملكي خاصة سيدي.

كنــا نشعر بالإهانــة من تكرار تلك الكلمــات: «سيدي، أمريكي» في كل الأجوبــة، وكان ذلــك يعذبنــا، وحين علمنا أنّ أخــا الشاه لن يأتي، حُلّت عقدة الجنــود وصاروا يسخرون ويضحكون مع كل كلمة «سيدي» و«أمريكي».

في أواخــر مرحلة التجنيد أيضًا، أثناء الاصطفاف صباحًا، وخلال المراسم أخرجوا عدة سراويل أمريكية، واستعرضوها أمامنا، وتحدّثوا عــن خصائصها. تبادلنا نظرات التعجّب لأننا نعلم جيدًا أنها من نوع الملابس التي سنُجبر على تجربتها.

بــدأ ضابط الصحة بالتوضيح: إذا تعرّضت لجرح خلال المناورات عليــك أن ترتــدي هذا الســروال، إلى أن تصل سيــارة الإسعاف، وأن تُغلــق السحــاب إلى الأعلى حتى يضخ الدم من القســم السفلي للبدن إلى القســم العلوي، بهذا الشكل تجري تغذيــة القلب بالدماء، لتتمكّن مــن الصمود لمدة ساعتين حتــى تصل إلى المستشفــى. وعندما أبلغنا

أحـد جنود الصحة بسعره، أدركنا كـم ينهبنا الأمريكان. كانت قيمته مئة وخمسين تومانًا، حينها كان بإمكانك شراء ثلاثة بيوت بهذا المبلغ في شيراز!

والعجيب فيما بعد أنني خلال مرحلة الدفاع المقدس كنتُ كلما سألت أحـدًا من قادة الجيش عن تلك الملابـس، كانوا يقولون ليس لدينا مثل ذلك في المؤسسة، بل كانت نظراتهم تقول يبدو أن السيد أسدي يهذي!

ظهـر يوم الخميس مـن صيف عام 1967م، سلّمـوني ورقة تصفية حسـاب تجنيدي، وخرجـتُ من المعسكـر. أحسسـتُ أن بدني كقطعة حديـد كانـت قـد وضعت لمدة عامـين تحت أشعـة الشمـس مباشرة، وستنفطر بمجـرد أن أغسل وجهي. قرب المعسكـر هناك حنفية ماء، مـلأتُ يـدي وغسلتُ وجهي، لكنّ المـاء سرعان ما تبخّـر ولم يبق منه أثـر... بعد مضـي ساعة، كنت في موقف حافـلات دزفول، أحمل على ظهري حقيبة سوداء وأنظر من حولي، منتظرًا حافلة شيراز.

## بيت الكويت

عندما صعدنا من الغرفة السفلى للعبّارة، لم نر أثرًا لليابسة، لا شيء حولنا سوى البحر والسماء، والماء يحيط بنا من كل جانب، لا أذكر الوقت تمامًا، إلا أنني أظنّ أنها الساعات الأولى للظهر.

قال القبطان: «لا تنظروا إلى المياه كثيرًا كي لا يصيبكم سوء». لكن ما إن أتمّ كلامه حتى أحسستُ بالدوار، فجلستُ في مكاني. بينما كان ثلاثة بحارة يتناوبون على الصيد، أحرقت وجوههم الشمس وقد رموا شبكة صيد السمك في الماء. لم يكن الأمر من أجل الصيد فحسب، بل ليشكّلوا غطاءً لوجودنا معهم وسط البحر في حال باغتتنا الشرطة البحرية.

عندما أنهيتُ الخدمة العسكرية، كنتُ بانتظار عدة أشهر لأبلغ السنّ الحقيقية المناسبة للالتحاق بها. كان الوضع المعيشي لأسرتي ضيّقًا، فتوجب عليّ أن أعمل. كنتُ أتمنى لو أن أخوتي الأكبر مني كانوا أحياءً! فعددنا كبير، وأبي يعاني ليؤمن مصاريف البيت، ربما كان ذلك سبب عودتنا إلى مهدي آباد تاركين شيراز قبل التحاقي بالخدمة العسكرية من جديد.

في الحقيقة، خلال السنتين اللتين قضيناهما قرب مركز المدينة، كنّا نعيش في بيت مستأجر في محلة «زير طاق ميرزا جوني»[1]، كان بيتًا من طراز قديم، لا تزال توجد على نسقه بعض البيوت في المحال

1- محلة في وسط مدينة شيراز قرب حمام الحكيم العام.

القديمـة لشـيراز. تتوسّطه باحة كبـيرة، تتوزع منها عـدة غرف، كل غرفـة تُؤجـر لأسـرة، فيما يحظـى صاحب البيـت بالزاويـة الأفضل والأكـثر دفئًا. وكنّـا سبع عائلات نتشـارك البيت، بينمـا يقطن على السطـح السيد «يعقوبي» المشهـدي، لنصبح بذلك ثماني أسر. أحببنا ذلك البيت كثيرًا، لكننا لم نمكث فيه كثيراً.

قبـل ذهابـي إلى التجنيد عـام 1964م، عدنا إلى مهـدي آباد. في الحقيقـة لم تكن المشكلة مشكلة المعيشة فقـط؛ بل كان صاحب البيت يستغـل كل مناسبة ليتذرّع بها ويطل برأسه من غرفته ليلوم الجيران. قد تكون ذريعته تأخير دفع الإيجار، أو ارتفاع أصوات الأولاد، أو صوت الأبواب... وكما يقول الشيرازيون: «إنّه يتمتم ويتذمر».

لا تزال حـدّة صوته تطنّ في أذني: «أنت، لقـد حطمت الباب، فهو ليس لأبيك لتحرص عليه. عليك غدًا جمع أغراضك والرحيل....».

رحـم الله والدتـي، كانت مـن النساء اللواتي تختـزن كل الآلام في صدرهـا ليبقى زوجهـا وأبناؤها يعيشون في راحـة. لذلك، كلما ارتفع صـوت صاحب البيت صارخًا علينا، كانـت تجيبه: «حسنًا يا حاج، لن يتكرر ذلك».

عندما عدتُ من الخدمة العسكرية، كانت أسرتي لا تزال تسكن في مهدي آباد. فشمّرتُ عن ساعديّ، واستعددت لمساعدة أبي والتخفيف عن كاهله، فأنا الابن الأكبر للأسرة، والكل يتوقع مني ذلك.

كان الحـاج «نصيري» من كبار المالكين للبساتين في «قصر دشت»، وكان مستودعـه آخـر مقصـد لي للعمل، فبـدأتُ عملي فيـه، أقطف الحمضيـات والفواكـه الصيفيـة، نعلّبها ونختمها لتصـدّر إلى الدول الخليجية.

كان طموحي كبيرًا، فكلما مارستُ عملًا وكسبت مالًا، كنتُ أمتطي

فرس الخيال، فأسرح بذهنـي إلى ذكريات بيتنا المستأجر في شيراز، وأحدّث نفسي وأقول: هل سأتمكن من شراء بيت لوالدي؟ لكني عندما قدّرتُ أنّ عشرين عامًا من العمل في مستودع الحاج نصيري لن تحقق لي ذلك، وتناهى إلى مسمعي ما يتناقله العمّال من مسألة تأمين كلفة السفر إلى الكويت. وكلّما اقتربتُ منهم، بتُّ أحلم مثلهم بالسفر أيضًا.

ومنـذ ذلك الحين، سكنتني فكرة السفر، كحال هؤلاء العمّال، فقد اعتدنا عندمـا نمسك بالكيس لنملأه بالبطاطـا أو البصل، أو عندما نلصق أطراف صناديق الفاكهـة بعضها ببعض أن نتخاطب: « تحرك يا أخي، آخر السنة سنكون في الكويت. إن شاء اللّه».

تلـك الفكرة ملأت كياني، حتى عدتُ لا أتغيب عن عملي في أي يوم عطلـة، ولا عندمـا يصيبني مرض، حتى استطعـتُ أن أجمع في آخر العام خمسمئة تومان. فتوجهت إلى السمسار محمود الذي يدير عملية السفـر إلى الكويت، دفعتُ له خمسمئة تومـان قبضها في إيران، فيما بقـي مبلـغ (ألف تومان) مؤجّـلًا يقبضه في الكويـت، حررت بموجبه سندًا ماليًا ممهورًا بإمضائي.

وتهيّـأت أسرتـي للفـراق وأن لا تـراني ثانيـة في إيـران، فـكان الـوداع سهلًا، جُلّه بعضـ البكاء من والدتي وأختـي، وتقديم الوصايا والتحذيرات من أبي، وملامح قلق من عيون إخوتي.

كنا عدة أشخاص مسافرين، تمّ نقلنا إلى مدينة «بوشهر» السـاحلية، وسكنّـا بيتًا شديـد الرطوبة، لا تدخلـه الشمس، ومكثنـا فيه بانتظار تحديد موعد الرحيل، وأيّ رحيل ذاك حيث لا أثر للسمسار محمود ولا للكويـت؟! في النهار نحدّق بالبحر وفي الليل نحلـم بالكويت. كنا نعلم أن عائلاتنـا تنتظر رسائلنا مـن الكويت لا العودة من «بوشهر»، لذلك لم نكـن نفكر بالعودة أبدًا. فيمـا قيّدَنا القلق من الذهاب وعدمه، ولم

يسمح لنا بالعمل ليخفف عنا قلق الانتظار. تخلّينا عن كل شيء بحثًا عن السمسار، لكن يبدو أنه قد تبخر وطار، وعندما ضاقت صدورنا من الغربة والقلّة، لم نجد بدًا من العودة إلى مهدي آباد.

من جديد، يوم جديد. أموالنا تبخّرت، لكن أملنا بقي حيًا. عدنا لنعمل مجددًا في مستودع الحاج «نصيري»، وبين الحين والآخر نبحث عن السمسار لنحاول استرداد أموالنا.

ستة أشهر قضيناها على هذه الحال، حتى استطاع أحد الأصدقاء الإمساك به، وأصبح ماثلًا أمامنا. أفرغ كلٌّ منا ما في قلبه في وجه السمسار، وطالبناه بأموالنا. أخذ يتذرّع ليبرّر سبب اختفائه: «انشغلتُ، سقط ابني في الماء المغلي، دمرت حياتي»... وطلب منا مهلة ليعيد الأموال إلينا.

الجميع كان يريد استعادة المال، بينما أنا كنت أفكر في السفر. فذهبتُ إليه برفقة أحد أبناء المحلة «سيروس جعفري» وقلنا له: «المال لن ينفعنا، أوصلنا إلى الساحل الآخر». فوعد بنقلنا. وبعد أربعة أشهر، وفى بوعده ونقلنا إلى مدينة «عبادان»، ومن هناك إلى أطراف نهر القاسمية والبشاشرة. وفي الليل انتقلنا بسيارات نقل الأغنام، حيث وضعوا قاطعًا خشبيًا في الوسط، والأغنام فوقه ونحن تحته. أما كيف كان وضعنا تحت أقدام الأغنام، فلا داعي لشرحه...

بتنا ليلتين في إحدى القرى حتى يكتمل عددنا، ثم ركبنا العبّارة، وسارت بنا في نهر نحو البحر. وفي ظهر اليوم التالي، خرجنا من أسفل العبارة، لنجد أنفسنا وسط البحر.

سمح لنا القبطان أن نخرج لعدة دقائق، ثم طلب منا العودة إلى الأسفل وأغلق الباب علينا، وقال: «عليكم بالصبر فسيتحقق حلمكم ليلًا». أذكر عينيه الذابلتين، كانت نظراته الجامدة تقذف الخوف

إلى قلوبنا.

وقد خطر لي قبل السفر أنه قد يرمينا في البحر لنكون من حصة الحيتان، لكني الآن بعد أن كثر عددنا لم أعد أخشى القبطان والبحارة. وإن كان يبدو عليهم منذ البداية أنهم يخاطرون لتحصيل رزقهم، وأنّ مصيرنا واحد.

ليلًا، نادونا لنصعد، كانت الأنوار تلمعُ من بعيد، قال القبطان: إنها فيلكة من الجزر الكويتية. عند منتصف الليل، كنا نقف على بعد خمسين مترًا من الساحل، فأنزلونا بسرعة، حيث ينتظرنا عند الساحل مجموعة من الأشخاص ليقوموا بنقلنا بواسطة سيارة شحن صغيرة. سررنا، إذ لن نُترَك وحدنا في هذا البلد. قال أحدهم: «علينا أن نعمل لمدة شهر حتى ندفع لهم الألف تومان المتبقية بذمّتنا».

لم تكن الكويت وشهرتها وثقافة أهلها كما وُصفت لنا. لكن، وجدنا في الحقيقة أناسًا حديثي العهد بالنعمة، ينظرون إلى المهاجرين كأنهم عبيد. جعلهم المال والثراء من دون تعب متجبّرين، يصعب التعامل معهم، لكن كل ذلك لم يردعنا عن إكمال طريقنا.

كنّا نظن أننا سنجد حلًّا للمصاعب التي عجزنا عن إيجاد الحلول لها في مجتمعنا وقد حالفني الحظّ حيث حللت، فقد تعاملتُ مع معلّم شريف، أصبحتُ مساعد قصّاب أتعامل مع الجلد واللحم والعظم.

كنتُ نشطًا وذكيًا. فدورة الخدمة العسكرية وتمرّني في قاعة الرياضة في المعسكر على المصارعة، مكّناني من ممارسة هذه المهنة باحتراف، فكنت أذبح الخروف، وأسلخ جلده، وأحمل لحمه ليرضى عنّي صاحب العمل، ويدفع إليّ أجري في الموعد المحدّد.

كنت أكتفي بصرف القليل من أجري، لأوفر الباقي، لعلّي أحقق حلمي الذي رافقني لعدة سنوات. علمًا أنّي رأيت في الحلم كيسين

ممتلئين أيضًا!

تفاعلتُ مع العمل جيدًا، بحيث لم أعد أهتم لحرارة الطقس نهارًا، ولا أدلّل نفسي كما يفعل الكويتيّون فيتنعّمون بكل الكماليّات مستهلكين نفطهم، تاركين العمل لغيرهم، ويشمخون بأنوفهم إلى عنان السماء.

أتنــاولُ فطورًا من الخبز والجبنة، وأتوجه إلى عملي لأهيّئ الدكان قبــل وصول معلّمي، وأتناول ليلًا عشــاءً خفيفًا وأنام، وعندما لا أشعر بالتعــب كنتُ أتقلّب يمنةً ويسرةً أو أسير هنــا وهنـاك لأبعد عن نفسي ألم الغربة والبعد عن الأسرة، وأخفّف من دموعي.

مضــت ثلاث سنوات، استطعتُ خلالها أن أحوّل لأبويّ ثلاثين ألف تومــان، مــا مكّنهم من العودة إلى شيراز، وشــراء بيت من طابقين في محلــة جــادة «كازرون»[1] بمبلغ ستين ألف تومان، دفعــوا نصفها نقدًا، على أن يدفعوا الباقي خلال عام.

كانت الرسائل حينها صلة الوصل بين الإيرانيين المقيمين في الكويت مع أهاليهم في إيران، فالحديث عبر الهاتف كان محدودًا جدًا، وإذا توافرت لا ندري بمن نتصل في إيران، فلم يكن هناك هاتف في محلة «مهدي آباد»، وليس لدي من أعرفه في شيراز ليخبر أهلي فأتحدث إليهم. فبقيتُ أقتصر على الرسائل حتى خطرت لي فكرة تسجيل شريط صوتي، استخدمتُ جهاز تسجيل لزميلي في الغرفة، وتحدثتُ لنصف ساعة مفعمة بأحاسيسي، عن الحياة في الكويت، عن أصدقائي، عن عملي، ثم سألتُ عن أحوال أختي وإخوتي وعن والدتي ووالدي بأحاسيس أكثر عاطفةً ومحبة، وأرسلتُ الشريط إلى إيران.

1–كان في شيراز سابقًا اثنتا عشرة بوابة، وتسع عشرة محلة، ثم جرى تقسيمها إلى ستّ بوابات وإحدى عشرة محلة. بوابات: باغ شاه، اصفهان، سعيدي، قصاب خانه، شاه داعي، كازرون.

عندما كنتُ أتحدّث وأسجّل، كنتُ كأني أرى كل أفراد أسرتي أمامي، حتى ردود أفعالهم إثر تعبيري عن اشتياقي إليهم... كل ذلك كنتُ أراه!

بعد شهر وصلني شريط آخر من أسرتي، أسرعت لدسّه في جهاز التسجيل، وما إن بدأ أبي بالكلام، حتى أوقفتُ الشريط وأجهشتُ بالبكاء، وذلك ما حدث أيضًا عندما سمعت صوت أمي. لم ينقطع بكائي وأنا أستمع إليهم وإلى أصواتهم الواحد تلو الآخر، لم تسمح لي شدّة أشواقي أن أكمل، فاستغرق مني ذاك الشريط أربع ساعات لأستمع إليه بكامله!

ولشّدة ذاك الشجن، ما زلت أذكر بدقّة صوت أختي، كيف كانت تتحدّث وتبكي في آن معًا وتقول: «جعفر أخي فديتك من عزيز! أسأل الله بكرامة الحسين أن يسعدك بعد أن جعلتنا نملك بيتنا، أنا كلما كنستُ البيت غصصتُ بالبكاء ودعوتُ لك، فنحن في بيتنا، أصبحنا نكنس بيتنا، وننظف بيتنا، وليس بيت أناس آخرين»..

بعد مدة أرسلتُ ثلاثين ألف تومان أخرى، أظن في أوائل عام 1972م حيث تم شراء البيت بالكامل. حينها تعبتُ من الغربة، وعدتُ في السنة التالية إلى إيران لأبحث عن عمل بدل العودة إلى الكويت، لكني لم أجد عملًا مناسبًا، والأجور متدنية، في حين كانت أجوري في الكويت جيدة، لذلك لم أقتنع بالعمل في شيراز بالغاز وبأجور لا تغطي مصاريف الحياة، وأعجز عن مساعدة والدي، لذلك عدت أفكر بالعودة إلى الكويت.

لكن في هذه المرة كانت رحلة عودتي إلى الكويت خاليةً من المشاكل، فلديّ كفيل هناك، بتّ أركب الطائرة، أذهب وأعود بسهولة.

في تلك الأيام أقيمت في شيراز احتفالات 2500 عام[1]، الكل عرف أن احتفالات «تخت جمشيد» كانت تستورد الطعام من فرنسا، الحلاقون وكل العاملين كانوا من الأجانب، الورد لتزيين الخيم من هولندا، تجهيزات الخيول من إنكلترا و... بالإجمال كانت أموال إيران تبذّر.

كانت العلاقات العربية مع إيران في أسوأ حالاتها، كان لديّ صديق مصريّ في الكويت يعمل مهندسًا في مجال النفط، انتقد بشدة تلك الاحتفالات التي أقيمت في إيران.

حينها فاجأني بدخوله إلى غرفتي حاملًا صحيفة، رماها باتجاهي وقال لي بلهجته المصرية: «جعفر، خذ واقرأ». فسألته: «لم أنت منزعج؟».

قال: «انظر ماذا يفعل شاهكم، لقد دفع سبعة ملايين دولار للإسرائيليين لينصبوا لكم الخيم، البلد الذي يعجز عن تصنيع خيمة لأي شيء ينفع؟ كما إنّ هذه الخيم أُعدّت ليأتي من يمارس الفساد ويشرب الخمور ويزني».

لم أمتلك ردًا، فأنا شاب متديّن، وأصلّي كل يوم في المسجد بالكويت، وأعتبر نفسي مجاهدًا ومعارضًا، لكني لستُ مطّلعًا على ما يجري في بلدي. فالإيرانيون في الكويت يجتمعون في ساعات فراغهم، ويأتي أحدهم ليقول «منذ أشهر وأبي معتقل». والآخر يقول: «إنّ ابن عمه قد قضى نحبه تحت التعذيب. وغيره يتحدث عن الإمام الخميني قدس سره الذي تمّ نفيه إلى النجف و....

وبقيتُ في الكويت أزاول عملي، حتى أصبحتُ «المعلّم» وامتلكت محلًا خاصًا أبيع فيه اللحوم، كان عمل القصّاب صعبًا، أكثرهم يغشّون في المعاملات، ويبرّرون لأنفسهم بأن الناس تطلب اللحم من الفخذ،

1- أي مرور 2500 عام على تعيين قورش الأول ملكًا حسب التقويم الشاهنشاهي؛ وقد تم تغيير هذا التقويم إلى الهجري الشمسي الذي يبدأ من الهجرة النبوية الشريفة وتمّ تثبيته في نظام الجمهورية الإسلامية رسميًا إلى جانب الهجري القمري بعد أن حاول الشاه المخلوع تغييره.

وإذا كان الـكل يريد لحم الفخذ، فهـل نرمي باقي اللحم بعيدًا؟! لذا، يبيعونهـم لحمًا آخر على أنه من الفخذ، ويعتبرون أنفسهم مضطرين للكذب على الزبائن.

بعـد ذلك، سرعان ما بدأتُ أحضر دروس «آية الله نجابت»[1] الذي جاء إلى الكويت حديثًا، وكان له أثره في تغييري. حيث سألت سماحته، فأجابني: «إنّ عملكم هذا حرام».

قلتُ له: «عندها سيذهب الزبائن إلى آخر». قال: «لا علاقة لك بما يفعله الآخرون».

فأوضحتُ له: «عملت هكذا لثلاثة أشهر كاملة».

انتفض الشيخ وقال: «انهض سريعًـا، عليك بردّ المظالم وترك هذا العمل».

كانـت كلمـات الشيخ كافيـة لأترك هـذا العمل، وأجمـع أغراضي وأعود إلى إيران بشكل نهائي.

لكنـي الآن، ما زلتُ آمل أن أرى صديقي المهندس المصري مجددًا، لأسألـه: يا أخي العزيز، متى سينتهي التسلّـط الأمريكي والإسرائيلي على الدول العربية؟!

1- المرحـوم آيـة الله الشيـخ حسـن علـي نجابـت الشيرازي، مـن العلمـاء ذوي الألباب، عمل فـي تربيـة النفوس والأرواح المستعدة إلى جانب الشهيـد السعيد آية الله السيـد عبد الحسين دستغيب. توفي عام 1989م، ودفن إلى جانب الشهيد دستغيب، كما استشهد ابنه «محمد حسين» خلال الدفاع المقدس.

## الحصاة السوداء

اثنا عشر عامًا مضت على مواجهات ساحة «شاهتشيراغ»، أصبح عمري سبعة وعشرين عامًا، وقد تزوجتُ منذ عام[1]. ولا يزال بيتنا في بوابة «كازرون». في أحد الأيام، عدتُ إلى البيت ظهرًا بعد انتهاء عملي، فطُرق الباب، وعندما فتحته رأيتُ شابًا بعمر التسعة عشر عامًا بشعر مجدول على كتفه.

فحدّقت به وعرفته، إنه «مهدي الفيروزي» الذي عهدته صغيرًا جارًا لنا منذ عام 1963م، عندما كنا نعيش تحت «طاق ميرزا جوني»، كانت تقطن بجانبنا أسرة كثيرة الضجيج، يعمل الأب في الخياطة، ولديه عدة أبناء وبنات، وكان «مهدي» ذو التسع سنوات أصغرهم، بينما كان عمري خمسة عشر عامًا.

قلتُ: «ما شاء الله، لقد كبرت». فتبسّم وطلب التحدّث إليّ عدة دقائق. تبيّن أنّه كان متخفّيًا لعدة أشهر، فظننت أنه يريد اللجوء إلى بيتنا.

طلبت منه الدخول إلى البيت، لكنه رفض وأصرّ على التحدّث معي على انفراد، وكانت هناك أرض خالية خلف بيتنا، يسمّيها الشيرازيون

1- بعد عودتي من الكويت بعدة أشهر تزوجت يوم 1974/8/31 بفتاة مؤمنة تقية، اختارتها لي والدتي من حلقات القرآن، وحسب العرف القديم لم أرها حتى ليلة العقد والزواج، فقد اعتمدتُ على عيون أمي، فأهداني الله رفيقة متدينة وحميمة، صبرت معي دومًا واستقامت، لا أجد كلمات تسعفني لأؤدي شكرها.

«أرض الولي»، كانت مناسبة للسير فيها والتحدث على انفراد. سرنا لساعة، وتحدثنا عن أمور شتى، تحدّث هو أغلب الوقت فيما كنت أنا أصغي، تحدّث عن الوضع الأمني والبوليسي الضاغط على المجتمع، وعن الفساد الذي مورس أثناء احتفالات «2500 عام»، ورأي الإمام الخميني الذي أصدر بيانًا من النجف، وضرورة المواجهة الجديّة والمنظمة للنظام.

عندما وصل حديثه إلى التدخل الأمريكي والإسرائيلي في الحكومة والمجلس والصناعات الكبرى والصغيرة؛ بل وحتى في أصغر الدوائر الرسمية للأقضية، تغيّر لون وجهه لما أظهره من شدّة الغضب. كان كلّما انتهى من موضوع يرفع رأسه ليتفرّس في ملامحي، ويلمس مدى تفاعلي ويقرأ أفكاري وردود فعلي، قبل أن يخفض رأسه من جديد يخطو خطوة بطيئة، ثم بخطوة خفيفة يضرب بمقدّم حذائه حصاة صغيرة، تكون مقدمةً ليتناول موضوعًا جديدًا!

كان يتكلم بطريقة حازمة ومقتدرة، بحيث لم أعد أشعر بفارق السنوات السبع التي تفصل بيننا! بل شعرت في لحظات أن روحه أكبر، وأنه أكثر خبرة وتجربة مني.

وبحركة لافتة سحب بمقدم حذائه حصاة سوداء وضربها بشدّة، ووضع يده على كتفي فعلمتُ أنه يريد الذهاب. قال: «عذرًا لمجيئي ظهرًا وتأخيرك عن زوجتك وبيتك وغدائك.. على أي حال لم تقل لي، هل أنت مستعد للعمل معنا أم لا؟ لن أصرّ عليك، لكن إذا كنت لا ترغب بذلك، فعليك بدفن كل ما سمعته منّي في هذه الصحراء».

على الرغم من رغبتي في لقاء أعضاء مجموعته، قلت له: «أمهلني بعض الوقت».

أظنّ أنني أردتُ أن أُفهمه أنّني الأكبر سنًا، فلا يمكنك الحصول

علـى موافقتي بهـذه السرعة، فقلتُ له: «لا يستطيـع الإنسان أن يتّخذ قرارًا صحيحًا ببطن خاوية. عصرًا، سأبلغك بجوابي النهائي».

تواعدنا على اللقاء عند الساعة السادسة بعد الظهر في محل خياطة لأحـد الأصدقاء. وصل قبلي إلى الموعـد، وأخبرته أنّه ليس لدي مشكلة مع القضية بشكل عام، لكن عليّ أن ألتقي مع أعضاء المجموعة مباشرة.

وافق، وذكر اسم «سعيد» وهو شاب منشد معروف، يبدو أنه توارث عن أجداده تلاوة المجالس الحسينية، لذلك أصبح اسم العائلة «ذاكر الحسـين»، وذكر شخصًا آخـر، سيد عالم دين اسمـه «شجاع الدين» وقال إنه مـن أسرة «دستغيب» الشهيرة في شيراز؛ وهذان الاسمان لم يكونا مألوفين بالنسبة لي.

حـدّد الموعد اللاحـق في بيت السيد «شجاع الديـن»، وسبقني إليه هـذه المرة أيضًا، وكان حذرًا في حركته، حسّه الأمني عالٍ بشكل جيد؛ أشـار لي من بدايـة زقاق بيت السيد لأدخل الزقـاق بعده لنلتقي فيه، حيـث سلّم علـيّ وعانقني قائلًا: «من الأفضـل أن لا يرانا أحد معًا في الشارع، فرجال السافاك[1] هم كما تظنّ وأكثر».

عندما وصلنا إلى مدخل منزل السيد، لاحظنا أنّه ترك الباب نصف مفتوح، كان موجودًا في باحة البيت بانتظارنا، قابلني كأنه يعرفني منذ سنوات: «أهلًا بالسيد جعفر العزيز! أهلًا وسهلًا، نوّرت البيت».

تعجبتُ كيف عرف اسمي، وازددت تعجّبًا عندما رأيتُ كيس ملاكمة يتدلّى مـن شجرة «بوصفـير» القديمة، ولمحت بعد عـدة أمتار أدوات رياضية منزلية أخرى. لم يكن صعبًا ملاحظة الجسم الرياضي للسيد

1- جهـاز أمن السافاك هو منظمة سرية أسسها الشاه، وأشرفت منظمة (CIA) على تدريبها، ارتكبـت الجرائم الكبيرة إلى حـد أن داعمي الشاه من منظمات دولية اعتبرتها أسوأ منظمة في انتهاك حقوق الإنسان (المترجم).

تحت زيّه العلمائي، لكني لم أصدق أنّ هذه الأدوات له. فما علاقة عالم الديـن بالرياضة؟ ظننتها لجار أو لأحد آخر أودعها عنده، ولم أصدق أنه يستخدمها حتى قادنا إلى غرفة حيث جلسنا وشرعنا بالحديث...

أكثر ما أدهشني، حينما سأله ابنه الأكبر عن أمر ما بالإنجليزية، فأجابه السيد باللغة ذاتها، وكانت لهجته متقنةً بحيث إنّي لو أغمضتُ عينـيّ لظننتُ أنّ المتحدث رجـل ذو شعر أشقر وعينين زرقاوين وذقنٍ حليق يرتدي بدلة أجنبية بربطة عنق.

تحدّث السيد بكلام يشبه ما قاله «مهدي» قبل أيام خلف بيتنا، ثم حدّثني عن نشاط المجموعة وأكد على سرية ذلك، فنبّهني إلى خطورة البوح به حتى لو تعرّضتُ للاعتقال ولأسوأ أنواع التعذيب.

أثناء الحديث، وصل «سعيـد ذاكر الحسين» فطلب السيد من ابنه الأكبر ترك الغرفة. بقينا نحن الأربعة، ووضع كلّ منّا يده اليمنى على يد الآخر، وأقسمنا أنّنا لن نخون بعضنا بعضًا ما دمنا أحياءً.

وذكّرنـا السيد بقول رسـول اللّهﷺ: «إن كنتم اثنين فليأمر أحدكما الآخـر»، أي لا بد من مسؤول يتولى قيـادة المجموعة، ورسم على ورقة شـارة المجموعـة، ووزع المسؤوليـات بيننا بعد التشـاور وتوافق الآراء. وقـال بجـد: «إذا لم نأخذ الأمر بشكل جدّي مـن الآن، فلن نتمكن من الاستمرار عندما يزداد عدد أفراد المجموعة غدًا».

وكان مصيبًـا في توقّعه، فسرعان ما التحـق بالمجموعة طالب علم شـاب من مدينة قم، وأحد أقرباء «مهـدي الفيروزي»، فأضحينا ستة أشخاص، تشاركنا في الدفع لنشتري جهـاز «استنسل»[1] لنسخ بيانات الإمـام الخمينـي، إضافـة إلى جهـاز مذيـاع ومسجلة، بحيـث نرفع صوتهما بشكل صاخب، فلا يسمع الجيران صوت جهاز الاستنساخ.

1- طابعة.

كان استنســاخ البيانــات كافيًــا لمن لا يعــرف شيئًا ليطّلــع على كل قضايــا الحكومة وفساد النظام. رغم أننا كنــا نطلع على بعض الأمور الأخرى بسبب علاقاتنا. وكلّما اتسعت دائرة عمل هذه المجموعة وباقي المجموعــات في المواجهة؛ تنوّعت أيضًا أساليــب التجسس والاعتقالات والتعذيب من قبل جهاز السافاك. وكلما ازدادت حساسية السافاك من ناحيــة، ازداد إحساسنا بواجبنا لتوعيــة أهالي المدن الصغيرة والقرى من ناحية ثانية؛ وهكذا انصبّ اهتمامنا في التوجه نحو المدن الأصغر.

كان بعضنــا يقصدها ويعــود، وبعضنا الآخــر كان يستوطن فيها، لكنّنــا كنّــا نغيّر المــدن والمواقــع حينمــا نشعــر أنّ أمرنــا سيُكشف أو سنتعرض للاعتقال.

بعد مــدة، قررنا الذهاب إلى منطقة «نور آبــاد ممسني»[1]، إلا أنّنا كنّــا متردّدين، فذهبنا عند الغروب إلى أحد مساجد شيراز القديمة، أنــا والأخوان مهدي ومحمــود الفيروزي، وبعد صــلاة العشاء، جلسنا إلى جانب إمــام الجماعة، كان سيدًا متقدمًا في السن ذو وجه نوراني اسمــه «السيد العلوي»، سألناه عدة أسئلــة في الفقه والأحكام بانتظار خروج المصلين، ثم طلبنا منه أن يستخير لنا هل نذهب إلى «نور آباد» أم لا، رفــع عباءتــه التي كانت قــد سقطت عن كتفيه، وتنــاول القرآن وقبّله، وأغلــق عينيه، وتمتم ببعض الكلمات، ثم فتح القرآن، قرأ عدة آيات، ثــم نظر إلينا متصفحًا وجوهنا وقــال: «أحسنتم، سفر مبارك إن شــاء الله، فيه الخير والبركة، إنها جيــدة، جيدة جدًا، توكلوا على الله واذهبوا».

1- تبعد عن شيراز مسافة مئة وخمسين كيلومترًا جهة الغرب، يتحدث أهلها باللغة الكردية، منطقة واسعة، قدمت الكثير من الشهداء خلال الثورة والحرب المفروضة، فكانت السباقة في محافظة فارس.

## التهمة: الغياب لمدة شهرين

بعـد استخارة السيد العلوي لم يعد لدينـا شك، حملنا متاعنا من شـيراز متوجهين إلى «نور آباد ممسني». وكان السيد شجاع الدين قد نسـق مع مجاهدي نور آباد، فتوجهنا إلى هنـاك بذريعة العمل، لكننا كنا نشكل في الواقع جسر ارتباط للثوريين بين شيراز ونور آباد.

كنـا نعود إلى شيراز أيام الجمعة ونزور الأسرة ثم نعود، لكن حياة العزوبية في «نور آباد» كانت صعبة على شاب حديث العهد بالزواج. لم أتحمـل الأمر أكثر من عدة أشهر، بعتُ بيـت شيراز، ونقلتُ أبي وأمي وزوجتي إلى نور آباد.

كنـت أقضـي أيامي نهارًا في محـل الخياطة، وليـلًا في البيت. أما الأخـوان فيروزي فكانا ينامـان داخل المحل، في حين كان مهدي يتنقّل بين المدن الأخرى.

في أحـد الأيـام عاد مهدي مـن مدينة قم، ودخل المحـل، فأخذني جانبًـا وهمسـ في أذني: «جهّـز نفسـك، أمامَنا سفر هـام سأخبرك بـه لاحقًا». كان يتحـدّث دومًا بطريقة لا تسمح بالسـؤال عن المقصد وتاريـخ الرحيل بدقة، ولا حتى عن السبـب أساسًا. اكتفيت بهزّ رأسي كعلامة على الموافقة قائلًا: «حسنًا».

بعـد عـدة أيام، اتصل بي مـن قم وقال: «ليس لدينـا وقت، دع كل

شيء، وتعال إلى قم».

كل مـا استطعت فعله هو تـرك رسالة لأهلي أقـول فيها: «سأغيب عـدة أيام، فـلا تقلقوا عليّ». أخذتُ العشرين ألـف تومان المتبقية من ثمـن بيت شـيراز، ووضعتها في حقيبة، وانتقلتُ مـن حافلة إلى أخرى حتى وصلت إلى مدينة قم.

تورّمت قدماي من طول الجلوس في الحافلة ولم تدخلا في الحذاء، فطويت آخره وترجلت، لكني لم أعد أتحمّل المشي، ركبتُ سيارة أجرة للوصـول إلى حرم السيدة فاطمة المعصومـة، وتمنيتُ لو أن مهدي قد أعد لي مكانًا مريحًا لأنام فيه بضع ساعات.

وبنـاءً للاتفاق المسبق، التقينا أمـام الحرم. بادرني مهدي: «وقتنا لا يتسـع إلا لزيارة سريعة وغداء أسرع». آخر لقماتي ازدردتها سريعًا وبلعتها، فقام وقال مبتسمًا: «أخي العزيز، أسرع، تأخرنا».

أوقف سيـارة أجرة، لتنقلنا إلى موقف حافلات قم، اشترى تذاكر سفـر إلى «يزد» وركبنا. مهدي يحتفظ دومًـا بأسرار، لعلّ عمله جعله هكذا، فكلما سألته إلى أين سنذهب؟ ولماذا نحن ذاهبون؟ كان يجيب بعبـارات لا تحتوي جوابًـا! مثل: لماذا نحن ذاهبـون برأيك؟ سآخذك إلى مكان لم تره من قبل، لماذا تكثر الأسئلة هكذا؟ انظر إلى الطريق، تأمل في أراضي الله.

عندمـا اقتنعت بأنّـه لا فائدة مـن السؤال، جلسـتُ كطفل مطيع، عدّلت جلوسي على الكرسي، ونظرتُ إلى أرض الله حتى غفوت.

وصلنـا «يزد» ليلًا، فقام بشراء تذكرتين إلى «زاهدان»، ثم توجهنا إلى نُزل لنبيت ليلتنا. طوينا طريق (يزد - زاهدان) مع الأسئلة التي لا جـواب لها أيضًا، ووصلنا زاهدان في الليلـة التالية. كان مهدي يحمل

معــه عنوان مقهى، سأل عنه شخصين حتــى عثرنا عليه. كان واضحًا أنّ عملنا مهما كان، فسيبدأ من ذلك المقهى.

صاحــب المقهــى كان يعلم أننا لم نــأتِ لتناول وجبــة العشاء فقط، فبعــد تناول عــدة أسياخ مــن الكبد المشــوي التي وضعــت أمامنا على الطاولــة. أخــذ بأيدينا وعبرنا ممــرًا مظلمًا، في نهايتــه مبنى ذو باب خشبــي قديم متصل بباحة صغــيرة، فيها غرفة صغيرة، علينا أن ننام ليلًا فيها. خفض صاحب المقهى صوته، كان علينا أن ندخل الغرفة من دون ضجيج. بحثتُ عن زر الكهرباء كالأعمى، لكن مهدي أمسك بيدي وقال: «هس، لا تضيء المصباح لئلا يستيقظ النيام، فيسمعوا كلامنا».

باتــت أيدينا تقوم بــدور أعيننا، فتحسست الجــدار لأجد طريقي عبره وسرتُ بمحاذاته حتى أحسست بشيء وثير لكنه خشن، كان شيئًا ما بدا كفراش، وهناك وسادة فوقه، تكفي لألقي برأسي عليها بعد كل عنــاء السفر، وأدس يدي في حقيبتــي لأطمئن على مبلغ العشرين ألف تومان بعد سفر ثلاثة أيام.

عندمــا استيقظت صباحًا للصلاة، فهمتُ لمــاذا منعني مهدي من إضــاءة المصباح، فلم يكن في الغرفة غــيري أنا ومهدي، لكن اللحاف والفراش مليئان بالقمل، والوسادة التي كانت في يوم من الأيام قماشًا أبيضَ أصبحت داكنة شديدة الاتســاخ، ولم يكن غيري أنا ومهدي في الغرفة. صليتُ في الباحة، ولم أعد أرغب بالعودة إلى الغرفة، فتوجهتُ إلى المقهى وتمشيت فيه حتى حان وقت الفطور.

بعــد الفطور، أبلغني مهدي بضــرورة تصريف الأموال إلى عملات صعبة، كان يعرف العنوان مسبقًا. توجهنا مباشرة إلى الصراف «عبد

المجيد»، أعطيناه المبلغ كله، وأعطانا بألف تومان «روبيات»[1]، ثم أخرج ورقــة روبية واحدة من جيبه، ودوّن الرقــم المتسلسل لها في دفتره، ثم شــقّ الروبية إلى نصفين، أعطانا نصفًا وقال: «هذا وصل بباقي المال، عندمــا تصلون إلى «كراتشي» سلموهم هذا النصف، ليسلّموكم المبلغ المتبقي، فالبلوش لا يخونون مطلقًا، أبدًا».

عندهــا فقط أدركــتُ أننا سنذهب إلى «باكســتــان»، مدّ مهدي يده إلى جيبه، وأخرج مالًا قدّمه لعبد المجيد بدل أتعابه، وودعه وعدنا إلى المقهى. كانت هناك سيــارة نقل صغيرة من نوع «شيفروليه» تنتظرنا، ركبنا فيها وتوجهنا إلى «مير جاوه»، تزودنا ببعض الطعام لنستعين به على عبور الصحراء.

كان علينا انتظار حلــول الظلام، ليشكل ساترًا حين ننتقل بدراجة ناريــة إلى الجانب الآخر من الحدود مع باكستان، بمساعدة أشخاص بــدا أنّ عملهــم الــذي يتقاضــون عليه أجــرًا هو نقــل المسافرين غير القانونيين. جاء أحدهم بدراجة روسية الصنع، وبعد نقاش ومفاصلة، رست الصفقة على مئة وخمسين تومانًا.

سمعنــا من قبــل أن الدراجة الروسية سريعــة ومحرّكها قوي، لكن هذا السائق لم يرحم حتى نفسه ليحصل على المئة والخمسين تومانًا، فكيــف بنا نحن، تمسكتُ بشــدة بالسائق، وتمسك مهدي بي. لن أبالغ إذا قلتُ إنّنا قطعنا نصف المسافة على المقعد ونصفها الآخر في الهواء. بسبــب سرعتــه، وكان ضــوء الدراجــة لا يكشف المطبــات والمرتفعات القليلة والكبيرة في الطريق صعودًا وهبوطًا في الصحراء.

وكلمــا صرخنا به «خفّف السرعة»، يقــول: «تمسّكوا جيدًا يا أخوة،

1- عملة هندية.

إنه عملي، وأنا أُجيده، لن يحصل شيء». لكنّ دراجته كانت ترتفع عدة أمتار ثم تهبط، فينال منا الألم، لنصرخ ثانية: «خفّف سرعتك بحق القرآن».

توقف السائق وقال: «هل تريدون أن أعيد إليكم أموالكم لتترجّلوا في هذه الصحراء؟!». عندها، عبرنا ما تبقى من الطريق صامتين، فيما تحطّمت أبداننا وعُجنت، وتغبّرت وجوهنا حتى وصلنا الجانب الآخر من الحدود.

وما إن وصلنا حتى تحرك السائق وغادر المكان بالسرعة نفسها حتى غاب عن النظر، سرنا وحيدين في الصحراء، ومصابيح المدينة تغازلنا من بعيد، وجدنا حفرة بدت كأنها تدعونا للنوم فيها حتى صلاة الصبح. اتخذتُ من حقيبتي وسادة، ولم أعد أعي شيئًا حتى أيقظني مهدي. توضأنا بماء الشرب الذي كان معنا، وصلينا، وانطلقنا مشيًا على الأقدام.

لم يكن يفصلنا عن مدخل مدينة «تفتان» سوى كيلومترين. خلال الطريق بدأ مهدي يوضح لي سبب مجيئنا إلى هنا، وماذا علينا أن نفعل. توقفتُ ونظرت إليه ليدرك أنه لم يعد هناك من داعٍ لإخفاء هذا السر حتى الآن.

اختبأنا قرب سكة القطار، وما إن تحرك القطار حتى هرولنا خلفه، وتمسكنا به، واختفينا داخل عربة شحن البضائع.

قبل الوصول إلى محطة مدينة «نوكندي» خفف القطار من سرعته، فقفزنا منه، ودخلنا سوق المحطة، تناولنا خبزًا يقال له «تشاباتي» يعدّ من القمح والزيت والسكر. بعد الفطور، كانت المهمة -كما أخبرني مهدي- أن نعثر هنا على عالم دين اسمه «مقيسة». لا أدري كيف نسّق

الأمر بحيث عثرنا عليه سريعًا.

هـذه المرة كمنّا نحـن الثلاثة للقطـار، وعندما تحـرك ركبنا إلى «كويتـه» لنلتقـي هنـاك بإمـام الجماعة، وهو سيـد معمّم، يقـال إنّه ممثل الإمام الخميني في كويتـه. استضافنا عنده ثلاثة أيام، وضّحنا لسماحـة السيد الأوضـاع الإيرانية، وتوجهات النـاس، وظلم النظام. كان يهزّ برأسه ويقول: «كلّي أمل بالفرج، سريعًا ستحدث وقائع مهمة في إيران».

نحـن لم نر الإمام الخميني، لكنّنا شعرنا بحضوره من خلال كلام ممثّله الذي زرع فينا الطمأنينة.

خـلال هذه الأيام الثلاثة، كان مهدي يحاول تأمين تذاكر سفر إلى «كراتشي» حيث المكان الذي وعدنا الصراف عبد المجيد باستلام باقي أموالنـا فيه. لم أكـن مطمئنًا لصدق كلام ذلك الصـراف البلوشي، لذلك كنتُ أريد الذهاب إلى هناك سريعًا.

في كراتشي، توجهنا إلى فندق نادري، وضعنا أغراضنا في الغرفة، ثـم توجهنا نحو «زال» حسـب العنوان الذي أعطانا إيـاه عبد المجيد، وقال إنّه رجل ضخم، بلحية وشارب كثيفين.

كان جالسًـا أمـام دكانـه يدخّـن النرجيلـة. بعـد أن تأكدنـا من شخصيته، سألناه: «هل أنت زال؟». مدّ يده إلينا وكأنه عرفنا، وعرف من الذي أرسلنا إليه. فقال: «نعم، لقد تأخرتم».

حمـل نرجيلته بيد، ودفعنا بيده الأخرى لندخل الدكان. دفعتُ إليه نصـف الروبية، ففتح دفترًا جلديًا وأخـرج النصف الآخر، ووضعهما إلى جانب بعض، فوجد الرقمين متطابقين.

قلت لمهـدي: «جلّ الخالق، لقـد وصل النصف الثـاني للروبية إلى

كراتشـي قبلنا». عندهـا سألنا «زال»: «والآن مـاذا تريدون؟». نظرتُ إلى مهـدي وإلى «زال» بتعجب، فسؤاله بثقة أغضبني. ولو حصل ذلك في إيـران، وسألني أحدهم بهذه الصيغة لأمسكـتُ بتلابيبه وقلتُ له: «ما هذا السؤال؟ ماذا نريد!».

لكننـا الآن في بلد غريب، أفهمته مـا نريد بحركات وجهي. عندها قـال: «أقصد هل تريدون دولارًا أم روبيـة أم ريالًا أم ماذا؟». تنفستُ نفسًـا عميقًا لدرجة أنّني سمعته بنفسي وقلتُ: «أعطنا المبلغ بالدولار، فهو يصلح في كل مكان».

فتح خزنتـه الحديدية، واستخـرج حفنة من الـدولارات، وبعد أن قـام بعدّها عدة مـرات، تناول ربطة مطاطية وربـط حزمة المال بها، وقـدّم المبلغ بكلتا يديه: «تفضلوا، هذا ما يعادل تسعة عشر ألف تومان بالتمام والكمال، تفضلوا حتى أسكب الشاي».

شكرنـاه وعدنا إلى الفنـدق. قال مهدي موضحًـا أنّ عليّ التنسيق مـع عدّة أشخاص لنذهب إلى لبنـان لنتلقى هناك التدريب العسكري الخاص. عندما سمعتُ اسم لبنان انزعجتُ قليلًا، فقد اعتدتُ طريقة مهـدي في العمل، ومعرفة المعلومات بالقطـارة، وكنتُ أظهر الانزعاج والتأسف، لكن هذه المرة قلتُ له بجدية: «لو أخبرتني في «نور آباد» أننا نريد الذهاب إلى لبنان، لما أخبرتُ أحدًا، فمتى سأعلم بكل شيء؟».

ابتعد قليلًا، وتأملني، ثـم ضحك بصوت عالٍ وقال: «أخيرًا، رأيت كيـف يغضب السيد جعفر». ثم أقسم أنّها آخر معلومة، وليس لديه ما يضيفه.

بعـد يومـين أبلغنـي مهـدي في الفنـدق: «لقـد أمّنـوا لنـا هويات باكستانية، واشتروا لنا تذاكر سفر بالطائرة إلى دمشق. علينا السفر

بعـد غـد». عصـرًا، ذهبتُ إلى سـوق كراتشـي المركـزي، جلت فيه، واشتريـتُ بعض السفاسف[1] التي أعجبتني ولم أر مثلها في إيران. وفي صباح اليوم التالي قمـتُ بزيارة عدة أماكن في كراتشي لأتعرف إليها جيـدًا. لكني نسيتُ أنّ هنـاك حظرًا للتجوال عصر ذلـك اليوم، وأنّ رحلتنا إلى دمشق ستلغى.

كانـت آخـر أيـام حكومـة «ذو الفقـار علي بوتـو»[2] ، ولمنـع انتشار التظاهـرات الشعبيـة وجدت السلطـات أنّ الحلّ الأفضـل هو إعلان حال الطـوارئ، ولا يُسمح للناس بالتجوال إلا بين الخامسة والسادسة عصرًا. قضينا أربعة أيام في الفندق، نخرج إلى البهو لنتشمّس فقط، خشية أن تعتقلنا شرطة «بوتو» ويعرضونا للاستجواب.

بعـد عدة أيام من إعـلان حال الطوارئ، حضر شـاب إيراني إلى بهـو الفندق وسأل موظف الاستعلامات عني وعن مهدي. أسرعتُ إلى الغرفة وأخبرتُ مهدي بذلك. فسألني: «ألهجته أصفهانية؟».

- بلى، كان أصفهانيًا.

- اجمع أغراضك علينا الرحيل.

دفعنـا حساب الفنـدق، وذهبنا مـع الشاب الأصفهـاني إلى بناية مـن طابقـين في محلة «ناظم آبـاد»، وعند صعود الـدرج التقينا بعدة أشخاص استقبلونـا وعانقونا. وعندما دخلنا، قدمـوا أنفسهم: «عبد اللّه نوري[3]»؛ يبدو أنه المسؤول هناك؛ «السيد سراج الدين الموسوي[4]»،

1- أشياء بسيطة ورخيصة.

2- ذو الفقـار علي بوتو سياسي مؤسس حزب الشعب الباكستاني، كان رئيسًا للوزراء، فأطاح به الجنرال ضياء الحق بانقلاب عسكري، ثم أعدمه في نيسان 1979م.

3- الشيخ عبد الله نوري، تولى منصب وزير الداخلية لفترة في حكومة الشيخ رفسنجاني.

4- السيد سراج الدين الموسوي، خدم بعد الثورة في مكتب سماحة الإمام الخميني الراحل.

و«الشيــخ الإبراهيمي[1]»، وسيد رابع مــن آل الموسوي استشهد فيما بعد خلال الحرب المفروضة، لكنه ليس من أقارب السيد سراج الدين.

دامت حال الطوارئ أربعين يومًا، بقينا طوال هذه المدة في كراتشي داخـل ذلـك المبنى، وكنـا كباقي أهـالي باكستان يمكننـا الخروج في الساعة المحدّدة عصرًا للشراء والعودة سريعًا إلى المسكن.

في آخـر لحظـات ساعة التجـوال، أي قبل السادسـة بدقائق، كان الباعـة يبيعـون بأقل من نصـف القيمة، ويهرولون خلـف الناس كمن يستعطي ليشتروا منهم. لذلك كان البعض ينتهز هذه الفرصة ليشتري في آخر دقائق، ويسرع إلى البيت.

أما في يوم الجمعة، فكان الوضع مختلفًا، كان يحق للناس التجوال عـدة ساعـات. وفي أحد الجمعات، بينمـا كان الناس يطلقـون شعارًا يقـول: «عد يا بوتو إلى قريتك «لاركانه» أو اذهب إلى السجن». تأثرت ودمعـت عيناي، حدثتني نفسي بأمل: «يـا إلهي هل سيأتي اليوم الذي نستطيع فيه أن نطلق مثل هذا الشعار في إيران ضد النظام البهلوي؟!».

كان لمنـع التجـوال بعض الحسنـات، لأننـا كنـا نجلس في ذلك المبنـى المكون من طابقين لنتحدث حول مستقبـل إيران، وآراء الإمام الخميني، والكتب التي يتداولها الثوريون حينها، وضرورة إيجاد تنظيم للمواجهة؛ بـل وكيفية إقامة حكومة إسلاميـة في إيران! وكانت الآراء مختلفة في بعض القضايا، شُحنت تلك النقاشات بجاذبية الاختلاف، وأظهرت من الحديث مختلف المبررات.

بعـد أربعين يومًـا هـدأت الأوضاع قليـلًا، أخذنا جـوازات السفر الباكستانيـة المـزورة، وتذاكـر الطائرة، وتوجهنـا إلى مدينة جدة في

1- الشيخ الإبراهيمي، كان مسؤول مكتب الشيخ المنتظري حتى وفاته.

السعودية، ومن هناك إلى دبي، ثم إلى سوريا.

في مطار دمشق، قالوا إنّ هناك تعميمًا يمنع دخول الباكستانيين إلى سوريا، فمُنعنا أنا و«مهدي» و«مقيسة» ولم نستطع الوصول إلى مدينة دمشق، في حين لا نجرؤ على العودة إلى باكستان. كان في المطار رجل إيراني يتكلم اللغة التركية الآذرية، وكان قادمًا من الكويت، وبدا أنّ وضعه المالي جيد، والشرطة السورية تظهر له الاحترام. طلبنا منه أن يفعل لنا شيئًا كي نتمكن في الحد الأدنى أن نزور مرقد السيدة زينب عليها السلام. فاعتذر لأنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا، ثم تناول محفظته أخرج منها ألف دينار كويتي قدمها لنا وابتعد عنّا فورًا، من دون أن يترك لنا فرصة لنقول له إنّنا لا نحتاج إلى ماله، ولا ليتوسّط لنا لنزور أيضًا.

بات شراء تذاكر العودة إلى باكستان خيارنا الوحيد. وقبل موعد الرحلة، شرعنا أنا ومهدي بشكل سريع في كتابة رسائل تطمئن أُسرتينا أنّنا سالمان لئلّا يقلقوا علينا، لنرسلها بيد المسافرين إلى إيران، لكن أحدًا لم يقبل، فاضطررنا أن نضعها في صندوق بريد المطار، ونركب الطائرة.

العجيب أن رسالتي نجحت في الوصول إلى البيت، بعد أن كان تملّك القلق أسرتي، وكانوا يجهزون لي صورة ليتمكن الدرك من الإعلان عني كمفقود. وفي آخر اللحظات وصلت رسالتي، فتوقفوا عن القيام بذلك.

عدنا إلى باكستان، كنّا في المطار نناجي الله لئلّا يكتشفوا أن جوازاتنا مزورة، لم يكن شكلي سيئًا، شعري أصبح طويلًا، وكنت أرتدي ملابس فخمة، مهدي ومقيسة كانا يتصرّفان بشكل طبيعي. إلا أننا لجأنا إلى بعض الحيل حتى خرجنا من المطار، لكن شرطيًا خلفنا

نادانـا، للحظـة تحيّرنا مـاذا نفعل؟ هـل نركض ونفـرّ، أم نرد عليه، فنتعرض للاعتقال والسجن؟

تمالكتُ نفسي ونظرتُ إلى الخلف بهدوء، فتبين أنه أشار إلى سيارة أجـرة لتنقلنا، وفتح لنا باب السيارة وقـال باحترام: «تفضلوا». لشدة فرحي أخرجت عدة روبيات من جيبي وأعطيتها للشرطي، وطلبتُ من السائق أن يسرع بنا إلى فندق نادري.

وفي اليـوم التـالي توجهنـا إلى الشخص الذي أعـدّ لنا الجوازات المـزورة. أعطيته جـوازي الكويتي الذي كنتُ أستعملـه سابقًا، ليجعله مناسبًـا لمهـدي، فأمّن له تذكـرة طائرة إلى أوروبا حيـث نسّق مهدي سفـره مـع أصدقاء لـه في أوروبا عندمـا رفضوا دخولنـا إلى دمشق، اتصل بهم من المطار واتفق معهم، وتقرر أن يبقى مقيسة في باكستان، وأن أعود أنا إلى إيران.

عودتي إلى إيران كانت شاقّة، فلم يعد مهدي معي هذه المرة. وجوده معـي دومًا كان يشجعنـي، أمضيت خمسة أيام لأصـل إلى «نور آباد»، عندما وصلتُ إلى زقاقنا، بدت لي زوجتي من بعيد واقفة تنتظر، كانت تترصّـدني كل يوم لعلّها تجـدني. عندما اقتربتُ وتأكدتْ مني، نظرتْ إليّ بدهشـة وانفجرت بالبـكاء، وفي باحة البيـت أمطرتني بالأسئلة، وبقيـت عدة أيـام أمثُل كالمتّهـم الذي يخضع للمحاكمـة والاستجواب أمام عدة قضاة.

## هذان الشخصان

أضحت «نور آباد» مقرًّا لإعدادنا واستعدادنا نفسيًّا لمواجهة الأيام الصعبة إبان الثورة، ثم الحرب المفروضة فيما بعد. خلال مرحلة الإعداد والاستعداد، كان وجود شخصين له الأثر الكبير. أحدهما «مهدي الفيروزي» بشبابه، والآخر هو السيد الروحاني الذي نفاه «السافاك» إلى «نور آباد»، وأصبح فيما بعد من قادة الثورة.

لا بدّ لي هنا أن أتحدّث أكثر عن مهدي الفيروزي وشخصيّته الفريدة - إذ ترك أثرًا عجيبًا عليّ وعلى الكثيرين غيري- وأن أتحدث بالتفصيل أيضًا عن ذلك السيد الروحاني. لكن للحديث عن شخصية مهدي، سأضطر لعدم الالتزام بالتسلسل الزمني في مذكراتي، وسأشير إلى حاله وردود فعله في أوائل الثورة أيضًا.

منذ عام 1975م، وبداية انتقالنا إلى «نور آباد» وحتى الآن، لم أدرك من أين اكتسب مهدي ذو الثمانية عشر عامًا كل هذا الوعي وكل تلك المعلومات الدقيقة، وبمن كان يلتقي وأيّ كتب يطالع. كان يتحدث حينها عن شخصيات بطريقة لم يتقبّلها كثيرون، وأنا منهم، ولم نستحسن كلامه عنهم. لكن تبيّن لنا مع مرور الزمن أنّه كان مصيبًا.

ففي ذلك العام، كان هناك طالب علم شاب يدعو لأحد مراجع التقليد بشدة، لكن مهدي ردّ عليه بهدوء قائلًا: «ليس الأمر كما

تعتقـد، فهـذا الرجل ليس سوى مرجع تقليـد للشـاه، ولم يفعل شيئًا للناس المستضعفين».

تـأوّه طالب العلم الشاب بصوت عالٍ، ثـم صلّى على النبي وآله ثم كبّر. كان يقصد بذلك أنّ مهدي قال شيئًا مُنكرًا، وهو قد كظم غيظه، ثـم قال: «بُني، هل تدري عمّن تتكلم؟ إنّ السيد لديه في إيران وحدها سبعة ملايين مقلّد».

لكـنّ مهدي أجابه بـبرود أكثر: «لنفترض أنّ لديـه عشرين مليون مقلّـد، لكنّ نهايته وعاقبتـه القرب من النار». وأضـاف: «للدين قشر ونواة وكثيرون أخذوا القشر وأهملوا النواة».

أجاب طالب العلم: «وهل تريده أن يقف بوجه الشاه كما فعل السيد الخميني، وسالت كل هذه الدماء المظلومة بسببه؟!».

للحقيقـة، كنـتُ أخشى أن أتكلّـم مثل مهدي، لذلـك غيّرتُ وجهة الحديـث كي أمنع استمرار الخوض فيه. خشيتُ أن يكون هذا الكلام حـول عالم دين لديه كل هؤلاء المؤيدين، أمرًا غير صحيح. لكن مهدي كان مصـرًّا على ذكر أدلة أخرى علـى أنّ الإسلام لا يُختصر بإصدار الأحـكام الفقهية والذهـاب إلى المسجد والصيام؛ بـل يجب أن يكون مفيدًا للمجتمع.

معرفـة مهـدي حـول رجال الثـورة ليسـت مقتصرة علـى العلماء والحـوزة العلميـة، فعندما عاد مـن أوروبا بعد شهر مـن السفر، كان يشـرح لعالم الدين المنفي هناك حول سفره، ويقول: «في إيران، هناك مَـن يعمل لتولّي السلطة بعد سقـوط نظام الشاه». تعجّب العالم المبعد مثلـي أيضًا؛ عـن أيّ حكومة يتحدّث مهدي؟! لا أحـد يعرف ما سوف يحصـل. لكن مهدي كان يقول بجدّيّة: «كلا، هؤلاء جلسوا ليخطّطوا».

وأخذ يسرد أسماءهم: «هناك شخص منهم ذو اتجاهات سبعة اسمه «اليـزدي»، وآخـر متهتّك اسمه «قطـب زاده»، وهناك ابـن عالم دين خبيـث اسمه «بني صدر». وذكر أسماء أفـراد آخرين لأول مرة نسمع بأسمائهـم. لكن فيما بعد تبيّن لنا صحّة ما قاله مهدي، أتوا واستلموا السلطة لمدة بسيطة.

لقـد كان يعرف التيـارات الفكرية، والأشخاص الذين لهم علاقة بالثـورة. كان ينتقد المهندس بـازركان كثيرًا؛ لأنه يدفـع باتجاه دعاة الوطنيـة، ولا يؤمن بالعلماء وقدرتهم علـى إدارة البلد. لكنّه في الليلة نفسها حـين أعلنت الإذاعة تكليف الإمـام الخميني لبازركان كرئيس وزراء للحكومة المؤقتة، قال مهدي لكل من سمع رأيه فيه: «لا أسامحكم إن ذكـرتم ما قلته عنه أمام أحد، وما دام الإمام يدعمه، فنحن علينا الإذعان».

بدايـة انتخابـات رئاسة الجمهوريـة، كنتُ في قـوات حرس الثورة الإسلاميـة في «نـور آباد»، ومهدي كان في قـوات الحرس في «شيراز». اتصلتُ به ليلة الانتخابات وقلتُ له: «يا مهدي، غدًا الانتخابات».

ضحك وقال: «أصبحت الآن تتنبأ عن الغيب!».

- لا، ولكن نريد أن نعرف لمن نصوّت؟

كان يعلم أنّ رأيه مهم جدًا بالنسبة إليّ، فقال:

- تسألني أنا؟! وما يدريني؟!

- بصراحة، لمن ستصوّت أنت؟

- وما يعنيك من ذلك؟ وهل رأيتني أسألك يا جعفر؟

- تكلم بطريقة حسنة يا مهدي.

- هذا هو الموجود. وأفضل من هذا لا أعرف.

كان خلافًا للآخريـن، أكثر جدّية عند المزاح، لذلك تغيّرت لهجته وخاطبني: «سيد جعفر، لـولا أنّ الإمام الخميني لم يوجب التصويت، لما ذهبتُ إلى صندوق الانتخابات، ولو خُـيّرت بين رجوي وبني صدر، لصوّتُّ لرجوي». بدا أنّه أحسّ أني تعجبتُ من كلامه، فوضّح لي قائلًا: «رجوي معروف بتوجّهاته، في حين أنّ الكثيرين لا يعرفون بني صدر».

كلامه هذا كان عجيبًا جدًا بالنسبة إليّ وإلى الكثيرين مثلي، إذ كنّا نعتقد أنّ بني صدر دكتور في الاقتصاد، ويتمتّع بدعم الإمام الخميني، ويستطيـع أن ينعش اقتصـاد البلد، وكان يطلق كلامًـا متطرفًا وأكثر ثوريـة من الإمام الخميني. لكـن بعد عدة أشهر اكتشفنـا أن توقّعات مهدي كانت صحيحة، وإن كان لم يبق حيًّا ليرى صحة باقي توقعاته.

ففي صباح باكر، خرج من بيته متوجّهًا إلى عمله في قوات الحرس، اغتالـه المنافقـون وفـرّوا. ثماني عشـرة رصاصـة أصابتـه في بدنه، فاستشهد في أرضه؛ خسرت قوات حرس الثورة في بدايتها أحد أفضل شبابنـا فكـرًا[1]. لم يخطئ الذين اغتالـوه في الاختيار، كانـوا يعلمون أنـه كان لا يرى ابنته الصغـيرة مستيقظة إلا مرة في الأسبوع، فعندما يذهـب إلى عملـه صباحًا يجدهـا نائمة، وعندما يعود مـن عمله ليلًا تكون قد نامت.. وهكذا.

أذكر عندما نصحته أن يخصّص وقتًا أطول يقضيه مع أسرته على الرغـم من ضغوط عمله، قال لي: «بوجـود كل هؤلاء المنافقين وأعداء الثورة، كـم شخصًا لدينا في أمن الحرس ليعملوا على ملفّاتهم؟»؛ كل

1- يوم 1981/10/19م وفي صباح دام، انطلقت السهام السامة من قوس حقد المنافقين لتصيب قلب أسوة التقوى والاستقامة الشهيدً مهدي الفيروزي، وكان عمره حينها خمسة وعشرين عامًا.

هذا وكان راتبه من قوات الحرس حينها ثلاثة آلاف تومان.

علـيّ أن أخجل من أناسـ كانوا ينفقون ممّا يمتلكـون لأجل الثورة كمسلمي صـدر الإسلام. ما ذكرته عنه هو غيض من فيض. إن وجود أمثـال مهـدي في مسيرة الثـورة كان كافيًـا ليشحذ همـم الكثيرين، ليتقدّموا ويعملوا بجد. كان مهدي في شيراز ونور آباد من هؤلاء الذين كان لهم تأثير عميق عليّ وعلى كثيرين غيري.

كما ذكرت سابقًا، كنتُ إلى جانب مهدي شابًّا ثوريًّا، وحدث أن قدم إلى «نـور آباد» سيّد معمّم. كان يتوجّب أن نعرف هويّته، وطبق الأصول الأمنيّـة للمجموعة يجب الاقتراب منه بحـذر. فقصدتُ الحاج موسى رضا زاده، وهو من أهالي «نور آباد» وصاحب دكان فيها، كنتُ قد تعرفت إليـه من قبل، كان متعاونًا مع مجموعتنـا، طلبنا منه أن يعرف من هو هذا المعمّم؟ ومن أين أتى؟ وماذا يفعل هنا؟ وما هو نهجه الفكري؟

كانت صلاتا المغـرب والعشاء في المسجد خلف ذلك المعمّم، كافيةً ليعرف الحاج موسى كل شيء، بعد ساعتين من أذان المغرب عاد وقال: «إنّه آية الله مدني، من أهـالي «آذرشهر» في آذربايجان الإيرانية، قد نفته الحكومة من «خرم آباد» إلى هنا».

في الليلة التالية، ذهبتُ أنا ومهدي ومحمود للصلاة خلفه، وبذريعة معرفـة الفرق بين الماء المضاف والماء المطلـق اقتربنا منه، ثم عرّفناه بأنفسنـا، وأصبحنـا من تلامذته ومريديه حتى آخـر عمره، فيما بعد وبقيت رؤيته للحظة حسرةً في قلوبنا.

عرفنا منذ البداية أنه بعد دراسته الابتدائية انتقل من «آذر شهر» إلى «تبريز» ومنها إلى «قم» ثم إلى النجف، وأصبح من خواص تلامذة

آية اللّه الخوئي. فيما بعد، رأيت إجازة اجتهاده بخط آية اللّه الخوئي. عندما نُفي الإمام الخميني إلى النجف[1]، جذبه ضميره الطاهر إليه، وجرى نقاش بينه وبين أستاذه آية اللّه الخوئي حول مسألةالتحرّك بوجه الشاه، يحكي عن الاختلاف في النظر إلى الأمور..

واضطر السيد مدني للعودة إلى إيران، ولإحساسه بالواجب في دعم أهداف الإمام الخميني، يشرع بتعريف الناس بنهج الإمام الخميني وآرائه.

حضوره ونشاطه جعلا جهاز السافاك يشكّل له ملفًا خاصًا منذ البداية. اتصل رئيس السافاك ببيت السيد مدني في «خرم آباد» شخصيًا، وكان آية اللّه مدني يجيب بنفسه على الاتصالات، لكن رئيس السافاك لم يعرّفه بنفسه، بل تحدث بصفة موظف إداري، وسأله: «أي مرجع تقليد عليّ تقليده؟».

قدّم السيد المدني له الأدلّة الشرعية والعقلية على صحة العدول من مرجع إلى آخر، وأكّد له أنّ تقليد آية اللّه الخميني واجب حاليًا.

عندها يجيبه رئيس السافاك: «إني آكل من مال الحكومة، والنظام ليس على علاقة جيدة معه».

يرد عليه آية اللّه المدني: «لم أطلب منك أن تأخذ رسالته العمليّة إلى الإدارة، ولا داعي أن تخبر أحدًا بمن تقلّد، فمسألة التقليد بينك وبين اللّه ومرجع تقليدك».

1- آية اللّه السيد أسد اللّه المدني، دعاه أهالي همدان بعد انتصار الثورة إلى مدينتهم، وانتخبوه عضوًا في مجلس خبراء تدوين الدستور الإسلامي، بعد استشهاد آية اللّه القاضي الطباطبائي عيّنه الإمام الخميني أول إمام جمعة في تبريز، وممثّلًا للولي الفقيه فيها، جاهد من منبره هذا لصيانة قيم الثورة الإسلامية، استشهد على يد المنافقين في 1981/9/10م في محراب صلاة الجمعة بتبريز عن عمر ستة وسبعين عامًا، شُيّع في تبريز ثم في قم، ودفن في حرم السيدة المعصومة (س).

على إثر ذلك، ينقل أحد تجّار «خرم آباد» للسيد آية اللّه مدني ما حدّثه عنه رئيس السافاك، فيردّ عليه السيد المدني: «قل له إني أقول ذلك للجميع، لأنّه تكليفي الشرعي».

بعد هذه المناوشات، يقرّر جهاز السافاك في خرم آباد نفيه منها، وفي الليل يطرقون باب بيته، حيث يطلّ عليهم بملابس البيت من دون عمامة وعباءة، فيأخذونه من هناك إلى دائرة الشرطة، ثم مخفورًا[1] إلى «نور آباد ممنسي»، وعندما يخرجون من خرم آباد يرسلون أحدًا ليأتيه بعباءته وعمامته.

خلال الطريق يتعامل مع رجال الأمن ويؤثّر في أحدهم، بحيث يضطر الرجل إلى خلع خاتمه الذهبي من يده، ليتوضأ ويصلّي جماعة خلف آية اللّه المدني.

طبق أحكام النفي، يتوجّب عليه في «نور آباد» مراجعة مركز الدرك وإثبات حضوره فيها وتوقيعه يوميًّا. فكان كل يوم بين الساعة الحادية عشرة والثانية عشرة ظهرًا يتوجه مشيًا على الأقدام إلى مركز الدرك ويعود.

طلبتُ منه عدة مرات أن أقلّه بالسيارة، لأنّ الجو كان حارًّا وقد تقدّم في السن، لكنّه أصرّ أن لا يذهب إليهم إلا ماشيًا. فاقترحت عليه: «اذهب في الصباح الباكر إذًا، حين يكون الجو ألطف»، فكان يجيب برفع حاجبيه ويقول: «كلا، في هذه الساعة أفضل».

في البداية، لم أكن أعرف سبب إصراره على هذا التوقيت بالذات وعلى السير مشيًا، فسرتُ خلفه عدة مرات، فتبيّن أنّه حين عودته من مركز الدرك، يجلس أمام ثانوية قريبة ويتكئ إلى عمود كهرباء

1- تحت الحراسة.

ليرتــاح، وأثنــاء ذلك ينتهــي دوام المدرسة وينصــرف الأولاد، فيلتفّ حوله عدد منهم.

وعندمــا سألته عن سبــب تصرّفه هــذا، أجابني: «هــؤلاء شبّان، قلوبهــم طاهرة نقيــة، يكفي أن يتساءلــوا: لماذا يجــب أن يتوجّه هذا السيد كل يوم إلى مركز الدرك ليوقّع، ليتنبّهوا إلى ظلم هذا النظام».

كان يُحدّث شبّان تلك المدرسة بكلام جميل، ويمازحهم، أكثر ممّا يقدم النصح والأحكام الدينيّة. فقد كان يعتقد أنّ الحسّ الذاتي عند الشبــاب قوي، يمكّنهم مــن اكتشاف الحقائق بأنفسهــم. وكان يقول: «إذا دخــل لصّ إلى بيــت ما، فلن يخاف من استيقــاظ الرجل الكبير والمــرأة الكبــيرة في السن؛ بــل يخشى من استيقــاظ الشباب. الآن في بيتنــا لص، فأمريكا تنهب أموالنا وشرفنا وعزّتنا وحيثيّتنا، لذا علينا أن نوقظ الشباب».

بــدءًا من الشهر الثاني لوجوده في «نور آباد» شرع بتدريس القرآن. كان يقيم جلسة التفسير ثلاث ليالٍ في الأسبوع، بعد صلاة العشاء، في بيته المستأجر بجانب مسجد الإمام السجاد عليه السلام.

في البدايــة، كنــا خمسة أشخاص، واتفقنا أن يأتــي كل واحد منّا بشخصــين معه. ومنذ الأسبوع الثاني لم يعــد هناك متّسع في الغرفة. وكان الدرس منظّمًــا جدًا، ومــن يتأخّر دقيقة واحــدة عن الصف لا يلتحق به، لأنه عند بدء الدرس يغلق الباب.

كان الدرس الرابع مخصّصًا لسورة الحمد، حين قال شابٌّ متحمّس مــن أهل المحلة: «سيدنا ليتك بدأت بسورة التوبة لأنها سورة الجهاد». تبسّــم السيــد مدني قائــلًا: «يبدو أنك محــب للقتال أيهــا الشاب، لا تعجل، فالقرآن كتاب يهــدي إلى كيفيّة العيش، وعندما يتعلم الإنسان

كيف يعيش جيدًا، فستكون كل لحظاته جهادًا في سبيل الله».

ما زلتُ أتذكر الأمثلة التي كان يطرحها في درسه. في إحدى الليالي، أشار إلى المصباح المعلّق في السقف، وقال: «لو كان الإنسان لا يعرف شيئًا عن الكهرباء، لظنّ أنّ نور هذا المصباح ذاتي، في حين أنّ نور المصباح من مولّد الكهرباء، بحيث إذا انقطع اتصال المصباح بالمولّد بمقدار إبرة فسينطفئ، ولن يضيء حتى بمقدار شمعة. وهكذا هي العلاقة بين الإنسان وربّه، إذا انقطعت يختفي منه النور».

ثم تحدّث عن تأثير الدعاء باكتساب النور، وقال: «عندما افتقدت السيدة خديجة عليها السلام النبي صلى الله عليه وآله من فراشه، خرجت خلفه، ووجدته ساجدًا مرتميًا على الأرض باكيًا يقول: ربّي لا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبدًا. هذا رغم أنّ النبي صلى الله عليه وآله أفضل المخلوقات. إنّ هذا يدل على أنّ علاقة الإنسان بالله هي كعلاقة المصباح بمولّد الكهرباء، وأنّ أنوار البشر كلّها مستقاة من الله».

على الرغم من أنّ السلطة منعت دروسه القرآنية سريعًا، لكنّها تركت تأثيرها على الشباب، واستقرّت محبة آية الله المدني في القلوب. لذلك كان المتديّنون هنا وهناك يدعونه إلى منازلهم، وكان يكفي السيد أن يعلم أنّ صاحب الدعوة متديّن، من رواد المسجد ليثق به ويلبّي دعوته، من دون التدقيق في سيرته الشخصية وحياته. وكان حريصًا على الحضور في الموعد المقرر. عندما كانوا يدعونه في شهر رمضان للإفطار، كان يقول إما أن نصلي في بيت المستضيف أو في المسجد، لكن من دون تعقيبات كي لا نؤخره.

امتدّت علاقات آية الله السيد مدني مع الناس، وازدادت محبّته في قلوبهم يومًا بعد آخر، فأحسّت السلطة بالخطر، لأنّ هدف النفي

هــو التقليل من تأثــيره. اتّخذ القرار، ولا مجــال لتغييره، فقد صدرت الأوامــر العليا بإعادة نفيه، وهذه المرة إلى مدينة «قنبد كاووس»، كان الخبر سيّئًا بالنسبة إلينــا، بعد أن أصبحنا كالفراش الذي يدور حول نور الشمعة.

أصــرّ رجــال الدرك علــى تقييد يديــه، وأن يرافقــه شرطيّان إلى حافلة «قنبد كاووس». كان مجرّد تصوّر هذا المشهد صعبًا علينا. قمنا بالتعــاون مع الحاج موسى بتأمين سيارة «لندروفر»، وطلبنا من رئيس مركز الدرك أن يسمح لنا بنقله بهذه السيارة، قال: «شرط أن تتحمّلوا كلفــة ومصاريف الشرطيّين أيضًا». وقــد قبلنا ذلك، لكنّنا علمنا فيما بعد أنّ كلفة رحلة نفيه تلك قد صُرفت لذلك الرئيس، لكنّه نهبها منّا.

كنــا في السيارة أنا والحاج موسى وسماحتــه والشرطيّان. تحركنا صباحًــا، وعند الظهر توقفنا في شــيراز للصلاة وتناول طعام الغداء. وقــف السيد للصلاة ونحن خلفــه، وقبل التكبير توجه إليّ وإلى الحاج موسى رضــا زاده وقال: «لأنّ سفركما لكسب الثــواب، عليكما أن تتمّا الصلاة ولا يجــوز لكما قصرها». ولم يفهم الشرطيّان شيئًا من كلام السيد فصلّيا تمامًا معنا.

عندمــا اقتربنا من «قنبــد كاووس» طلبنا مــن الشرطيين أن نزور الإمام الرضا عليه السلام بما أننا أصبحنا قربه، فرفضا ذلك رغم إصرارنا، وقالــوا: «إنّ مدينــة مشهد هي خارج حــدود مهمتنــا، وإذا حصل أيّ مكروه فسيحكم علينا ونسجن، ولن يمدّ أحد يد العون لأسرنا».

حدّثهم الحاج موسى عــن الثواب الأخروي للزيارة، وأننا سنراعي جانــب الاحتيــاط، وألزمنــا أنفسنــا بوعــود ومواثيــق، إلى أن وافقا، فتوجّهنــا إلى مشهد. كان يمكننا قصدها عنــد العودة، ولكنّنا أحببنا

أن نزور بمعيّة سماحة السيد.

استضافنا ليلًا آية الله الشيخ «المرواريد»، وفي اليوم التالي، توجهنا إلى «قنبد كاووس». بقي الحاج موسى هناك ليرتّب سكن سماحة السيد، فيما ودّعتُه أنا بالدموع.

في نور آباد، بدا الفراغ الذي تركه غياب السيد واضحًا، وحاول كلّ منا في مسيرة المواجهة أن يمثّل صفة من صفات سماحة السيد، ولم تنقطع أخباره عنا، بل كنا نطمئن عليه من خلال الهاتف والرسول والرسائل وغير ذلك.

لكننا بعد مدّة علمنا بأنه جرى نفيه مجددًا إلى مدينة «بوشهر» الساحلية، ومن بوشهر إلى ميناء «كنقان ودير».

لم تكن بندر[1] كنقان تبعد عن «نور آباد» كثيرًا، ويمكننا زيارة السيد. تحركنا في الصباح الباكر أنا والحاج موسى ومحمود فيروزي إلى هناك، وتوجهنا مباشرة لزيارته، وبقينا عنده حتى الظهر. كما زاره غيرنا، أحدهم شخص اسمه «دوراهكي» من أهالي بوشهر، بدا أنه قد قرأ جميع كتب الدكتور علي شريعتي، وكان خلال حديثه يذكر اسم الكتاب والموضوع ورقم الصفحة. تعجّبنا نحن الثلاثة من ذاكرته العجيبة، رغم أننا كنا كتلاميذ لآية الله المدني نستند إلى كتب الشيخ المطهري، وأحسسنا بوجود هوّة بيننا وبين ذلك الرجل. لكنّ مجرّد حبّه لكتب الدكتور شريعتي كان علامةً على ثوريته، وهو ما يجمعنا.

ظهرًا، بعد صلاة الجماعة، أخبرنا السيد مدني أنّ هناك من دعاه إلى الغداء في بيته، والدعوة ستشمل 20 شخصًا من ضيوفه، فتوجّهنا جميعًا برفقة السيد وضيوفه، وكنّا أقل من عشرين شخصًا.

*- مرفأ.

الجو في «كنقان» رطب جدًا وحار، وقد استخدم المستضيف مكيّفين غازيّين في الغرفة، وكان قد مدّ المائدة وأعدّ الخضروات والمخلّلات والسلطات والمياه الغازية واللبن والخبز. وعند وصولنا، قدّم الأرز ويخنة الخضار الساخنة.

جلس السيد في المقدّمة، فيما توزّع باقي الضيوف على الجانبين، وجلس السيد «دوراهكي» إلى جانبي، فقرّب فمه من أذني وهمس: «لا ينبغي لسماحته أن يلبّي مثل هذه الدعوة، فالناس هنا لا يملكون ثمن مروحة سقف، في حين أنه شغل مكيفين غازيين». ثم أشار إلى المائدة وألوان الطعام المقدَّمة مضيفًا: «هذا الوضع لا يناسب عالم دين كبير ثوري».

مهما شرحتُ له أنّ كل هذا ليس منه، وأنّ تلبية الدعوة ليست تقصيرًا منه، وأنّ هذا حال المستضيف، لم يقتنع، وأخذ يحدثني عن صدر الإسلام، وكيف أنّ الأئمة عليهم السلام كانوا يرفضون الموائد الثرية. حتى عجزتُ عن نقاشه، لكني أحسستُ أن من واجبي نقل هذا الكلام لسماحته، التمستُ ذريعة لأقترب منه، وهمست في أذنه ما قال دوراهكي. فأجابني بهدوء: «إنّه مخطئ، سأوضح لكم فيما بعد».

ثم أخذ السيد بعض السلطة والأرز واليخنة. فيما كان دوراهكي يقول للمستضيف بصوت عالٍ ليسمعه الجميع: «شكرًا لك، إني أكتفي بكاسة صغيرة من اللبن وقطعة الخبز هذه».

عندما انتهينا من الطعام، شكر السيد صاحب البيت على الطعم الجيد للمائدة الثرية، ودعا له، وأمّن الآخرون على دعائه، ورُفعت المائدة، وعدنا إلى بيت السيد.

في البيت، قام سماحته بالتوضيح بأن الإسلام قد وضع آدابًا

للداعـي والمدعـو، وأكّد على إجابة دعوة المؤمـن واستجابة التلبية، إلا إذا علمـت أنـه آكل ربا أو محتـال ومرتكب للمحرمـات. عندما دعانا الرجـل، كان يعلـم أنّ السافـاك أو الشرطـة قد يستجوبونـه لدعوته شخصًا منفيًّا، لذلك فهـو يعلم الصعوبات التي قد يواجهها، كما إني استعلمتُ عنه، وعلمت أنه متديّن ثوري. كما إنّ الإسلام أوصى بحسن الضيافـة، وأن تسعى قدر استطاعتك أن تكـرم الضيف، وأن نستفيد من النعم الدنيوية، من دون أن نتعلق بها و....

رغـم كل توضيحات السيد مـدني لم يقتنع دوراهكي، بل كرّر رأيه: «علينا أن نراعي شعور الفقراء، وأن لا نتناول من هذا الطعام».

انتهـى ذلك اليوم، وعدنا إلى نور آباد، وبعد عدة سنوات انتصرت الثورة الإسلامية، وكانت المفارقة أنّ ذاك الشخص الذي كان أحرص من سماحته ثوريًا[1]، قد أصبح ضد الثورة وفرّ من إيران.

1- ملكي اكثر من الملك (كما يقال في امثالنا).

## القضبان الأولى

لم تُوجّـه إلينـا أي أسئلة، ولم يُجرَ معنا أي تحقيق، هكذا ومن دون سابـق إنذار، وضعونا جميعًا في الجانـب الخلفي للسيارة، ونقلونا إلى مركـز الشرطة. اصطف الحراس على الجانبين على طول المسافة من المدخل حتى نهاية باحة المركز، يفصل بين الشرطيّ والآخر متر واحد. وكان لا بدّ لنا من اجتياز هذا الممر بين الحرّاس؛ ما إن خطونا الخطوة الأولى حتى سارع الشرطي الأول إلى توجيه لكمة قويّة لكلّ منّا، دفعتنا إلى الطرف المقابـل، ليستقبلنا الشرطي الآخـر برفسة قوية، ترسلنا إلى حيث كنّا.. وهكذا.

لم يكونـوا ينظرون إلى أشكالنـا، فقد أضحينـا أكياس ملاكمة لا غير. عند نهاية الممر، جمعونا في باحة صغيرة، ليتسلّى بنا أيّ شرطي يأتي ومن أيّ رتبة كان إمّا بلكمة أو رفسة ويهزأ بنا.

كان ذلـك في العـام 1976م، أي بعـد عام من وجودنـا في نور آباد، اتفقنـا على الذهاب إلى «كازرون» بهدف التنسيق مع الثوريين هناك، وتبـادل بعض البيانات. ولكن يبـدو أنّ الشرطة كانت تراقبهم هناك، فعلموا بعلاقتنا معهم، لذلـك فوجئنا بسيّارة الشرطة تستدير أمامنا فجأة، وها نحن في مركز الشرطة في «كازرون» حيث نتلقّى الضرب.

كان مـن بـين المعتقلـين شـاب متحمّـس، بـدأ جهـاده مـن قريته

«قاوكشـك»[1]، واستمرّ يمارس نشاطاتـه في كازرون أيضًا، وكان رجال الشرطـة يحقـدون عليه كثيرًا، ويقولون له: أيهـا القروي، ما علاقتك بهذه الحماقات، اذهب وارعَ بقرتك.

كان يومئ برأسه إيجابًا، فيما يبدو ساخرًا منهم، وقد كان الضابط عديم الرحمة وجلفًا غليظًا في تعامله معه، كأنّه قاتل أبيه. وفجأة، رفع الضابط عصاه عاليًا لينهال بها على وجه الشاب الذي رفع يده ليتّقي بها وجهـه. فأصابت العصا ساعته «واسـتن واتش» فتحطّم زجاجها، إلى ألف قطعة تناثرت لتصيب وجه أحدهم.

في الوقـت نفسه، اقتادوا عدة أشخاص آخرين، كانوا قد اعتقلوهم في التظاهـرات، كان أحدهـم مصابًا برصاصـة في رجله، ولم يضمَّد جرحه بعد، وما زال الدم يسيل منها.

في تلـك اللحظـات، مزّق مهدي فـيروزي ورقةً صغـيرة من دفتره الجيبـي، مرّرها على دم الشاب، ثـم وضعها في دفتره. فسألته: «ماذا تفعـل؟» قال: «إنّ هذا الدم قـد سفك في سبيل الله والإسلام، أريد أن أحتفظ به للذكرى».

بقينـا هناك تلك الليلة، وعند صباح اليوم التالي بدأت محاكماتنا بشكل مجموعات كقطعان غنـم، فجرم الجميع هو «الإخلال بالنظام العام للبلاد»، ومدة السجن غير محددة، ولا يحقّ لأحد أن يسأل: لماذا نُساق إلى السجـن؟ أو كم هي مدة سجننا؟ فبمجـرّد السؤال، تتوجّه الأنظار إلى السائل ليتعرّض للتعذيب.

بعـد عـدة أيـام، سألْنا الحارس بحـذر: «كم هي مـدة السجن؟»، لكنّنا لم نحصل على جواب شافٍ، فجميعهم من الحارس إلى الرئيس

1- قريـة تقع على مسافة مائة كيلومتـر عن شيراز، قرب مضيق أبو الحيات، عند تقاطع شيراز - كازرون.

يجيبــون: لا نعلم، تأتي الأوامر من الأعلى. بتنا من أصحاب السوابق، وأخذوا بصماتنا، والتقطوا لنا صورًا مع الأرقام، وحلقوا رؤوسنا.

«محمــود فــيروزي» الــذي كان أصغرنــا سنًّــا، إلا أنّــه كان يمدّنــا بالمعنويات، وكان يــردّد: «إنّ هذه الأيام ستمضي بسرعة البرق، وتمرّ بسرعة الرياح، وستأتي الأيام المنيرة».

لم نكن نشعر بقــرب تلك الأيام المنيرة إلى هذا الحد، كنّا نتعرّض للتعذيب والأذية والتحقيق بشكل دائم، ولا ندري شيئًا عمّا يجري خارج القضبــان، العمل الوحيد الــذي كان يمكننا فعله هو التواصي بالصبر ورفع روحية الآخريــن. وكوننا لا نعلم شيئًا عن الغد، كنّا ننتهز فرصة الخروج للتشمّس، كي نتحدث عن نشاطات ما بعد إطلاقنا.

بعــد عدة أسابيــع، تقــرّر السماح بالزيــارات، مع تنفيــذ الأعمال الشاقــة، ولا يحقّ للزائــر أن يتحدّث مع المعتقل إلا لعــدة دقائق، ومن خلف شباك حديد يفصل بينهما متران، حيث يقف الزائرون صفًّا في جهة والمعتقلون صفًّا آخر في الجهة المقابلة.

وكان عــدد السجنــاء والزائرين كبــيرًا، ممّا يضطرهــم للتحدث بصــوتٍ عــالٍ ليتمكّنــوا من سمــاع بعضهــم البعض. التــزم السجناء السياسيون فيما بينهم بأن لا يسمحوا لعواطفهم ومشاعرهم بالظهور، ولا البــكاء خــلال الزيارات، لتبقــى معنويات زوّارهــم مرتفعة، ولئلّا يشعر سائر السجناء بالضعف.

لطالما كان السجنــاء السياسيّون في السجن في حالة صمت وتفكير وهــمٍّ، لكن بمجرد أن يُذكــر اسم أحدهم بأنّ لديه زيارة، تراه يتصنّع الابتسامــة لتبقى على وجهه أمام زائره طوال فــترة ذهابه وإيابه من قاعة الزيارات.

آخـر اسم صـدح عبر مكبّر الصـوت هو اسمي. كانـت والدتي قد جالت علـى مراكز الشرطة في عدة مدن بحثًـا عني، حتى وصلت إلى «كازرون»، كنتُ مطمئنًا من قدرتـي على ضبط أحاسيسي وعواطفي، وقـد درّبـتُ نفسي علـى ذلك، لكنـي كنـتُ أخشـى أن لا تضبط أمي عواطفها فتبكي أمامي، وتؤثر عليّ.

عندما دخلتُ قاعة اللقاءات، رأيت الكلّ ملتصقًا بالسياج ويتحدث بصوت عالٍ، أما أمي فكانت مستندةً إلى الجدار، والحرّاس منتشرون، يراقبون كل الحوارات. نظرتُ إلى حارسين قربي، ثم تقدمتُ وأمسكت بالسياج، وناديتُ: «السلام عليكِ يا أمي». بقيت مستندة إلى الجدار، ولم تبـارح مكانها، ونـادت بصوت أعلى من صوتـي، كأنها تعمّدت أن تُسمع الجميع: «السلام عليك يا بني، هل أنت بخير؟».

وقبـل أن أجيبهـا الحمد لله. نادتني بصوت أعلـى من السابق: «لا تغتـم يا بني، فالسفلة قد سجنـوا الإمام المعصوم من قبل، فمن تكون أنت؟!».

استنفـر الحراسـ عندما لاحظـوا أنّ أمي لم تتقدّم نحـو السياج، فلـم يدعوهـا تكمل كلامهـا، وشنّـوا هجومًا علـى هذه المـرأة المسنّة كأنّمـا يواجهون بطل مصارعة من الـوزن الثقيل، كانوا خمسة حراس يهاجمون أمي! جرّوا عباءتها، وأخرجوها من القاعة.

سـرت في جسدي قشعريرة مـن قساوة ما رأيـت، لكنّي رغم ذلك شعرت بالفخر وأخذت أضحك من نفسي، كيف كنتُ قلقًا قبل الوصول إلى القاعـة! انتشـر خـبر الكلام الذي صـدر عن أمـي بسرعة داخل السجن، وساهم في رفع معنويات الإخوة بتلك الجملة التي أطلقَتها.

أظـنّ أنّ زيارة والدتي كانت في أول آذار 1977م، فبعد عدة أسابيع

حصل اختلاف في الرأي بين الشرطة والسافاك، فأُطلق على إثره سراح عدة سجناء سياسيين ومن بينهم أنا، بكفالة طبعًا. علمًا بأنّ توافر كفيل كان أمرًا صعبًا، فالكثير ليسوا على استعداد لكفالة سجين سياسي.

وقد حدث أن وافق والد أحد أصدقائي على كفالتي برحابة صدر، لكنّه عندما علم أنني متهم سياسي لوى عنقه واعتذر من أبي مبرّرًا: «لو أنّ ابنك قد سطا على بيوت الناس، أو نصب واحتال - لا سمح الله-، أو ارتكب جرمًا أخلاقيًا لكنت كفلته، لكن حساب الجريمة السياسية يتكفّل بها الكرام الكاتبون (يقصد السافاك)، فلا تلوّثني بهم، لا أريد التورّط معهم».

عندها تبسّم أبي وقال له: «إذًا سنزعجك عند ارتكابه لسرقة بسيطة واحتيال شريف». وحاول مع آخرين إلى أن وافق أحد تجار السوق على كفالتي.

## تثبيت الأمن

مع اقتراب موعد انتصار الثورة الإسلامية، لم تعد «نور آباد» بالنسبة إلي مكانًا للنشاطات الثورية للمجموعة وحسب؛ فمن خلال العلاقات التي أقمتها مع أهالي «نور آباد» أضحت وطني الثاني، وأحسست بارتباطي بها، فكنت كل شهرين أتوجه في آخر الأسبوع إلى شيراز، وألتقي معارفي وأعود إلى عملي وحياتي، علمًا بأن تنسيق التظاهرات في كانون الأول 1978م وكانون الثاني وشباط 1979م، لم يترك مجالًا للعمل الخاص والمعيشة. بدا كأنّ النسيج المحروم والفقير في «نور آباد» وروحية العشائر في انتظار انتصار مثل هذه الثورة منذ قرون. فالإمام الخميني كان يعتمد على القلوب الصافية والنقية للناس، ومن واجبنا أن نوجه تلك الطاقات نحو أهداف الثورة.

أكّد الإمام الخميني على أهمية حفظ الثورة وصيانتها، لذلك شرعنا منذ يوم 12 شباط 1979م بتنظيم القوات الشعبية والثورية لحفظ النظام والاستقرار في المنطقة. في البداية عملنا تحت اسم لجنة الثورة الإسلامية في «نور آباد» من داخل مسجد الإمام السجاد عليه السلام، وكان إمام الجماعة سيد ثوري اسمه السيد عبد الرسول الموسوي كانت أصوله من «نور آباد»، لكنه قدم إليها من طهران.

اخترنا بناية السياحة بناءً على اقتراح الحاج موسى وبعض الإخوة.

في البداية تمنّع الحاكم عن الموافقة لكنّه قبل بشرط: «ما دام هدفكم هو حفظ أمن المدينة لا مانع لديّ، لكن أطلعوني على أعمالكم».

خلال شهر أيـار 1979م، شكّلنا قوات حرس الثورة الإسلامية في نور آباد. جهّزنا بسرعة بطاقات انتساب، واخترنا ثمانين شخصًا من شباب العشائـر المناسبين، وأجرينا معهم مقابلات وتقييمًا ليصبحوا أعضاءً في هذه القـوات، ثم قمنا بتنظيمهم. أذكر أنني عندما ذهبت إلى طهـران، التقيت مع الأخ جواد منصـوري (القائد العام للحرس) حينها، ليصـدّق بتوقيعه حكم تأسيس حرس «نـور آباد»، أخذ الطلب وسأل: «أين تقع نور آباد؟».

قلت: «إنها من مدن محافظة فارس».

- انتظر حتى يتم تشكيل حرس «شيراز» لأعطيكم حكمًا بذلك.

حدثته لمـدة عشرين دقيقة عن القرى الكثـيرة المحيطة بنور آباد، والنسيج العشائري الذي تتكوّن منه، والثقافة الخاصة السائدة هناك، وإذا لم نشكّل الحرس الثوري فسنخسر كل شيء. وسألته: «هل تشكيل الحرسـ الثوري في شيراز أوّلًا هو وحـيٌ منزل؟». أخيرًا وافق، وأصدر حكمًا وقال: «ما دمتم ستشكلون قوات الحرس هناك قبل شيراز يجب أن تكونـوا أربعـة أشخاصـ لإدارة العمليات والمعلومـات والأمن لنبرّر توقيع هذا التكليف».

تناولت الورقة، وأخذت أدوّن الأسماء: عبد الرسول الموسوي قائدًا، واسمـي للعمليات، وأضفت اسم قبـاد الأنصاري وأمير حسين رشيدي مساعدين. ناولته الورقة وقلت له بعزم: «بأمرك»، وتسلّمت منه التكليف وودّعته قبل أن يدخل أحد ويرى التكليف فيحاول أن يثنيه عنه.

لا شك أنها مهمة صعبة، فحفظ الأمن في نسيج معقّد ثقافيًا لأكثر

من سبعمئة قرية[1×]، يشهد بعضها خلافات عشائرية تاريخية، ويعتقد الكثيرون فيها أنّ عمل قطاع الطرق هو دليل على الرجولة والشجاعة.

كان لا بـدّ لي أن أضـع «خطة صداقة» مع القروييـين الذين يعرفون الناس جيـدًا، لأستفيد منهـم في تغيير ثقافة «قطّـاع الطرق» والسلب والنهب من نفوسهم. وهي بالطبع ثقافة نابعة من الفقر، لا تمنع نجابة أهلهـا أن يسألـوا الشاب إذا تقدّم لخطبة فتـاة عندهم عن تاريخه في السلـب والنهـب من نفوسهم، فإذا كان لا يملـك تاريخًا في هذا المجال فسيكـون جوابهم الرفض في كثير من الحالات، خشية أن تموت ابنتهم من الجوع لأنها تعيش في بيت رجل لم يكن لائقًا بالسلب والنهب ولا لمرة واحـدة. ويقولون له: إذا عجزت عن تأمين خبـزك من كدّك، يجب أن تكون قادرًا على السلب، لتؤمن خبز زوجتك وأطفالك.

في بدايـة العمـل في اللجنـة، جـاء إلى مركـز الحرس رجـل في الأربعينيـات، كان عبوسًـا متوسـط القامة، وقال إنـه يعرف لصوص المنطقـة: «والآن أوضـاع البلـد مضطربـة، فـإذا لم تقفـوا بوجههم، فسيقومـون بالتخريب، وهذا ما لا ينـاسـب الثورة». أحسستُ بالصدق في كلامه، فتواعدنا على اللقاء في الليلة نفسها بعد الغروب عند بوابة الخروج من المدينة، لنذهب من هناك ونعتقل اللصوص.

لكـن ما إن خرج الرجل الغريب، حتى جاء الحاج «أكبر جمشيدي» من المتعاونـين مع اللجنة، وهو معلـم التربية الدينيـة واللغة العربية. فسألني: «ماذا يفعل هذا الرجل هنا؟!».

فشرحت له ما جرى، فضحك وقال: «يبدو أنك بسيط جدًا يا سيد أسدي، هذا الرجل هو زعيم اللصوص، وهو معروف في المنطقة».

1- يبدو انه قصد 700 قرية في محافظة شيراز ومدينتها.

عندهـا تملّكتني الحيرة؛ لا أدري ماذا أفعـل، فمن ناحية تواعدت معه، ويجب أن أذهب، كما إن كلامه استقر في قلبي. قلتُ للحاج أكبر: «لا بأس بالذهاب لمرة».

أخذت قطعـة سلاح «G3» من الدرك، وتوجهـت إلى الموعد برفقة أخي غلام حسين واثنين من الحرس: محمدي، ونصيب الله لشكري.

بمجـرد أن رأى محمدي الرجل الغريـب حتى ناداه: «يا ساتر، أنت هو؟!»، ثم نظر إلينا وقال: «إن عمل هذا الرجل دقيق جدًا».

توجهنـا إلى «سرابهرام» وتوقفنا قبلهـا بكيلومترين، وضعنا لوحة (توقـف) التي حصلنـا عليها من الدرك، ووضعناهـا وسط الطريق، كانـت كل إمكاناتنا العسكرية بندقية «G 3»، مع مخزنين يحملها أخي «غـلام حسين»، ومسدس شخصـي ما زال معي منذ مـا قبل انتصار الثورة، أضعه على خاصرتي تحت قميصي.

انتظرنـا كثيرًا من دون جـدوى، إلى أن تعبنا. فجلس محمدي على المقعـد الأمامي للسيارة، وأسند رأسه وبدأ بالشخير، بينما تبادلنا أنا وغـلام حسين الدور للجلوس في المقعد الخلفـي للسيارة، وبدأنا نشعر بالنعاس، فجأة صرخ نصيب الله: «الحقوا به، لقد ذهب».

قفزنـا إلى السيارة وسرنا بهـا، قال الرجل الغريـب: «إنها سيارة نيسـان، ولم يتوقف رغـم تلويحي له باللوحة». قلـت لمحمدي: «أسرع، ألا تستطيـع اللحاق بالنيسان؟». وبعد دقائـق أدركناه، لكنه لم يتوقف رغم استعمالنا للبوق والمصباح، ولم يترك لنا المجال لتجاوزه. لم أكن أريـد إصابة أحد، إلى أن صرنـا بموازاته، أطلقت عدة رصاصات من مسدسـي أمام سيارته محاولًا إخافة السائق ليتوقف، ثم تراجعنا إلى الخلـف، عندها أطلق غلام حسـين رصاصتين على الإطارات الخلفية

لسيارة النيسان، فتوقفت إلى جانب الطريق، وترجل منها ثلاثة أشخاص، وفرّوا باتجاه الجبل، لم نتمكّن من اللحاق بهم، لأننا لا نعلم حينها إن كانوا مسلحين أم لا، واكتفينا باستعادة الخراف المسروقة.

ترامى إلى مسامعنا صوت أذان الصبح من القرية القريبة، توضأنا لنصلي، وما إن أنهينا الصلاة حتى ارتفع صوت «نصيب الله» ثانية: «لقد ذهب، هرب». تحركنا بسرعة، وكانت هذه المرة أقل صعوبة من سابقتها، توقفت سيارة النيسان الثانية بسهولة من دون إطلاق نار، حملنا خراف السيارة الأولى خلف خراف السيارة الثانية، وأخذناها جميعًا إلى اللجنة.

امتلأت أجواء «مبنى السياحة» بأصوات معاء الخراف، لم نكن ندري من هم أصحابها، إلا أنّ الرجل الغريب قال إنّ بإمكانه العثور عليهم. عاد عصرًا بمعيّة عدة أشخاص، قالوا: «لولاكم لكنّا أُصبنا بنكبة» وأخذوا يدعون لنا بالخير. وأخذ الرجل الغريب يسألهم عن مواصفات خراف كل منهم، حملوها في سيارات الـ«نيسان» الخاصة بهم وذهبوا.

انتشرت بسرعة أخبار عن مواجهات قاسية تخوضها اللجنة مع اللصوص، كانت الرواية التي تناقلتها أفواه الناس أضخم بكثير من الحقيقة ومن قدراتنا الفعلية، فمثلًا عندما نعتقل لصين مع عشرة خراف، نسمع بعد يومين أننا اعتقلنا عشرة لصوص واستعدنا مئة رأس خروف؛ لم تكن مبالغات سيّئة، فقد كانت تشدّ عزمنا للعمل أكثر.

عندما جرى تشكيل قوات الحرس الثوري، أكملنا هذه المهمة لكن بقدرات أكبر وأفراد أكثر، وواجهنا الإقطاعيين ومزارعي الخشخاش المخدر. وكان لذلك الرجل الغريب دورٌ كبير، فقد كان يعرف معظم

القـرى هنــاك. كنا نتوجّه معه ليــلاً إلى إحدى القــرى، عندما يطرق بــاب البيت، وتجيبه فتــاة أو امرأة، كان يبادر بسؤالهــا: «هل أبوكِ أو زوجـكِ هنــا؟»؛ إن حضر، يطرح عليه بضعة أسئلــة ثم نذهب، وإن لم يكن حاضرًا كان يقول لعلّه ذهب يبحث عن خراف أحد البائسين. كان يعرف الطرق التي يستخدمها اللصوص جيدًا، فحين نرافقه نجدهم.

خلال المدة التي كان يتعاون معنا فيها لم يعد أحد في المنطقة يجرؤ على السرقة، وشيئًا فشيئًا لم تعد السرقة أمرًا يدعو للفخر بنظرهم.

في الواقـع، لم أحضر مراسم تقــدم عريسٍ للزواج، لكني أعتقد أن والــد الفتــاة لم يعد يسأله عــن تاريخه في السرقــة، وإذا كان صاحب سوابق؛ لم يعد مستعدًا لتزويجه من ابنته. وذاك الرجل الغريب أصبح الآن من الثــوار الناشطين في المنطقة، وقد رافقنا فيما بعد، أي خلال الحــرب، إلى «فارسيات» وأصيب هناك. وقد كان خلال فترة النقاهة يتوجّه إلى تقاطع «نور آبــاد» ليساعد في حواجز التفتيش، ويشارك في مواجهــة المنافقــين، حتى أصيب إصابــة قاتلة. وبذلــك استشهد أحد الأشخاص المؤثّريــن في حفـظ أمــن المدينــة، ولحق بــه «نصيب اللّه لشكري» ليستشهد على يد المنافقين.

## وديعة الوداع

جـرى تثبيت وجود قـوات حرس الثـورة في «نور آبـاد» كرمز لقيام الثـورة الإسلامية، وقد تواءمت الثقافة السائـدة في المنطقة مع الثورة شيئًا فشيئًا. كنّا في بدايات شهر أيلول 1980م وقبل بدء العام الدراسي، بعـد عـام ونصف قضيتها في العمـل المستمر من دون أخـذ أي إجازة، كانت فرصة مناسبة لنذهب إلى «تبريز» لزيارة آية اللّه المدني. عندما أخـبرت الحاج موسى، بـدا وكأنه ينتظـر هذا الاقتراح منـذ أسابيع، ابتسم وقال: «اقتراح ممتاز، شرط أن نصطحب أسرنا معنا».

قلت: «اقتراحي هو للترفيه عن أسرنا أساسًا».

في الحقيقـة، الحـاج موسـى صديق محبّـب، فمنذ الأيـام الأولى لوصولنا إلى «نور آباد» احتل مكانه في قلبي؛ ربما كانت حيويّته الدائمة وتحرّكاتـه في النشاطات الثورية هي السبب، وتديّنه وتقواه المثالي، ما جعلـه شخصًا مميزًا. أصله مـن كازرون، وكان منذ مـا قبل انتصار الثـورة الإسلاميـة بخمسـ سنوات تاجـرًا متنقّلا، ينقـل من كازرون بضائع من حبوب وملابس ليبيعها في نور آباد، ويشتري بثمنها الكشك والصوف والزبدة وما يرغب به أهل كازرون.

بعـد سنتين من هذه التجارة، استأجر دكانًا في قرية آهنكران بنور آباد، وسكن فيها. هكذا كانت تبدو حياته.

لكـن الحاج موسى كان يعرف الإمام الخميني، ويقلّده في الأحكام،

وكان ينقل الرسالة العملية للإمام الخميني إلى نور آباد، ويعلّم أهالي بعض القرى الأحكام الشرعية، من كيفية الغسل، إلى أحكام الزواج، والصلاة الصحيحة والصيام وسائر الواجبات الأخرى. لم يكن صعبًا معرفة سبب الاحترام الكبير الذي يكنّه له الناس، فالجميع كان يحاول كسب ودّه ورضاه.

نشط مشاركًا في التمهيد للثورة، واسْتَقْطَبَتْهُ لمدة جماعة اتحاد الحجتية، فروّج لمعتقداتهم. وعندما توجهنا إلى «نور آباد» للمرة الأولى، ذهبنا إلى كازرون بطلب منه، وحضرنا كلمة للشيخ الحلبي رئيس الاتحاد، وعندما عدنا وأبلغنا آية الله المدني بذلك، فكّر قليلًا، ثم قال: «هل صلّيتم هناك قصرًا؟».

أجبنا بتعجّب: «بالطبع صلّينا قصرًا لأننا كنا في سفر».

ابتسم ابتسامة ذات مغزى، مما زاد من فضولنا، فسأله محمود الفيروزي: «مولانا أرجو أن تكرر كلامك، فلم نفهمه».

قال: «أعيدوا صلاتكم». فتسمّرنا في أماكننا من الدهشة، وقلت له: «لم نكن في سفر ظلم أو معصية، ذهبنا للقاء عالم دين».

عندها شرع بالحديث عن انحرافات اتحاد الحجتية، وعلاقتهم بنظام الشاه، وأعمالهم المطابقة لما يريده الظالمون، وتبريرهم بأنّ ذلك يساهم في ظهور الإمام المهدي عليه السلام، وقال غير ذلك من الأمور. ما دفع الحاج موسى أن يقرر الابتعاد فورًا عن ذلك الاتحاد، وبات من أشدّ المخالفين له، كان كلام الحاج موسى يوحي أنه كان قد أحسّ بانحرافهم، لكنه كان يعمل للحجة، فكان آية الله مدني ملاك نجاته.

لنعد إلى موضوع السفر، أخذنا من «عبد اللهي» شاحنة «مازدا 1600» صغيرة، ذات صندوق مغلق، كانت مناسبة جدًا لوضع سجادة على أرض الصندوق، جلس عليها النسوة والأطفال في الخلف،

كما وضعت معهم المؤن الكافية. وركبتُ وأنا وموسى في المقدّمة. ولنختصر الطريق، توجّهنا إلى شيراز ثم أصفهان، وقضينا الليل في مدينة قم، وفي الليلة التالية، بتنا في مدينة ميانة، ووصلنا إلى تبريز في اليوم الثالث.

لم يكن صعبًا العثور على مكتب ممثل الإمام الخميني في تبريز. عند التاسعة والنصف صباحًا، دخلنا زقاق المكتب، طرقنا الباب، ففتحه شابٌّ سألنا بالآذرية والفارسية: «ماذا تريدون؟». وكنت قد تعلمت اللغة التركية الآذرية خلال تعاملي مع الآذريين فترة التجنيد الإجباري، فتحدثت معه بلهجة غليظة كي لا يفطن الحارس أنّنا غرباء، وقلت له: «نريد لقاء سماحته».

وكما هي عادة الحراس، سأل مجددًا وبجدّية: «ماذا تريدون منه؟».

بعد كل هذا التعب احترت ماذا أجيبه وماذا نريد من سماحته، فقلت: «أنت أخبره أن الأسدي ورضا زاده أتيا من «نور آباد» فهو يعرفنا». عاد بعد دقيقة مهرولًا ومبتسمًا ومرحّبًا بنا للدخول.

تركنا عيالنا في السيارة، ودخلت أنا وموسى. لم تخفّف المسؤولية من حميمية سماحته التي كان يتحلّى بها قبل انتصار الثورة، بل عانقنا وقبّلنا في الجبين، رافضًا تقبيل يده، وقد تراجع ليمنعنا من ذلك. وقال للحارس: «يا سيد صمد قدِّم الشاي للإخوة».

فأجبناه معًا: «شكرًا لك، علينا أن نذهب، فالعائلة تنتظر في السيارة». اعتذر السيد وقال إن عائلته قد ذهبت إلى قم، لكنّه ما لبث أن تبسّم قائلًا: «لا ضير في ذلك، تفضلوا أنتم وأسركم إلى البيت، وعند عودتي ظهرًا أحلّ ضيفًا عليكم».

سلّم مفاتيح البيت إلى موسى، وطلب من صمد أن يرافقنا ليدلّنا على البيت. كان البيت نظيفًا، إلا أنّ نساءنا أصررن على كناسة

السجاد والباحة ورش المياه.

بعد مضي ساعة من أذان الظهر، حضر السيد، وأخذ يتصرّف بلباقة كأنّما هو ضيف لدينا، وبعد تناول طعام الغداء، أخذ يثني على مذاق الطعام، كما فعل في ضيافة «كنكان»، وقال ممازحًا: «جزاهنّ الله خيرًا على مجيئهنّ، وتقديمهنّ لنا طعامًا بمذاقٍ جديد في هذا البيت».

في اليوم التالي عادت أسرة السيد، فانتهزنا الفرصة لاصطحاب أسرنا لزيارة الأماكن المختلفة في تبريز، وعدنا ليلًا إلى بيت سماحته. وبقينا على هذه الحال مدة خمسة أيام.

ظهر الحادي والعشرين من أيلول، بعد صلاة الجماعة، كنّا في المكتب نتحدّث مع بعض المصلين، إلى أن قطع الحديث صوت صمد مناديًا: «مولانا العزيز، لقد أعلنت الإذاعة الآن أن الطائرات العراقية قصفتنا، وأعلنت الحرب ضدّنا».

يبدو أنّ سماحته كان يتوقع ذلك، فلم يهتزّ ولم يضطرب، بل اكتفى بهزّ رأسه، وقال بهدوء: «لعن الله صدام، أخيرًا قام بما يريد».

تلقينا ذلك الخبر بصوت صمد الغاضب، لم يكن خبرًا عاديًا، ولم يعد يمكننا البقاء في تبريز، وأدرك السيد وضعنا، فلم يصرّ على بقائنا. توجّهنا إلى بيت سماحته وجمعنا متاعنا لنرحل.

عند وداعنا لآية الله المدني لم نكن نعلم أنه بعد أقل من عام سيستشهد بانفجار على يد المنافقين، ويحمل لقب «شهيد المحراب»، وإلا لتريّثنا أنا وموسى في وداعه وتأمّلناه أكثر و...

تحرّكنا من تبريز. كنت أقود بسرعة عالية وكأنّي متّجه مباشرةً نحو قصر صدام لأطلق على رأسه رصاصة الرحمة.

## انطلاق الشرارة الأولى

وصلنا إلى «نور آباد» بعد يومين من بداية العدوان. وجدناها مزدحمة على غير عادتها، فأهالي محافظة خوزستان يجتازون «نور آباد» متجهين نحو أصفهان ويزد وشيراز، ومقاتلو شيراز يجتازون «نور آباد» في طريقهم إلى خوزستان. وقد أدّى ازدحام المقاتلين والناس إلى الانتظار في صفوف طويلة عند محطات البنزين.

ولأنّ القوات تحتاج إلى الطعام، ومكان للاستراحة خلال عبورهم. كان علينا كقوات حرس الثورة أن ندير شؤون المدينة، أو أن نجمع المتطوعين لنتوجه نحو الجبهات في الجنوب. خلال عدة أيام تمكنّا من توفير بعض الاحتياجات لمهاجري الحرب بالتعاون مع سائر المؤسسات والدوائر. لكني كنت أميل للحضور في الجبهة. لذلك سلمت شؤون المدينة إلى شابّين من قوات الحرس، وطلبت بعد صلاة الجماعة من سائر شباب الحرس أن يتجهّز من يريد التطوع للتوجه إلى «الأهواز».

كنّا خمسة عشر شخصًا، فطلبت من كل واحد أن يحضر ما لديه من سلاح. لم يكن لدينا أيّ تصور عن الحرب في الجنوب، لذلك كنا نجهز كل ما يخطر ببالنا احتياطًا. كان في ممر المقر كبسولتا إطفاء، طلبت إحضارهما أيضًا. لكن موسى ابتسم وسألني: «إلى أين ستأخذهما؟»، قلت: «لا أدري، إنها الحرب، ولعلّنا سنحتاجهما، لا

ندري ماذا يجري هناك!».

بما أني قضيت الخدمة العسكرية في «دزفول» وأعرف المكان جيدًا، أصدرت أمرًا بمهمة باسمي وباسم أربعة عشر شابًّا معي، ووقّعته بنفسي. أتمنى الآن أن أعثر على النسخة الثانية لأمر المهمة في أرشيف الحرس بنور آباد، فهي من وثائق الحرب. تحركنا، خمسة عشر شخصًا مع سيارة إسعاف وسيارتَي دفع رباعي، وأسلحتنا المتواضعة: بندقية M1، بندقية برنو بإبرة، G3، قاذف B7، جهازا لاسلكي (BRC 77) حصلنا عليهما من طهران، جعبة القاذف مع ستة مقذوفات.

استغرق التجهيز وحمل التجهيزات وقتًا، حتى حلّت الساعة الثانية عشرة ليلًا، توجّهنا بسرعة وكأنّ جبهة الجنوب ستفتقر إلى خمسة عشر عنصرًا مهمًّا، إذا تأخرنا في الوصول.

عندما وصلنا إلى «أميدية»، ارتفع أذان الصبح. وجدنا مسجدًا بابه مغلق، لم يفتحه لنا أحد، فشبكت يدي ليصعد عليهما أخي ويجتاز الحائط ويفتح الباب من الداخل. قفز غلام حسين كمقاتل محترف إلى الباحة، وفتح لنا الباب، لم نجد أحدًا في المسجد، وأبوابه الداخلية كانت مغلقة، عثرنا على قطعة سجاد قديمة مهملة، فرشناها وصلينا. أغلقنا باب المسجد خلفنا، وركبنا السيارات، فخرجت امرأة من جيران المسجد، من بيتها، كانت تمسك عباءتها بيد، وكوب ماء باليد الأخرى، ما إن تحركنا حتى رمت الماء خلفنا وصلّت على النبي وآله[1].

وصلنا إلى ساحة الأسود الأربعة في الأهواز بعد ساعة من طلوع الشمس، لفت نظرنا أحد الإخوة إلى أنّ علينا أن نحصل على أمر مهمة من الأهواز، ولا يصح أن نكمل إلى دزفول، فنحن في «نور آباد»

1- عادة إيرانية عند وداع الأعزاء. (المترجم)

عندما يحضر أحد من محافظة أخرى، نطالبه برسالة رسميّة من المحافظة. كان كلامه منطقيًّا، فتوجهنا إلى مركز الحرس في الأهواز، وطلبنا منهم تزويدنا برسالة إلى دزفول، فأجابنا أحد الحراس: «إنّ قضايا الحرب لا تتعلق بنا، عليكم الذهاب إلى شارع زركان مقابل المطار هناك مدرسة تجري فيها متابعة شؤون الحرب».

استفسرنا من الأهالي عن المكان حتى عثرنا على تلك المدرسة، إنه أول مركز أركان ذاتي شعبي لشؤون الحرب، فيه الحاج داوود كريمي[1] والحاج طاهر من قوات الحرس في طهران، حضرا إلى هناك ليتولّيا إرسال القوات إلى الجبهة. فسألني الحاج داوود: «لماذا اخترت دزفول؟»، فأخبرته أني قضيت الخدمة العسكرية هناك، وأني أعرف نهر دز والكرخة جيدًا، لعلي أكون نافعًا هناك.

شرح لنا الحاج طاهر على الخريطة الموجودة مناطق الحرب، وأخبرنا الحاج داوود أن الجيش العراقي قد وضع جسرًا فوق نهر كارون قبل «دارخوين» لتصبح خرمشهر محاصرة بالكامل، وعبادان ستصبح محاصرة، ويريدون وضع جسر في «الفارسيات» للالتفاف على الأهواز، وأنتم تريدون الذهاب إلى دزفول؟

انفعلت وقلت: «لا أدري، سنفعل ما ترونه مناسبًا».

هزّ رأسه كعلامة رضى وقال: «يجب أن تتوجّهوا إلى «فارسيات» عند ضفاف نهر كارون لمنعهم من مدّ جسر عليه».

بينما كان الحاج داوود يوضح الوضع، وصل السيد رحيم صفوي.

1- الحاج داوود كريمي ولد في 1948/2/16م في طهران، استنادًا إلى تدربه قبل الثورة في لبنان عُين كأول مسؤول عن التدريب العسكري في الحرس، ومع بدء الحرب توجه إلى الجنوب وتولى مسؤولية الإشراف على الدفاع المقدس لعدة أشهر، استشهد في أيلول 2004م، بعد عناء طويل مع إصابته بالسلاح الكيميائي في رئتيه.

كان قادمًــا لتــوّه مــن «كردستان» حيث تقــرر أن يتوجــه السيد رحيم صفوي وقواته إلى «دارخوين» لمواجهة الجيش العراقي مقابل الجسر. وكان مقــرّرًا أن نتوجه نحــن إلى مسافة أربعين كيلومــترًا على طريق الأهــواز- عبادان إلى قرية «فارسيات»، وهي واحدة من مجموعة قرى في تلك المنطقة.

توجهنــا عصرًا إلى هنــاك، وشكلنا محور مواجهــة، وهكذا بدأت مشاركتنا بالحرب.

## الشعلة الأولى

بسبب الظـروف المكانيــة والزمانية لأيام الحــرب الأولى، فإنّي لا أتذكـر ذكريات «فارسيــات» بالترتيــب الزمني، رغـم أني كنت أرفع تقريـرًا أسبوعيًـا إلى مركـز عمليــات الجنوب. ولـو كنت أعلـم أننا سنحتــاج إليها يومًا ما، لكنت سطّرت في أواخر الليالي ما كان يحدث معنــا يوميًا، ولتمكّنت من سردها الآن بسهولة. لذلك، الآن وبعد مرور ثلاثــين عامًا، ســأروي فترة حضوري هنــاك لمدة خمســة- ستة أشهر بشكل متقطع، وسأحدّد كلّ فترة بعنوان، أو يحدّد العنوان لاحقًا لتبقى في أذهــان القرّاء، ويحدد الأوقات والأشخاص والأماكن، لأنّ كل رواية تتحــدّث عن مــكان جديد أو أشخاص جدد. وهذه مــن المشاكل التي يواجهها أي قائد محور بعد ثلاثين عامًا.

كان حضورنــا في فارسيــات نقطــة البدايــة لتجربتنــا في الحرب. تصــوّروا أن أكلّف أنا بقيادة محور، ولست أملك خبرة في هذا المجال، غـير عامــين مــن الخدمــة العسكريــة، وبعض النشاطــات الثورية، ومسؤوليــة عمليات الحرس في مدينــة صغيرة، ولم أملك أي فكرة عن الحــرب. وكان من واجبي أن أتعرّف إلى المنطقة، والقضايا العسكرية الخاصــة بالمكان، وكيفية إدارة قواتــي، فضلًا عن القوات المرسلة إلى هــذا المحور من المــدن المختلفة، ممّن جاءوا بدافـع الحماسة الدينيّة والوطنيّــة، لكنّهـم لا يعرفون أي شيء عن موجبــات الدفاع؛ ولا يلمّون

بأبسط القواعد العسكرية.

في مثل هذا الوضع، ينصرف اهتمام القادة إلى التركيز على التدريب، وهكذا، شيئًا فشيئًا تشكّل مقر إدارة «الدفاع المقدس» في مكان يُدعى «الغولف»، وسمّي لاحقًا «قاعدة مُنْتَظِري الشهادة»[1]. كان الحاج داوود كريمي يؤدي دورًا هامًا في تلك القاعدة، بصفته القائد الثوري. حيث كان المتطوعون والقوات النظامية يتوافدون إلى هذه القاعدة من المدن البعيدة والقريبة من شبان وشيبة وفتية، ومن عمال ومهندسين وأطباء وغيرهم، ويندفعون بشكل عشوائي، يطلبون إرسالهم إلى الخطوط الأمامية، طبعًا لم يكن أحد منهم يتحدّث بمنطق، لكنهم كانوا يردّدون أنّ الجبهات بحاجة لطاقات ومن واجبنا الذهاب، وقد أتينا للمساعدة. ثم يدوّنون مواصفاتهم، وعندما تسأل أيًّا منهم عن رغبته وخبرته وفي أي مهام يريد أن يعمل، يجيب: أريد أن أكون قنّاصًا، وآخر يقول: أعرف شيئًا عن القذيفة، وثالث: أحب الحرب منذ طفولتي..

وهكذا، حسب الخبرة والرغبة، كانوا يتلقّون تدريبهم في باحة القاعدة في ظلّ الأشجار لعدّة ساعات، ثم يتوجهون إلى المحاور المختلفة، من سوسنكرد والبستان ودزفول إلى غيرها. فكانت باحة

1- الغولف أو «مقر «منتظِري الشهادة»»؛ يقع في شرق مدينة الأهواز، منذ الأيام الأولى للعدوان وحتى نهاية الحرب كان مركز أركان عمليات الجنوب، والنواة المركزية لقوات الحرس في توجيه وإدارة عمليات الدفاع في مواجهة العدو. بسبب الموقع الجغرافي المناسب لهذه القاعدة ساهمت في تمركز قيادة الحرس، لأنها تمكنت من ادارة العمليات من مهران إلى الفاو. تولى الحاج داوود كريمي في الخمسة أشهر الأولى للحرب المسؤولية فيها وعندما أصبح قائدًا لحرس طهران، تولى السيد رحيم صفوي قيادة العمليات، وغلام علي رشيد نائبًا له، والشهيد حسن باقري مسؤولاً عن أمن العمليات في الغولف. من النشاطات الأساسية لهذا المقر: تشكيل غرفة قيادة الحرب، تفعيل الاستطلاع والأمن والعمليات، إرسال القوات إلى الجبهات، استضافة مسؤولي النظام.

القاعـدة كل يوم تبـدو كسوق للتجارة، والمـدرب كالبائع، حيث يبسط أدواته ويعرض خبراته العسكرية بالمزاد!

ونظـير ذلك، حصلت بعض المخاطر، فمثلًا ينقل أحد المدربين أنه طلب مـن المتدربين خلال الحصة أن يتأكدوا مـن الأسلحة والذخيرة عنـد استلامها، وذلك بسحب مخزن الرصاص من البندقية، وسحب الأقسـام مع رفع فوّهة السلاح إلى الأعلـى للتأكد من خلو السلاح من أي رصاصـة داخله، والشـروع في التدريب بأمان مـن دون أي أخطاء قاتلـة. لكنّ رجلًا متقدّمًا في السن، قام بسحب حلقة الأمان من قنبلة يدوية وهو يظنّ أنّه يقوم بإجراء الأمان اللازم، ولولا مسارعة المدرّب لتدارك الأمر، لانفجرت القنبلة وتسبّبت بقتلهم.

في تلـك الظـروف، عندمـا يصـل مقاتـلٌ مـدرَّب إلى محورنا في فارسيـات، كان مـن واجبـي كقائد محـور أن أقدّر حضـوره، وأُحسن الاستفـادة منه. فخلال الأيـام الأولى من استقرارنـا وتنظيم المواقع والتحصينات فيه، وصلتنا مجموعة من طهران. كانوا عدة أشخاص، كلّفهم الحاج داوود بمهمّة زيارة المحاور وتدريب القوات ميدانيًا.

في الواقـع، لم تكن هناك حاجة لأمر التكليف بالمهمة، ولا التعريف الرسمـي بهم من الحـاج داوود، فقد كانت خبرتهـم باديةً من خلال تصرفاتهـم؛ منهم: «محمد علي أميني بيـات» متخصص متفجرات، أظن أنه لا يزال في الحرس، وليس هناك من هو أكثر خبرة منه. فيما يتولّى محمد بيش بهار ومرتضى صفاري مسؤولية المجموعة. صفاري كان حتى الأعوام الأخيرة قائـدًا للقوة البحرية للحرس. وهؤلاء كانوا أكثر خبرةً منّي في كثير من المجالات العسكرية، لكنهم كانوا يتصرّفون كأفراد تحت إمرتي.

كان أكـثر سكان المنطقة قد غادروا منازلهم، لذا كان باستطاعتنا

استخدام بعض تلك البيوت، ورغم تعرضنا للقصف ليل نهار بالقذائف، كنا نقيم صلاة الجماعة صباحًا وظهرًا وغروبًا في باحة بيت شيخ «فارسيات».

بعد ثلاثة أيام من وصول مجموعة المدرّبين، كنّا نؤدّي صلاة الصبح جماعةً. وعندما ختم إمام الجماعة الصلاة بالتسليم، ارتفع صوت أحد المصلين من «نور آباد» بلهجة لرّية وبلحن جميل: «إنّ اللّه وملائكته يصلون على النبي، يا أيها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليما»، فارتفع صوت الجميع بالصلاة على محمد وآل محمد. ثم شرع بقراءة الدعاء، وتابعه الباقون بصوت خافت. لكنّي لاحظت انصراف أحد أعضاء مجموعة التدريب الذي كان يصلّي إلى جانبي، فانزعجت لأنه لم يبق لدقائق حتى انتهاء الدعاء، وظننت أنه سارع لينام.

وما إن انتهى الدعاء حتى نهضت مسرعًا بدافع الفضول وإحساسًا بالمسؤولية، وتبعته. لم يكن هناك نورٌ للقمر، ونور المصباح الضعيف لا يساعد على تحديد سمات الأشخاص جيدًا. لكنّي لمحته متوجّهًا إلى الممر نحو الزقاق، وكانت معرفتنا به في بدايتها، فشككت به، ورجوت أن لا يكون من الذين يطيلون لحاهم، ويلتحقون بقوات الحرس، لنقل المعلومات حول المنطقة والقوات إلى العدو.

سارَ وسرت خلفه عن بعد أتعقّبه. ابتعد عن بيت شيخ فارسيات مسافة كيلومتر، وبدأ النور يبدّد عتمة الليل. تأسّفت لأنني لم أحمل سلاحي، وأبطأتُ لأزيد من المسافة بيني وبينه بسبب ازدياد النور. وصل إلى بستان نخيل، فسار في طريق ترابي موازٍ للبستان حتى انتهى، ودخل البستان ثانيةً ثم عاد إلى الطريق، وأعاد الكرة عدة مرات. دققت النظر فوجدته يحمل رفشًا ينقل به التراب من البستان إلى الطريق، فتبدّد شكّي بأمره، لكني تساءلتُ عمّا يفعله! فيما أصبح

بإمـكاني أن أتوجّه نحوه لأسأله: «مـاذا تفعل في مدينتك؟ هل اشتقت للزراعة أم لشق الطرق؟».

تفاجأ بوجودي، وبدت دهشته لا تقلّ عن دهشتي به، فلم يكن يتوقع أن يلتقـي أحدًا في مثل ذلك الوقـت المبكر قبل طلوع الشمس، بادرني: «السـلام عليكم، من أنت؟». ولمّا دقّق النظر عرفني فقال: «ماذا تفعل هنا يا أخ أسدي؟».

وضّحـت له الأمـر، واعتذرت منـه، وبيّنت أنّ مـن واجبي المراقبة لأننـا لا نعـرف الجميـع. ابتسم وقال: «لسـت حزبيًـا ولا مزارعًا، ولا مهندسـ طرق. لكن بالأمس سقطـت هنا عدة قذائف مدفعية، ومرت سيارة الإسعاف وهي تنقل الجرحى، فسقطت في هذه الحفرة، ورأيت الجرحى ومعاناتهم، وتحطم سيارة بيت المال، ففكرت بسدّ الحفرة».

لم يعـد لديّ مـا أقوله، شددتُ على ساعـده، وطلبت منه أن يسمح لي بنقـل بعض الـتراب، ساعدته حتى امتلأت الحفـرة، ثم عدنا معًا نحـو القرية. خلال دقائـق معدودة، تحوّلت مكانتـه في قلبي من حال الريبـة به أمنيًّـا وعسكريًّا إلى محبـة شديدة. فمن يـترك النوم بعد صـلاة الصبـح، ويسير كل هذه المسافة ليملأ حفـرة، لا بد أنه يمتلك قلبًا كبيرًا.

سألته في طريق العودة: «حسنًا، لم تقل لي ما اسمك يا أخي؟».

أجاب: «المخلص لك، مرتضى الصفاري، من طهران».

خـلال ثلاثين عامًـا قضيناها بعد تلك الحادثة، كنـا أنا ومرتضى نلتقـي كل أسبوع، وإذا لم تسمح الظروف فـكل شهر، نتذكر فيها تلك الأيام، وعندما أروي الحادثـة لأحد على مسمعه، يضحك ويقول: «إن السيد أسدي يمزح، فذاك مرتضى شخص آخر غيري».

حتى اليوم، لم يفقد مرتضى تلك الروحية الثورية والتواضع والإيثار. لكنه مدينٌ لأسرته أيضًا. فبعد شهرين من لقائنا ذاك استشهد «محمد علي أميني بيات» في منطقة فارسيات نفسها، وهو الذي كان يعتبره التعبويون «ملك التفجير»* . حينها طلبت من مرتضى أن يذهب بنفسه إلى مدينة قم ليشارك في مراسم التشييع والدفن.

بعد ثلاثة أيام عاد مرتضى، فسألته: «لقد قطعت كل هذه المسافة ووصلت إلى مدينة قم، فلمَ لم تزر أسرتك في طهران قبل العودة؟».

ابتسم وأجاب: «لقد ذهبت، لكن أمي لم تستقبلني!».

قلت له مستوضحًا: «وهل يمكن أن يحصل ذلك؟».

قال لي إنّه أوّل ما التقى أمّه سلّم عليها وأمسك بيدها في باحة المنزل، فردّت سلامه وطرحت عليه سؤالًا بكل جديّة: «عليكم السلام، هل قتلت صدام؟».

- كلا يا أمي، حبيبتي لن يحصل ذلك بهذه السرعة.

- إذًا لماذا عدت؟

- أتيت إلى قم لتشييع جنازة أحد الشهداء، فوجدتها فرصةً لأزوركِ أيضًا.

- حسنًا، ظننت أنك أتيت في إجازة، لكن بما أنك أتيت من أجل الشهيد، ادخل تناول الشاي، وعد سريعًا إلى الجبهة....

*- المقصود من التفجير سلاح «التخريب والهندسة».

## نيران الأرض

لم نلبث طويلًا في منطقة «فارسيات» حتى دهمتنا مشكلة الألغام المنتشرة هناك على نطاق واسع، فهي لم ترحم الأبقار الأربع التي سقطت ضحية لها، فلا غرابة أن نرى فيها عبئًا ثقيلًا ينتظرنا وسط لهيب تلك الحرب المفروضة التي تنشط نارها بسخاء بالغ. وسرعان ما اكتشفنا أنها ألغام من نوع مغاير للألغام التي تلقّينا التدريب عليها، فعزمنا في بادئ الأمر على التحقّق من أجزائها، وآلية عملها، كي نتمكّن من تفكيكها وإبطال مفعولها.

لم يكن اللغم مغروسًا عميقًا في الأرض، ووجدنا أنه قد ثبت على قاعدة أولى، فوقها قاعدة ثانية أصغر منها، يربطها سلك معدني متّصل بحلقة أمان الصاعق الذي يفجّر اللغم إذا ما تحرّك ذلك السلك.

محاولة تفكيك اللغم الأوّل لم يكن عملاً سهلاً ومن الممكن أن يكون مفخخًا، لذا تعقّبت السلك وصولًا إلى الحلقة، فقبضت عليها بقوة وعزم، ورفعت اللغم عن قاعدته، وهكذا سقطت منه الحشوة المتفجّرة. حينها، ارتفعت الأصوات بالصلوات من الإخوة الأربعة الذين كانوا يراقبونني بانتباه وشغف أثناء انهماكي بعملي، وقد بدت على الوجوه بشائر الفرح والسعادة.

بعد ذلك، لم نجد معضلة في تفكيك سائر الألغام، بمساعدة اثنين

مــن الإخوة، وتمّت عملية تطهير المكان من الألغام بيسر وسلامة. لكن الأمــر لم يمــرّ من غير أعجوبــة من العجائب، وقد ظهــرت لنا عندما داســ السيد «جعفر سجادي» –من نور آبــاد- بقدمه على لغم، إلا أنّه لم ينفجــر، فاستغللت الفرصــة لأشرح للإخوة طريقــة تفكيك اللغم، ونزعــه من مكانه من غــير أن يحصل أي مكروه. بعد ذلك، طلبت من «سجادي» أن يقوم هو بنفسه وينزع لغمًا ويفكّكه.

توجّــه من فــوره زاحفًا، بعيدًا عن أنظار العــدو، وما إن اقترب من أحــد الألغام حتى تفاجأ بوجود لغم تحت جسمه، فأغمض عينيه وسدّ أذنيــه بأصابع يديــه، وتوسّل بالسيــدة الزهراء مناديًــا: «يا زهراء»، وانتظر.. وانتظرنا معــه صوت الانفجار، إلا أنّ ذلك لم يحصل، ففتح عينيه وتراجع من مكانه بسرعة.

توجهت إلى المكان، فوجــدت أنّه اللغم الوحيد الذي لم يجرِ تفعيله مــن بين الألغام التــي نزعناها في تلك المنطقة، ويبــدو أنّ الذي زرعه نسي أن يربط الصاعق.

في طريــق العودة، قــال أحد الإخوة مــن «نور آبــاد» للسيد ممازحًا: «عليــك أن تدرك قدر جدتــك التي سمعت نداءك، وإلا لكنا الآن نسحب جثتك».

بعد نزع تلك الألغام، أحسسنا بالراحة والطمأنينة على الرغم من استمرار القصف المدفعي، وسقوط القذائف حولنا.

في اليوم التالي، حملت معي عددًا من الألغام التي فكّكناها وتوجّهت إلى الغولف مسرعًا مزهوًّا وكأنّني قد اكتشفت أمرًا هامًا. عانقني الحاج داوود بحــرارة، وقبّل جبيني. حيث إنّ الجيش لم يمتلك أي نوع من تلك الألغام ليدرب عليها، فأخذ الحاج بعضًا منها ليستخدمها في التدريب.

قلت له: «يا حاج كما يقول الحديث: لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد؛ إني جاهز لأقوم بالتدريب».

- جزاك الله خيرًا.

استدعيت ثمانية من المدربين إلى الباحة، وأخبرتهم بتفاصيل العثور على الألغام، وكيفيّة نزعها وتفكيكها، ليتولّى كلّ منهم شرحها لسائر المدربين والموجودين في المحاور الأخرى.

بعد أسابيع قليلة، اكتشف العدو أننا تعلمنا تفكيك الألغام ونزعها، فبدأ بزرع ألغام مختلفة من جديد. لكن لطف الله شملنا هذه المرة أيضًا، حيث توجهت في أحد الأيام للاستطلاع فاكتشفت وجودها.

كانت منطقة الاستطلاع مكسوّة بالأشجار والمزروعات، ممّا أتاح لي أن أستتر خلف جذع شجرة تدلّت أغصانها وتشابكت أوراقها، ونظرت بالمنظار لأرصد قوات العدو، وعندما أنزلت المنظار رأيت أسفل جذع الشجرة علبة طعام معدنية، ساورني شك في أنّ أحد أفراد العدو موجود بالقرب من المكان، فتلفتُّ حولي بدقة لعلي أرى أحدًا، فلمحت شيئًا بارزًا رمادي اللون، على أديم الأرض، فحمدت الله لأني لم أتقدم أكثر.

استعملت الحربة لإزالة التراب من حوله، كان لغمًا على هيئة الطماطم، انتزعته، وبحثت مليًا في المكان وعثرت على خمسة ألغام أخرى من النوع نفسه، انتزعتها وحملتها معي إلى فارسيات.

ما إن وصلت حتى اجتمع الإخوة حولي، يتساءلون عن هذه الألغام وطريقة عملها وكيفية انتزاعها، فأوضحت لهم ذلك. تقدم أحد أفراد الجيش، وأزاح الإخوة جانبًا وقال: «انتبهوا، هذه الألغام قد تنفجر عند أي ضغط عليها ما لم نضع الأمان فيها، فلا تقتلوا أنفسكم».

لم أحـدّق في وجهه، نظرت إلى رتبتـه، وقلت له: «يا جناب الرقيب أنـت لم تتعرف إلى هـذه الألغام، فهـي تختلف عن الألغـام الإيرانية والأمريكية التي درّبونا عليها في الجيش».

تناولـت اللغم بيدي، وفتحت أسفله لأريه أنه لا يحمل صاعقًا، ولن ينفجـر. لكن النقيب لم يقتنع، وأصرّ على ضرورة وضع مسمار الأمان قبـل فتـح الصاعق. فأعطيته عـود كبريت، وطلبت منـه أن يمرّره في فتحة قـرب الصاعق ليؤمنه، فوضع العود، وفتـح اللغم، وأيقن صدق كلامي، فدُهش وهزّ رأسه موافقًا، وقال لي: «أعطني لغمًا منها لأدرّب قواتنا عليه».

## لباس التقوى

«قاعـدة «منتظِري الشهادة»» هـي الرابط بين المحـاور والحكومة والنـاسـ، لذلـك كانـت تعتبر الموقـع الثاني لقـادة المحاور. كنـا نُعلِم «الغولـف» بكل صغيرة وكبـيرة تحصل معنا، وننسّقهـا معهم. لذلك، أعتقـد أنّ لمقـرّ الغولف الدور الهـام في إنشاء ثقافـة الجبهة وتحديد مستقبـل الحـرب، فقـد كان لسلـوك قادة الغولـف الأثـر المباشر في المحاور، وفي الثقافة السائدة في الجبهة.

أذكـر أنني بعد ثلاثة أسابيع مـن استقرارنا في فارسيات، توجهت يومًا إلى الغولف للقاء الحاج داوود كريمي، وتقديم آخر تقارير المنطقة لـه، ولأنسّق التحركات اللاحقة معه، فلم أجده. كنت أسأل عنه في كل غرفة، فيقولون: «لقد كان هنا، ولا ندري أين ذهب، فلا بد أن يكون في مـكان ما هنا». إلى أن تعبت من البحث عنـه، فقرّرت تجديد الوضوء وانتظاره في غرفته حتى يأتي.

كانت المغاسل والمراحيض في زاوية من المبنى، دخلت إليها، فرأيت الحـاج داوود مشمّرًا عـن ساعديه، ممسكًا بعصـا وإبريق وهو يغسل الحمامـات ويعالجهـا. فسلمت عليه وقلت له: «أيـن أنت يا حاج، منذ نصف ساعة وأنا أبحث عنك؟».

ابتسم لي ووضع الإبريق على الأرض، ومسح عرق جبينه بكمه، وقال: «لقد انسدّت الأمور هنا، ولا يوجد من يفتحها، فكان لا بد من أن أقوم بذلك».

أردت أن آخذ الإبريق والعصا منه؛ لأكمل فتح المجاري، لكنه قال: «انتهى الأمر، اذهب إلى الحمام الأول فإنه صالح للاستعمال، اقضِ حاجتك، وسأنهي الأمر هنا».

كان الحاج داوود يخاطب قادة المحاور في أول اجتماع معهم قائلًا: «عليكم ارتداء «لباس التقوى» حتى إذا ما توليتم مسؤولية يومًا ما، لا تُفتضحوا وتفشلوا فيها، ولا تكونوا كضبّاط الجيش في عهد الشاه، كانوا عندما يتقاعدون، ويفقدون رتبتهم، يُهملون ولا ينظر إليهم أحد. لتكن لديكم شخصيتكم الخاصة، فلا تنحصر قيمتكم في العناوين والمسؤوليات». كان سماع مثل هذه الأقوال في الغولف، يزيد من معنويات مسؤولي المحاور، ويشكّل ثقافة القيادة.

حين عاد «رحيم صفوي» من محور «دارخوين» وتسلم المسؤولية في الغولف، رأيته يومًا أمام الحمام في زاوية أخرى من الباحة عند ممر للسيارات، كان يضع ملابسه في وعاء بلاستيكي ويقوم بغسلها. توقفت بسيارتي وقلت له: «عافاك الله يا رحيم، هل تحتاج لمساعدة؟».

- كلا أخي العزيز، فمن سيغسل ملابسي أفضل مني؟!

## بقي مكانه خاليًا

أثنــاء تردّدي إلى الغولــف، كنت أرى شابًــا ذا شعر خفيف، نحيلًا وقصير القامة، منشغلًا دومًا بالخرائط. كوّنت عنه فكرة عجولة، أنّه قـد يكون بهذا الجسم النحيل يخشى الذهاب إلى الخطوط الأمامية، وقد شغل نفسه هنا.

في المرة الثالثة التي رأيته فيها في الغولف، وجدته ينزع عن الحائط ورقـة ويمزقهـا بعصبيـة، وكان الشباب قـد لصقوها علـى الحائط، ودوّنـوا عليهـا معادلة للنصـر: الانتصار الأكيد يعنــي 80% عمليات+ 20% معلومات واستطلاعات. لذا، اعتبرت تصرفه هذا إهانة لمسؤولي الغولف، فلمته وسألته: «لماذا نزعت الورقة هذه، إنها لبيت المال؟».

توقعت منه ردًا انفعاليًا، كأن يقول: ومن أنت؟ أو ما علاقتك بذلك؟

لكنه لم يفعل، بل ربّت على كتفي وقال: «شكرًا لاهتمامك بممتلكات بيــت المال، اسمح لي أن أوضح لــك؛ في كل عمل تنوي القيام به، يجب أن تمتلــك المعلومات بنسبة 100%، فالعمليات من دون المعلومات تعني الخسائر الكبيرة بلا نتيجة، وتعني (طحن الماء في الهاون[1])».

كلامه المتروّي خلال التوضيح كان كالماء الذي أطفأ غضبي، وأزاح عن خاطري كل تصوري الأول عنه. عندئذ عرّفت عن نفسي، فأجاب: «وأنا المخلص لك حسن باقري».

1- الهاون: جرن خشبي تدقّ فيه حبوب البن حتى تسحق وتُطحن، وكذلك قطع اللحم.

منذ ذلك اليوم، انعقدت علاقة عجيبة بيننا، وبسبب دقته وحساسيته وذكائه المفرط وفهمه العسكري، أضحى مسؤول المعلومات في الجنوب. وأعتقد أنه أول من سنّ سُنّة تقديم التقرير العسكري الصحيح في قوات حرس الثورة الإسلامية. وبطلب منه أضحينا في محور فارسيات ندوّن تقريرًا يوميًا حول كل ما يحدث، وما ينبغي أن نتابعه من مواضيع، وما نحتاجه.

صباح كل يوم، كان «موسى رضا زاده» مسؤول الدعم اللوجستي في المحور يقوم بأخذ التقارير إلى الغولف، وتسليمها إلى «حسن باقري» ويستلم منه الطعام وكل ما نحتاجه، ويعود ظهرًا إلى فارسيات.

في أحد الأيام، عندما كنّا في الغولف، أخذني «حسن» جانبًا، وأحضر تقاريري، كان قد قرأها بدقة ووضع خطًّا تحت بعض العبارات، فشكرني على تدوين التقارير، وقال: هناك إشكالات عسكرية في بعضها. مثلًا، كتبت هنا أن قوات العدو تحركت من جهة اليسار إلى جهة اليمين، في حين ينبغي أن تكتب تحرّكت من جهة الشمال إلى جهة الجنوب، عندها سيدرك كل من يقرأ التقرير كيف تحركوا. فاليسار واليمين هي جهات نسبية غير واضحة للجميع!

وهذا يظهر أن «حسن» كان له التأثير الكبير عسكريًا ومعلوماتيًا عليّ وعلى سائر القادة. لقد كان حقًّا من النخب البارزة في الدفاع المقدس، وباستشهاده لم يستطع أحد أن يملأ مكانه[1].

1- الاسم الأساس للشهيد حسن باقري هو غلام حسين أفشردي، ولد في شباط 1956م، وكان عمره عند التحاقه بالحرب 25 عامًا، كان قبل الحرب طالب جامعة وكاتبًا وصحفيًّا، من أكثر قادة الحرب شبابًا، كان نابغة الدفاع المقدس حقا، تولى مسؤولية المعلومات والاستطلاع الحربي، ثم قائد مقر النصر، فقائد مقر كربلاء، كان له دور هام في الانتصارات الكبرى في عمليات: الفتح المبين، رمضان، بيت المقدس. استشهد في 1983/1/29م وكان حينها نائب قائد القوات البرية في حرس الثورة. كان يستطلع مواقع العدو ويجهز لعمليات والفجر التمهيدية، فأصابته شظية قذيفة وهو داخل متراس الحراسة، فاستشهد هو والأخ مجيد بقائي.

## الخطأ

في الأيـام الأولى للحــرب، لم نكـن نعرف جغرافيـا المنطقة بشكل جيـد، ولا أماكـن انتشار العـدو. وبما أننا قـد أخلينا القـرى الواقعة في الجانـب الآخر من نهـر كارون من سكانها المحلّيّـين، كنا نعتبر أيّ شخص يحضر في ذلك الجانب من أفراد العدو.

ولأيـام، تواصل إطـلاق النار عـن يميننا من جهـة كارون المقابلة لطريق الأهواز، وكنا نرد علـى مصادر النيران، لكن أيًا من الطرفين لم يتقدّم نحو الآخر.

ذات يـوم، عقـد قـادة المحـاور اجتماعًـا لهـم في الغولـف، فقام كل واحـد بتحديـد خطوط تمركزه مـن أي نقطـة إلى أي نقطة، وأي محـور يواجهه. وقـف «حسن باقري» عند الخريطـة الجدارية، وأخذ يضع الخطوط والعلامات حسـب شرح قادة المحاور، ليملأ الفراغات والثغرات، ويحدّد انتشار قواتنا وقوات العدو.

عندمـا جـاء دوري، توجهـت نحـو الخريطـة، ووضحـت أننـا في الفارسيـات، والجيـش العراقـي أمامنـا، ولجهة اليمين مـن الطرف الثـاني لنهر كارون أيضًا. فقـام أحد قادة خراسان وقـال: «كلا إنك مخطئ، يا أخ باقري نحن موجودون هناك»».

قلـت للقائد الخراسـاني: «كلا يا أخي، هم يطلقـون النار علينا»».

فسألني متعجّبًا: «أين أنتم بدقة؟».

فأشرت على الخريطة إلى حيث ننتشر، فقال: «بل في تلك المنطقة يوجد الجيش العراقي».

نظر «حسن باقري» إليّ وإلى القائد الخراساني وتبسم قائلًا: «كنتم تطلقون النار بعضكم على بعض، وتظنون أنكم تقاتلون في سبيل الإسلام!».

وتقرّر أن نوصل المحورين، فطلب مني القائد الخراساني المبادرة قائلًا: «تعالوا إلى محورنا، ولنذهب معًا نحو فارسيات». مشيت مسافة من الطريق إلى النقطة التي قلت فيها أن قواتك سيظنون أننا من الجيش العراقي، وسيطلقون النار علينا».

ثم اتفقنا أن نذهب إلى فارسيات من طريقنا المعتاد، وعند الخامسة بعد الظهر نتقدم نحن باتجاههم، وكذلك يتقدّمون هم باتّجاهنا.

في الوقت المحدد توجهت مع خمسة عشر عنصرًا من قوّاتي إلى المكان المحدّد، وكذلك فعلوا أيضًا، وتم التواصل المباشر.

الليلة التالية كانت ليلة الجمعة، قرأنا دعاء كميل في فارسيات بحضور الخراسانيّين، وجرى التعارف بين قوات المحورين. وفي اليوم التالي استطعنا لأوّل مرّة أن نذهب إلى الأهواز من جهة غرب نهر كارون.

## الخلاص من العبسة

ما حصـل جعل الإشراف على المنطقة أفضل من السابق، كما كان للتعـرف إلى الإخوة الخراسانيين والتنسيق معهـم فوائد أخرى، ففي الحـالات الطارئة كنا نقـدم الدعم بعضنا لبعضـ في مجال التجهيز وسائـر أدوات الحـرب. فأتينـا بسيارة جيـب تابعة للجيشـ من مقر الخراسانيـين للتنقل في الجانب الآخر من نهر كارون بغية الاستطلاع والتواصل مع باقي المحاور.

بعـد أربعة أيام مـن لقائنـا بالمشهديين، توجهت صباحًـا مع أخي صالـح، و«محمد علي أميني بيات» وأحد الإخوة من محورنا من أهالي قـم، توجهنـا معًا بسيـارة جيب للاستطـلاع. وتوليت قيـادة السيارة بنفسـي، وجلسـ محمد علـي إلى جانبي، والباقـون في الخلف، مررنا قـرب قرية «التـل الأسـود» في طريق صحـراوي، فلمحـت شيئًا قرب الطريـق بحجم كـرة التنس المخملية، مـدوّرًا وجميلًا كنـت أراه لأوّل مـرة، لذا كان أوّل ما خطر ببالي الاقـتراب منه سريعًا، وحمله ورميه لأرى إلى أين سيصل!

أوقفـت السيارة إلى جانب الطريق، وترجّلنا منها لنجد الكثير من تلـك الكرات منتشرة على الأرض، تحقّقت من إحداها خشية أن تكون ألغامًـا، أو تبـدو كأنّها متفجـرات، تناولت كرةً ورميت بهـا بكلّ قوّتي

باتجاه الصحراء، حتى إذا ما انفجرت كنا بمأمن من آثارها.

مرت ثـوانٍ من دون أن يحصل شـيء، وكأن حارس المرمى للفريق قـد رمـى الكرة باتجـاه منطقة الفريـق المنافـس، وأنّ الحكم قد رفع الراية. ركض محمد علي نحوها، وسرنا خلفه، تناولها وحركها بيديه، ثـم عالجهـا بالحربة من وسطهـا، فانفلقت إلى نصفـين، كانا عبارة عـن غطاء معدني من قطعتـين متداخلتين وقد انفصلت إحداهما عن الأخرى. دقّق فيها جيدًا وقال: «إنها قنابل عنقودية يا أخ أسدي، فيها قطعتا TNT ووسطها صاعق، الملاعين قد رموها من الطائرة!».

– أليست خطرة؟

– لا أدري، لم يحصـل شـيء بعـد، لكنها متفجرات، قـد تُفعّل بين أيدينا.

صبرنـا لدقائـق، وعندمـا لم يبرز أي خطـر، طلبت مـن الجميع أن نقـوم بجمعها ونقلهـا إلى الغولـف لتسليمها، لأنها تنفـع للتدريب حتمًا. قمنا معًا بجمعهـا ووضعها في الصندوق الخلفي للجيب، وكنت أنـا وصالح والقمـي نجمعها بسرعة ونشاط، بينمـا محمد علي ببطء وإكراه، لم يكن موافقًا، لكنه مضطر لتنفيذ أوامر قائده.

جلسـت خلف المقود، وهممت بالمسير، لكني نظرت إلى وجه محمد علي المتشائم. فتأنيـت وقلت في نفسي: لماذا نحمل كل هذه المتفجرات معنا في الذهاب والإياب، لندعها هنا، وعند العودة ننقلها. فطلبت من صالح أن يرميها كلّها إلى جانب الطريق لنأخذها بعد العودة، وطلبت منه أن يذكرني بذلك.

أفرغها الإخوان من الجيب بسرعة ثم تحرّكنا، وما إن ابتعدنا قليلًا حتـى سمعنا صوت انفجـار مهيب. في البداية، ظننـت أن قوات العدو

قـد رصدتنا وبدأوا باستهدافنا، فنظـرت إلى الخلف من خلال المرآة عـن يساري، فرأيت كل القنابل العنقودية قد انفجرت معًا. فتحريكها جعلهـا تصبح فعالة لتنفجر، ولو تأخرنـا عن تفريغها لثوانٍ، لكنت أنا ومـن معي في خبر كان ولما رويت لكم ما حدث. والفضل في ذلك يرجع إلى تشاؤم محمد علي إزاء وضع القنابل داخل الجيب.

بعـد أن هدأ صوت الانفجـارات، ابتسم محمد علي وقال: «للأسف يـا أخ أسدي لم يعد لديـك ما تحمله معك إلى الغولـف لتُفرح به قلب الحاج داوود».

## الطعام البيتي

صليتُ وتغديت في قاعدة «منتظِري الشهادة». مضت ساعتان بعد حلول الظهر، وبقيت ساعتان حتى موعد اجتماع قادة المحاور عند الرابعة، بحثت عن زاوية في ذلك الحر الشديد، أستظلّ فيها وأفكّر في ما سَيُطرح في الاجتماع، وأغفو قليلًا. فلم أجد أفضل من مجاورة المطبخ، فهو مكان خالٍ في هذا الوقت، ويحلو النوم فيه، وقبل أن ألف الحرام* لأجعل منه وسادة، جاء «حسن باقري» إلى المطبخ وقال: «يا أخ أسدي، ليس عندنا في البيت خبز ولا طعام، سأذهب إلى البيت، وسأعود وقت الاجتماع».

كان «حسن باقري» قد تزوج للتو، وجاء بزوجته إلى الأهواز. إلا أنه كان ينام لياليَ عدة في المعسكر. ولولا إصرارنا عليه لما غادره، فشؤون الحرب كانت لا تسمح له بزيارة البيت. تساءلت من أين سيأتي بالطعام لبيته، والدكاكين معظمها مغلق بسبب ظروف الحرب، ويبعد بيته عن القاعدة مدة ساعة. لذلك قلت له: «أستبعد أن تجد شيئًا في هذا الوقت». وناديت أحد الإخوة ليحضر له طعامًا؛ لأن الغداء قد نفد حسب تقديري. فوضع له علبة لبن ورغيفي خبز في كيس، وذهبت لأعطيها لحسن، فرفض أخذها، فقلت له: «ما ذنب زوجتك لتبقى جائعة؟».

* - الدثار.

أعطيتـه الكيس وربّـتُّ على خصره، أي اذهبْ ودَعْنـي أنام قليلًا، لكنـي قبـل أن أستلقي رأيته عائـدًا، قال لي: «لقـد تجاذبتني الأفكار لأجد مخرجًا لكنّني لم أجد لهذا مسوّغًا شرعيًّا!».

فنهضـت وقلـت لـه: «حسنًا خذ حصتـك من الطعـام إلى البيت، وتناولهـا مع زوجتك. وإن كان ذلك يزعجـك أيضًا، أحضر معك غدًا رغيفـين وعلبة لـبن وضعهما في المطبخ». يبـدو أن فكرتي هذه أقنعته، فهزّ برأسه موافقًا وذهب.

استلقيـت لأنام دقائق لأكـون صاحيًا قبل الاجتمـاع، وما إن ثقلت عينـاي، حتى أحسست بوجود أحـد قربي، وصوت خطواته تقترب من المطبـخ، أزحـت يدي عن عينـي لأرى من القادم. إنـه حسن كما يبدو بهيئتـه لمن يراه مـن الخلف. فناديته: «أراك قد عـدت؟!». جاء ووقف فوق رأسـي، احمرّ وجهه، وجبينـه يتصبب عرقًا، فتـأوه بصوت عالٍ وقـال: «لعلّـي لا أبقى حيًا حتى الغـد لأشتري بديلًا عـن هذا الطعام وآتي به. توكلت على الله، سأذهب وأبحث في المدينة لعلّي أجد طعامًا، فآخذه إلى البيت وأعود فورًا».

## الهجوم الحديدي

لم تمضِ أيامٌ قليلة على انفجار القنابل العنقودية في الصحراء، حتى توجهت مع «محمد علي أميني بيات»، و«مرتضى صفاري»، و«مصطفى نقد علي» لـزرع ألغام تمنع قوات العدو من التقدم من تلك الجهة. وفي الطريـق أخذ محمد علي يقصّ على مرتضى ومصطفى حادثة انفجار القنابل، وصوت الانفجار المهيب، وكيف كانت حالي أنا وصالح.

الأدوات والتحضيرات اللازمة لهذه المهمة كانت تختلف عمّا كانت عليه في يوم الاستطلاع قبل ايام. كنت قد طلبت من الإخوة تحضير كل اللوازم العسكرية والقبعات الحديدية والألغام بالعدد الكافي، وأن لا ينسوا إحضار الإسعافات الأولية احتياطًا.

عندما وصلنا إلى المنطقة المحددة سلفًا، كانت هناك شجرة تبعد قليلًا عن سائر أشجار المنطقة، أشرت إليها، وطلبت من مصطفى أن يتوجه إلى مجموعة الأشجار، حاملًا كل الأدوات العسكرية والقبّعة الحديدية، وأن تبقى الأسلحة في حال جهوزية، وأن يلزم مصطفى المكان قرب الأشجار ويراقب يمنة ويسرة، حتى إذا تقدمنا لزرع الألغام، حذّرنا إذا قامت قوات العدو بالتقدم والالتفاف علينا.

بمجرد أن ذكرت اسم قوات العدو، أحسست وكأني قد أذبت حبرًا بنفسجيًّا في الماء، وبللت به وجه مصطفى، وارتجفت رجلاه رجفة

خفيفــة. لذا أردت تشجيعــه وإعادة ثقته بنفســه، فضغطت بقوة على ساعديه وقلت:

- يــا مصطفى، ســوف نتقــدم إلى الأمام معتمديــن عليك، فإذا رأيــت أيًّا من أفراد العدو فلا ترحمه، بل أطلق النار باتجاهه لتحمينا ونتمكّن من الانسحاب والعودة سالمين.

شددت حزام القبعة على ذقنه، وربّتّ على ظهره، وقلت له: «سوف أرى كــم فردًا منهم ستصطاد». تقدمــت بضع خطوات، ثم عدت إليه متفحّصًا، فوجدت ركبته ما زالت ترتجف قليلًا.

اكتسبنــا بواسطة التمرن علــى زرع الألغام قبل أيــام في فارسيات مهــارة وسرعــة، لذلك زرعنا الألغــام حسب الخريطــة المعدة لذلك، ووضعنــا علامات عليهــا ثم عدنا. واستغــرق زرع الألغام وعودتنا إلى مصطفى حوالي الساعة تقريبًا.

كانت عودتنا باتجاه الأشجــار المحددة، فخرج مصطفى من خلف إحداهــا ولوّح لنا بيــده صارخًا: «لماذا تأخرتم هكــذا؟!». اقتربت منه، فوجدت وجهه أشدّ صفرة من ذي قبل، وازدادت رجفة قدميه، كما لو كان قــد خرج من الحافلة الدافئة شتاءً في «أردبيل» ليقضي حاجته أو يتناول الشاي.

قال لنا: «يبدو أنكم قد ذهبتم إلى «قندهار» لزرع تلك الألغام!».

سألنــاه عن الذي حدث، لكنّه لم يُجب وظلّ صامتًا، فقفلنا عائدين لعلّه يرتــاح ويطمئنّ فيتكلّــم، سرنا مسافة خمسمئــة متر من منطقة الأشجار إلى سيارة الجيب، ما لبث أن تحدث إلينا قائلًا:

- بعــد ذهابكــم بربع ساعــة، وبينما كنــت أراقب يمينًــا وشمالًا، أحسســت بفوهــة بندقيــة تلامس رقبتي مــن الخلف، لكــن صاحب

البندقيـة لم ينطق بشـيء ولم يقل ارمِ سلاحك وارفع يديك. فقلت في نفسي: لعلّه كمعظم الجنود العراقيين لا يتكلم اللغة الفارسية، ويفضل أن يتحـدث بلغـة السلاح. رميـت بندقيتي أرضًا، ورفعـت يدي عاليًا. وانتظرت أن يقول شيئًا أو يطلق عليّ رصاصة الرحمة، لكنه لم يفعل.

حركـت رأسي يمنة ويسرة، فلم أره، فهـو كان يتحرك معي، وكنت سأبـدأ بالبكاء، فصرخت فيه: من أنت؟ عربي أم إيراني؟ وهل لديك لسـان؟ ومـاذا تريد مني؟ أطلـق رصاصتك وأرحني يـا هذا. لكنه لم ينطق بأي كلمة، واستمر يلصق فوهة بندقيته برقبتي. لا أدري كم مرّ مـن الوقت وأنا أرتجف، ربع ساعة أم أقلّ أم أكثر. إلى أن خطر ببالي أنه قد يكون من الإخوة ويريد أن يمازحني، لكنها مزحة سمجة خاصة في هذا المكان الحساس من الجبهة!

لذلـك قررت أن أستدير بسرعة فائقة، وأزيح فوهة البندقية بيدي لأبعدهـا عنيّ، وأوجه لكمة إلى وجهـه. واستجمعت كلّ قواي وجرأتي، واستـدرت سريعًا، وسددت ضربة باتجـاه القلب، لكن يدي لم ترتطم بأحد وغابت في الفراغ. لم أجد أحدًا خلفي، لكني ما زلت أحس بفوهة السلاح. مـددت يدي إلى رقبتي، عندها أدركت أن فوهة السلاح التي أرعبتني ما هي إلا قطعة معدنية متدلية من القبعة التي أعتمرها على رأسـي، فبعد رحيلكم عرق رأسي، وفتحـت حزام القبعة، فتدلى رأس الحزام بين رقبتي والسترة.

## معلومات روحية

في تلك الليلة، كنا جالسين أنا ومرتضى صفاري و«محمد علي أميني بيات» و«محمد بيش» بهار في بيت شيخ فارسيات الذي تحوّل إلى مقر قيادة المحور. كان محمد علي يقصّ على «بيش بهار» ما جرى صباحًا، وكيف كانت هيئة مصطفى عندما ظنّ أنّ طرف قبعته هو فوهة بندقية العدو! أخذ محمد علي يضحك، فبانت أسنانه البيضاء أمام نور الفانوس الخافت كأنها تلمع كالصدف. لا أدري كيف تحول مجرى الحديث من المزاح إلى ناحية المعنويات والروح وحياة ما بعد الموت. فطرح محمد علي أسئلة لم يسألها أحد سواه من قبل، قال:

- يا أخ أسدي، برأيك ألا تستطيع أرواح الشهداء أن تساعدنا لنفهم ما يجري خلف خطوط العدو؟

أثار هذا السؤال في أبداننا، فضلًا عن الجو شبه المعتم للغرفة، ونور الفانوس الخافت، إحساسًا رقيقًا بالخوف.

أجبته: «إن روح الشهيد ترى كل شيء، لكننا نحن الذين لا نرتبط بها، فكيف يمكننا أن نحصل على المعلومات منها؟!».

بانت أسنانه البيضاء المتلألئة وهو يتحدث: لا أدري، كأن تتّصل الروح بنا في المنام. فأنا أعتقد أن أرواح الشهداء يمكنها أن توجد خللًا في نشاطات العدو، مثلًا تعطيل مدافعهم وقذائفهم.

قضينـــا نصف ساعة تقريبًا بين سؤال وجواب، واستمرّ محمد علي مصرًّا على الحوار إلى أن قال له «بيش بهار»: «عزيزي محمد علي قل لي ماذا تناولت مساءً؟».

- «يا عزيزي، أنا لم أتناول شيئًا منذ الظهيرة».

- هــا، إذًا كل هذا بسبب جوعك! اذهب وتناول شيئًا ما واستغرق في النوم، ودع الأخ أسدي ينام أيضًا، فلدينا صباح الغد عمل كثير.

في الصبــاح الباكــر، سألنــي محمد علي: «هل سنذهــب اليوم إلى الاستطلاع؟»، فأخبرته أنّنا سنقيم متاريس في هذا الجانب من النهر، لذلك عليّ أن أبقى هنا لأشرف على ذلك وأساعد الإخوة.

قال: «إذًا عن إذنك، سأذهب لأستطلع ثم أعود».

كنت أعلم أنه يريد تفقد الألغام التي زرعناها، وكم لغمًا قد انفجر منها، وهل قامت قوات العدو بنزعها وأخذها. لذلك قلت له: «يمكنك الذهاب، قوّاك الله، لكن عد سريعًا».

ابتسم وقال: «لا يمكنني أن أعدك بذلك، لكني سأبذل جهدي».

في الغــد بلغنــي أن ضابــط صــف من قــوات الدرك اسمــه «دست فروش» قال لمحمد علي:

- سيــد بيات أريد الذهاب إلى نهايــة القناة رقم 2 لأنصب كمينًا هناك.

أجابه محمد علي فورًا: «أنا أوصلكم إلى هناك».

خــلال الطريق أرشــدَ الضابط إلى مــكان الألغام التــي زرعناها، وحذّرهــم مــن المــرور في المنطقة. وقد نقــل لي الضابط فيمــا بعد أن محمــد علي قال له إنه لا يفصح عن مــكان الألغام لأيّ كان، لكنه كان مضطرًا لإرشاده خشية العبور بسياراتهم من هناك.

لكنّه بعد أن أوصل الضابط إلى مكان الكمين، وفي طريق العودة مرّ بسيارته على أحد الألغام، وكان الانفجار شديدًا، فقذف سيارته بضعة أمتـار عاليًا، واستشهد محمد علي على الفور. بلغني خبر شهادته بعد صلاة الظهر. تذكرت كلامه ليلة أمس حول روح الشهيد.

خـرج مرتضى صفاري مـن باحة بيـت الشيخ، مسنـدًا رأسه إلى الحائـط الطيني، وهو يبكي بهـدوء. أمسكت به وأدرتـه ناحيتي لأرى عينيه قد احمرّتا من شدة البكاء.

- لا تبـك يـا مرتضى، هذا ما كان يتمنـاه، كان يكرر قوله لي: إن الاستشهـاد بلغم له طعم خاص، فسرعة الانفجار رهيبـة لدرجة أنّ المستهـدف لا يشعر متى قُطعت يده أو تناثرت رجله قطعة قطعة، وإذا ما كتبت له السعادة فسينفصل رأسه عن جسده.

ازداد بكاء مرتضى، وبكيت لبكائه، لكني مسحت الدموع، وقلت له: «اذهب بنفسك إلى قم يا مرتضى لتشارك في تشييعه، ثم عد».

## الاشتياق

عند بداية الحرب المفروضة علينا لم يكن الالتحاق بالجبهة أمرًا سهلًا، كان الناس في اشتياق كبير للالتحاق، لكن أسلوب الالتحاق والتنظيم لم يكن متطوّرًا، فكان الناس لا يعرفون كيف يلتحقون بها.

ففي الأيام الأولى، كان كل من يصل إلى الغولف يجب أن يُحْضِر معه رسالة من قوات الحرس في مدينته أو من اللجان الثورية. وإن عجز عن ذلك ففي الحد الأدنى يُحضر رسالة من مسجد محلّته ليطمئن المسؤولون عن الإلحاق بأنه معروفٌ وموثوقٌ عندهم، خشية أن يندسّ ويعمل لمصلحة العدو.

لذلك قبل دخولي إلى الاجتماع في الغولف، كنت أسير في الباحة، فجاءني شاب آذري بعمر العشرين عامًا، وقال لي إنّه يريد الالتحاق بالجبهة، طلبت منه بطاقة تعريف أو تزكية، لكنّه كان يتحدث الفارسية بصعوبة جدًا، وبدوري كنت أعرف التركية الآذرية قليلًا، فاضطررنا للتحدث باللغتين معًا ليفهم أحدنا على الآخر، لم يكن لديه رسالة تعريف، فقلت له: «لا أحد يعرفك هنا، عليك أن ترافق مجموعة قادمة من مدينتك أو تحضر رسالة تعريف»، فأجهش بالبكاء.

- لماذا تبكي أيها المؤمن؟ عد وأحضر رسالة واذهب إلى الجبهة.

أجابني بالآذرية: «لقد أتيت من تبريز».

- «لا تبتئس، إننا نعاني في هذه الأيام من أعضاء الأحزاب المنحرفة ومن المنافقين، فما يدريني من أنت، وماذا تفعل».

أخذ يبكي بصوت عالٍ، ويشهق شهيقًا متقطّعًا. وضع يده في جيبه، وأخرج ورقة قدمها لي متسائلًا: «هل تنفع هذه؟».

كان متردّدًا في إبرازها، لكنه اضطر، أخذت الورقة وفتحتها، إنها رسالة إجازة من دون راتب صادرة عن الحرس.

قال إنّ قوات الحرس في تبريز لم يسمحوا له بالمجيء، فطلب بالأمس إجازة مفتوحة من دون راتب، وركب القطار ووصل اليوم إلى الأهواز.

ترك هذا الشاب لوعةً في قلبي، وخشيت أن يعاني أكثر من ذلك، فقبّلت جبينه وطلبت منه الانتظار لأرى ما يمكنني أن أفعله له.

بعد دقائق، وصلت سيارة التويوتا تحمل الإخوة الآذريين عائدين من «سوسنكرد» إلى الغولف لاستلام الطعام. طلبت من السائق أن يصطحب هذا الشاب معه، فهو من مدينتهم.

- قال: «لا أستطيع».

- لماذا؟

أبرز لي أمر المهمة لشخصين، وأخبرني أن حارس المحور لن يسمح لنا بالدخول، وسيقول إنّ أحدكم غريب لا يحق له المرور.

أخذت الورقة وحولت الاثنين إلى ثلاثة. فقال السائق: «هذه عقابها أسوأ يا أخي، لقد زوّرت أمر المهمة».

فكتبت رسالة أخرى ذكرت فيها أنّ هذا الشاب التبريزي مرسل من قبل مقر «منتظِري الشهادة»، ووقعتها. وقلت للسائق: «إذا أشكلوا على أمر المهمة، أبرِز لهم هذه الرسالة». أخذ السائق الرسالة مكرهًا،

وقفز الشاب إلى الخلف، جلس إلى جانب قدور الطعام.

إن مصادفة مثل هذه الحالات كانت تشحذ هممنا جميعًا للبقاء في الجبهة والعمل فيها. فاشتياق الناس للالتحاق بالجبهات شمل الشباب وكبار السن. فبعد أيام من قصة الشاب التبريزي، وصل عجوز بعمر الخامسة والستين مع ابنه البالغ 22 عامًا إلى الغولف. فطلبت منه كالعادة رسالة تزكية لإرسالهما إلى الجبهة.

قال إنّهما أتيا من قرية حدودية في خراسان وإنّه كان يعمل مع ابنه في أرض زراعية، وعند عودتهما إلى البيت بعد الظهر سمعا من الإذاعة أن بعض الدول العربية ترسل متطوّعين لدعم صدام في عدوانه على إيران، فقال الأب لابنه: إذا كان هؤلاء قد قدموا من دول أخرى لمساعدة صدام في عدوانه، فأين غيرتنا نحن؟ ولماذا لا ننصر الإسلام داخل بلدنا؟ لم نتناول طعام الغداء، بل أخذنا خبزنا وتوجهنا إلى هنا، والآن أنت تطلب منا رسالة تزكية؟!

قلت له: «أبي العزيز لا يمكننا أن نرسل إلى الجبهات كل من يصل إلينا، علينا أن نعرف من أين أتى، وما هي توجّهاته».

بسط الأب يديه كأنّه يدعو بدعاء، مدّهما أمامي، وقال: «انظر إلى يديّ، إني فلّاح، هل ترى في شكلي أني منافق؟!».

صدق لهجته لا يترك أي مجال للشك فيه. فأخذتهما معي إلى المحور، وعرّفتهما إلى الإخوة الخراسانيين.

## فرصة للتعلم

في بداية استقرارنا في «فارسيات»، كنّا نصلي الجماعة في باحة بيت شيخ القرية، لكنّنا فيما بعد رتبنا إحدى غرف المدرسة المجاورة للبيت، لتكون مصلّى مسقوفًا. كان صفًّا كبيرًا، يتّسع لكل شباب المحور، و كنّا عندما يغصّ بالمصلّين، نفرش باحة المدرسة ليصلّي فيها من لا يجد له مكانًا في الداخل.

كان إمام الجماعة طالب علم من آذربايجان الإيرانية يُدعى «يونس عاقل نهند»، ورغم كونه شابًّا، إلا أنّ الجميع كان يحترمه ويقدّره بسبب روحيّته الطاهرة.

ذات يوم، كان يونس يؤم صلاتي الظهرين، والإخوة يصلّون خلفه، وكنت أصلّي وسط الجمع. بعد قنوت الركعة الثانية من العصر، نادى الشاب الذي ينقل للمصلّين حركة إمامهم؛ الله أكبر، ركوع.. وفي اللحظة التي كاد فيها أن يلفظ العين في كلمة «ركوع»، سقطت قذيفة مدفع قرب المدرسة. وبدل الركوع سجد الإخوة كلّهم ما عدا يونس وأربعة آخرين. وفور إتمام الصلاة، ضحك الكل، وسألوا: «هل نعيد صلاة العصر أم لا؟»، أجابهم يونس: «أعيدوها». اعترض الشاب الذي كان الأسرع في السجود من دون ركوع وقال:

- لماذا نعيد الصلاة؟ ماذا لو سقطت القذيفة بيننا لا سمح الله..؟

ضحك الجميع، وما زال «عاقل نهند» مبتسمًا وأجابه:

- لأنّ اللّه تقبّل منا ونجانا، علينا أن نعيدها لنشكره.

ما دمت أتحدث عن إمام الجماعة، فسوف أذكر عالم دين شجاعًا وتقيًّا من شيراز كنا قد استضفناه لعدة أيام. زار الشيخ كل المحاور وتفقدها من دون أن يستقر في مكان محدد. كانت حصتنا من زيارته عدة أيام لمسنا خلالها صفاء باطنه وشخصيته الهادئة المطمئنة.

في أحد الأيام، جلست معه في مقر قيادة فارسيات وتبادلنا أطراف الحديث، حيث وصلنا إلى شيراز وأهلها وزمان المواجهة خلال الثورة. فجرى ذكر آية اللّه السيد دستغيب، ذكر الشيخ إحدى ذكرياته مع ذلك الشهيد العظيم عندما كان إمام جمعة شيراز، قبل أن يغتاله المنافقون:

توجّه الشيخ للقاء سماحة السيد دستغيب، وقال له: «خلال أشهر الحرب الماضية كنت كلما ذهبت لزيارة المقاتلين في الجبهات، فإنّهم كانوا يدفعونني لأصلّي بهم إمامًا، وبما أني أرتدي زي رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله أجد نفسي مضطرًا للقبول. لكني أعتقد أني لست أهلًا لذلك، بل إني أدنى وأحقر منهم، ولست لائقًا أمام عظمة المقاتلين وكرامتهم».

أجابه الشهيد دستغيب: «يا بني ما دمت ترى نفسك أدنى من المقاتلين، وافق على إمامة صلاة الجماعة معهم، وصلاتك بذمتي. لكن عندما ترى نفسك أهلًا لذلك، عندئذٍ إمامتك للجماعة بذمتك، وأنت المسؤول عنها يوم القيامة».

## عاشوراء هاشم

إن استشهاد أيّ عنصر جيد ومتديّن في محورنا، كان يشكّل دومًا خسارة كبيرة للمحور، لكن تقاطر العناصر الجدد كان يشحذ همّتنا للاستمرار في الدفاع. وبسبب حاجة المحاور إلى مقاتلين، كان مسؤولو الغولف كلّما وفد إليهم متطوّعون، يقومون بتسجيلهم وتدريبهم وتوزيعهم بين المحاور.

كان من بين المقاتلين الجدد من يبزغ نجمه سريعًا، ويبدي جدارةً واضحة، ومن هؤلاء عدد من شبان مدينة «خرم آباد» الجيدين الذين أُرسلوا إلى «فارسيات»، فقد أبدوا رغبتهم بالخدمة منذ البداية، وكان منهم معلّم قوي البنية وضخم، يُدعى «هاشم بورزادي»، صوته رخيم وتظهر عليه الرجولة، بحيث عندما يسير معك تشعر بالأمن والاطمئنان عند مواجهة أي عدو، لذا بدا كقوّة رادعة.

بعد أيام من مجيئه، لاحظت أنه يجيد السباحة أيضًا، فكان يسبح معي في نهر كارون، بل كان يسبقني أحيانًا. قطعنا النهر عدة مرات، بادرته مرةً عندما وصلنا إلى الضفة وقلت: «لقد أعجبتني كثيرًا يا هاشم، هل لديك استعداد للمشاركة في عملية خاصة؟».

رفع شعره المبلل إلى الخلف وقال: «ماذا؟ وهل أتيت إلى هنا في شهر محرم للسياحة؟ متى نذهب؟».

- اليوم ظهرًا بعد الصلاة.

بدوره أخي الآخر «محمد تقي» الذي أتى إلى فارسيات، سلمته بندقية، وأعطيتُ هاشم رشاش المجموعة (BKC) مع ذخيرة، وضع الرصاص في الشريط، ولفّه حول خصره وبدنه، ووضع الرشاش الثقيل على كتفه كما يضع الراعي عصاه.

توجهنا إلى الضفة الأخرى من النهر، وشرحت لهما معالم المنطقة بالكامل، وبيّنت لهما المهمة الموكلة بالتفصيل. سارا مشيًا على الأقدام حتى الغروب لمسافة ستة كيلومترات، حتى وصلا إلى طريق معبّد. واستهدفا سيارتين للعدو تحملان عددًا من الجنود، ثم عادا متستّرين بظلام الليل.

في الصباح، راقبت نقطة العملية عبر المنظار، ساد قوات العدو حال من الاستنفار والرعب، وقد امتلأت المنطقة بالقوات وأحكمت السيطرة عليها.

بعد أيام دفعني نجاح هاشم ومحمد تقي إلى تكليفهما بعملية أخرى. شرحت لهما الخطة، وقلت لهاشم: «أريد أن أرى همتك».

أجاب بسرور: «حدّد لنا المنطقة واطمئن».

كما فعلا في المرة الأولى، كانت هذه العملية ناجحة أيضًا، التفّا خلف كمين نصبه العدو، ودمّرا السيارة والذخائر المحمولة فيها.

في أواخر الليل، عقدنا اجتماعًا بحضور ضابط الصف «دست فروش» واتفقنا أن نشنّ في الصباح الباكر هجومًا على قوات العدو المتمركزة عند قناة قرية بيوض.

بينما كنا نوزّع المهام ونكمل التفاصيل، طُرق الباب، وسأل أحدهم بصوت رخيم: «هل أسدي هنا؟». كان ضوء المصباح خافتًا لا يُظهر

الوجـوه جيدًا، لكني عرفته من صوته، إنـه هاشم، لهجته لرّية ويذكر الاسم بلا أخ أو سيد من دون تكلّف.

- هذا أنت يا هاشم؟

ألقى السلام وقال: «المهمة نُفّذت بنجاح».

عندمـا خرج الإخوة من قوات الدرك، اقـترب هاشم مني وقال: «يـا أسـدي العزيـز، أتيـت لأقول لـك شيئًا، غـدًا الثامن مـن شهر محرم، وبعـد يومين عاشوراء، هل تتصور كـم ستكون مراسم عزاء الإمام الحسين عليه السلام يوم عاشوراء حافلة إذا تمّ تشييع أحد الشهداء خلالهـا؟!».

لم أستطع أن أسأله عن فكرته في هذا الظلام وهو مقطب الجبين، وكله عزم.

فسألته: «وماذا تريد؟».

- رتّب لي عملية ما.

- بالمناسبة كنّا نخطّط لعملية ننفذها غدًا صباحًا.

- سأشارك معكم بدوري.

- يـا رجـل، سنتحرك فجـرًا بعد الصـلاة، وأنت عـدت الآن من عمليـة، والتعب بادٍ عليك، اذهب لترتاح، وستشارك في العملية التالية إن شاء الله.

اقـترب منـي، وأمسـك بيـدي راجيًـا، وأقسـم علـيّ أن أسمح له بالمشاركة.

أجبته: «حتى الصباح، اذهب حاليًا ونم».

مـا إن سلّمت مختتمًا صلاة الصبح، حتى أمسك بيدي ثانية وقال:

«يا أسـدي لا تتركني هنا». وجدت نفسي عاجزًا عـن إقناعه وإقالته، قلـت له: «حسنًا، اذهب وأحضر سلاحك». سرنا فورًا من دون أن نتلو تعقيبات الصلاة.

عبرنـا النهر وكان الظلام ما يزال دامسًـا، حتى إذا جهّزنا قوّاتنا للعملية ووصلنا القناة بدأ النور ينشقّ. ولا أدري إن كان العدو يستعمل منظار الرؤية الليلة أم لا؟ أو هل هناك حراسة؟

واجهنـا كمينًـا نصبه لنـا العـدو، وكان هاشم يسـير في المقدمة، فأصيـب هو وأحد الإخوة من أهـالي طهران يُدعى «زمرديان» بقذيفة «آر بـي جي» في بطنـه، كان يحمل زيادةً عن جعبتـه سلاحه وقنبلتين عنـد خاصرته، ، فانفجرت القنبلتان، وتقطّـع جسده، وتفرّق جمعنا، فصرخـت: «اللّه أكبر» لتشجيـع الإخوة على استهـداف أفراد العدو، أصبنـا بعضهم وفـرّ الباقون. وعندما تقدمنا عـثرت على جثّة هاشم مطروحة على الأرض.

كان العدو يتوقّع هجومنا، لذلك زرع كمينًا قبل القناة، ونشر جنوده (ناموسيات) ضد البرغش وباتوا الليل هناك.

لا مجـال لنا للانتظـار والتوقّف، علينا سحـب الشهيدين بسرعة، فطلبـت من الأخ الموسـوي إحضار قطعة قماش لجمـع أشلاء الشهيد زمرديـان. بعـد دقائـق، كان على تلـك القطعة عظام وأشـلاء ودماء متخثرة، طلبت من الأخ الموسوي حملها والعودة بها، وسلّمته عدّة قطع من الأسلحة، وحملت باقي القطع. لكن بقي جسد الشهيد هاشم، عليّ إعادتـه بأيّ ثمن. فقبل أيـام، أسرت قوات العدو جسد أحد شهدائنا، وخشيـت أن أترك جسـد هاشم هناك، كان جسده يبـدو سالمًا إلا من رصاصـة غدرتـه في كتفه، لكن وزنـه يبلغ مئة كيلوغـرام، ولا يمكنني حمله على ظهري. لم أجد وسيلة، فقبّلته على جبينه معتذرًا، ووضعت

رجليه على كتفي، وسحبته على الأرض مسافة كيلومتر. بينما أحضر العدو ناقلة جند لسحب قتلاه.

وما هو إلا وقت قليل حتى وصل أحد الإخوة على دراجة نارية، جاء بها من إحدى القرى لسحب جثة هاشم. لكن قدميه ويديه كانت تخطّ الأرض. وبقينا على تلك الحال إلى أن أوصلناه إلى ضفة النهر.

تذكرت سباحتنا معًا، وتمالكت نفسي من البكاء، وما إن ناديت الإخوة من «خرم آباد» حتى غصصت بالبكاء، لكني كتمت صوتي، وطلبت منهم بحزم: «هذا ظهر الثامن من محرم، وقد طلب هاشم أن ينقل إلى خرم آباد فورًا. حمّلوا جثته في سيارة الجيب، وتوجهوا به إلى خرم آباد».

عندما عادوا من هناك، قالوا: «لم تشهد خرم آباد ذكرى عاشوراء حافلة، كما شهدت هذا العام بسبب تشييع جنازة الشهيد».

تذكرت الرسائل التي كانت تصله، كانوا يحثّونه على الزواج. عرض عليّ تلك الرسائل وقال: «ما دامت هناك حور عين، هل فقدت عقلي لأتزوج من نساء الدنيا؟!».

## توحيد اللغة

كان شحّ الأسلحة المشكلة الأساس للقوات في بداية الحرب، وخاصة قوات حرس الثورة الإسلامية، ولعل وضع محورنا في الأيام الأولى كان أفضل من سائر المحاور. فلعدة أسابيع كنا نتنعّم بعدة بنادق (برنو، M1، بنادق صيد، قاذف B7، وB6) التي أحضرناها معنا من «نور آباد».

في اليوم الثاني لوصولنا إلى المحور، أصبنا دبابة للعدو بقذيفة B7، فبقي لدينا خمس قذائف فقط، حاولنا الاحتفاظ بها قدر المستطاع، على أمل أن لا نضطر لإطلاقها. لكن في الشهر الثالث اضطررنا إلى صدّ هجوم العدو، وبتنا خلال عدة دقائق، لا نملك أي قذيفة مضادة للدروع.

في هذا الوضع، كان همّنا الوحيد في محورنا والمحاور الأخرى هو الحصول على أسلحة أحدث وأكثر فاعلية، لأن أسلحتنا القديمة لم تعد صالحة لمواجهة أسلحة العدو المتطوّرة. لذلك عندما التقيت اللواء فلاحي رئيس الأركان المشتركة للجيش في غرفة العمليات في الأهواز، حدّثته جانبًا، وشرحت له الوضع الصعب الذي نعاني منه في فارسيات، وشحّ القذائف المضادة للدروع، وكيف تتقدم دبابات العدو قادمة من ««معسكر حميد»» وتطلق مدافعها المباشرة على شبابنا، من دون أن يملكوا ما يواجهونها به. وكنت قد حضرت كلامي ليكون واضحًا، تامّ المعنى، في أقل مدة زمنية ممكنة، فقال لي: «لا تتحدّث

بهذه السرعة، ووضّح أكثر لأفهم ما هي مشكلتكم».

أخذت نفسًا عميقًا، ووضّحت له أنّه يُفضّل في مثل تلك الحالات أن تقـوم القوة الجوية بإرسال طاقم مع طائرتي كوبرا لتدمير الدبابات، عندها لن يجرؤ هؤلاء على التقدم بهذا الشكل.

هـزّ رأسه موافقًا، وطلب منـيّ مرافقته إلى غرفة أخرى. استدعى عـدة طيارين، وطلب من ضابط شـاب إبلاغهم بالحضور سريعًا إلى الغرفـة. وهكذا اجتمعـوا بأقلّ من ثلاث دقائق، وطلـب مني اللواء أن أشرح الوضع للطيارين على الخريطة الجدارية.

أمسكت عصا الإشارة، وبدأت الشرح من الأهواز، واستلمت مجرى نهـر كارون، وسـرت شيئًا فشيئًـا حتى وصلت فارسيـات. توقفت عند الطريـق المـؤدي إلى «معسكر حميد»، وقلت لهـم: «أعتقد أنه يمكنكم العبور فوق هذا الطريق، أو من خلال بساتين النخيل».

سـأل قائدهم عمّا يجعلنا نتوارى ونستـتر في المنطقة، فشرحتُ له أنّ النخيـل يشكّل غطاءً كثيفًا. ثم سأل عـن المسافة التي تفصلنا عن العدو، وعن المعلم الذي يُبرز العدو ويدل عليه. فاتّفقنا أن نلتقي خلف بساتين النخيل لأوضح لهم عن قرب.

بعـد انتهائي من التوضيـح، اقترب الطيارون مـن بعضهم بعضًا، وتحدّثوا عـن الطلعات، لكني لم أفهم شيئًا لأنهـا مصطلحات خاصة بهـم، فكل ما كنـت أفهمه أنهم سيأتـون بأمر من اللـواء بعد الظهر؛ ليصطادوا دبابات العدو بطائرات سمتية.

عـدت إلى فارسيـات سريعًا لأقـوم بتأمين الدعم لهـم عند تنفيذ الطلعـات، باعتبارنا قوات برية. عند الساعـة الثانية من بعد الظهر، سمعنا هدير ثلاث طائرات هيلوكوبتر، فصعدت إلى سطح بيت الشيخ حيث غرفة عملياتنا، فهبطت المروحيات بالتوالي خلف بستان النخيل.

نزلت مسرعًا، أدرتُ محرّك السيارة متوجهًا نحو البستان.

وجدت الطيارين بعيـدًا عن طائراتهم، قد اجتمعوا لمطابقة ومقارنة موقع المنطقة على الخريطة. حالما وقع نظرهم عليّ فرحوا ونهضوا قائلين:

- أين أنت يا أخي؟ تعال لنرى ماذا علينا أن نفعل.

أشرت إلى الخريطة، ثـم إلى النهر والطريق. وإلى مكان «معسكر حميد» على الخريطة، ثم إلى الطريق المؤدي إلى مدخل المعسكر. حدّد الطيارون مكانهم جيدًا. واتّفقنا أن أعود إلى المقر، وأبقى على اتصال بهم عبر المركز.

عندمــا وصلت إلى بيت الشيخ، لم تكن الهيلكوبترات قد أقلعت بعد، فخطـر لي احتمال أن يُسقط العدو الطائـرات ويأسر الطيارين. لذلك استدعيـت الأخ «حسين كلريز» من الإخـوة النشطين من أهالي شيراز، وقلـت له: توجه بسرعة مع عدد من الإخـوة بزورق إلى الشاطئ الثاني، حتـى إذا أصيبت أي طائرة -لا سمـح الله- تتمكّنون من إخلاء الطيار ومساعده. وأكّدت عليه: لا شأن لكم بالطائرات، كل ما عليكم هو التدخل إذا ما أُصيبت، عند ذاك أسرعوا بإنقاذ الطيارين ومساعديهم.

- بأمرك.

قالهــا بصوت رخيم وذهب. صعـدتُ إلى سطح بيت الشيخ، حلقت المروحيــات واحــدة تلـو الأخـرى متوجهة نحــو النهر، أخـذت أراقب بالمنظار، حسين ورفاقه في الزورق، وكان حسين آخر من ركب الزورق. لكنه ترجّل منه سريعًا وعاد نحو بيت الشيخ.

في البدايــة، انزعجت من تصرّفه هذا، فبعد «أمرك» الرخيمة، ما زلــت أراه لم ينطلق بعد إلى هنــاك. لكني استدركت وقلت لعل الزورق لم يتحمـل المزيد، وسيذهـب الباقون، لا أهمية لذلــك، المهم أن تنفذ المهمة. رأيت حسين متّجهًا نحو المقر، لكني كنت قلقًا على المروحيات،

فنسيت حسين، وأين ذهب، ولماذا لم يأتِ إليّ.

تابعت مراقبة تحليق المروحيات إلى الحد الذي يسمح به مدى الرؤية، كانت تتقدم وتتراجع ثم تتقدم، كانت حركتهم وتحليقهم بنظم خاص، لكن عندما بدأ قصفهم لدبابات العدو، قام العدو بقصف مقرّنا بشدة، وتساقطت القذائف، قذيفة تلو أخرى، على الأرض، لكن إحدى القذائف المدفعيّة التي أصابت وسط المقر كانت شديدة الانفجار لدرجة أنها جعلتني أقفز من السطح مسرعًا لأرى ماذا جرى.

فتبيّن لي أنّ قذيفة المدفع قد أصابت مدخل إحدى الغرف، وكان أبي داخل تلك الغرفة. كذلك أصابت شظيةٌ عين أحد قوات الدرك الذي راح يركض ويصرخ واضعًا يده على عينه: «إنّي أحترق، يا الله، لقد عميت، لقد عميت».

دخلت الغرفة، وجدت أنّ والدي مصاب بشظيّة في يده اليمنى، ولم تكن إصابته خطرة. بحثت في الغرف الأخرى، فلم أجد فيها جرحى. كدت أهمّ بالخروج عندما ظهر أمامي «حسين كلريز»، وقبل أن أسأله لماذا لم يذهب إلى الشاطئ الثاني، سقطت قذيفة أخرى، صرخ حسين: «انبطح». وفورًا، دفع الباب واستلقى. لم أجد فرصة لفعل أي شيء.

سقطت القذيفة على الأرض، وانطلقت شظية منها مباشرة لتصيب رأس حسين. تألمت كثيرًا لاستشهاده، وقلت: «قدره أن لا يذهب إلى الجهة الأخرى من النهر، بل أن يأتي إلى هذه الغرفة، ويصاب بشظية ويستشهد».

نقل الإخوة والدي إلى المستوصف لعلاجه، ولمّا عاد قال: «يا بني، إنّ الإصابة بشظية، تحتاج إلى السعادة».

وبعد أسبوع من تلك الحادثة، سقطت قذيفة أصابت سقف غرفة التموين التي يتولّى مسؤوليّتها والدي، وظنّ الإخوة أنّه استشهد،

فنادوني لأدخل الغرفـة وأحضر جثة والدي. لما دخلت وجدت كل علب التمويـن قد سقطت، بحيـث كلّما رفعت واحدة يسقـط غيرها وكأنها مترابطـة، أُصيبـت كلّهـا بالشظايا، كذلـك برميل الوقود قـد امتلأ بالثقـوب، في حين تمزّقـت أكياس الـرز والفاصوليـاء والعدس وغير ذلـك، أما الزاوية التي يجلس فيها والـدي عادةً ليقوم بالإحصاء فلم تُصب بأيّ شظية، وهكذا أخرجت والدي من تحت التراب والركام.

خـرج وهو يضحك ويكـرّر الجملة نفسها: «كما قلت لك يا ولدي في الأسبوع الماضي، إن الشهادة تحتاج للسعادة». على كل حال، دعنا من ذلـك، كان عليّ أن أعـود إلى سقف بيت الشيخ لأتابـع الهيلكوبترات. انقطع هديرها، ولشـدة قصف العدو لمحورنا كان واضحًا أنّ خسائره كبـيرة، فقـد أصيبت إحـدى الطائرات وسقطت في هـذا الجانب من النهـر، وبحمـد الله استطعنـا أن ننقذ الطيـار ومساعـده. لكن هذه العملية الجوية بذاتها كانت مهمة، حيث ألقت الرعب في قلوب الأعداء، ومنعتهم من الاقتراب نحو هذه الجهة من النهر، ومن مقرنا.

في اليوم التالي، توجهت إلى الأهواز، واصطحبت اللواء فلاحي إلى فارسيـات لرصد آثار العملية والتعرف إلى المنطقة أكثر. كان مسرورًا للأمـر الذي أصـدره بالأمس، لكنـه كان يُخفي سـروره بسبب ضعف القدرة العسكريّة.

قلـت لـه: «يـا حضـرة اللـواء، إني أدرك العوائق التـي تحول دون تقديمكـم الدعم العسكري لقوات الحرس، لكنك شخصيًا ترى كيف جاء هؤلاء ليضحّوا من أجل الثورة والإسلام».

- أخـي العزيز، إني أثق بالتـزام شبّانكم وإيمانهم، لكن الأسلحة التي بين أيدينا تحتاج إلى الاختصاص، ولا يمكنكم استخدامها. يجب أن تمتلكوا التخصّص لتتمكنوا من القتال جيدًا.

حدّثتـه عن الواجب الذي يحمّله الدين لـكلّ مسلم عندما يتعرض الكيان الإسلامي للاعتداء، مـن شاب وشيبة ورجل وامرأة، وقلت له: «هـذا ما دفعـك للموافقة على تقديم الدعم العسكـري لمحورنا». ربّت على كتفي قائلًا:

- يا سيد أسدي، إني أفكر مثلك حقيقة، لكن ماذا أصنع وقد منع ذلك رئيس الجمهورية، وفي الجيش هناك فضوليون كثر، يقدمون التقارير.

وأكـد رغبته بدعمنا، لكنه مجبر على تقديم ذلك الدعم من خلال الدرك والضابط «دست فروش» على أن نستفيد بدورنا منها.

قلت له: «قدّموا الدعم للمحاور عبر أي جهة شئتم».

فوعـد أن يكلّـف بإرسال مدفـع (هاون 120) ومدفعيـة إلى محور فارسيات. وبعد أيام وصل إلى المنطقة ما وعد به[1].

إضافـة إلى موضـوع الحوار الذي دار بيني وبـين اللواء فلاحي، لا بـد لي من الإشارة إلى حقيقة أخـرى؛ إنّ إحدى المشاكل الأساسية في بدايـة الحرب هي تفاوت التحليـل والفهم، واختلاف وجهة النظر بين الجيشـ والحرس. حيث كان الجيش لا يـزال متأثرًا بالتدريب والفهم العسكـري التقليدي الذي تلقّاه في عهد الشاه، بينما قوات الحرس هي مؤسسة يافعة، كان لديها رؤًى ثورية جديدة.

أفـراد الجيش كانوا قـد تلقّوا علومًا عسكريـة كلاسيكية، ولديهم نمـوذج محدّد عن الحرب هو نموذج الحـرب العالمية الأولى والثانية، في حين أنّ تصوّر قوات الحرس لنموذج الحرب ونظرتهم إليه تشكّلت

1- الشهيد اللواء ولي الله فلاحي من مواليد طالقان عام 1931م، رغم أنه كان قائدًا في الجيش الملكـي قبل الثـورة، لكنه كان معروفـا بتدينه. بعد انتصـار الثورة تولى قيادة القـوة البرية في الجيشـ، وكان فـي الجبهـة منذ بداية الحرب، بعـد تنحية بني صدر من القيـادة العامة للقوات المسلحة بحكم صادر عن الإمام الخميني، أضحى فلاحي رئيسًا للأركان المشتركة للجيش. بعد عمليـات «ثامن الأئمة» وخلال عودته إلى طهران سقطـت طائرة هوكولس سي 130 للقوة الجوية للجيش يوم 1981/9/28م فاستشهد مع جمع من القادة العسكريين.

من المساجد والمنابر الحسينية.

خلق هذا الوضع ظروفًا غير محدّدة، دفعت بعض قادة الجيش للقول: إنّ الجيش يملك التخصّص، بينما يملك الحرس التديّن، وينبغي أن يوكل أمر الحرب إلى المتخصّص؛ وهذا ما كان يؤذي شباب الحرس.

قال الحاج داوود كريمي في أحد الاجتماعات: «إننا لا نفهم على بعضنا البعض، لأننا نحن نستلهم من مخزوننا الثقافي حول حروب صدر الإسلام كبدر وحنين وغيرهما، في حين أن رجال الجيش يطرحون لنا الأمثلة حول ساحل بحر «المانش». لذلك يتوجّب على كلٍّ من المؤسّستين أن تعمل إحداهما على توحيد اللغة والإدراك مع الأخرى، وإلا فلن تحل هذه المشكلة أبدًا».

وقد ساهم وجود طاقات منطقية وسبّاقة في كلا المؤسّستين، في العمل على توحيد اللغة والإدراك شيئًا فشيئًا، فالقوات التي حلّقت بجناحيّ التخصص والتديّن، استطاعت أن تنجح في ساحة الحرب أمثال القائد الشهيد صياد الشيرازي[1].

1- العميد علي صياد الشيرازي ولد في 1944/6/12م، كانت علاقتي به أبعد من العلاقة العسكرية العادية، والمراسلات واللقاءات الإدارية. كنت أحبه بعمق، وقد اضطربت عندما بلغني خبر استشهاده، وتذكرت أيام الحرب الصعبة ومشاكلها التي كانت تحل وتهون بكلماته الجميلة، لن أنسى تلك الأيام حيث كان بسلوكه التعبوي يشجع الجميع. إنه من القادة الذين أتحسر دومًا على الأيام الجميلة التي قضيناها معه. قبل انتصار الثورة الإسلامية أثار الشهيد صياد الشيرازي حساسية الأمن المضاد في الجيش بسبب سلوكه الديني والأخلاقي، وبعد انتصار الثورة كان قائد عمليات شمال غرب إيران، وخاض مواجهات قاسية مع أعداء الثورة. بعد انتهاء الحرب المفروضة عُين معاون التفتيش في الأركان العامة للقوات المسلحة. قام عملاء منظمة المنافقين «مجاهدي خلق» الإرهابية باغتياله فجر يوم 1999/4/9م وهم يرتدون ملابس عمال النظافة، وذلك أمام بيته في طهران، فاستشهد أمام ناظري ابنه.

## الراصد

إنّ وجود مدفـع الهاون 120 زاد من فعالية محورنا، وأضحى العدو أكثر حذرًا في التقدم نحونا. وبعد أيام من زيارة اللواء فلاحي للمحور، وصـل المدفع إلى المقر، وأرسل راصد المدفعية إلى محورنا لنرشده إلى أماكـن وجود العدو وانتشـاره ليعطي المعلومات للرمايـة. كان ضابطًا شابًّـا أصفهانيًّا حسن المنظـر وذكيًّا مكلّفًا من الجيش، كان سريعًا في التقاط مجريات الوضع وفهمه، ولم يكن يرغب أن يخوض معه أحد في حديث يمسّ اختصاصه.

اصطحبناه إلى الخطوط الأمامية ليعاين أين تتمركز قوات العدو، فكان يرصد بالمنظار ويدوّن أرقامًا على أوراقه، بدت كأنها مصطلحات خاصة بالمدفعية، ثم ينتقل إلى التحدّث باللاسلكي ويذكر زوايا وعقد (إحداثيات). وما هـي إلا لحظات حتى انطلقت قذائف من مدفعيّتنا نحو مراكز العدو. وهكذا، بدا واضحًا أنّ الضابط الشاب لا يرغب أن نفهم شيئًا عن طريقة عمله وتفاصيله.

عندما نجتمع في المقـر، كان يختفي إذا حان وقت الصلاة، لكنّني رأيته عدة مرات أثنـاء الوضوء، ولذا، بذريعة السؤال، اصطحبته إلى باحـة بيت الشيخ لينضمّ إلينا في صـلاة الجماعة. بعد الصلاة، كان يجمـع قبضته ويطلقهـا في الهواء بدل الهتـاف بالتكبير مع الآخرين،

وفي الوقت نفسه، كان يتنفس بشدة كأنّما كان يركض ويلهث.

بعد أسبوع من بدء مهمته لدينا، اتّصل ظهرًا عبر جهاز اللاسلكي وأبلغنا أنّ هناك عدة أشخاص سيحضرون من الجهة الأخرى للنهر. ركبتُ الزورق الذي كنا نستخدمه لعبور النهر من جهة إلى أخرى لأذهب إلى هناك وأقوم بنقلهم.

عندما دمّر طيّارو المروحيات دبابات العدو، تركوها وسط الصحراء، فاقترب شبابنا من الدبابات وأخذوا بعض القطع كغنائم. حينها جاء ضابط المدفعية بآلة سحب* الدبابات، كانت ثقيلة وذات رأس كبير فسحبها إلى شاطئ النهر.

خاطبته باحترام كي لا أنال من كرامته وحسّ التفوق لديه، وللأسف كانت هذه الحالة موجودة حينها:

- يا حضرة الضابط**، هذه الآلية ثقيلة لا تحمّلها في الزورق.
- كلا يا أخي، إننا بحاجة لها، نريدها لسحب آليات ثقيلة.

جوابه هذا لم يسمح بنقاشه أكثر، وخشيت إن ناقشته أكثر أن لا يتعاون معنا في المهام القادمة، لذلك طلبت منه الحذر في الحد الأدنى.

ركب الضابط «دست فروش» وستة عناصر آخرين، وسرنا بالزورق. لكن بعد أن اجتزنا مسافة قصيرة، بدأ الماء يدخل إلى الزورق، لم أكن أعلم أنّه حمّل آلة السحب الثقيلة جدًا ووضعها في الزورق، وأنّنا نحملها معنا. خفّفت من السرعة لأتبيّن سبب المشكلة، لكن الماء دخل

* – عدّة مؤلفة من حبل فولاذي ثقيل وبكرة ولوازمها، تساعد في قطر الآليات وسحبها بواسطة آلية أخرى.

** – يذكر الأشخاص برتبهم العسكرية في الكتاب لأنهم من الجيش وليس الحرس. ولم يكن هناك تصنيفات ورتب عسكرية رسمية في تشكيلات الحرس آنذاك.

بقـوة القسم الخلفـي للزورق، ورمى بالركاب مـن الأمام إلى الخلف، فاختـلّ توازن الـزورق، وارتفع الجـزء الأمامي منه وانقلـب في الماء، وكدنـا نغرق جميعًـا، وبينما كنت أحاول النجاة بنفسـي، أحسست أنّ هنـاك من يمسك بكلتـا رجليّ ويسحبني معـه إلى القعر؛ إنه «بروين» مـن شبـاب الحرس، كان لا يجيـد السباحـة وهـا هو يغـرق. بذلت قصارى جهدي حتى تمكنت من رفعه ليمسك بطرف القارب، سَحَبتُ نفسـي إلى القارب، وأمسكت بالضابط دسـت فروش من شعر رأسه، وسحبتـه ليمسك بطـرف القارب أيضًا، «موسـى رضا زاده» وشخص آخـر كانا يجيدان السباحة، فتعاونّـا جميعًا حتى وصلنا إلى الشاطئ، حينها نظرت إلى الجميع وسألتهم: «هل هناك أحد مفقود؟»، أجابني الضابـط دست فروش وهو يلهث بين كلمـة وأخرى: «لا أظنّ أنّ هناك مفقودًا غير الشاب الأصفهاني راصد المدفعية».

انتظرنـا ونحن نبحث هنا وهناك، لم نجـد أحدًا، بدا أنّه قد غرق وسحبـه الماء. قررنا البقاء وعدم العودة، كان الجميع متأثّرًا، وصورته لم تبارح خيالي وهو ينظر عبر المنظار ويعطي الإحداثيات. اضطررنا للعودة إلى المقر، وإبلاغ مجموعة المدفعية بما حصل.

عصـرًا، عدت إليهـم، وشرحت لهم ما حـدث، وأن أسلحتنا نحن أيضًـا قـد غرقت ولم نعـثر عليهـا، كان أحدهم يدوّن كلامـي كلّه في تقرير سوف يُرفـع إلى المسؤول عنهم، من أجل متابعة البحث والعثور على جسد الراصد.

في اليـوم التالي، وبعد بحـثٍ وتدقيق، علمنـا أنّـه في قرية «مكسر» شابٌّ اسمه مهدي، وهو صياد سمك، لديه قارب كبير بمحرك بخاري قدرتـه 25 حصانًا، وهو خبـير في المجال الذي نريـد. أرسلت بطلبه،

فأتـى، وقف عنـد الشاطئ وقـال: «إنّ جثة الغريـق في النهر تبقى في القعـر، فـإذا كان الجو حـارًّا تنتفخ بعد أربعـة أيـام، وإذا كان باردًا تحتـاج إلى ستة أيام لترتفـع إلى سطح الماء. والشاب الذي غرق أمس لا يـزال في القعـر، ينبغي أن أرمي الصنـارة والشباك لتعلق بجثته في القعر ويمكن العثور عليه وسحبه».

طلبـت منه أن يبذل جهده، حكّ رأسه وقال: «لا أحمل الآن صنارة، سأعود غدًا وأحضرها معي».

لم يـأتِ مهـدي في اليـوم التالي، بل جـاء في صباح اليـوم الثالث، فأرشدتـه إلى حيث غرق الراصد، فشـرع بالبحث، فيما عدت أنا إلى المقـر لمتابعة الأعمال، وقبـل أن أصل إلى باحة بيـت الشيخ، بلغنـي أنّ عددًا من أفراد الجيش يطلبونني.

كانـت حافلة من القـوات البحريّة للجيش مـن (بوشهر) حضرت للبحـث عـن جسـد الراصد، ويحمـل مسؤولهـم رسالةً رسميّـةً يُمنع بموجبهـا استعمـال المدفعيـة أو إطـلاق الرصاص مـا دام هـؤلاء المتخصّصون يبحثون عن جسد المفقود في المنطقة.

لا حيلة لنا، أبلغت الإخوة بالقرار وعدت. كان مسؤول فريق البحث ضابط صف أربعينيًّـا، سأل بلهجة الأمر: «هل هناك من يعرف مكان غرقه؟».

نعم، كنت هناك وسأرشدكم لمكانه.

أخرجـوا من الحافلة زورقًا مطاطيًّا صغيرًا، قاموا بنفخه، وارتدوا بـدلات الغوص، ركبنا فيـه معًا وانطلقنـا. عندما اقتربنـا من مكان غرقـه، سألني الضابط عـن مهدي الصياد: «من هذا الشاب؟ هل هو من عناصركم؟».

- كلا، لكنه يبحث عن الجسد.

- لا يحـق له ذلك، إنها منطقة عسكرية، لا يحق لأي كان أن يجول فيها كالبقرة، هيّ، يا ابن.. ماذا تفعل هنا؟ اذهب قبل أن أصل إليك....

- يا حضرة الضابط، لكني أنا الذي طلبت منه المجيء للبحث عنه، فلماذا شتمته؟

- لا يحق له ذلك، لا يحق لأحد أن يأتي إلى هنا ليبحث، وهل نحن أموات؟ إنه عمل تخصّصي، وليس لأي كان القيام به.

سارع الصياد مهدي بزورقه وابتعد عن المكان، وأكمل الفريق سيره بحثًا عن مكان غرق الراصد. ولما بدا أنّنا سنتجاوزه قلت لهم: «إني أؤكد أننا غرقنا هنا». لكن الضابط لم يأخذ بكلامي، بل حرّك شاربيه وقال:

- من أين تأكّدت في أي مكان من النهر حصل ذلك يا رجل؟

- إني علـى يقين من ذلك. ومـا عليك إلا أن تجرب أيها الضابط، لعلّي محق.

جـاءوا بقطعـة مـن الإسمنـت، وربطـوا بها حبـلًا، وغاص أحد الغواصـين في المـاء، بعـد أن ربطـوا الحبل بـه، كان يبحـث في دائرة شعاعهـا متر حول قطعة الإسمنـت ثم خرج، وزاد من طول الحبل إلى متريـن وغاص، وهكذا كانوا كل مرة يزيدون المسافة، ويوسّعون دائرة البحـث. ويغيّرون مكان قطعة الإسمنت أحيانًا. بـدا لي أسلوبًا جيّدًا، وقد نقلت رأيي للضابط.

عندمـا خرج الغواص من الماء أول مرة أخـرج معه بندقية، فقلت للضابط: «هل رأيت؟ لقد أرشدتكم إلى المكان الصحيح!».

وغاص ثانيةً وثالثةً إلى أن سمعنا مهدي الصياد ينادي: «تعالوا...

تعالوا.. إنّ الجسد هنا».

أخرج الغواص قطعتي سلاح أخريين، وآلة السحب، لكننا لم نسمح هذه المرة بحملها في الزورق.

قال الضابط: «يجب أن ندوّن التقرير ونذكرها فيه».

يا أخي ينبغي أن تبقوا أحياءً لتدوّنوا التقرير، فمصيبتنا كلّها كانت بسبب هذه الآلية.

وضعنا الأسلحة وأدوات الغطس في الزورق، وتوجهنا نحو مهدي، وبدل أن يشكره الضابط شتمه بعدة شتائم: «لم لا تفهم أنت؟ ألم أقل لك ابتعد من هنا!».

سحبوا الجسد منه، ونظر إليّ مهدي نظرة عتبٍ ولوم، وأسرع بزورقه نحو قريته، وكأنّه أراد بنظرته تلك أن يقول لي لقد نلت كل هذه الشتائم بسببك، ومن أجلك.

كنا خمسة: الضابط وغواصين، وجثة الراصد وأنا. وعند الشاطئ، كان ينتظرنا ثلاثة عناصر، استلموا الجثة، نزعوا ملابسه، وفتشوا جيوبه، حيث عثروا على عدة أوراق في جيب قميصه. طلبت منهم أن يسلّموني الأوراق لعلّ فيها إحداثيات. لكن الحبر كان قد لطّخ الأوراق ولم يعد مقروءًا، باستثناء ورقة فيها بيان لمقاتلي (فدايي خلق أكثريت)* ، كانت كلماته لا تزال مقروءة. عندها علمت أن الحارس كان من الشيوعيين المخدوعين.

دسست الأوراق المبلّلة في جيب قميصي، وقلت لعناصر الجيش الثلاثة: «لقد لمستم الميت، ما دمتم في النهر، اغتسلوا غسل مسّ الميت».

* – حركة مناضلي الشعب.

- وما هو غسل مسّ الميت هذا يا عزيزي؟

كان الضابـط يسأل بإبهام وتلميـح. فوضّحت له أنّ من مسّ جسد الميّت يجب عليه أن يغتسل.

- وكيف هو هذا الغسل؟

- إنه مثل غسل الجنابة.

- كنا بسؤال فأصبحنا بسؤالين، يبدو أنك تسخر بنا، فما هو غسل الجنابة هذا؟

- ماذا؟ أولست متزوجًا يا حضرة الضابط؟

- متزوج ولديّ ثلاثة أبناء، وما علاقة هذا بذاك؟

- هل تقصد أنك لا تعرف غسل الجنابة؟

- لا والله، والآن ماذا علينا أن نفعل؟

أحببـت أن أركـب السيارة، وأنطلق إلى الأهـواز لأعثر على العميد فلاحي وأقول له: تفضل هؤلاء هم المختصّون الذين تحدثت عنهم[1].

1- كانـت لا تـزال توجد في زوايـا وتشكيلات الجيش الايراني في السنـوات الأولى لانتصار الثـورة مظاهـر البعد عن التدين والالتـزام، خاصة أن الجيش هو نفسه الـذي ورثته الجمهورية والنظام الاسلامي من عهد الشاه البائد وعملت على اصلاحه وتنقيته...

## فدائيون مخمليّون

ذات صبــاح، كنت أتناول طعام الفطــور في المقر، جاء أحد الإخوة لاهثًا وقال: «يا أخ أسدي، يا أخ أسدي، أتى سبعة أشخاص إلى بستان النخيل، معهم امرأة، لم يفصحوا عن هويتهم، ولم أعرف من هم».

لم أكمــل فطوري، توجّهت إلى بستــان النخيل. فوجدت رقيبًا ومعه خمســة شبان بملابس مدنية، وامرأة عشرينية ترتدي حجابًا تقليديًّا؛ رداءً وسروالًا وغطاء رأس رمادي اللون، وتحمل بيديها الاثنتين بندقية كلاشنكوف.

سألتهم:» من هو مسؤولكم؟».

تقدم الرقيب، ورفع قبعته، ونفخ صدره سائلًا: «ومن حضرتك؟».

- أنا أسدي مسؤول المحور.
- لماذا العجلة، لمَ لم تبق حتى الظهر لتأتي!
- وماذا حصل يا أخي؟!
- ماذا تريد أن يحصل، إننا منذ ساعة هنا، لا ندري من المسؤول.
- كان عليكم أن تأتوا إلى المقر لأخبركم. لم تقل لي من أنتم؟
- لا داعي لذلك.
- عجبًــا! دخلتم إلى منطقتنــا، فعليكم أن تقولوا لي من أين أتيتم، وماذا تريدون؟
- أتينا لتنفيذ عملية خاصة؟

- حسنًا من قبل مَن؟ هل لديكم رسالة أو أمر مهمة؟

- إننــا من جماعة الدكتور شمــران، لا شأن لنا بأحد، ننفذ العملية ونعود.

لم تكــن أشكالهم تشبه العاملين مع الدكتور شمران، وكان سلوكهم ينمّ عن أنّهم يستغلّون اسم ذلك الرجل العظيم، وليسوا من قواته.

لكنــي قلت: «قل ذلــك من البداية أيها الرقيــب، فلدينا هنا ألغام، وأي خطوة غير مدروسة سوف يقع لكم مكروه لا سمح اللّٰه».

- لغم؟ أين هو اللغم؟ أرني إياه.

- بدايــة عليكــم أن تخبروني ما هــو شغلكم، لا يمكننــي أن أكشف أماكن الألغام لأي كان.

- لمــاذا تسأل كثيرًا، قلت أتينا لتنفيذ عملية خاصة، قل لنا أين هي قوات العدو.

- لقــد وضع العدو رشاشًا ثقيلًا عند منبــع الماء في قرية الشمّرية، وكل مــن يقــترب يطلقــون عليــه زخات رصاص. نحن لا نجــرؤ على الذهــاب إلى هناك، ونكتفــي بمراقبتهم من داخل بستان النخيل ومن خلف الأشجار.

- حسنًــا، من الواضح أنكم عاجــزون عن الذهاب إلى هناك، دلنا على المكان، ولا شأن لك بما قد يحصل.

عندمــا أرشدتهم إلى المــكان، طلبوا مني إرســال دليل ليرشدهم. طلبــت من الأخ جمشيدي أن يرافقهم بحذر، ويدلّهم على مكان وجود العدو. وعندما همّوا بالذهــاب قلت للرقيب: «الزموا الحذر، فبمجرد أن تخرجوا من بين الأشجار سيطلقون عليكم النار».

استــدار نحوي، ونظر إليّ نظرة استخفــاف وقال: «عجبًا، لا داعي للقلق علينا، اهتمّ بشؤونك».

فقلت في نفسي: «أنا قد قلت لكم». وذهبت إلى المقر.

قبل حلول الظهر بساعة عاد الأخ جمشيدي وهو يتصبب عرقًا ويلهث. سألته: «ماذا جرى؟».

لقد هلكوا. أرشدتهم إلى المكان، وما إن خرجوا من بين الأشجار حتى أطلقوا عليهم سيلًا من رصاص الرشاش الثقيل، فتراجعوا جميعًا إلى الخلف، وأصيب الرقيب برصاصة، فحملته ونقلته إلى جانب الطريق، وأتيت لأخبرك.

أخذت معي طبيب المقر الدكتور خواجه، وتوجهنا إلى الطريق، كان الرقيب مصابًا برصاصة في رجله، والدم ينزف منها، وهو يصرخ.

- لقد حذرتك يا رقيب.

- اذهب أنت بتبريرك هذا وسخريتك.

- لقد نبّهتكم، لكنك مغرور إلى درجة أنك قلت لي: إنّه لا داعي للقلق علينا.

قام الدكتور خواجه باستخراج الرصاصة من رجله على الطريق، وضمّد الجرح، ووصل باقي أعضاء المجموعة الواحد تلو الآخر، لا أدري أين تدربوا، وقد نزعوا قمصانهم وربطوها على خصورهم، لعلّهم كانوا متأثرين بأفلام رعاة البقر لأنهم كانوا يقلّدونهم. لم يعجبني سلوكهم وتصرفاتهم، خاصة إحضار تلك المرأة معهم.

طلبت من الأخ جمشيدي أن يذهب ليأتي بسيارتهم التي خلّفوها في بستان النخيل. وعلى الرغم من ذلك، استمرّوا في انتقادنا، حتى إنّهم لم يقوموا بتوديعنا، ولم يشكرونا، وساروا بسيارتهم نحو الأهواز كأنّما نحن من أطلق النار عليهم.

## العرس الأسود

بعـد شهرين من خدمتي المتواصلـة في فارسيات، ذهبت في إجازة لزيـارة الأهل. السيد عبـد الرسول كان لا يزال قائد قوات الحرس في نور آباد، زرته للاطلاع منه على وضع المدينة وقوات الحرس، فاجتمع الإخـوة حـولي وقالـوا: «خذنا معـك إلى الجبهة، فالسيـد الموسوي لا يدعنا نذهب، ويردّد دومًا أنّه يعاني من نقص في العديد هنا».

كان بينهم شاب يدعـى «الحسيني»، أشدّهم إصرارًا على التطوع، قلـت لـه: «حسنًا سآخـذك معـي». أراد أن يطلب من السيـد الموسوي رسالة، قلت له: «أنا سأطلبها منه».

كان مستعجلًا وهو يسأل: «متى سنذهب إذًا؟».

– غدًا سأتوجه إلى الحرس في شيراز وبعد غدٍ نغادر.

في اليـوم نفسه، تحدثت مع السيد الموسـوي، فأصدر له أمر مهمة لثلاثة أشهر، وسلّمني إياه. عندها قلت للشاب الحسيني: «جهّز نفسك للذهاب إلى الجبهة بعد غد».

في اليـوم التـالي ذهبـت إلى شـيراز، وتوجهـت إلى مكتـب قيادة الحرس في المحافظة. وكنت قد أعددت نسخـة ثانية عن كل التقارير التـي رفعتها إلى حسن باقري، لأسلـم النسخة الثانية إلى قائد حرس المحافظـة. كانت بحـدود الأربعين صفحة، لففتهـا كالأنبوب وربطتها

وقدمتها. ووضحت له شفهيًا أيـن ينشط شباب المحافظة في الجبهة، وأين تقدمنا، وكم شهيد ارتقى منا، وغير ذلك.

أخذ التقاريـر وشكرني. عدت إلى نور آبـاد، وفي اليوم التالي ليلًا انطلقـت برفقـة الأخ الحسينـي وثلاثـة آخريـن في إجازاتهـم مثلي، توجهنا نحو الأهواز، ووصلنا في صباح اليوم التالي إلى الغولف، لنسلّم للشؤون في القيادة أوراق إجازاتنا ورسالة التعريف بالحسيني.

عـاد الأخ الحسيني من دائرة شؤون الأفراد وقال: «لقد طلبوا منّي البقاء لمدة ثلاثة أشهر».

- حسنًا، لعل الحكمة أن تبقى ثلاثة أشهر.

- لكني لا أستطيع البقاء لثلاثة أشهر.

- حسنًا ابق شهرين؟

- كلا، لا أستطيع البقاء لشهرين أيضًا.

- كم يمكنك البقاء؟ بل أساسًا كم تريد أن تبقى؟

- لا أستطيع البقاء لأكثر من أسبوع.

- أيهـا المؤمـن، إذًا لمـاذا أتيت؟ أتيت لـترى ما الأمـر، أم لتتسلّى وتعود؟ اذهب الآن إلى شؤون الأفراد، وانظر هل سيوافقون.

لم يوافقـوا في شـؤون الأفراد علـى طلبه، وقالوا لـه: «إننا لا نسلّم السلاح والذخيرة وغير ذلك إلّا لمن يريد البقاء على الأقل مدة شهرين فأكثر».

قـال: «حسنًا أعطني أمر المهمة لأعـود. لأني وعدت ابنة الناس أن نتزوج بعد أسبوعين؛ لذلك لا يمكنني البقاء».

صـرخ الأخ نصيـب الله لشكري: «هل تسخر مـن نفسك أم تسخر

منّا؟ ألم تكن تعلم أن عليك الزواج، فلماذا أتيت إلى الجبهة؟».

أشـرت له ليتراجـع. تناول نصيـب الله قدح ماء وشـرب، ثم قال لـه بصوت هـادئ: «هل تعلـم مـاذا؟ سأعطيك أمر مهمـة لشهرين، وسيمنحـك الحاج أسدي بعد أسبـوع إجازة، اذهب وتزوّج، ما يدريك لعل الحرب تتوقف غدًا ليلًا».

رفضـ الحسيني كل الاقتراحات، وأخذ أمر المهمة ووضعه في جيب قميصه وأغلق الجاكيت عليه، وودعنا وذهب. عندما سار نحو السيارة ليركب، تبعته لعلّـي أقنعه لكنّه ركب السيارة وذهب، إلا أنّ أمر المهمة لم يبـقَ في جيبه، بـل سقط من الجاكيت على طـرف الطريق. أسفت لذلك، وتناولت أمر المهمة، وما زلت أحتفظ به بين أوراق أرشيفي.

بعد أيام، علمت أنه ركب سيارة من الأهواز إلى كتشساران، وذهب إلى بيـت عمه، ومن هناك غـادر مع عمّه بسيارة أجـرة إلى نور آباد، ليقـوم بإعـداد ترتيبات الزواج. لكنهـم قبل أن يصلـوا إلى نور آباد، وصلـوا عند الغروب إلى جسر يسمّـى (فهليان) يمرّ فوق النهر، حيث اجتاحت شاحنة سيارة الأجرة، فقُتل الحسيني وعمه والسائق.

تضاعـف أسفي وانزعاجـي بسماع الخبر، كيف فعـل ذلك، وقلت لنصيـب الله: «لقد انتهى عمره في تلك الليلـة، لو بقي هنا وذهب إلى فارسيات، لعله كان استشهد عند شاطئ نهر كارون، بدل أن يقتل على جسر نهر فهليان».

وعندمـا أخـذت إجـازة ثانيـة، قصدت المقـبرة وزرته وقـرأت له الفاتحـة، وتوجّهـت لتسليـم النسخة الثانيـة من التقاريـر إلى مكتب قيادة حرس فارس. وقبـل أن أسلّمه التقارير الجديدة، فتح الجارور، فرأيت ربطة التقارير السابقة ما زالت كما هي، كأنها لم تفتح. قلت في

نفســي: «لقد حملت التقارير هذه مــن الأهواز إلى هنا ليقرأها ويقدم لي ملاحظاتــه، لكنه لم يرها حتــى الآن؟». عندئــذٍ، أخفيت التقارير الجديــدة في سترتــي، وخرجت من الغرفة، ولم أقــدم له بعد ذلك أي تقريــر. بينما اختار هو أن يكمل دراسته ويتوجه إلى مسار آخر، مسارٍ لا يلتقــي مع الجبهة ولا يمــرّ قربها مطلقًا، وطوال ثمــاني سنوات من الحرب المفروضة لم أره يزور محاور القتال أبدًا.

## إيزد داريوش كبير

مـن ذكريات بدايـة انتصار الثـورة الإسلامية، ذكـرت أن أهالي «نـور آباد» كانوا بالغي الهمّـة للمساعدة في حفظ الأمن داخل المدينة، مـا دَفَعَنا إلى الاهتمام بالإدارة أكثر مـن استقطاب المتطوعين، وكان التحـرك هذا سمة الجميع كبـارًا وصغارًا، فمثـلًا (داريوش ايزدي) الـذي لم يبلغ الرابعة عشرة من عمـره، لكنه كان نشطًا، إلى درجة لم نتمكن من رفض انتسابه إلى قوات الحرس بعد إصراره الشديد. كان يعود من المدرسة ويستمر في المساعدة بالنشاط معنا حتى الليل، وعلى الرغم من ذلك، كنا نرسله إلى بيته بالقوة. كان يتابع مع الإخوة ويقوم بأي عمل يُطلب منـه، بدءًا بالنظافة وجلي الأواني وترتيب الغرف من دون أن يترفع عن أي عمل.

أذكـر أنّنـا كنّا قـد جمعنـا بعض الأدوات كوسائل للتـدرب على الرمايـة، فطلب منه الإخـوة أن يرتب الغرف حتى نعـود. وافق ووقف جانبًا. وضعنا الأغراض داخل السيارة، وأردنا أن ننطلق، اقترب مني قائلًا: «ألا يمكنني الذهاب معكم أيضًا؟».

نظرت إلى عينيه، كانتا مغرورقتين بالدموع، فقلت له: «حسنًا اقفز إلى خلف السيارة». كاد يطير فرحًا.

وعندمـا وصلنا إلى ساحة الرمايـة، قام بإفراغ الأغراض بسرعة،

ثـم وقف بعيدًا ليشاهد الرمايــة، وكلّما أطلقت رصاصة، كان يقفز في الهــواء وينــادي: «اللّه أكبر». الأمر الــذي بثّ الحماسة لــدى الإخوة، وكأنّ المئات من المشجّعين كانوا حولنا.

قبـل العودة، وفي اللحظـات الأخيرة، نظر إليّ نظـرة ذات مغزى. فمـددت البندقيــة نحــوه وقلت له: «هــل تريــد أن تجــرّب الرماية يا داريوشــ؟». ابتســم وبدا كأنّي أعطيته الدنيا بمــا فيها. أخذ البندقية من يدي وأطلق منها ثلاث رصاصات كانت متبقّية في المخزن.

منذ ذلك اليوم، التزم بالحراسة في قوات الحرس حتى بدأ العدوان، قــام بذلك مــن دون أي مقابـل وأي أجر. وكان يكـرّر جملة لطيفة عند عرض المال والأجر عليه، كان يقول: «إنّ إيزد داريوش كبير».

بعد مضي شهريــن على بداية الحرب، أصبح عمر داريوش خمسة عشــر عامًا، خلال إجازتي التي تحدثت عنها ولقائي بالإخوة في قوات الحرس بنور آباد، طلب مني داريوش أن أصحبه معي إلى الجبهة.

في البدايــة لم أقبـل، لكن إصــراره من ناحيــة وإحضــاره موافقة خطيــة من أبيــه، من ناحية أخرى، لم يــتركا لي الخيار، فأخذته معي إلى فارسيــات، وبسرعة انتشر الحديث عن غضاضته وسرعته. كانوا يقولون لي: «أين كان هذا الشاب؟ لماذا لم تأتِ به من قبل؟».

كان يرتّــب كل شــيء، ويحضر في كل مــكان، وإذا غــاب اشتاق له الجميــع. لكن بعــد شهر واحد، أبعدته الشهادة عنــا، فانهمرت لفقده دمــوع الجميــع، وبقي ذكره علــى الألسنة لمدة، وأضحــت أعماله مثلًا يضربــه الجميع، وكل من أتى بعده وادّعى الذكاء والاجتهاد في العمل، كانوا يجيبونه: «محال أن يكون هناك مثل داريوش».

وصلت سيارة إسعاف للجيش إلى المحور ولم تكن مموّهة، فخشينا

أن يكشفهــا العــدو. ركنها السائــق إلى جانب شجــرة النخيل وذهب، فبادر داريوش لإنقاذ الوضع، وحمل معه وعاءً كان قد أعدّ فيه طينًا، وأسرع نحو السيارة وبدأ يطلي جوانبها بالطين، وأنا أراقبه عن بُعد، ثم انتقــل إلى السطح وشرع بطليه، حينئذٍ، سقطت قذيفة مدفع على بُعد مئة متر من السيارة، وهي مسافة آمنة لسقوط القذيفة، ما جعل الكلّ يتوقــع سلامته، لأنــه يصعب أن تصل الشظايــا إلى السيارة، وعندما سقط داريوش عن سطــح السيارة، ظننا أنه خاف وقفز عنها، فتوجه الأخ «علي تهمــتن» سريعًا نحوه، وتبعناه، نادى علي بصوت متهدّج من حيث وصل: «يا أخ أسدي تعال، لقد استشهد، لقد استشهد والله».

لم أصدق أنّ هذا حصل، وعندما وصلت إليه لم أر أي أثر للشظايا في بدنــه، لكن شكله كان يوحي بأنه نائم منذ سنوات، دققتُ في أنحاء جســده فلم أعثر على أثر لشظية. لكنّ أحــد الإخوة من «نور آباد» من أقــارب داريوش، أخذ يحدّق في رأس داريوش ووجهه ويصرخ: «ساعد الله أخته!».

- ساعد الله أمه، فلماذا أخته!

- لو كنت تعرف هذا الأخ وأخته لما قلت ذلك.

أرسلــت علي تهمتن مــع جنازة داريوش إلى نور آبــاد. وعندما عاد قــال: «كانــت هناك شظيــة بمقدار الإبــرة اخترقت رأسه قــرب أذنه واستقرت في دماغه».

ولقــد كان الأخ محقًــا، فبعد أقل مــن شهر، وصل إلينــا خبر وفاة أخته.

## ضيافة السمك

منذ بداية الحرب، كان الناس حاضرين في جبهات القتال، كلّ من كان يستطيع الحضور حضر، ومن تعذّر عليه الحضور بشخصه، لأيّ سبب كان، قدّم الدعم المالي. لن أنسى أبدًا سائق شاحنة النيسان الصغيرة الذي جاءنا إلى الغولف أواخر شهر آذار من العام 1982م حاملا بسيارته طنّين من الأسماك من مدينة غناوة الساحلية في الجنوب.

حينها أخبرته أنّنا لا نملك هنا وسائل وتجهيزات لحفظ هذه الكمية من الأسماك وطهيها، وقلت له: «عليك تسليمها إلى جامعة جندي شابور، فهناك المطبخ المركزي، يمكنهم استلامها». أعطيته العنوان الدقيق، وذهب.

بعد ساعة رأيته ثانية في باحة الغولف، فسألته: «هل سلّمتها لهم؟».

- نعم، لكن بعد عناء، لذا أتيت إليك لأشكو لك.

- ماذا هناك؟

- إنّ أفضل طعام عند أهالي ساحل الخليج الفارسي وأغلاه ثمنًا هو السمك.. لعدّة أسابيع كان الصيد من البحر شحيحًا. بالأمس اقترب زورق صيد من الشاطئ حاملًا معه طنّين من الأسماك كان قد اصطادها. اجتمع عدد كبير من الناس حول الزورق، لكن صاحب

الـزورق كان واقفًا يفكّـر في أنّ الناس سيختلفون على السمك؛ سألوه: «لماذا لا تترجل وتنـزل الأسماك؟ ألا تريد بيعها؟». لكنّه نادى بصوت جهور: «أيها السادة، ليس هذا السمك للبيع، أريد إرساله إلى الجبهة». وبرغـم قلّة السمك لفترة، إلا أنّ أحـدًا من الناس لم يعترض؛ بل قال الجميع: «جزاك الله خيرًا». ثم ابتعدوا عن الشاطئ.

أكمـل السائق حديثه: «نقلنـا الأسماك إلى معمـل الثلج، أحضرنا عدة قوالب وضعناها على الأسماك، وأتيت بها إلى هنا».

- قمت بعمل جيد، فلماذا أنت منزعج؟

- لم يستلموا السمك في مطبخ الجامعة بسهولة؛ أحدهم احتجّ بأنّ الجو حار، وآخر اعترض قائلًا إنّ السمك سيتلف هنا. بقيت أرجوهم نصف ساعة حتى سمحوا لي بإفراغ الحمولة.

كان منزعجًا كيف يقدّم الرجـل أمواله إليهم، ويرجوهم لأخذها. لذلـك طيّبت خاطره قائلًا: «لا بأس، لا تغتـم، إنّ العمل في سبيل الله فيه مصاعب أيضًا».

عندمـا توجـه السائق ليركـب سيارتـه، انتابني شعـورٌ مريب من حركاته وهيئته، فهو لم يكن يشبه سائق شاحنة، وأحسست أنّه صاحب الزورق، وأحب أن يقدم السمك بنفسه.

ذكّـرني الحديث عن السمـك باليوم الذي زارنا فيـه الحاج داوود كريمـي في فارسيات، حيث ركبنا الزورق وأخذت أشرح له: «هنا غرق راصـد المروحيـة الضابـط المكلف الأصفهـاني، ومن هنـا نتوجه إلى الجانب الآخر من النهر و...».

وعنـد عودتنـا إلى فارسيـات، سقطـت قذيفة مدفـع عراقية على مسافة ثمانين مترًا أمامنا في النهر، وارتفعت نافورة مياه بما يزيد عن

العشرين مترًا. أدّت شدّة الانفجار داخل الماء إلى شلل السمك وموته. وعندما اقتربنا من نقطة سقوط القذيفة، لاحظت وجود سمكة كبيرة بطول نصف متر قد طافت على سطح الماء، كانت لا تزال تتنفّس بصعوبة. سألت الحاج داوود: «هل تسمح لي بأخذها؟».

ضحك قائلًا: «في خضم الخطر والنار، تحمّست لصيد السمك؟!».

- يا حاج لعلّ الله قسمها لنا. ومددت كلتا يديّ وحملتها ورميتها داخل الزورق، فتقلّبت عدة مرات حتى لفظت أنفاسها.

في المقر، سألني «خدا داد تهمتن»: «كيف سنأكلها؟ وليس عندنا مقلاة لقليها، ولا أسياخ لشيّها».

- قم بإفراغ أحشائها، ولتّها بالملح، ودع الباقي عليّ، فلدينا ضيف.

بعد خمس دقائق، كانت السمكة نظيفة مملّحة وجاهزة للشوي. تناولت بضع صفحات من الجرائد ولففتها بها، ورميتها داخل تنور خبز كانت العشائر في القرية تستخدمه.

قال بعض الإخوة: «ستحترق السمكة وتتحوّل إلى فحم».

- دعوني أقوم بعملي، الأمر يستحق التجربة.

كانت نار التنور مستعرة، ولم يكن بإمكاني ترك السمكة لفترة طويلة. بعد أربع دقائق، تناولت رفش بناء وأخرجتها. وجدت الجرائد قد احترقت والتصقت بجلد السمكة، فأخذت سكينًا وقطعت السمكة إلى عدة قطع.

كان الحاج داوود أوّل من أثنى على الطعم. ظننت أنه يراعي أدب الضيافة، ويريد أن يخفّف عنّي عناء تحضيرها، لكن شاركه في الطعام أكثر من عشرين شخصًا، وأجمعوا على أنّهم لم يتذوّقوا سمكًا بهذا المذاق اللذيذ حتى الآن، إلى درجة تدفع الإنسان ليأكل أصابعه معها.

ما يزال طعم تلك السمكة على لساني، ربما لأنّ أجسامنا كانت بحاجة إلى تناول السمك. أو لأنّها كانت من أسماك النهر، أو لعلّ اجتماعنا معًا زاد في لذتها. على أي حال، مهما كان السبب، فإن الحاج داوود بعد الانتهاء من الطعام قال بجد: «علينا أن نشكر العراقيين على اصطيادها، والأخ أسدي على شيّها، وأنفسنا على تناولها!».

لكن في اليوم التالي مباشرة حصل ما عكّر صفو ذلك اليوم، فعند ضفّة النهر أصابتني شظية في يدي، كانت من النوع الذي يخترق الجسد حتى العظم، أحسست بالعطش الشديد، لدرجة أنّني لو أستطيع أن أبتلع ماء النهر كله ما تأخرت. ضغطت بيدي الأخرى على الجرح، وأسرعتُ نحو مرأب الآليّات في المقر، لينقلوني إلى المستوصف. لكني لاحظت هناك وعاءً أحمر، وقربه كوب بلاستيكي أصفر، أظنّ أنّ هذين اللونين قد تفاعلا مع عطشي، ومن دون أي تفكير ملأت الكوب من السائل في الوعاء، ولشدّة عطشي أهملت مستحبّات الشرب التي ألتزم بها دائمًا؛ حيث كنت ألفظ البسملة، وأشرب الكوب على ثلاث دفعات وأتوجّه مسلّمًا على الإمام الحسين بعد كل جرعة؛ لكنّي ابتلعت السائل بنهم شديد دفعة واحدة، وما إن جرى السائل في بلعومي حتى اشتعلت من رأسي حتى قدمي؛ لقد تناولتُ ماء الأسيد الذي يُستخدم في بطارية السيارة!

أسرعت نحو النهر، ونهلتُ من الماء ما استطعت لأخفّف من حدّة الأسيد. لاحظ الإخوة في المرأب الأمر، فأحضروا سيارة الإسعاف مباشرة ونقلوني إلى أحد المستشفيات في الأهواز.

هناك أخرجوا الشظية من يدي، لكن المشكلة أصبحت مشكلتين اثنتين. حضر أحد الإخوة من أهالي الأهواز لزيارتي، وأخبرني أنّه يعرف دكتورة تعمل في المستشفى وقال: «إن شئت أوصيتها بك».

فأخبرتـه بقصة مـاء الأسيد وقلت له: «أرجـو أن يقدموا لي طعامًا لا يؤذي معدتي».

في اليـوم التـالي جاءت الدكتـورة صادقـي التي يعرفهـا صديقنا الأهـوازي وقامت بمعاينتي، سألتني عن يـدي، فأجبتها: «الحمد للّه، لقد ضمدوا الجرح، والآن حالتها جيدة، لَيتهم ينزعون المصل لأذهب».

- حاليًـا لـن يفعلوا ذلك، يجـب أن تبقى هنا عدة أيـام لنتأكد من عدم وجود التهاب.

في الليل كنت أتوقع أن أتناول طعامًا خفيفًا وقليلًا، لكنهم أحضروا لكل مريض طبق حسـاء واحدًا، ولي أنا طبقين، ولما سألت العامل عن السبب، قال إنّ الدكتورة صادقي هي التي طلبت ذلك.

مضـت ثلاثة أيام حتى نزعوا المصل مـن يدي وعدت إلى الغولف. وكانت معدتي في أسوأ حال بسبب توصية الدكتورة، حيث كانت وجباتي مضاعفة!

## المشاريع الفاشلة

إني أخالف أولئك الذين يصرّون على الحديث عن نجاحات الحرب وانتصاراتها فقط، فثورة شعبية انتصرت، وقبل أن تثبّت أركانها فُرضت عليها حرب، وهبّ الناس بشوق للدفاع عن الثورة الإسلامية والوطن. لذلك من الطبيعي أن تكون هناك تجارب وأخطاء في البداية إلى أن يكتسب المقاتلون خبرة. كما إن عدم الحديث عن نقاط الضعف والهزائم يسلب نقاط القوة والنجاح والانتصار معناها وقيمتها.

كانت إحدى تلك التجارب والأخطاء في بداية الحرب هي مشاريع المياه. فبعد عدة أشهر من بدء الحرب المفروضة ذهبنا إلى الغولف لحضور اجتماع مهم.

الأخ علي شمخاني كان حينها قائد قوات حرس خوزستان، أخذ يتحدث بحماسة عن قرب فتح نوافذ السد، ما سيتسبّب بغرق الكثير من بساتين النخيل، وستجرف المياه المضخات المنتشرة عند حافة النهر، وأكد على ضرورة عدم اطّلاع الآخرين على هذا المشروع، حتى تفتح نوافذ السد. وقال بلهجته الجنوبية: «لا ندري ماذا عليكم أن تفعلوا لئلا تتفاجأوا بذلك».

عدت إلى فارسيات سريعًا لأخطّط لمواجهة فيضان المياه، ما إن وصلت إلى المقر حتى بادرني «برويز صفري» من أهالي طهران: «يا

حاج ماذا لديك عن الماء؟».

- الماء؟ وأي ماء؟

- ماء السد الذي سيفيض علينا.

- من قال ذلك؟ وأي سد؟

- مـا هـذا؟ سمعت ذلـك من مهدي صيـاد السمـك، لكن الجميع يعلمون ذلك.

من عيوب الحرب الشعبية أن الأخبار تنتشر بين أفراد القوات قبل أن تصل إلى غرف القيادة.

على أي حـال، توجهت إلى مكتبي، وفتحـت خريطة المنطقة لأعثر علـى قرية يمكننا الوصـول إليها، ويكون ارتفاعها عـن مستوى سطح البحر أكثر من غيرها، بعد التدقيق في الخريطة عثرت على المطلوب، إنها قرية شهمان التي ترتفع (14) مترًا عن سطح البحر.

قمنـا بنقل أغراضنا وتجهيزاتنـا إلى هناك مؤقتًا. ربطنا الزوارق بحبال طولها عشرون مترًا، وعلّقناها بأعلى نقطة من أشجار النخيل، فـإذا ارتفع مستـوى الماء تثبـت في مكانها ولا تغـرق، ونستطيع العثور عليها بسحب الحبال.

مـرت عدة أيام ولم يحصل شيء للمياه، وبعد أسبوع ارتفع مستوى ميـاه نهر كارون عـدة أمتار. ذهبـت إلى الغولف لأسـأل ماذا حصل بمشروع المياه.

قالـوا إنّ حساباتنا كانت تشير إلى احتمـال أن يتضاعف مياه نهر كارون عـدة أضعاف؛ فإذا فتحنا نوافد السد، سيغطي الماء كل مكان، لكـن ما حدث أنّ مجرى النهـر استوعب جزءًا من الميـاه، وأفرغ الماء الزائد في البحر، ولم يكن للمشروع أيّ تأثير يذكر.

بعـد فشل هـذا المشـروع، جـرى تنفيـذ مشروعـين آخرين خلال الأسابيـع اللاحقة، المشروع الأول إغلاق مجرى النهر من خلال وضع حاويـات سعتهـا (12) مـترًا مليئة بالأحجـار والصخـور. وقد قامت الرافعات بوضع الحاويات الكبيرة وسط النهر، وملأت الجرافات تلك الحاويات بالتراب والأحجار، لكن عندما وضعوا الحاوية الثانية، الماء جرفهما معًا.

المشروع الثاني هو ضخ مياه نهر كارون إلى الناحية الثانية من النهر باتجاه القوات المعتدية، وعندما يفيض الماء على تلك القوات ويُغرقها، نقـوم بمهاجمتها ونلحق بها الخسائر. استنفـرت قواتنا للتحرك نحو قـوات العدو بمجرد جريان المـاء نحوهم. لكن عنـد الساعة الواحدة بعـد منتصف الليل، رأيت الشباب يتجهون نحو المقر، سراويلهم مبللة بالمـاء والطين، وقد وضعوا أسلحتهـم وأدواتهم على أكتافهم، تبيّن أن المـاء بدل أن يتّجه نحو القوات المعادية، جرى نحو متاريس الشباب ما أجبرهم على العودة.

شكّلت هذه المشاريع الفاشلة موضوعًا للتعليق والمزاح والفكاهة بين الشباب، وأطلق عليها اسم المشاريع المائية. لكنّها كانت مقدمة لتنفيذ عمليات برمائية خلال السنوات التالية للحرب ممّا أدهش العالم.

## واحد مقابل واحد، تعادلنا

دسّ قطعة خبز في اللبنة والتقمها، فانفرجت أساريره.

- بـارك اللّه أهل شيراز، ذوقهم جيـد، يا له من خبز طازج وسهل المضغ وطيب.

أكمل مضغ اللقمة، وأخذ نفسًا عميقًا:

- إذا قلـت لـك إنّي لم أذق طوال عمري طعامًـا كهذا، فهل ستهزأ بي؟

- العفـو يا حضرة الضابـط، هنيئًا مريئًا، إنّ هـذا الخبز متيسّر، وكلّما اشتهيته أخبرني لأرسل الشباب لإحضاره لك.

قمت عدة مرات بإرسال صندوق من «الخبز البلوري» إلى الضابط بناءً لطلبه، وفي أحيان أخرى من دون طلب. وقد بدأت علاقتي في الواقع مع قائد فرقة (77) خراسان* قبل عمليات («ثامن الأئمة»)، بهذا الخبز البلوري واللبنة. حيث كنا نستعد لفك الحصار عن مدينة عبادان، وكان إلى جانبنا لواء من الفرقة (77) خراسان في المحطة السابعة.

انتقلنـا منذ ثلاثـة أشهر من فارسيات إلى عبـادان. بعد أن نجحنا أخيرًا في مشروع المياه في فارسيات، حيث قمنا بتنفيذ الخطة التي وضعها الإخوة من خوزستان، بتوجيه مياه نهر كارون نحو القوات العراقية لعلهم

* - التابعة للجيش.

يبتعدون عن المنطقة، لكن ذلك لم يبعدهم تمامًا، بل منعهم من التقدم أكثر، ولم يعد يصل أحدنا إلى الآخر عمليًا. لذلك باتت التحركات حولنا أكثر هدوءًا من ذي قبل، ولم يعد يتقدم نحونا أحد.

لكن هذا الهدوء أضجرنا ودفعنا إلى المغادرة. وقد ألحقنا القوات المتبقية بباقي المناطق، وتوجهت مع الإخوة الذين كانوا معي منذ البداية إلى الأهواز بحثًا عن الأخ «غلام علي رشيد»[1]. وطلبت منه أن يجد لنا حلًا لأن بقاءنا في فارسيات لم يعد مجديًا. وافقني الرأي مباشرة، ودوّن أمرَ مهمةٍ وضعهُ في مغلّف، وقال لي: توجهوا إلى عبادان سريعًا.

كان كلام رشيد هذا يؤكد الشائعات التي تقول إنّ العمليات القادمة ستكون في عبادان. لذلك لم نضيّع وقتًا، بل جمعنا الأسلحة والعتاد وباقي الحاجيات، وتحركنا من فارسيات بثلاث سيارات.

قيل لنا إنّ الإخوة في مؤسسة جهاد البناء قد شقّوا طريقًا جديدًا أطلقوا عليه اسم الشهيد شهشهاني. هذا الطريق يمتد إلى ما قبل عبادان بـ2 كلم، وهناك يتحول إلى نصف دائرة ليصل إلى قرب بهمن شير والمحطة السابعة.

فيما بعد، عُرف باسم طريق الوحدة، وبات مشهورًا لأنه الطريق البري الوحيد المؤدي إلى عبادان خلال الحصار. فقبل شقّ هذا الطريق، كان على من يريد الوصول إلى عبادان أن ينطلق بالزورق بحرًا من ماهشهر أو من بوشهر. كنّا نحن أول مجموعة تمرّ من هناك.

1- كان غلام علي رشيد حينها قائد عمليات الجنوب، ثم تصدى لعدة مسؤوليات أخرى في الحرب، بعد مرور ثلاثة عقود من معرفتي به ما زلت أفخر به كواحد من أفضل أصدقائي. كان له دور مهم في الحرب لا يخفى على أحد، حيث كان دومًا كأحد المخططين البارزين عسكريًا، وله تحليل دقيق حول مختلف المجالات العسكرية، استطاع أن يعدّ تلامذة كثرًا في هذا المجال. وقد تعلمت منه الكثير، واستفدت من وصاياه في المسؤوليات المختلفة.

وصلنـــا إلى مدينة عبادان، قصدنا مباشرة المقر الرئيس في فندق عبــادان الفخم، الــذي لم يُبقِ منــه القصف الجوي وقذائــف الهاون والمدفعية أثناء الحرب أي أثر يدل على أنه كان فندقًا.

كان السيد «بنادري» يتولى مهام الإدارة هنا، عندما قدمت له أمر المهمــة الصادر عن السيد رشيد، أظهــر احترامًا خاصًا، واقترح عليّ القيام بجولة على مختلـف الجبهات في عبادان، لأختار بنفسي المكان الــذي أراه مناسبًا. قمت بذلك، لكنه فضّل -بعــد أيام- أن نستقر في المحطة السابعة، بسبب توتّر وسوء تفاهم حصل بين الإخوة من شيراز وآخرين من أصفهان، وكان علينا تجنّب ذلك.

عندمــا اطّلعت علــى المشكلــة، قــدّرتُ أنّ الخلاف بــين «مرتضى قربــاني» والإخوة مــن شيراز أعمق مــن أن أصلح بينهمــا. فرأى الأخ «بنادري» أنّ الحل هو تعييني قائدًا، وتعيين مرتضى مسؤول العمليات. فتسلمــت محور «المحطــة السابعة»، واتخذنا من بيــت «تمدن الكعبي» الذي كان نائبًا في المجلس خلال عهد الشاه، مركزًا للقيادة.

عملت على إنهاء الخلاف، لكنني لم أقوَ على أبناء مدينتي، فاغتاظ أبنــاء شيراز وانتقلوا إلى مكان آخر، لكنّــي كنت قد فعلت ما بوسعي. في الواقــع، لقد سُررت بما حصل لأني لم أسمــح باستحكام الخلاف بــين الإخوة المرابطين في الخط الأمامي. كما تعرفت إلى شخص نافع لمهمتنا، لا يعرف الخوف وقلبه كقلب الأسد، هو مرتضى قرباني، كان من الإخوة الشجعان والجريئين، ولا يمكنك غضّ النظر عنه.

بعــد فترة وجيــزة، استقــرّ قربنا قسم مــن الفرقــة 77 خراسان، وأصبحنــا أصدقاء، وكما يقول أهالي شيراز (انسجمنا) مع الضابط أمينيــان، خاصة أنه أصبح من العشاق التوّاقين لخبز شيراز البلوري،

وكان يزورنا في المحور لسبب أو من دون سبب، أو ليوصي بإرسال الخبز له.

قبل أيام من تنفيذ العمليات، قدم لنا الضابط أمينيان ضابطًا يُدعى «خوشبخت» أو لعل اسمه «خوشنام» ليقوم بدمج القوتين معًا. وكانت هذه المرة الأولى التي يُطلب منّا فيها دمج قوات الجيش والحرس معًا، ولم ندرِ ساعتئذٍ كيف نقوم بتوزيع القوات، هل نضع في كل متراس أفرادًا من القوتين، أم نضع كل مجموعتين أو كتيبتين معًا؟ جلّ ما أذكره أنّنا عقدنا اجتماعًا، لم يحقّق شيئًا. وطرح العقيد أمينيان أن نستشير القوات، أما أنا فقد اقترحت البتّ بالأمر فورًا.

لكننا عندما خرجنا من الاجتماع أدركت أن كلام العقيد صحيح، لأن قواتنا فهموا ما عليهم أن يصنعوا، حيث تعانق التعبوي والحرس والجندي بعضهم مع بعض، وانسجموا فيما بينهم، فأدركنا حينئذٍ معنى الدمج بشكل عملي. فعندما كنّا نعلن الوقوف استعدادًا، كان ابنُ الحرس يضع يده على كتف ابن الجيش، وكذلك يفعل ابن الجيش. التقيتُ العقيد بعد يومين، فأشار إلى صحة رأيه حول الدمج، وضحك قائلًا: «واحد لمصلحتي».

من الأعمال التي قمنا بها بشكل يومي وقبل أشهر من بدء العمليات وكانت لها نتائجها الإيجابية: حفر قناة مقابل الفياضية والمحطة السابعة باتجاه القوات العراقية.

كانت تلك القوات من الأسباب الأساسية لانتصارنا في هذه العمليات، حيث أمّنت لنا ظروفًا وعوامل ناجحة لمفاجأة العدو والاستتار عنه بالكامل، وقلّلت كثيرًا من خسائرنا. ففي ليلة تنفيذ العمليات، تمكّن الإخوة من التقدم إلى أقرب نقطة من العدو من دون أن يحدثوا أي ضجيج. بغض النظر عن معاناة حفر تلك القنوات، من تقديم شهداء،

وحصول إصابات وعجز آخرين، وخسارة الأيدي والأرجل.

أحدهـم كان مـن التعبئـة من أهـالي كازرون اسمـه «نجف زاده» كان يبـدي جدية كبيرة في الحفر، حتـى أضحى في الأيام الأخيرة من عملية الحفـر كالمشلول، لا يستطيع التحرك مـن مكانه، فيداه تورمتا وامتلأتـا بالثآليل والجروح، لكنه لم يكن يتوقف عن العمل، كنّا نخجل عند رؤيتـه. وكان هناك الكثيرون من أمثالـه، الذين يمسكون المعاول والرفوش رغم تشقق أيديهم وتوغّـل الآلام في مفاصلهم وركبهم، كل ذلك ليجهّزوا القنوات.

وحصـل في إحدى الليالي أن علقَ أربعـة من قواتنا في كمين للعدو، وأصيبـوا إصابـات بالغة، فأخـرج الضابط العراقـي مسدّسه وأطلق عليهـم رصاصات الرحمة، ثـم أحضروا جرّافة وأهالـوا التراب على أجسادهـم. لكنّ أحدهم بقـي حيًّا، وانتظر فرصـة للهرب، وبقي من دون حـراك، وقد ساعده ظلام الليل على النجـاة، فلم يلاحظ سائق الجرافـة أن رأسـه وصدره بقيـا مكشوفين. وعندما غـادر العراقيون المـكان، أخـرج يديـه أولًا، وبذل مجهودًا كبـيرًا للتخلّـص من ضغط الـتراب عليه الذي جعله يتنفس بصعوبة حتى تمكّن من إخراج جسده تمامًا من تحت التراب.

ولم يتمكّـن بعد خروجه من تحديد جغرافيا المنطقة ووجهة سيره، ولم يساعـده بدنه المصاب على السـير بسهولة، فبقي ساعة حيران لا يدري ما يفعل، وأخذ يدعو ويعقد النذور، إلى أن أضاءت قنبلة ضوئية السمـاء، فشاهـد أنابيب النفط، فزحف وحبـا إلى جانبها حتى وصل إلى مسافـة تبعد أربعين مـترًا عن الساتر الترابـي للمحطة السابعة، فاستجمـع قواه، ونـادى عدة مرات: «يـا أخي ... تعبـوي». حتى سمع الإخوة نداءه وهرعوا لمساعدته.

«حسن شفيعي» أيضًا الذي ما زال إلى اليوم في قوات الحرس بطهران. قبل هذه العمليات علق ليلًا في كمين للعراقيين، وأطلقوا عليه رصاصة الرحمة، روى عن تلك الحادثة:

عندما شهر الضابط العراقي مسدّسه قريبًا من رأسي، أخذت أصرخ: الموت لصدام وألعن الأعداء من دون توقف، فجأة رأيت أبي واقفًا عند رأسي يهلّل ويكبّر فرحًا. فتعجبت ورحت أسأل: أين أنا؟ قال: أنت في المستشفى منذ ستة أشهر، ملقًى على هذا السرير فاقد الوعي، وقد استيقظت الآن وأنت تصرخ الموت لصدام.

كما حصل مع الحاج «موسى رضا زاده»، فهو شخصٌ عجيب وغريب، كانت تكفي النشاطات المرهقة التي يمارسها كمسؤول للدعم اللوجستي أن تقضي عليه، لكنّه لم يقنع بها، فبدلًا من أن يستقبل الليل للنوم والراحة، كان يصرّ على حمل السلاح ليحرس ليلًا. ورغم إصرارنا عليه ليستريح، كان يرفض ويقول: «إنّ حصتي من الجبهة هي ثواب الحراسة الليلية، وليس الدعم اللوجستي».

كان بعد نوبة الحراسة، وقبل أذان الصبح بساعة، يبدأ بصلاة الليل. بينما كان كلّ ما يزوّد به طاقته لدورة الليل والنهار هو النوم أربع ساعات فقط.

في إحدى الليالي، وصلت إلى محور المحطة السابعة متأخرًا، ولم أبدّل ملابسي من شدّة إرهاقي، ونمت في إحدى الزوايا. عندما حانت صلاة الصبح ناداني الحاج موسى، فسألته: «هل أذّن للصبح؟».

- إنه يؤذن حاليًا، لكني أيقظتك لأسألك: هل لديك بيجاما أو رداء أرتديه؟

- ألست تملك واحدة؟

- أملك، لكن رصاصة صغيرة أصابت رجلي، وتلطخ ثوبي بالدم.

نهضت من مكاني، خلعت سروالي، ونزعت البيجاما عني وأعطيتها لـه. وذهبـت لأتوضأ للصـلاة. وعندما عدت لاحظت الـدم يسيل من فخذيه. فقلت له: «يا حاج موسى، قلت لي رصاصة صغيرة، ما هذا؟!».

كان يتلـوى من الألم، وقال لي: «أرجو أن تنقلني إلى المستشفى بعد الصلاة».

أدّيـت صلاتي بسرعة، وجهـزت السيارة، وأوصلتـه إلى مستشفى شركـة النفط، القريب منا. عندمـا وضعوه على السريـر رأيت أربعة ثقوب في فخذيه، يبدو أنه كان يحرس فأصابته رصاصة بفخذه الأيسر وخرجـت من فخـذه الأيمن. فقـام بربـط فخذيه بكوفيـة وبملابسه الداخلية، وبقي على تلك الحال لمدة ساعتين، وصلّى صلاة الليل هكذا.

بـدأ الطبيب بالعـلاج، وشرعت بمعاتبـة الحاج موسـى: «لماذا لم توقظني قبل ذلك، وبقيتَ تنزف هكذا؟».

- لم أحـب أن أوقظك، هـل أكون قد أخطأت عندمـا تركتك لتنام ساعة أكثر؟

لم يكمل حديثه، حتى عـلا صراخه. كانت أدوية التعقيم قد غطّت فخذيـه، فيما كان الطبيـب يمسك قطعة من القطـن بمقصّه، ويقوم بتحريكها داخـل ثقب الإصابة. عندها أحسسـت أن كل أوجاع الحاج موسى قد أصابتني، فبكيت.

كان لا بـدّ له أن يبقى في المستشفى لعدة أيام، لكن لكثرة الجرحى والإصابات، اضطروا لإخراجه بعد ثلاثة أيام، وطلبوا منه الاستراحة في البيت لمدة شهر. رفض الذهاب إلى بيته، فنقلته إلى فندق عبادان، لكنه لم يبق أكثر من يومين فقط، وعاد يعرج على عكّازته، إلى المحطة

السابعة، ورغم إصرار الإخوة بشدّة عليه أن يذهب للراحة، رفض ذلك قائلًا: «إنّه موعد العمليات، ولا أريد أن أعود إلى بيتي خالي الوفاض».

لـولا الإيثار والصبر، وتلـك الروح الحماسية التـي أبداها المقاتلون في بداية الحـرب، رغم ضعف التجهيزات، لما نجحنا مطلقًا، وكما كان السابقون يقولون، إنّ العشق والقلب فعلا كل ذلك، وليس الطين والتبن.

بعـد عـدة أشهر مـن الانتظار وتدعيـم المحاور، حـان وقت تنفيذ العمليـات. كان المقاتلـون آنذاك بحاجة لصدمة قويـة وشحنة روحية جديـدة؛ لإنقاذ عبـادان من الحصـار والاحتلال، وهـذا الامر شكل الخطوة الأولى والنوعية للدفاع المقدس، حيث كان البلد كله يتوقع فك الحصـار عن عبادان. توجّه العلماء وطلاب العلوم الدينية والمنشدون والقـادة الخطبـاء إلى المحاور، لإلقاء الخطب، وتوعيـة المقاتلين على أهمية ما يقومون به، وحثّهم على جهوزيتهم.

في محورنـا، جـاء رشيد وألقـى كلمة، حيث اجتمعنـا داخل بستان نخيـل، وتحـدث حاملًا بيده مكبّر صـوت يدويًّا، لا أنسـى أبدًا حرارة كلامـه، تحدث عن حروب عدة في صدر الإسلام، وعن صبر وشجاعة أنصـار النبي ﷺ، وعن قتال أمير المؤمنين علي عليه السلام، فكانت كل كلمة بمنزلة شرارة اخترقت الآذان لتستقر في القلوب وتشعلها.

روى لنا قصة أحد أنصار النبي ﷺ حين أصيبت يده خلال الحرب، لكنها لم تقطع بالكامل، فتنحى جانبًا، وانحنى ليدوس بقدمه على يده المتدلّية ويفصلها تمامًا؛ لئلّا تعيقه عن الاستمرار بالقتال.

هذا الكلام أثّر كثـيرًا في الشباب، وجعلهم يرون المحتلّين البعثيين أعداءً للدين، وأنّهم هم أنصار النبي ﷺ لذا تشوّقوا لمواجهة العدو.

ومـن جهـة أخرى، كان الوضع في إيران كلهـا متوتّرًا بعد عزل بني صـدر، المنافقون مـا زالوا نشطـين، يثيرون القلاقـل والاضطرابات،

وارتكبوا جريمتي 27 حزيران* و 29 آب، حيث أدت الأولى إلى استشهاد (72) شخصيّة من كبار العلماء والمسؤولين في الدولة والمجلس، والثانية إلى استشهاد رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء، إضافةً إلى عشرات حوادث التفجير والاغتيالات. في حين أنّ الظروف الدولية والحصار العالمي أضعفا إيران. وبات العالم برمّته ينظر إلى إيران -قبل عمليات «ثامن الأئمة»- كدولة منهارة عسكريًا. لذلك كان العراق يعيش وهم الجيش الذي لا يُقهر، فشكّل لنا هذا «الجهل والغرور» فرصةً كبرى لتنفيذ عمليات ناجحة، خاصة بعد خطبة سماحة الإمام الخميني التي قال فيها: «يجب أن يفكّ الحصار عن عبادان». مما شكل حافزًا كبيرًا للمواجهة.

عندما بدأت العمليات بالهجوم في ليل 26 أيلول 1981م، قامت قوات حرس الثورة الإسلامية والجيش بهجوم من أربعة محاور: قواتنا في محور (دراخوين) التي هاجمت العدو من ناحية نهر شادغان، ودحرت قواته سريعًا، وتقدمت إلى الأمام بنجاح.

أما القوات التي انطلقت من الفياضية، فقد خاضت مواجهات شرسة مع القوات الخاصة، وبعد عدة ساعات من الاشتباكات، توقفت في أماكنها.

أما هجومنا الذي انطلق من المحطتين 7 و 12 فكان الأكثر نجاحًا، فقد ذكرت وثائق الحرب أنّ التقدم من المحطة 7 و12 قد جرى بسرعة. ومع بزوغ نور الصباح، كانت قواتنا قد حطمت خطوط العدو، وقدمت الدعم لمحور الفياضية لتجبر العدو على التراجع. كذلك شهدنا في الساعات الأولى من الهجوم، من مواجهات عنيفة مع قوات العدو.

*- تفجير مقر الحزب الجمهوري.

خلال الهجوم، جاءني العقيد خوشبخت وهو بحال من القلق الشديد، وقال لي بصوت مرتجف: «يا أسدي العزيز، القوات، القوات». فأجبته: «لا تقلق، القوات جاهزة». وكنت أتحدث عن عدد إضافي من العناصر زيادة عن العدد المتفق عليه، كنت قد جهزتهم في الخط الخلفي داخل بستان النخيل، استعدادًا للتدخل عند الضرورة، من دون أن يشاركوا في أصل الهجوم. لأن القيادة قررت أن يكون عدد الوحدات المدمجة متساويًا من أفراد الجيش والحرس والتعبئة.

لكن عندما حلّت ساعة الضرورة إليهم، أدخلت مئة مقاتل إلى محور الهجوم سريعًا، وهو العدد الذي كان قد طلبه العقيد، ووعد أنه بهذا العديد يستطيع تحطيم خطوط العدو.

بالفعل كان العدد مؤثرًا في تغيير مسار المواجهة، فقد حطّم الخط الأمامي. لكن المحور الجانبي بقيادة «أحمد كاظمي» واجه مشكلة، فطلب العقيد قوات أخرى، فأرسلنا حتى الصباح 400 مقاتل عبر القنوات.

أذكر أن العقيد جاء في الليلة التالية، وكنت حينها جالسًا داخل المتراس، فدار حولي، ثم قبّل رأسي قائلًا: «لقد حفظت كرامتنا، حطّمنا خطوط العدو قبل غيرنا، وكان مسرورًا جدًا».

صباح يوم العمليات، وخلال المواجهات، كنت منشغلًا بأمر مرتضى قرباني لئلّا يتقدم أكثر من غيره، لأنه كان مفيدًا في مستقبل الحرب، وكان يعرف نيّتي تلك، فيخفي نفسه. عندما رأيته لم يمهلني لأتكلم، بل قال: «أريد إيصال حبل إلى وحدة التفجير لمده قرب المعبر، فلا يضطر الإخوة إلى المسير فوق الألغام».

وهكذا، توجّه مرتضى لتنفيذ مهمته، وبعد ساعة سمعت صوته عبر الجهاز يقول: «يا أخ أسدي لقد علق أحمد، هل تسمح لي أن أرميهم

مـن الخلـف؟». عندها، توجّه بمدفع (106) وتمركـز في نقطة جيدة، ودمّر للعدو عدة متاريس[1].

وعنـد الظهر، حين توسطت الشمس كبد السمـاء، أتذكّر جيدًا أنّ قوات العدو كانت قد دُمّرت في كل المحاور، وشرع الجنود بالهرب.

عنـد الساعة الرابعة عصرًا، التحقنـا في دارخوين بأحمد كاظمي وحسـين خـرازي، وتوجهنـا لنستقر قرب نهـر كارون. فيمـا استغرق تطهـير المنطقـة وإكمال النصـر (48) ساعـة أخرى، بعدهـا عقدنا اجتماعًا مشتركًا مع الإخوة في الجيش، الذين أبدوا صمودًا جيدًا.

بـدأ العقيـد خوشبخت والعقيـد أمينيان بامتـداح وحداتنا، بينما لم يكـن البعض مرتاحًا. وتحـوّل الاجتماع إلى فرصـة ليثني كلٌّ على وحداتـه. إنـه أمر طبيعي، فـلا نحن كنا نمتلك الخـبرة الحربية، ولا الجيش كان قد خضـع للاختبار. أما وقـد حققنـا أول انتصار كبير في الدفـاع المقدس، فقد شعرنا بالفخـر، وأحببنا الاحتفاظ بالجانب المعنوي من هذا الانتصار.

فرحـة النصر كانت ضيفًا مؤقّتًا سرعان مـا غادرنا، لتحلّ محلها غربة فقـدان الأحبـة، فتحليق أفضـل الأصدقاء شهـداء أشعل النار في النفوس، وقبـل أن ننسى ألم فـراق هاشم بـورزادي وأميني بيات وغيرهمـا من رفاق فارسيات، يغادرنـا سريعًا «يونس عاقل نهند» وهو طالب العلم من أهالي تبريز وإمام الجماعة في بيت الشيخ بفارسيات، الذي رافقناه منذ الأيام الأولى. ففي آخر لحظات الهجوم توجّه «نهند» إلى جسر كارون لسحب أجساد الشهداء ومساعدة المسعفين، فأصابته رصاصة، جعلته يغادرنا.

1- مرتضـى قرباني لا يعـرف الخوف، شجاع ومقـدام، ذاع صيته سريعًـا، وأحبه قادة الحرب الكبار، بعد مدة استلم لواء (25) كربلاء، ثم رقيَ اللواء إلى فرقة.

ما إن خبت نار العمليات، حتى أُبلغنا بوجوب تسليم غنائم السلاح في عبادان. فبادرت لفعل ذلك، لكن أحمد كاظمي جاء وقال لي: «لماذا نسلمه؟ إننا سنحتاج إليه، ففي العمليات التالية سنتوسل إليهم ليعيدوه إلينا».

رفض أحمد تسليم غنائم الأسلحة بنظرته المستقبلية، وأخذ غنائمه معه، وترتّب على ذلك تشكيل لواء النجف الأشرف[1] .

بعد مضيّ عدة أيام من ذلك الهجوم، رأيت العقيد أمينيان فرحًا ضاحكًا يغادر عبادان بسيارة جيب، بينما كنا ندخل المدينة، ما إن رآني حتى أوقف سيارته وترجل. توجهت إليه، وتعانقنا، ضغط على يدي مبتسمًا وقال: «يا سيد أسدي إن الخبز البلوري واللبن كان ذريعة لنتعرف إليك أكثر، لكنّ هذا الانتصار كان ثمرة اتحاد الجيش والحرس معًا».

تبسّمت وقلت: «لقد وصلنا خبز بلوري طازج ولبنة من شيراز، عند عودتك ستكون ضيفنا».

احمرّ وجهه فرحًا وقال: «هل هذا صحيح؟».

- كلا عزيزي، كنت أمازحك، هل رأيت أن الخبز واللبنة لم يكونا ذريعة.

قهقه ضاحكًا وقال: «واحد لصالحك، لقد تعادلنا».

1- كانت علاقتي بأحمد كاظمي قوية وحميمة. ولد الشهيد أحمد كاظمي في نجف آباد بأصفهان عام 1958م، كان قائدًا حاد الذكاء، خبيرًا بعمله، متواضعًا جدًا، استطاع أن يقود الفرقة (8) النجف الأشرف ويديرها بنجاح، بعد انتهاء الحرب قلده الإمام الخامنئي ميدالية الفتح، وارتدى رداء الشهادة الأحمر يوم 2006/1/9م إثر سقوط طائرة الفالكون قرب أرومية برفقة جمع من رفاقه، ليلحق بقافلة أحبته الشهداء.

## حرب الرؤى

كانت الحرب -رغم الدمار الكبير- تُشَكِّلُ «جامعة» إبداع وخلّاقة، فقد كانت حرب أفكار ورؤى وخطط ومشاريع جيدة أيضًا. حيث كان الإخوة يبحثون خلالها عن طرق حلول جديدة ومبتكرة، ويعملون على استغلال أي عنصر موجود في المنطقة، حتى أنابيب النفط التي تمرّ إلى جانب طريق عبادان!

جاءت والدتي لزيارتنا، فغادرت معها أنا وأخي. وبينما كنت أنظر إلى أنابيب النفط، خطرت لي فكرة؛ توقفت وطلبت من أخي أن يدخل ويجرّب المرور داخل الأنبوب.

بعد دقائق، خرج منه وقال إنّه لا يوجد مشكلة. بعض هذه الأنابيب كانت تصل إلى أماكن تمركز قوات الاحتلال. وقد أشعلت هذه التجربة الصغيرة شرارةً دفعتني للقاء الإخوة في شركة نفط عبادان، للبحث في إمكانية الاستفادة منها لتوجيه ضربات للعدو. قدم هؤلاء الإخوة اقتراحات جيدة، ورغم أنّ قوات الاحتلال قد دمّرت وأحرقت معظم خزانات النفط، إلا أن بعضها كان ما يزال يعمل.

فكانت إحدى الخطط تقضي بضخّ النفط من الخزانات عبر الأنابيب باتّجاه مواقع العدو، وتوجيه قنابل ضوئية لإحراق تلك المواقع.

الخطة الثانية، هي عبور مقاتلينا من خلال الأنابيب لتنفيذ عمليات

خاصة وزرع عبوات.

وهكـذا، كان المجال مفتوحًا لتقديم أفـكار جديدة، فقد ابتكر أحد الإخـوة عربة تتكون من لـوح صغير له إطارات تساعـد العناصر على الانتقال داخل أنابيب النفط بسرعة وسهولة.

وطبعًا واجهت بعض تلك الاقتراحات والأفكار مشاكل خلال مراحل التطبيق، لكنّها كانت جميعها قابلة للحل. منها مشكلة بقايا النفط في بعض الأنابيب، لذا برزت مشاكل التنفس عند الشباب بسبب رائحة النفـط القوية، حيث عانـى اثنان من الإخوة من مشـاكل في التنفّس، فخلصنـا إلى ضـرورة تثبيت كبسولـة أوكسيجين علـى عارضة عربة التنقل المبتكرة، وبذلك انتهينا من مشكلة التنفس.

من تلك الابتكارات أيضًا، تصنيع لغم يعمل عند تعرضه لأي حركة وينفجـر، وقـد تمّ ابتكاره لهدم الجسور التي يمدهـا العدو على سطح مـاء النهر. فكنا نطلـق الألغام التي تطفو مع مجـرى الماء نحو جسور العدو، وعند ارتطامها بها تنفجر وتقطع طريق عبورهم.

في الخـط الأمامـي لمحور المحطـة السابعة، كنا قـد وضعنا سواتر ترابيـة، وكانـت قواتنـا تتعرّض باستمـرار لرصاص القناصين عند عبورهـا تلك السواتر. وبعد حصول عدة إصابات، فكّرنا بضرورة حلّ هـذه المشكلة، وتوصلنا إلى فكرة مفادهـا؛ وضع الألغام التي غنمناها والقذائف التي لم تنفجر داخل تلك السواتر بشكل مضغوط، حتى إذا أردنا المرور قمنا بتفجيرها، فتفتح ممرات إلى الطريق المقصود، ولم نعد بحاجة للمرور فوق تلك السواتر والتعرض لقناصة العدو.

كذلك بالنسبة لاستطـلاع منطقة العدو وتحصيناته وقواعده، كنا غير قادرين علـى إجراء الاستطلاع نهارًا لأنّ الأرض مستوية، تكشف

تحرّكنا أمام العدو، لذلك كنّا ننطلق لتنفيذ عمليات الاستطلاع بعد صلاتي المغرب والعشاء، ونسير أحيانًا مسافة (5–7) كلم مشيًا على الأقدام، ونعود مع طلوع الفجر. وبما أنّ الأرض ممتدّة، لا تضاريس طبيعية بارزة فيها، ولا أنوار تضيئها، كنّا نضلّ الطريق أحيانًا. وقد حصل ذلك عدة مرات، حين تضلّ مجموعة الاستطلاع طريقها وتبقى ليوم أو يومين، تعاني الجوع والعطش وتسير باتجاهات مختلفة حتى تصل إلى المقر. لذلك قمنا بوضع فوانيس خافتة الإنارة، مثبّتة بحبال أعلى أشجار النخيل، لتساعد فرق الاستطلاع على تمييز طريق العودة إلى مكان الانطلاق.

كذلك، عندما واجهنا مشكلة الجبهة الجنوبية، حيث كانت لها ظروفها الخاصة؛ فهي عبارة عن مناطق سهلية مستوية، خالية من أي منخفضات أو مرتفعات طبيعية، لذلك، كان الاقتراب من مواقع العدو من دون التعرض لنيرانه أمرًا غير ممكن. فكان الحل الأفضل هو حفر القنوات. وقررنا أن نحفر ليلًا ونستتر نهارًا، وننفذ إليها شيئًا فشيئًا لنصل إلى العدو، كما فعلنا في المحطة السابعة بعبادان، وحفرنا نفق الفياضية، ما أدى إلى تسريع الانتصار في عمليات فك الحصار عن عبادان.

وهناك أمر بسيط لكنه جدير بالذكر، إنّ تصوّر قوات حرس الثورة الإسلامية عن حروب صدر الإسلام، لا يتنافى مع ملاحظة وإدراك الوضع الحالي حينها. فإذا كان مسلمو صدر الإسلام قد استخدموا السيف والترس في قتالهم، فهذا لا يعني أن نقاتل بتلك الأدوات نفسها، بل المطلوب أن تسود تلك الروح والمعنويات بيننا، أمام مقتضياتها وأحوالها الملائمة مع الوقت الحاضر.

ففي حروب صدر الإسلام، كان المقاتلون يرتجزون الشعر قبل

الالتحـام مع العـدو، ليعلنوا عـن أهدافهم مـن المواجهـة، وللتعريف بأنفسهـم، والنيـل من معنويات العـدو، وبثّ الرعب فيـه. واستخدام هـذه الطريقـة لا يتناسـب مـع طبيعـة الحـرب في العـالم المعاصر، فالمبارزة حاليًّا تجري مـن بعيد، وتفصل بين قواتنا وقوات العدو عدة كيلومـترات، فلا مجـال للصدح بالشعر. لكننـا حاولنا الاستفادة من التقنيـة نفسها، ففكرنا معًا وتشاورنا ووصلنـا إلى نتيجة مفادها دسّ بيانات داخـل قذائف المدفـع وإطلاقها. ووضـع آراء الإمام الخميني حول الحـرب وظلم النظام البعثي في العراق، وقـدرة واقتدار القوات العسكرية الإيرانية، وتُعلّق تلك البيانات بالقنابل المضيئة.

لذلـك، لم يكن الهدف مـن إطلاق القنابل المضيئـة إضاءة محور العـدو وحسـب؛ بل تجـاوزه ليضيء أذهـان الجنود العراقيـين أيضًا! أضـف إلى ذلـك ممارسـة الحرب النفسيـة، وزرع الرعـب في نفوس الأعداء، والتعريف بالهوية والأهداف.

في أحـد الأيام، زار موقعنا وفدٌ من العاملين في الاتصالات الدولية لشيراز برئاسة المهندس زاهـدي، وأحبّوا أن يقدموا لنا خدمة. رحت أفكّـر بالعمل الذي يمكنهم أن يؤدّوه لنا في مجال اختصاصهم لأطلبه منهم.

كنّـا نواجـه مشكلةً في الليالي التـي نشنّ فيها هجومنـا، فبعد نزع الألغام وفتح المعابر، كنّا نحدّد الطرق بأسلاك الهاتف ليسير المقاتلون إلى جانبها، حيث كنّا نستخدمها كدليل للطريق نحو العدو. لكن قوات العـدو اكتشفـت الأمـر، فعمدت إلى وضـع رشاش ثقيل عنـد آخر كل معبر، وأوقعت خسائر وإصابات بيننا.

قلت للمهندس زاهدي: «هل يمكنكم أن تجدوا لنا بديلًا عن أسلاك الهاتف؟».

بناءً على ذلك، وبعد عدة أيام أبلغوني أنّ بإمكانهم وضع مصابيح، ترسل أضواءً متقطّعة لتحلّ المشكلة، وأحضروا نموذجًا، غير أنه بعد الدراسة تبيّن أنّها تعاني من مشكلتين: الأولى، أنها كبيرة، والثانية: يصعب تشغيلها على البطاريات خلال الهجوم. فوعدوا بنموذج بديل.

لم يمض أسبوع حتى جاءوا بمصابيح صغيرة داخل إطارات، تُشحن نهارًا بأشعّة الشمس، وتضيء ليلًا وتبرز أنوارها من جهتنا فقط، من دون أن يلاحظها العدو. وهكذا انتهت مشكلتنا تلك كليًّا، وساعدتنا على إنشاء السواتر الترابية ليلًا، لأنّ سائقي الجرافات كانوا يتعرضون نهارًا لنيران العدو مباشرةً، فكنّا نضطر للعمل ليلًا على إقامة السواتر.

أضف إلى ذلك كلّه، أننا استفدنا من تلك المصابيح في عبور نهر أروند، لأنّ سرعة جريان مياهه كبيرة، وكنّا نحتاج إلى علامات تحدّد لنا المواقع وترشد القوات.

لذلك كانت الحرب في أحد جوانبها حرب رؤى وابتكارات وخطط جديدة.

## المتحف الميداني

بعد إتمام الاندماج بين الجيش والحرس، وحصول التنسيق بينهما خلال عمليات «فكّ الحصار عن عبادان»، عليّ أن أتحدّث عن قرار من الدرجة الأولى اتخذته قوات حرس الثورة الإسلامية، وكان هذا القرار نتيجة من نتائج تلك العمليات.

في المرحلة التي سبقت تلك العمليات، لم نكن نطمع ولا نفكّر في مقراتنا وعملياتنا بشيء أعلى وأوسع من مصطلح المحور: محور المحطة 7، محور المحطة 12، محور دارخوين وهكذا. لكن بعد الانتصار في عبادان وطرد المعتدين إلى نهر كارون، بدأ الحديث في قوات حرس الثورة عن ضرورة تشكيل الألوية.

أتذكّر أنّ الأخ رشيد استدعى قادة المحاور، ووضّح لهم ضرورة أن نقوم بتنظيم قواتنا في إطار مؤسسة منظمة، كما هي حال الجيش، لنمنع التشتّت، ويكون لدينا قواعد أكثر ثباتًا وأوسع انتشارًا لتوزيع المهام.

طُلب منّي تشكيل لواء اسمه لواء «الإمام الحسن المجتبى» عليه السلام، فيما أصبح الأخ حسين خرازي[1] قائدًا للواء «الإمام الحسين» عليه السلام.

1- الحاج حسين خرازي؛ وُلد عام 1957م في أصفهان، أبرز ما أتذكره في شخصيته أنه كان محبوبًا بين القادة والعناصر التابعين له بشكل عجيب، إن المستوى العالي لإطاعة أوامره بين قواته ومحبتهم له لا نظير لهما. كان الشهيد خرازي من أوائل قادة الحرس في الحرب، وتولى قيادة جزء مهم من جبهة دارخوين خلال عمليات فك الحصار عن عبادان، وبعد ذلك كان قائدًا لأهم وحدات أصفهان، أي لواء الإمام الحسين عليه السلام، واستطاع سريعًا أن يحوّله إلى فرقة. وسطر ملاحم خالدة في العمليات المتلاحقة للقوات الإسلامية. وخلال تنفيذ عمليات خيبر الأولى قطعت يده، ثم استشهد خلال عمليات كربلاء الخامسة في 27/ 2/ 1987م ليحلّق نحو الملكوت الأعلى.

وشرع الأخ كاظمي بتشكيل لواء «النجف الأشرف»، والأخ علي الفضلي قائدًا للـواء «المهدي 33». والأخ مرتضى قربـاني قائدًا للواء «كربلاء 25». والأخ «نبـي الرودكـي» قائدًا للواء «الإمـام السجاد» عليه السلام. والأخ قاليبـاف قائـدًا للـواء «النصـر5». والأخ رؤوفي قائـدًا للـواء «ولي العصر7». والأخ قاسم سليماني قائدًا للواء «ثار الله41».

والأهـم مـن ذلك أنّ الأخ محسـن رضائي كان قد تـولّى لتوّه قيادة حرس الثورة الإسلاميّة، واتّخذ من الجبهة مركزًا لنشاطاته، في حين كان القائد السابق للحرس الأخ مرتضى رضائي قلّما نراه في الجبهة.

حينها كانت الإدارة العامة للدفاع المقدس على عاتق الأخ رشيد وحسن باقري. ورحم الله الحاج داوود كريمي الذي كان معارضًا أساسيًّا لأسلوب مرتضى رضائي في القيادة. في أحد الاجتماعات نظر داوود إلى مرتضى وقال له: «تأتي في السنة مرتين، ومعك مغلاة من اللبن».

قلنا لداوود: «وما قصة مغلاة اللبن هذه؟».

فشرح لنا قصة التدهن باللبن، وقال: «كلما جاء الأخ مرتضى يبرّر تقصيره، ويلقي باللوم كلّه علينا، ويذهب».

قبل مرتضى رضائي كان قائد الحرس هو الشهيد «يوسف كلاهدوز»، كان منهمكًا بالعمل وكذلك كان له دور محوري في فكّ الحصار عن عبادان[1] .

1- الشهيد يوسف كلاهـدوز، ولد في 21/ 12/ 1946م في مدينة قوتشـان. كان إنسانًا فريدًا في خصاله الأخلاقية، متواضعًا جدًّا، ذا سيرة عرفانية، لا أنسى أبدًا سلوكه المعنوي. لعلّ الكثيرين لا يعلمون أنّ الشهيد كلاهدوز الذي كان نائب قائد قوات حرس الثورة الإسلامية عند استشهاده كان فنانًا حقيقيًا ولديه دراسات واسعة في مجال العلوم السينمائية، قبل استشهاده كان سيتولى بنفسه إدارة إنتـاج فيلـم السفير. قبل انتصار الثورة الإسلامية كان ضابطًـا في الحرس الملكي، وبسبب علاقتـه مع العلمـاء، اعتبر عامل نفوذ للثورة، حيث تولّى مسؤوليـة التنسيق بين الضباط الثوريين وكان ينقل المعلومات السرّيّة للجيش إلى العلماء. وكان له دور في إفشال عدوان الحرس الملكي على الناس إبان الثورة. بعد تنفيذ عمليات «ثامن الأئمة» وفك الحصار عن عبادان استشهد مع القادة: جهان آرا، فكوري، فلاحي وغيرهم في حادث سقوط طائرة (C-130).

عندما تولى الأخ محسن رضائـي قيادة قوات الحرس، جرى الجمع بين قيادة الحرس وقيادة الحرب، بدت الفرصة سانحة أكثر من ذي قبل لوضع خطط تنفيذ العمليات، وأصبح مجال اتخاذ القرار أسهل وأقصر.

انتقلتُ إلى دزفول مع الإخوة الذين كانوا معي في فارسيات ومن ثم في عبادان، وتسلّمت معسكر «وحدتي» الذي قضيت فيه خدمتي العسكرية سابقاً، لأنظّم قواتي بعديد 1200 مقاتل وثلاث سيارات وعدة مدافع هاون وغير ذلك. وهكذا كنّا نظنّ أننا بتنا لواءً جاهزًا بهذه الخردوات.

من ناحية ثانية، كان علينا طبق خطة الشهيد باقري أن ننفّذ عمليات ««طريق القدس»» في نواحي «البستان» من أجل قطع الاتصال بين القوات المحتلة في الشمال والجنوب. وقد أدّى نجاح هذه العمليات إلى تحرير مدينة البستان، واستعادة مضيق تشذابه، وإجبار القوات المعتدية على الالتفاف حول منطقة الهور العظيم للانتقال إلى الجنوب.

وتبعًا لذلك –في الحقيقة– كانت هذه العملية من أصعب العمليات في الجنوب طوال ثماني سنوات من الدفاع المقدس. وكانت مسألة أساسية بالنسبة لنا؛ وهي في هذا القبيل شكّلت المقدمة لتحرير شمال محافظة خوزستان، ومن ثم تحرير مدينة خرمشهر. وكذلك كان العدو بالمقابل يراها على هذا النحو، فبهزيمته خلال هذه العمليات، يفقد طريقًا مباشرًا وسهلًا، وينقسم جيشه الثالث إلى قسمين.

بدأت العمليات يوم 28-11-1981م بنداء: يا حسين، وهاجمنا - نحن والجيش معًا- التحصينات العراقية. كانت عملية صعبة للغاية، فقد كان علينا أن نعبر منطقة رملية عند شرق وشمال شرق مدينة البستان، لنلتفّ على العدو ونحرّر المدينة. بيد أنّ اجتيازنا تلك الرمال كان أمرًا

بالـغ العناء، لكنه تمّ بفضـل الله وشجاعة مقاتلينا الفريدة، وقد فوجئ العدو تمامًا رغم امتلاكه عديدًا يقدّر بثلاثة أضعاف عديدنا، وزد على ذلك، أسلحة ومعدات تساوي أضعاف ما لدينا، لكن قواته تلقّت هزيمة نكراء، وبهذا بلغنا الحدود الدولية بعد أسبوع واحد لأول مرة.

في المقابل، تركت تلك العملية لديّ ولدى القوات التابعة لقيادتي ذكريات مرّة، فقد فقدنا عددًا كبيرًا من أفضل إخواننا من كاشان وكرمان الذين استشهدوا خلالها، وأُصيب لـواء «الإمـام الحسن المجتبى» عليه السلام -الـذي تشكّل حديثًا وشكّل أمـلًا للكثيرين- إصابةً بالغة، وتضعضع من الناحية التنظيمية، وفقدنا معظم أسلحتنا القليلة. وأضحى استمرار القتال بالأسلحة المتبقّية أمرًا غير ممكن، لذلك وبالتنسيق مع القيادة المركزية قمت بتسليم ما تبقّى من القوات إلى الأخ مرتضى قرباني في لواء «كربلاء 25»، والأخ حسن شفيع زاده الذي أصبح فيما بعد قائد المدفعية في قوات الحرس، ثم استشهد في عمليات «كربلاء 10»، وأصبح أخواي «صالح وجواد» ضمن عديد مرتضى القرباني. بينما فضّل الإخوة من أهالي شيراز الالتحاق بلواء الإمام السجاد عليه السلام.

وعندما تمّ استدعائي إلى الأهواز، ذهبت وقصدت الغولف فسلّمني الأخ رشيـد حكمًـا يقضي بتولّي مسؤولية إرسـال القوات من محافظة خوزستـان. وهكـذا باشرت عملي، وكانـت القوات تتـوالى قادمة من جميع المحافظات في إطار كتائب، ويقوم كلٌّ من أحمد بور وشوشتري، بصفتهمـا مسـؤولي الدعم اللوجستـي في الجنوب، وقـد وُضِعا تحت إمرتي، بتسليح هذه القوات، لنرسلها إلى الألوية المختلفة.

واجهنـا في الغولف مشكلة لطيفة لا بأس بذكرها. اعترض كثيرون علـى الأخ عامل السنـترال، فكلّما اتصـل أحد وسأله عـن اسمه كان

يجيب: بنده خدا[1]. لأجل هذا طالبوا بتغييره، خاصة أنهم يتّصلون في ظروف الحرب وبعصبية ويحتاجون إلى إجابات جدّية.

توجهت إليه وعاتبته، فقال: «أنا لم أفعل شيئًا».

- ما اسمك حقيقةً؟

- بنده خدا.

فانتفخت أوداجي غضبًا منه، فأخرج لي بطاقته من جيبه وقدمها لي. فوجدت أنّ اسمه العائلي «بنده خدا»!

بعد مرور ثلاثة أشهر على عمليات تشذابة كنا نتهيّأ لتحرير منطقة واسعة من شمال محافظة خوزستان. بينما كنّا نعقد اجتماعًا في معسكر الغولف يضمّ بعض القادة، ونتناقش بكل مودة وحماسة بحرارة، وصلت رسالة إلى الأخ محسن، ما إن قرأها حتى بدا عليه الاضطراب ونهض من مكانه، فنهض معه الأخ صياد الشيرازي؛ ما أثار قلق الجميع. فسأل الشهيد باقري: «ما الأمر يا أخ محسن؟»، نهض الأخ رشيد ولم ينتظر جوابًا، سأل فورًا: «هل شنّ العدو هجومًا؟

- نعم، لقد هاجم مضيق تشذابة. تحركوا لنذهب.

توجهنا سريعًا إلى سوسنكرد. أتذكر أننا ذهبنا إلى هناك مع الأخ رشيد، كان الإخوة لا يزالون يغطّون بالنوم، ولم يتسنّ لهم الاطّلاع على خبر الهجوم، فأيقظناهم. لقد تفاجأت قواتنا بنا، ولم يصدّقوا أنهم معرّضون للخطر. استعنت بشابّ يدعى «إسحاقي» من ضواحي أصفهان، وقد نشأ في النجف الأشرف ويجيد اللغة العربية، وبدوري كنت أفهم العربية بعد رحلاتي إلى الكويت، فشغلنا أجهزة اللاسلكي على موجة العدو، وكان إسحاقي يتنصّت من خلال جهاز تسجيل معدّل، فاستنتج أنّ الجيش العراقي يتحدث وكأنه عبر جسر سابله

1- عبدالله.

ويعمل على الالتفاف على قواتنا.

قام الأخ رشيد بإخبار كلّ من: مرتضى القرباني وحسين الخرازي. لكنهما لم يصدّقا ذلك. أجاب مرتضى: «اطمئنّوا ليس هناك أي شيء». وهذا ما أزعج رشيدًا الذي خطرت بذهنه فكرة فأجابه: «حسنًا، ما دام ليس هناك أي شيء، توجّه مع خرازي إلى جسر سابله، أريد التحدث معك». بعد دقائق اتصل مرتضى نفسه قائلًا: «لقد اشتبكنا مع قوات العدو».

كانت ليلة عجيبة حقًّا، حيث حمل السيد رحيم صفوي سلاحًا وجعبة وتوجّه نحو المواجهة، ولم يلتفت إلى نداءاتنا ولم يجب عليها.

شملتنا في تلك الليلة رحمة الله، دمّر الإخوة أول دبابة عراقية فوق جسر سابله، فتقدمت دبابة ثانية لإزاحة الأولى من طريقها فأُصيبت أيضًا. فأرسلوا ناقلة جند، فدمرت أيضًا. وهكذا تراكمت عدة دبابات وناقلات جند بعضها فوق بعض، فكان منظرًا مدهشًا.

لم يوفّق العدو في خطّته المفاجئة، وواجه مقاومة شرسة من كتائبنا التي تدافعت إلى المكان، ما اضطر قواته للتراجع.

كان هجوم العدو هذا يوم 6 شباط، وهدفه من ذلك هو الوصول إلى مدينة البستان يوم «11 شباط» لكونه ذكرى انتصار الثورة، وذلك بأمر مباشر من صدام. لكنهم بعد أسبوع من المواجهات تلقّوا هزيمة نكراء.

خلال المواجهات كان الأخ رشيد متحمّسًا جدًّا، يصرخ وينادي بانفعال شديد؛ فشعر بنوبة ألم في معدته، أخذ مصباحًا يدويًّا ليبحث عن قطعة خبز. تقدمت نحوه فوجدته يتلوى من الألم، لم أكد أقترب منه حتى رفع غطاءً إلى جانبه بحثًا عن الخبز، وإذ به يجد تحت الغطاء شهيدًا، فانفجر بالبكاء قائلًا: «هؤلاء استشهدوا، وأنا أبحث عن خبز!».

كانت جغرافيا منطقة العمليات صعبة، خاض المعتدون قتالًا شديدًا للحفاظ على مواقعهم، واستشهد لنا عدد كبير من الإخوة المقاتلين الأعزاء، ما زاد من الضغط النفسي على القادة والمسؤولين عن الحرب. كل هذه العوامل دفعت الأخ رشيد ليقول بعد هذه العمليات: «لقد شيّبتني عمليات تشذابة».

بعد عدة أيام، حضر ضيف من كوريا الجنوبية وحلّ عند الفرقة المدرّعة 92. توجّهت مع الشهيد حسن باقري إلى جسر سابله. عندما رأى الضابط الكوري الدبابات والملالات متراكمة فوق بعضها البعض على الجسر وإلى جانبه، دهش وقال: «إنها دبابات T72 كيف استطعتم تدميرها؟ إنه أمر مستحيل».

أجابه باقري: «توجّه الإخوة إليها، وصعدوا إلى برجها، ورموا القنابل اليدوية داخلها».

تعجّب الضيف وقال: «لو حدث ذلك عندنا في كوريا، لكنّا أحطنا الدبابات بسياج، واتخذنا منها متحفًا ميدانيًّا[1]، ودعونا الناس للحضور ومشاهدة هذا المنظر».

أجابه الشهيد باقري بنظرة ذات مغزى: «لو أردنا فعل ذلك، سيكون علينا أن نضع سياجًا حول كل الجبهات». ثم ضحك وقال: «لكن ذلك سيكلّفنا مالًا كثيرًا».

1- في الهواء الطلق.

## الاستخارة

بعد شهر واحد على انتهاء المواجهة الصعبة في مضيق تشذّابه، بدأت عملية «الفتح المبين» في منطقة «دشت عباس» و«عين خوش». رغم أنّ الفاصل الزمنيّ بين العمليتين كان قصيرًا، لكن قواتنا كانت بجهوزية أعلى، والقيادة بمهارة أرقى. لذلك جرى تنظيم ألوية الجيش والحرس بشكل أفضل. وعقدت اجتماعات منتظمة، وبلغ التنسيق بين الأخ محسن رضائي والعميد صياد الشيرازي مستواه المطلوب.

ونحن بدورنا كنا نمارس بكل قوة عملية استقطاب المتطوعين وتدريبهم وإرسالهم إلى الألوية والكتائب. وفي تلك الأيام انطلقت شرارة تشكيل الألوية حسب المحافظات. ففي أحد الأيام، نظر الأخ محسن رضائي إلى مهدي باكري في مقر كربلاء، وقال له:

- اذهب وشكل لواءً باسم عاشوراء من أبناء مدينة تبريز[1].

حتى ذلك الحين، كان المقاتلون من أبناء مدينة تبريز منضوين تحت

1- الشهيد مهدي باكري، ولد عام 1954م في مدينة (ميان دو آب)، بعد هذا الأمر قام بتشكيل «لواء عاشوراء»، ثم حوّله إلى فرقة، يكفي أن أقول فيه إنّه كان من الإخوة الذين سبق إدراكهم عمرهم، وكان يعمل بما يعلم، كان قائدًا عمليًا يحب قواته التي تحت إمرته ويعطف عليهم بعدل. ومن ذلك أنه عندما حوصر مع قواته خلال عمليات بدر، طلب منه الشهيد أحمد الكاظمي أن يعبر نهر دجلة ويسير لمسافة كيلومتر واحد بين الخط 1 و2 لينجو بنفسه، إلا أنه رفض ذلك مكررًا، وقال لن أعود إلا مع قواتي. إلى أن أصيب برصاصة واستشهد في 1985/2/14م فحمله رفاقه في زورق لنقله إلى خلف خط المواجهة، لكن العدو استهدف الزورق بقذيفة (ب½ 7) فغرق الزورق ومعه جسد الشهيد باكري.

لــواء «النجف الأشرف» بقيادة الأخ أحمد كاظمــي. إلا أنّ الإقدام على خطوة تشكيل لواء لكل محافظة جرت بسرعة لتشمل كل المحافظات.

علاوة على ذلك، فإننا باشرنا مرحلة شنّ الهجوم وتحرير المناطق المحتلــة، وقد توحّد الناس بعد التخلص من مرحلة التعقيد السياسي، التــي انتهت بطرد المنافقــين وانكشاف مؤامراتهــم، وأضحت الإدارة السياسية شبه موحدة، ما جعل الناس يقفون صفوفًا طويلة للتطوع في القتال، وتقديم الدعم إلى الجبهات.

قطعنــا المراحــل الأولى الصعبــة للحــرب، وفككنــا الحصــار عن عبــادان، وتبدّلت الظروف بحيث لم يعد العدو يجرؤ على التقدم وشن الهجمات، لذلك انتقل إلى مرحلة الدفاع وتثبيت مواقعه. وفي المقابل، لم نتوقــف عــن شن الهجمات لتحريــر أراضينا المغتصبــة وصولًا إلى الحــدود. لذلك جاءت خطــوة قوات حرس الثــورة الإسلامية بتشكيل ألوية المحافظات، لتخلــق الجو المناسب من أجل تنفيذ أفضل عمليات الدفاع المقدس وأنجحها.

في بدايــات شهــر آذار 1982م، تصاعــدَ غليــان قــوات الحرس والجيش في شمال غرب خوزستان، واكتملت المعلومات والاستطلاعات والدراســات لتنفيــذ عمليات «الفتح المبــين». كانت منطقــة العمليات واســعــة جدًا، ومليئــة بالتضاريس الصعبة، فيما كانــت معلوماتنا عن جغرافيــا الأرض خلف خطوط العــدو قليلة، معظمها من وصف أهالي خوزســتــان الذي جــاء ناقصًــا ومتناقضًــا أحيانًــا. أتذكّر أننــا سعينا لإكمال معلوماتنا عنها بالاستعانة برعاة تلك المنطقة أيضًا.

مــهــدي زيــن الــديــن كــان أحــد المــسؤولين عــن عــدة مجموعات استطلاع، وكان يتحرك دومًا مع عدد من الإخوة من أهالي شيراز

ممن نقلتهم إليه[1].

تحركاتنا الكثيرة لجمع المعلومات تشير إلى أهمية منطقة «دشت عباس» و«عين خوش» لدى مسؤولي الدفاع المقدس. فقد ركّز العدو منذ الأيام الأولى لاعتدائه على إيران، على هذه المنطقة، ليتمكن بسهولة من محاصرة محافظة خوزستان والوصول إلى مركزها الأهواز، لذلك احتلّها سريعًا قبل خرمشهر وغيرها. لكنه عندما وصل إلى جسر نادري واجهته القوات الشعبية المحلية من أهالي خوزستان مشكّلةً سدًّا منيعًا بوجهه، وتوقف زحف المحتلّ بعد معارك ضارية مع قوات حرس الثورة الإسلامية والجيش الإيراني.

لكن قبل وصول العدو إلى الجسر كان اللواء المدرع «37 شيراز»، وأحد ألوية الفرقة 92 خوزستان المدرع قد استقرا في مواجهة العدوان، وارتفع الكثير من أفراد هذين اللواءين شهداء. كما تعرّض بعضهم للأسر، بينما اضطر الباقون للتراجع، ودمرت الأسلحة الثقيلة والآليات أو نهبت.

لم تكد تمرّ أيام قليلة حتى قام الجيش الإيراني بتنفيذ عملية كبرى بقيادة العميد ظهير نجاد[2] ردًّا على الاعتداء ولاستعادة المناطق المحتلة،

1- الشهيد مهدي زين الدين من مواليد طهران 1959/10/9م. قائد خلاق، له شخصيته، تراه مبتسمًا دومًا، نلت شرف مرافقته في ساحات الحرب المختلفة، أسرته مجاهدة، اعتقل والده عدة مرات في عهد الشاه وتعرض للتعذيب والنفي. فنشأ مهدي في كنف تلك الأسرة ليكون مجاهدًا خلوقًا. طرد من المدرسة لرفضه الانتساب إلى حزب «رستاخيز» (البعث) في الثانوية. بعد انتصار الثورة توجه إلى غرب إيران لمواجهة الفئات الانفصالية في محافظة كردستان الإيرانية. وعند بدء العدوان العراقي توجه إلى الجنوب، وتقلّد مسؤوليات متعددة أمنية وعسكرية، شكل لواء علي بن أبي طالب عليه السلام لمحافظة قم، الذي تحول إلى فرقة. خلال ممارسته لمهامه قائدًا للفرقة، تعرّض مع أخيه في طريق سردشت – كرمنشاه للاغتيال ملتحقًا بالرفيق الأعلى في 1984/11/17م. قال الإمام الخامنئي عنه: «إنّ قائد هذه الفرقة الشهيد مهدي زين الدين هو حقًّا من النجوم الساطعة، وقد آلمنا فقده».

2- العميد ظهير نجاد عيّن في تشرين الأول 1981 رئيسًا للأركان المشتركة للجيش الإيراني، وفي عام 1987م أضحى عمادًا، وفي 1989/10/27م عيّن رئيسًا لفريق المستشارين العسكريين للقيادة العامة للقوات المسلحة. وفي عام 1999م أصيب بسكتة دماغية وتوفي فدفن في روضة الزهراء.

لكنه لم يوفق. وبقيت منطقة واسعة من غرب أنديمشك تحت الاحتلال لمدة (17) شهرًا، من تاريخ العدوان الصدامي حتى نهاية آذار من العام 1983م. عندما وُفِّقنا لتحريرها، كانت نقطة انطلاق لعمليات الفتح المبين. خلال مدة الاحتلال هذه، تحولت معظم مدن محافظة خوزستان إلى مسرح لقذائف المدفعية العراقية. وكنّا ننوي تحريرها قبل تنفيذ عمليات «طريق القدس» في منطقة البستان. ويشير إلى ذلك تاريخ البدء بالاستطلاع وطريقته بحسب وثائق الحرب. لكن الخطة تغيّرت فيما بعد، ونفّذنا عمليات «طريق القدس» حسبما ذكرت أنفًا، وفيما بعد قمنا بحشد الإمكانات اللازمة استعدادًا لتحرير منطقة دشت عباس.

أذكر أنّ أخبار هذه العمليات جرّت إلى الجنوب كثيرًا من قوات حرس الثورة الإسلامية الذين كانوا يخوضون المواجهات مع أعداء الثورة الإسلامية والجيش الصدامي في غرب البلاد. ما زلت أذكر شكل الحاج أحمد متوسليان وملامحه، فقد جاء إلى الجنوب مصطحبًا كلا من الشهيد همت والشهيد دستواره[1]. كانوا يلفتون الأنظار أينما ذهبوا بسبب ملابسهم، فقد كانوا يرتدون ما يشبه ملابس أهالي المناطق الباردة؛ جاكيتًا أمريكية وسروالًا سميكًا وواسعًا، أشبه بالملابس الكردية.

وشكّل حضورهم مقدمة لتشكيل اللواء (27) باسم «محمد رسول

1- هؤلاء الشهداء الثلاثة كانوا الأركان الأساس لتشكيل اللواء الذي تحول إلى فرقة محمد رسول اللهﷺ. الشهيد الكبير أحمد متوسليان، ولد عام 1953م في طهران، وهو المؤسس الأول لهذه الوحدة المنتصرة وأول قائد لها، أسر في لبنان بتاريخ 1982/7/3م على يد عملاء الكيان الصهيوني. والشهيد محمد إبراهيم همت، ولد عام 1955م بمدينة شهرضا، أكمل مسيرة سلفه قائدًا للفرقة، وسطّر ملاحم خالدة في الحرب إلى أن حلقت روحه شوقًا للشهادة في عمليات خيبر في 1984/3/14م، ليلتحق بركب شهداء جزيرة مجنون. الشهيد دستواره، ولد عام 1949م في طهران. بعد استشهاد الشهيد همت أصبح نائبًا للشهيد عباس كريمي في فرقة «محمد رسول الله» ﷺ، بعد استشهاد كريمي قائد الفرقة في عمليات كربلاء الأولى. واستشهد بمدينة مهران بتاريخ 1986/7/3 م، وقد سبقه أحد إخوته، كما التحق به أخوه الثاني شهداء في الدفاع المقدس.

الله» بالتعـاون مع الإخوة من أهــالي طهران، وبقيادة الحاج أحمد متوسليان.

كنت قد أسلفت سابقًا أننا عزّزنا الاستطلاع والمعلومات كثيرًا، كان الإخــوة يتوغّلون من محاور: شوش، جسر نادري، منطقة أخرى تعرف بمحــور بئر النفط، ومرتفعـات سبتون، ليحصلوا علــى المعلومات من قلب العدو ويحملوا إلى المقر أخبارًا جديدة.

حتى إني أذكر أنّ الحاج كاظم حقيقت الذي كان من شباب شيراز في محــور فارسيات، وألحق بمجموعة مهـدي زين الدين للاستطلاع، كان يصحــب محسن رضائي معــه إلى الخطوط الخلفية للعدو، ويريه مدفعيتهــم على بعد كيلومتريــن فقط. ففِرق الاستطــلاع كانت تعمل علــى مراقبــة العدو بدقّــة إلى هذا الحــد. علمًــا أنّ العــدو نفسه قد هيّــأ الأرضية لذلــك، حينما بلغ (أواخر) عــام 1980م مرحلة التوقف الإجبــاري عــن الاستمرار في العــدوان، وأخذ يدافع عــن مواقعه التي احتلهــا في خطوط ومحــاور غير منظمة، بحيث لم يكــن لديه أي خط مستقيــم في أي منطقة، ما جعل استطلاع مواقعــه، بل النفوذ داخلها وتدمير مدفعيته أمرًا سهلًا، عبر خطوطه الخلفية.

فيمــا بعد، علمنــا من خلال وثائق العدو وتقاريــره أنّه يقوم برصد تحركات فرق الاستطلاع الإيرانيــة، مثلًا ذكر ضابط الرصد المعادي في تقريــر لــه أن فريقَ استطلاع إيرانيًّا قد اخــترق منطقة «تي شكن» المرتفعــة شمال غرب «دشــت عباس» لجمع المعلومــات. لكن الضابط نفســه عاد ليؤكد في تقريره أنه لا يتوقــع أي هجوم من تلك المرتفعات بسبب وعورتها، وأن هذا المحور لا يستوعب شنّ أي هجوم منه.

حينها، اعتقدت أنّ الضابط العراقي محقّ، لأن شن هجوم انطلاقًا مــن تلــك المرتفعــات الوعــرة نحــو الأسفــل، ومشاركة قــوات كبيرة،

وعبورهـم مـن مضيق جبلي ضيق جـدًا أمرٌ مستبعد. لكـن الإخوة ما لبثوا أن فعلوا ذلك ليلًا، ونجح هجومهم.

وهكـذا، رغم كل تلك الخطوات الاحتياطيـة، والنشاطات الواسعة لرصـد مواقـع العدو وتكتيكاتـه الدفاعية، ومراجعتنا تلـك المعلومات كلمّـا اقـترب موعد الهجوم، إلا أن وضع تسليحنـا كان سيئًا، ولم نكن نملـك توازنًا مـع العدو إلا في قواتنا الحاضـرة والمؤمنة، أما في مجال التسليح والتجهيز، فكان الفارق بيننا كالفارق بين الأرض والسماء.

لكنّنـا قمنا بنشاطـات هندسية كثيرة، هي ثمـرة إيثار وتضحيات الإخـوة في مؤسسة جهـاد البناء والفرق الهندسيـة للجيش والحرس، وأهمهـا فتـح «مضيـق ذليجـان» وشق طريـق في منطقة وعـرة جدًا، والدعم المستمر طوال مراحل شق الطريق وبناء التحصينات المختلفة.

وفي جانب آخر، قام الإخوة في جهاد البناء بمؤازرة عناصر الصحة بتجهيز أول مستشفى ميداني كبير يضم غرفة عمليات، مما ساهم في إنقاذ الجرحى بشكل فعّال.

توجهـت مـع الأخ رشيـد والشهيد باقـري إلى المنطقـة التي تُدعى بئـر النفط ومرتفعـات «تي شكـن» لدراسة وضع القـوات فيها، كانت إحـدى سيارات لواء الإمام الحسين عليه السلام التـي تحمل مدفعًا مزدوجًا مضـادًّا للطائرات قد سقطت أسفل الوادي، بينما يقف مسؤولو اللواء والمقاتلـون الذين أنقذوا السائق الجريـح متسمّرين وهم ينظرون إلى أسفـل المرتفعات، ويشيرون إلى السيارة بأيديهم. عندما وصلنا إليهم وجدنا أنهم اشتعلوا غضبًا، حتى إنّ أحد الشباب من أصفهان خاطب الشهيد باقري قائلًا:

- يا أخ حسن هل رأيت كيف فقدنا كل رأسمالنا؟!

فقد كان يعتبر ذلك المدفع المضاد للطائرات مهمًّا جدًا لهذا اللواء

إلى درجة أنّه بات رأسماله.

وقد وصل بنا شحّ التسليح إلى درجة أننا في ليلة بدء الهجوم، باتت قوة المشاة جلّ اعتمادنا. ولم نعتمد على نيران المدفعية كثيرًا. علمًا أنّ قوات الحرس والجيش كانا قبل تنفيذ الهجوم قد أعدّا معًا أربعة مراكز قيادة تكتيكية؛ فاتساع المنطقة، وضرورة التنسيق بين الجيش والحرس، أجبر المسؤولين على ذلك[1].

هذا هو ظاهر القصة، لكن خلف الستار كمنت بعض الأمور المبهمة، وترددٌ كبير في اتخاذ القرار حول العمليات، واختلافُ الآراء حول كيفية العمليات كان سمةً بارزة بين قادة العمليات في اجتماعاتهم. فرأى بعضهم ضرورة حفر القنوات للنفوذ منها ليلًا إلى العدو، أو إلى جبهته الخلفية. بينما رأى بعض آخر ضرورة التريّث وزيادة عديد القوات بسبب اتساع منطقة العمليات، رغم وجود مئة كتيبة من الحرس والتعبئة و35 كتيبة من الجيش. وكان مبرّرهم للتريّث أننا بعد الانتصار لن نتمكن من الاحتفاظ بهذه المناطق الواسعة من خلال هذا العديد فقط، خاصة أنّ العدو أحسّ بتحركاتنا قبل أيام من شن الهجوم، وبدأ بالاستعداد، وقد شنّ هجومًا من الرقابية ضد

1- مقر القدس كان من بين تلك المقرات، وتوالى على القيادة فيه الأخ عزيز الجعفري والعقيد شهبازي لقيادة لواءين من الجيش وثلاثة ألوية من الحرس كانت مستقرة شمال غرب خوزستان ومقابل مرتفعات تي شكن ومنطقة بئر النفط. المقر الآخر هو مقر النصر بقيادة حسن باقري والعقيد حسني السعدي وعديده أربعة ألوية من الجيش وثلاثة ألوية من الحرس، يتموضع عند جسر نادري ومرتفعات سبتون شمال شوش. والثالث مقر الفجر بقيادة مجيد بقائي والعقيد أزغمي بعديد فرقة من الجيش وأربعة ألوية من الحرس ويتموضع في الجبهة الشرقية مقابل مدينة شوش. والرابع مقر الفتح بقيادة السيد رحيم صفوي والعقيد نياكي بعديد ثلاثة ألوية من الجيش وثلاثة ألوية من الحرس ويتموضع جنوب غرب شوش وجبال ميشداغ. بعد هذه العملية وقبل عملية تحرير خرمشهر أصبح رحيم صفوي مسؤول عمليات مقر كربلاء، ورشيد قائد مقر الفتح، وكلفت أنا وبعض الإخوة بتولي مسؤولية الأقسام المختلفة لهذا المقر. أنا رئيس أركانه، ومحمد باقري الأخ الأصغر لحسن باقري مسؤول الأمن، وأصغر كاظمي مسؤول العمليات، والشهيد صنيع خاني المدير الداخلي.

مقـر الفجر، ورغم تقهقـره سريعًا، لكن تموضعنــا اختل هناك، وزاد من التردد.

هــذه الحــال أدّت إلى رفـع الأمــر إلى سماحــة الإمــام الخمينــي للاستشارة، فاقترحوا أن يقصد أحدهم طهران للقاء سماحته. أذكر أننــا كنّا في مقــر كربلاء قرب دزفول وكان أحد طيــاري القوة الجوية حاضرًا في الاجتماع فقال:

- مــن يريد الذهاب يمكننــي أن أنقله بطائــرة (F-5) إلى طهران خلال 20 دقيقة[1].

نظر الشهيد صياد الشيرازي إلى الأخ محسن رضائي قائلًا:

- مــن الأفضــل أن تذهب أنت للقاء سماحــة الإمام الخميني قدس سره، لتعرف رأيه، وتعود سريعًا.

وافق الأخ محسن، واتصل بمكتب الإمام الخميني للتنسيق، وتوجّه إلى طهران.

قدم الإمام الخميني بعض التوصيات العمليّة، ورفض أن يعتمد على الاستخارة، وقال: «إذا لم تصلوا إلى نتيجة واتفاق، استخيروا أنتم».

يبدو أنّ الأخ محسن رضائي أثناء عودته إلى مقر كربلاء قد استخار اللّه، فكانــت النتيجة آية ﴿**إنا فتحنا لك فتحًا مبينا**﴾؛ لذلك أطلق علــى العملية اسم "الفتــح المبين"، وأخبر سائر القادة بذلك، فوضعوا تردّدهم جانبًا واستعدوا لتنفيذ الهجوم.

1- تمت تلك الرحلة بطائرة (F-5) للتدريب، وهي صالحة لحمل شخصين.

## رواية الفتح

إنّ أهمية الانتصار في عمليات «الفتح المبين» تكمن في إبعاد كثير من مدن وقرى جنوب محافظة خوزستان وغربها، مثل: «شوش» و«دزفول» و«أنديمشك»، عن مدى قذائف المدفعيّة العراقيّة ومجال صواريخ أرض-أرض. وبتحرير المنطقة التي تقع غرب نهر «كرخة»، تنفّس أهالي خوزستان الصعداء، وتحرّر بذلك شمال هذه المحافظة بالكامل. كان العدو قد حرمنا طوال سبعة عشر شهرًا من التنقّل عبر خمس طرق مواصلات أساسية في «خوزستان»، أهمها طريق «دزفول- دهلران».

تحدّدت أربع نقاط للهجوم في عمليات «الفتح المبين» هي: «شوش»، مرتفعات «سبتون»، جبل «ميشداغ»، مرتفعات «تيشكن». وكان انطلاق الهجوم فجر يوم 1982/3/21م، مع تغطية ضعيفة جدًا من المدفعية الثقيلة والهاون. في المقابل، حشد العدو ثماني فرق أساسيّة مجهّزة، فبدأت معركة غير متكافئة، خاضتها قوّاتنا بصورة قتاليّة ملحمية.

لم تكن الحرب في منطقتي «دشت عباس» و«عين خوش» الواسعتين جدًا كمعركة فك الحصار عن «عبادان» حتى تنتهي خلال يومين ويتحقّق النصر خلالهما. فالتحضير لهذه العملية استغرق أشهرًا عدة، من تخطيط واستطلاع، وتشكيل أربعة مقارّ للقيادة، ومشاركة ستّين ألف مقاتل موزّعين على أربع مناطق. كان الهدف الاستراتيجي

للعملية هو محاصرة فرق عدة للعدو، ودفع خطوطه الخلفية التي تضم ثلاث عشرة فرقة ولواء.

بدأت عمليات «الفتح المبين» بحادثةٍ لطيفة حصلت معي ومع القائد رشيد. فقد أُنشئ مقر أساسي لمركز قيادة «كربلاء» قرب «سد دز» ليكون أقرب إلى منطقة العمليات، وكان المكان الجديد مستحدثًا بحيث كان يتوجّب عليّ، كمسؤول تأمين القوات القتالية، وعلى رشيد كمسؤول للعمليات في مقر كربلاء، أن نستعلم لنصل إلى المكان بسيارة «بيكان».

وصلنا مدينة «شوش»، ومن هناك، سلكنا طريقًا لجهة اليمين ينتهي عند السد. كان يتوجّب علينا قبل بلوغ السد أن نجد الطريق المؤدّي إلى المقر، لكن أي لوحات إرشادية لم تكن موجودة لتدلّنا عليه. مررنا بطرق عدة فرعية يظهر أنها ممرات مخصّصة نحو مجموعة أو كتيبة ولا تبدو كممرّ رئيس نحو مقر القيادة المشتركة للجيش والحرس.

لكنّنا تقدّمنا حتى رأينا عن بعد (300) متر حارس السد، ما يعني أننا قد سرنا كيلومترات إضافية. وقد حان موعد الاجتماع في المقر، ولم يبقَ أمامنا مجال للتجوال، ممّا دفعنا إلى العودة من حيث أتينا، ولم يخطر ببالنا أنّ الحارس سيظن أنّنا من الطابور الخامس أو من المخربين، وأنه قد يستهدفنا.

فجأةً، انهمر الرصاص علينا يمنةً ويسرةً، فضغطت على دواسة البنزين وانطلقت بسرعة (120)، في حين كان الأخ رشيد يصرخ بي: «توقف»، لكنني لم أُصغِ إليه. فضربني على كتفي بقبضة يده مرات عدة صارخًا: «قلت لك توقف». لكنني اعتبرت أن الوقوف يعني الموت، بينما رأى رشيد أنّنا يجب أن نتوقّف كي نبقى أحياء، تابعت طريقي لشدة خوفي، إلى أن وجدت شارعًا فرعيًّا انحرفت نحوه، فإذا هو طريق المقر.

ترجّلنا من السيارة التي أصيبت بعشرات الرصاصات، فقلت للأخ رشيد: «رحم الله والِدَي الحارس لأنه لو رفع سلاحه إلى الأعلى قليلًا لأصاب منّا مقتلًا».

- إذًا فلنعد إليه لنقدّم له جائزة على لطفه بنا.

ضحكتُ وقلت: «أعطني الجائزة، لأنني لم أنفّذ طلبك بالتوقف، وأوصلتك إلى المقر حيًا».

كانت خطّتنا مرهونة بتنفيذ أربع مراحل تصل بنا إلى النصر الكامل. في المرحلة الأولى، شنّت كتائب مقر القدس هجومًا انطلق من غرب «نهر تشيخاب» وتمكّنت في الساعات الأولى من تحرير منطقة واسعة من «عين خوش» وسدّت الطريق على الخطوط الخلفية للعدو. لكنّ العدو نفّذ هجمات متلاحقة حتى استعاد بعض النقاط.

وعندما قام الإخوة في فرقة «27 محمد رسول الله ﷺ» باختراق الخطوط الخلفية للعدو في منطقة «علي غره زد»، أُسكتت مدافع العدو، ممّا اضطره للتوقف عن هجومه المضادّ ومن ثم التراجع.

وتمكنّا في هذا المحور من تحرير مثلث طرق «قهوه خانه»[1] ثم مرتفعات «شاوريه».

أما في محور «مقر الفجر»، فلم نحقّق أي تقدّم بسبب مقاومة العدو القوية، بل اضطرّت قواتنا إلى التراجع في هذا المحور، ما أتاح الفرصة لعدد من قاذفي (B7) باصطياد دبابات العدو وترتّب على ذلك توقّف القصف على الإخوة في تلك المنطقة.

بعد مرور يومين، بدأت المرحلة الثانية من العمليات، حيث لم يكن

1 - أو تقاطع المقهى.

العـدو يتوقع أن نهاجمه مـن محور مغاير خلف مرتفعـات «ميشداغ». هذا الهجـوم الصاعق الذي انطلق من مضيـق «ذليجان» و«الرقابية» ومرتفعات «ميشداغ» تسبّب بتشتيـت قوات العدو التي مارست ضغطًا شديـدًا على وحدات مقـر القدس، وتمكّنت من محاصـرة قوات الأخ «خـرازي»، إلا أنـه رفض الانسحاب والتراجـع إلى الخلف، فضلًا عن اختفـاء كتيبتـين لساعات عـدة، لكنهما ما لبثتا أن عادتـا إلى ميدان المعركـة. لم يسلـم العدو مـن المفاجـآت، فتعرّض من جديـد لهجوم مباغت من خلف خطوطه شنّته قوات «مقر الفتح»، وأُسر عميد عراقي سرد لنا ما حدث معه:

«بعد انتصاركـم علينا في المرحلة الأولى، كنا نعلـم أنّكم ستشنّون هجومًـا ثانيًا، لذلك أصدرنا أمرًا بالبقـاء على استعداد تام، وتأهّبت قواتنـا داخـل المتاريس وهم ينتظـرون صدّ أي هجـوم. لكن الانتظار طـال، ولم يحصل أي تحرّك على الجبهة، فظننّا أنّ الهجوم قد أُلغي، ولم يعـد من مـبرّر للاستنفار. ونظـرًا لحالة الاطمئنـان التي شعرت بهـا، فإنّنـي بتّ ليلتي بالملابـس الداخلية. وأثناء نومـي، أحسست أنّ فخـذي يؤلمني، فاستيقظت لأرى ما الأمر، فرأيت مقاتليكم يوقظونني ليأخذوني أسيرًا».

أمـا قوات العدو فقد ضلّت طريق الهـرب، فتركوا معظم أسلحتهم وآلياتهـم في المستنقعـات المواجهة لهضبة «السنـدال» في منطقة «مقر الفتح».

وهكـذا، شـاءت الصـدف أنّ المستنقعـات التـي لم تتمكـن فـرق استطلاعنـا من العثور عليها، وذكرها في التقارير، أرشدنا إليها ذلك الحشد الكبـير من الآليات والدبابات وناقـلات الجند العراقية الذي علق فيها، ولولا ذلك لعلقنا فيها أيضًا!

وبنهايـة المرحلة الثانية مـن عملياتنا، شنّت قـوات العدو هجمات جنونيـة بـكل الاتجاهات، فتصدّت لهـا الوحدات التي طهـرّت المكان منه، وكان أشرس تلك الهجمات يستهدف محور «مقر الفتح»، ومضيق «الرقابية»، حيث وقعـت معركة حامية، فشل العدو خلالها في اختراق خطوطنا الدفاعية، أو السيطرة عليها.

عندمـا يئس العدو في هجماته المتكرّرة من تحقيق أي تقدم، وبيّنت تقارير استجواب الأسرى أن نظام القيادة قد تفكّك، اغتنمنا الفرصة، وصـدر الأمر ببدء المرحلـة الثالثة من العمليـات، لا سيّما بعد إعلان بيـان الإمام الخميني الـذي كانت نتيجتـه رفع معنويّاتنـا عاليًا، ولم يعد أحدنا يحسّ بالتعـب، ورفض كثير منّا استبدالهم بقوات جديدة، وقرروا الاستمرار في القتال حتى آخر مراحله.

كان هـدف العمليـات في المرحلـة الثالثـة هو محاصـرة الوحدات العراقيـة بشكل كامـل، ويبدو أنّهم أدركوا ما كنّا نهـدف إليه ففضّلوا الهرب على المواجهة، وقد أدّى تقهقرهم إلى تحقيق أمرين هامّين:

الأول: إيجـاد الأرضية المناسبة لاتصال مقراتنـا القيادية بعضها ببعض.

الثـاني: اضطـرار العدو للتخلي عن مضيق «أبـو غريب» الذي كان يشـكل نقطة استراتيجية لـه، وذلك بسبب الهجمـات المتلاحقة التي قمنا بها، ما دفـع القوات المعادية للاستقرار في منطقة «تشنانة» و«دو سلك» وغرب مرتفعات التينة.

لقد عثرنا على وثائق خطية كثيرة تركها العراقيون في أرض المعركة، وقـد تمّ نشر بعضها، من بينها رسالة مهمّة من وثائق الفرقة الخامسة المدرّعة للجيش العراقي، موقّعة من «ماهر عبد الرشيد» يقول فيها:

إن الأسلـوب القتالي للعدو خلال المعركة الأخيرة في منطقة انتشار الحرس الثوري الرابعة، أي «شوش-دزفول» امتاز بالخصائص الآتية:

1- قـوة المشـاة: شكّلت الركيـزة الأساس في العمليـات التي شُنّت بواسطـة قـوات كثيرة العـدد ويُعتمد عليهـا، وعندما تأكـد العدو من تحقيق انتصاره المحدود، زجّ بسلاح المدرّعات إلى أرض المعركة.

2- قـام العـدو بمهاجمـة جناحي قواتنـا بقواته الأسـاس، وأمّن جبهته بأقل عدد من القوات.

3- اعتمـد العدو أسلوب القتال والهجمات في الساعات الأولى من الليل.

4- أراد العدو من عمليّاته الهجومية الوصول إلى مقرات الوحدات، والأركان، ومواقع المدفعية؛ ليتمكّن بذلك من شلّ بنية القيادة ومراكز الدعم الناري.

5- لم يستخـدم العدو في هجماته النـيران المباشرة، بل استخدم نيران المدفعية الثقيلة والمؤثرة أثناء عملياته.

6- بخـلاف قواتنا، لم يتمكن العدو مـن التفوق علينا في استخدام القوات الجوية والمحمولة جوّا، على الرغم من استخدام هذه القوة في العمليات أكثر من ذي قبل[1].

لكن الأمر لم ينتـهِ عند هذا الحدّ، وإنّما جرت المرحلة الرابعة من العمليات، لأنّ الصراع مع العدو لا يزال قائمًا. وفي هذه المرحلة تمكنّا مـن توحيد كل مقـرات القيادة، فتواصـل مقر النصـر ومقر القدس مـع مقر الفجر إثر المواجهة مع العـدو، واستأنفت القوات زحفها نحو الحـدود برفقـة مقاتلي مقـر الفتح الذيـن عبروا مضيـق «ذليجان»،

1- دونت هذا النص في دفتر ملاحظاتي بعد العمليات من دون ذكر تاريخه ورقمه.

وتوجهوا نحو «برغازه ودو سلك».

كانت خسائر العدو جسيمة، فقد أُسر له 17000 رجل، وسقط من جنوده أكثر من هذا العدد بين قتيل وجريح، ما ترك أثره على العدو خيبةً وفشلًا، ما جعله يتوقع استمرار الهجمات عليه، واحتمال دخول أراضيه أيضًا. لكن في صباح يوم 29 آذار، أعلنت إيران انتهاء عمليات «الفتح المبين»، فتنفّس العدو الصعداء، وشرع ببناء ودعم المواقع التي انسحب إليها غرب نهر «دويرج»، وتحت تلال «أبو غريب»، وفي «برغازه»، و«عين خوش».

لم نكن نظنّ أنّه بإمكاننا أن نحرّر كل تلك المناطق خلال عشرة أيام، لولا السرعة الفائقة التي تحرّكت بها قواتنا على الجبهة، ولذا، كان القادة والمقاتلون بعد عمليات «الفتح المبين» مندفعين بقوة لإكمال المعركة، وملؤهم الإرادة والعزم، وبالخصوص أنّ الدعم قد أتاهم من حيث لم يحتسبوا، فباتت وحداتهم غنيّة بالأسلحة والمعدات التي غنمتها من العدو، فللمرة الأولى تمتلك قوات حرس الثورة الإسلامية سلاح المدفعية من غنائم تلك العمليات.

في الجانب الآخر، أدرك العدو أننا سوف نتوجّه سريعًا نحو تحرير مدينة خرمشهر، لذا شرع بوضع الموانع المعقدة والصعبة حول تلك المدينة، وأعلن عن استعداده وتجهيز ثماني فرق كبرى.

كلما ذُكر اسم عمليات «الفتح المبين»، كانت أفكاري تتّجه مباشرة نحو مرتفعات «شوش»، وأتذكر الحاج «شير علي سلطاني»، ذلك الشاعر والقارئ المعروف من شيراز، كان حقًّا سلطان قرّاء «شيراز» ومنشديها.

ذاع صيت «شير علي سلطاني» سريعًا في شيراز، وكذلك في أوساط

مقاتلي محافظة فارس، لقد أدّى دور شاعر أهل البيت ومنشدهم، فكان له أسلوبه الخاص في الإنشاد، الذي يصدر من صميم قلبه، ما يترك تأثيره العجيب على المستمعين. ولا أنسى أبدًا جسمه الممتلئ وقامته الطويلة حين يقرأ المجالس الحسينية للمقاتلين قبل عمليات «الفتح المبين» بصوت مميز وحنون، حيث كان يفتتح مجلسه بهذا التعبير: «إلهي، هل نوفّق نحن خدّام الإمام الحسين عليه السلام أن نكون في صحراء المحشر مقطوعي الرؤوس كأسيادنا حتى لا نخجل منهم؟».

كانت هذه الجمل تصدر من صميم قلب الحاج «شير علي» بنيّة صافية، فتمنح المقاتلين شجاعة عجيبة لخوض القتال.

كما أنّ الحاج «شير علي» نفسه قد حقّق أمنيته ليلة تنفيذ العمليات في المرتفع «122 شوش». فقد أصابته قذيفة (B7) مباشرة، وفصلت رأسه عن جسده. وفي اليوم التالي، قام الحاج «موسى رضا زاده» مع بعض الإخوة بمرافقة أجساد الشهداء إلى شيراز، ومنهم جسد الحاج «شير علي».

وفي شيراز، صلّى على أجساد الشهداء آية الله الحائري، واندفعت والدة الحاج «شير علي» وسط الجموع وهي تقول: «إنّ ابني أوصاني بدفنه في القبر الذي أعدّه بنفسه، وأمر الشيخُ الحائري أن يُعمل بوصية الشهيد».

والمفاجأة التي كانت تنتظر المشيّعين لحظة إنزال جسد الحاج «شير علي» إلى القبر، الذي كان قد حفره بنفسه في باحة مسجد المهدي -الذي بناه بنفسه أيضًا- في شارع زرهي شيراز، أنّه على قياس جسده من دون الرأس! وكأني به قد تعمّد حفر القبر على هذا النحو، بحيث لا يتّسع لجسده ورأسه، ولو كان الجسد تامًّا لما نزل في القبر.

كذلـك لا يمكنني أن أنسى عالم دين فاضــلًا كان موجودًا معنا في تلك العمليات، وكلّما تذكرته غمرتني السكينة والهدوء، ولم أعد أذكر اســم عائلتــه. كان سيدًا من أهل المعنى، يشبــه آخرين مثله، لكنّه من القلائل الذين يتركون أثرًا، فعندما يتكلم تلتقط كلامه سريعًا، وتعمل به. كان يذكر دائمًا قصر العمر، وعدم تعلّق القلب بالحياة، ويقول:

- بـين الإنسان والآه هناك العمر الذي لا قيمة له... فالحذر الحذر من أن نحَدّث قلبنا بطول العمر، إنها الخسارة والفشل. وأن نظن أننا إذا رحلنــا سريعًا فسنموت؟ فكم مــن أناس رحلوا سريعًا وفازوا، وكم من أناس أطالوا البقاء ثم ذهبوا ولم يفوزوا.

كان دائــم الذكر لآيات القــرآن والأشعار والأمثــال، ويشرح حكمًا لأمــير المؤمنــين علــي عليه السلام. أتذكر مــن أقواله هذه الجملــة ممّا قاله عظماؤنــا: «قلب الأحمــق في لسانه، ولســان العاقل في قلبــه» أو «قلب الأحمــق وراء لسانه، ولسان العاقل وراء قلبه». وكان يلتزم بقلة الكلام واختصاره.

رافقتــه مــرة قبــل العمليــات مــن مقر كربــلاء إلى محــور «جسر النــادري»، فقال لي: «إذا انتصرنا إن شــاء الله، ووصلنا إلى (تقاطع المقهى) ذكّرني أن أرتدي عباءتي وعمامتي».

ابتسمــت وقلت له: «يبدو أنك تمــزح مولانا، فتقاطع المقهى محتلّ، وهو بيد العدو منذ سبعة عشر شهرًا».

فتأوّه قائلًا: «نعم كنت أمزح، لكن قلبي لا يزال متعلّقًا هناك، ففي الأيــام الأولى للعدوان، كنت مبلّغًا في إحدى وحدات الجيش، حين شنّ العدو هجومًا سريعًا جدًا واتجهتْ قواته نحو جسر النادري، فانسحبنا مــن المكان حيــث نسيــت عباءتــي وعمامتــي، ولم أتمكن مــن العودة

لاسترجاعهما. بقيت لمـدة أسبوع أقاتل وأؤم الجماعة من دون عمامة وعبـاءة إلى أن توقـف العـدوان، عندها ذهبت إلى السـوق واشتريت عمامة وعباءة».

عندهـا قلت لـه: «مولانا، لعلّـك أتيت للمشاركـة في عمليات الفتح المبين لتستردّ عمامتك وعباءتك؟». فتبسّم ولم يقل شيئًا.

بعد انتهـاء العمليات بيومين، بلغني أنّ هذا العالِم قد استشهد عند «تقاطـع المقهى»، فبكيت متأثّرًا عندمـا تذكرّت آخر كلماته؛ حين حمل سلاحه وتوجّه للمشاركـة في الهجوم، وكنت قد طلبت منه أن يوجّه لي نصيحة، فأجاب كعادته باختصار مفيد ما مضمونه عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «إذا لم تحصل على ما تريد، فلا تقلق على ما أنت فيه».

## فراشات اليقين

في تلك الغرفة الصغيرة المخصّصة للقاءاته الخاصة، كنّا نقعد خاشعين على الأرض يزاحم بعضنا بعضًا، تمتلئ الغرفة برجالٍ تسمّرت أنظارهم نحو رجل كبير في السن جالس على كرسيّه ليصغوا إلى حديثه.

لعلّها كانت أجمل اللحظات والدقائق في حياة كل القادة والمقاتلين الأساسيين خلال سنيّ الحرب؛ إنها اللقاءات مع سماحة الإمام الخميني بعد العمليات. رؤية هذا العجوز الحكيم، تحطّ عن أجسادنا تعب العمليات وعنائها، وكأنّ ماءً باردًا يصبّ على أحزاننا لفقد الإخوة الشهداء فتطفئ حرّها وتسكّنها.

ما كان يجري في تلك اللقاءات يبقى حاضرًا في ذاكرتي، فقد كانت دروسًا عظيمة، تعلمت منها الكثير. لذا كنت أراقب كلّ حركة وأي انفعال يظهران في ملامح هذا الرجل السماوي العظيم، لأنّ كل حكمة ينطق بها كان تأثيرها علينا أعمق من قراءة عشرات الكتب في الأخلاق والعرفان.

في أحد تلك اللقاءات، ما إن دخل الإمام الخميني إلى الغرفة وجلس على كرسيّه، حتى قام الشهيد «حسن باقري» مستأذنًا بالتقاط صور عدّة مع سماحته للذكرى. أجابه الإمام الخميني: «لا مانع في

ذلـك بنيّ»، فأشـار أحد الحراس إلى أنّ فلاشـ الكاميرا يؤذي عيني الإمـام. عندها أضاء حسن مصباح الغرفة للاستعاضة به عن فلاش الكاميرا، والتقط سريعًا أربع صور، وقعد على الأرض.

عـمّ الصمـت في الغرفـة، واستعـدّ الأخ «محسن رضائـي» لقراءة تقريـره، لكـن الإمـام الخميني نهضـ عـن كرسيّه، فنهضـ الجميع احترامًـا لـه، ونظر بعضهم إلى بعض بتعجب، مـن دون أن يتفوّه أحد بكلمـة، فمرّ الإمام الخميني أمـام القادة متوجّهًا نحو مفتاح المصباح وأطفأه. كان ضـوء النهار كافيًا ولا حاجة لإضاءة ذلك المصباح، لكن الأمـر اللافت أنّ أيًّا منّـا لم ينتبه لهذا الأمر، واللافت أكثر أن الإمام لم يطلب من أحد إطفاء المصباح، بل نهض بنفسه ليقوم بذلك.

في لقـاء آخـر، كان الشهيد «مجيد بقائي» قاعـدًا في الصف الأول مقابل الكرسيّ الذي يجلس عليه الإمام. وقبل حضوره، كان مجيد قد أخرج قرآنًـا صغيرًا من جيبه، وشرع بالتـلاوة، وعندما دخل الإمام، وضـع مجيد القـرآن على الأرض، وأخرج ورقة مـن جيبه ليدوّن كلام الإمـام، الذي شرع بالحديـث، لكنه ما لبث أن ركّز نظره في نقطة ما، ثـم سكت، وانحنـى ليلتقط القرآن مـن أمام مجيد أخـذه قبّله وبقي يحمله في يده حتى أنهى حديثه. ثم سأل: «من أحضر هذا القرآن؟».

أجاب «مجيد»: «أنا أتيت به لتوقّعه لي».

وقّع عليه الإمام الخميني، ثم قال: «انتبه يا بنيّ، ليس مكان القرآن على الأرض».

خـلال تلك اللقـاءات، كان الإمـام الخميني بإرشاداتـه يحوّل كل الشكـوك والتردد الذي يساور القادة في الحـرب، إلى فراشات يقين، أي إنها تصبح جليّةً وواضحة. ففي إحدى مراحل الحرب جرى نقاش

بــين عدد من قــادة حرس الثورة الإسلامية، حيث قــال بعضهم: «إننا لم نتلـقّ التدريب على القيادة والإدارة فكيـف نصدر الأوامر ويطيعنا الآخرون؟ لذا، علينــا أن نحمل السلاح ونتوجّه إلى الخطوط الأمامية لنقاتل مثـل أي جندي آخر». وقال آخرون: «لعلّنــا لسنا أهلًا للقيادة، وقــد نقف يوم القيامــة عاجزين عن تحمل مسؤوليــة دماء الشهداء». كانــوا يشكّون بقدراتهم، ويتردّدون في اتخاذ القــرار، علمًا بأنّ هؤلاء القادة كانوا دومًا في الخطوط الأمامية.

عندما سمــع الأخ محسن رضائي هذا النقاش المحبط، قال لهم: «بــدل أن تُشغلوا أنفسكم بهذا الكلام غير المفيد، أدّوا مهامكم الموكلة إليكــم». وعلى الرغم من ذلك، ظلّ بعض هؤلاء القادة متردّدين وغير مطمئنّين. وبعد أسبوع من ذلك النقاش، جرى لقاء مع سماحة الإمام، فقدّم الأخ محسن رضائي تقريره، وطرح موضوع النقاش عليه قائلًا: «هنــاك بعض القادة قلقون من أن يعجزوا عــن أداء التكليف، فما هو رأي سماحتكم؟».

تبسّم الإمام الخميني، ثم نظر إلى كل واحد من الموجودين، وقال: «هل تظنون أنكم ذهبتم إلى الجبهــة وتولّيتم المسؤوليات باختياركم؟ إنّ أسماءكم مسجلة في اللوح المحفوظ لله تعالى، وإذا قصّرتم فتأكّدوا أنّ أسماءكم ستُمحى من هذا اللوح».

عندمــا خرجنــا من تلك الغرفــة، كان حال الإخــوة وكأنّ فراشات اليقين بأجنحتها الملونة تحلّق فوق رؤوسهم.

## من صباح الانتظار إلى ليل الانطلاق

عندمـا انتهت عمليات «الفتح المبين»، اجتمع قادة الألوية في قاعدة «منتظِـري الشهادة»، تغمرهم السعادة لذلـك الفتح الباهر الذي لا يصـدّق، مـن حيث إنّه تحقّق بمـدّة وجيزة، ما جعلهـم يعلنون جميعًا استعدادهـم للمعركـة القادمـة. ولست أبالـغ إذا قلـت إنّ الصداقة والمحبـة والتقارب بين قادة الجيش والحرس قد بلغت القمة بعد هذه العمليـات. فلم يعد هنـاك أي تكلّف في التعامل فيمـا بينهم، بل كانوا يجتمعـون معًا، ويتعامـل بعضهم مع بعض بمحبـة، ويتسابقون لدعوة أحدهـم الآخر إلى مائدة الطعام، فضلًا عـن المزاح بحرارة قبل بدء الاجتماعات. ففي الاجتماع الأول الذي عقد بعد عمليات «الفتح المبين» بدوا كأسرة واحدة، وكان جلّ اهتمامهم وتفكيرهم منصبًّا على نقطة واحدة كان اسمها «خونين شهر»[1].

كانـت فرحة عارمة وسعادة حقيقية تغمـر قلوب الأهالي في الأزقة والأسـواق، بينما سعى مقاتلو الحرس والجيش والتعبئة لأخذ مأذونيّة لأيـام عـدّة، ولينقلوا حصّتهـم من حـلاوة النصر في معركـة الأيام العشرة إلى مدنهم وقراهم، ويقسّموها بين أهاليهم وأصدقائهم.

1- عندمـا سقطـت مدينة خرمشهـر بيد قوات صـدام، وتعرّضت لأشد العـذاب والعناء، أطلق عليهـا اسـم «خونين شهـر» أي المدينة الدامية، بعـد أن كان اسمها يعني المدينـة الخضراء أو المدينة الزاهرة (المترجم).

أمـا فرحتنا فكانت تقتصر على النظر إلى خريطة عمليات «الفتح المبـين» الكبيرة، المعلقة على الجدار في غرفـة الحرب في مقر القيادة بالغولـف، كنّا ننظر إليها بإمعـان قبل أن نحـوّل أنظارنا إلى خريطة خرمشهر، كنّا نشعر بالراحة والاطمئنان، فنتنفّس الصعداء، ولا سيّما عند النظر إلى العلامات الحمراء التي تشير إلى المناطق المحررة.

أتذكـر أن أحدًا منـا لم يكن ليدّعي التعب، فكل القـادة كانوا على رأي واحد، علينا أن لا نمهل العدو، وأن لا نهدر فرصة الإمساك بزمام المبادرة التي لم نحصل عليها في الحرب إلا بعد مرارات كثيرة.

طبعًـا، منـذ البدايـة كان معلومًا لـدى الجميع أن ظـروف معركة خرمشهـر مختلفة وصعبـة، وهي بحاجة إلى تخطيـط خاص، وإدارة قويـة، وقـوات كثيرة، واستعـداد أكـبر، وكان واضحًا لدينـا أن العدو يدرك جيدًا أن هدفنا القادم سيكون غرب نهر كارون وخرمشهر. كما كنـا نعلـم أنّه لا يتوقع أن نشنّ هجومًا كبـيرًا آخر خلال مدة قصيرة، لأنـه كان يرى ذلك خـارج إطار قدرتنا وإمكاناتنـا، وقد استنتج ذلك مـن سلوكنا، ومـن الفاصل الزمني الـذي استغرق ثمانيـة أشهر بين عمليـات ««ثامن الأئمة»» و«الفتـح المبين». فكان علينـا الاستفادة من أصـل المباغتـة، وأن نستغل الفرصة الناشئة مـن دهشة العدو لسرعة تحركنا خلال عمليات «الفتح المبين».

أمـا حماة صـدام الإقليميـون والدوليون، فقد كانوا علـى يقين أنّ خرمشهر هي الورقة الرابحـة بيد صدام، وأنه لن يفرّط بها بسهولة. لذلـك ركّزوا كل قدراتهم السياسيـة والإعلامية على دعمه العسكري العلنـي والسـرّي، ليوحـوا لنـا أنّ الانتصـار في هذه المعركـة هو أمر مستحيل، ولن يتحقّق.

لقد أراد كل هؤلاء أن تبقى خرمشهر رازحةً تحت الاحتلال؛ ليتمكنوا من زيادة الدعم لصدام، واستنفاد الآلة الحربية الضخمة التي تستهدف إيران واستهلاكها. لذلك كان صدّام يردّد حينها: «إذا أخذ الإيرانيون خرمشهر، فسنعطيهم مفتاح البصرة».

كان صدّام يدّعي أنه ذكي عسكريًا، لكنه خلافًا لذلك الادعاء لم يدرك أبعاد هزيمته في عمليات «الفتح المبين»، وحسب المثل الذي يطلقه أهالي شيراز: لم يلمس الهواء جرحه بعد. كان عليه أن يدرك أن غيرتنا قد تحركت، وصبرنا على رؤية خرمشهر أسيرة قد نفد، فواقع الأمر هو أن الانتصارات الحتمية في عبادان و«دشت عباس» قد علمتنا أن خرمشهر أيضًا ستتحرّر، لكن بهمة أقوى وعزم أكبر.

خلال اجتماعات الغولف، كانت هناك روح واحدة تشع من أبدان القادة جميعًا، وعلى الرغم من النقاشات الكثيرة التي خضناها، فإنّ النتيجة التي توصلنا إليها واتفقنا عليها سريعًا هي أنّ علينا أن نقوم، خلال شهر واحد، بإكمال البنية المشتركة للجيش والحرس في إطار المقرات الأربعة، وتقوية ودعم الوحدات وتجهيزها، وتجديد القوات، ودراسة خطط العمليات بدقة أكثر. أما القرار النهائي لانطلاق العمليات فقد أوكله القادة إلى الأخوين محسن رضائي وصياد الشيرازي، وقالوا لهما: «إنّ اللحية والمقص بأيديكما، ونحن جاهزون مطيعون».

كنّا جميعًا نعلم أنّ علينا الصبر لمدة شهر، لنتّجه إلى المنطقة بعد ذلك، لئلّا نضطر إلى جمع القوّات المقاتلة مرات عدة للشرح والتوجيه، كما حصل في العمليات السابقة. كنّا نعلم أن الحديث عن خرمشهر كان يملأ الأجواء كلها، وإيران بأبنائها وقادتها كافة تنتظر خبر تحرير زهرة المدن الإيرانية.

بعد أن عقدنا أحـد الاجتماعات، طلب منّي رشيد أن أتوجّه برفقة أصغر كاظمي مسـؤول العمليات؛ لنبحث عن مكان مناسب لمقر قيادة الفتـح، تجاوزنا مسافـة (50) كلم عن الأهواز باتجـاه عبادان، حتى وصلنـا إلى أطراف قرية «الخضرية» شرقي نهـر كارون، القريبة من منطقة عمليات «الفتح المبين».

استغرق الأمر مدة كافية من الصباح حتى العصر، قمنا بجولة في المنطقـة واخترنا مكانًا يبعد عن نهـر كارون مسافة (5) كلم، مجاورًا للطريـق العام، تستتر خلفه أشجـار النخيل، وتقع بالقرب منه محطة اتصـالات هاتفية، ورأينا أنّ هذا المكان لا يعاني من مشاكل أمنية، ولا انقطاع في الاتصالات والمواصلات.

في اليوم التالي، زار الأخ رشيد المنطقة ووافق على اعتمادها مقرًّا. لكننا عندما بدأنا الاتصالات بالأجهزة والطلب من مجموعة أشخاص ليأتـوا ونبدأ أعمال تجهيز المقر، سمعنا صوت هدير مروحيّة، اقتربت مـن مكاننـا وهبطت قربنـا، وأثارت عاصفـة من الغبـار، فاستغربنا مجيء هذا الوحش المعدني في هذا الوقت.

هـدأت العاصفـة وانفتح بـاب المروحيّة، وخرج منهـا الأخ محسن رضائـي مهرولًا نحونا، وقبـل أن يتوقف محرك الطائـرة، نهض الأخ رشيد قائلًا: «يا سيد محسن ما الذي جاء بك إلى هنا؟».

ابتسـم محسن وقال: «من الواضـح أنّنا حدّدنا هذا المكان لاتّخاذه مركزًا للقيادة العامة، لكنّكم ماذا تفعلون هنا في أرضنا؟».

قلت: «يا إلهي، إننا هنا منذ يومين، نبحث في كل ناحية، حتى عثرنا على هذا المكان لإقامة مقر الفتح عليه».

ضحك محسن مجدّدًا، وربّت على كتفي، وقال: «يا أخ أسدي، الأمر

المتوافر كثيرًا هنا هو الأرض».

نظـرت إلى رشيد الذي مسح بيـده على لحيته ونظر إلى المروحيّة، ثـم إلى محسن، وقال بلهجة من استسلـم: «لا بأس، عن إذنكم سوف نذهب!».

لم نكـن راضـين عمّا حصل، لكن مـاذا نفعل، فـالآداب العسكرية تفرضـ أن لا يحصل ردّ فعل وأن نقبل بما تقرّر، وهذا المكان ليس لنا. لكنّنا بالطبع لم نبذل جهدًا كبيرًا حتى وجدنا مكانًا أفضل من سابقه ويقع على بُعد كيلومترات منه.

قلت لرشيد: «علينا أن نتحرك سريعًا قبل أن يأتي من يدّعي ملكيّة هذا المكان أيضًا».

وقبـل أن نكمل الأسبوع، كان الإخوة في سـلاح الهندسة قد جهّزوا المـكان والطريق المؤدي إليه، ورُفع عمـود الاتصالات. كما نشر الإخوة في أجهـزة الدعـم والمسانـدة ووحـدة المدفعية أعتدتهـم، حتى غرفة القيادة أصبحت مهيّأة لعقد الاجتماعات مع الوحدات.

في الخامس مـن نيسان عام 1982، حقّقنا استقـرارًا تامًّا، استمرّ حتـى التاسـع والعشرين منه، أي يـوم بدء العمليـات، وفي تلك المدة، كانت مهمتنا منحصرة في الذهاب إلى مقرّ القيادة، وعقد اجتماعات متواصلـة مع قـادة ألويـة: الإمام الحسـين عليه السلام، النجـف الأشرف، كربـلاء25 من قوات الحرس. والفرقـة 92، واللواء 37، واللواء 55 من القوات المحمولة جوًّا من الجيش.

ليلـة 29 نيسان، حدّدنـا على الخريطة أماكن نصـب ثلاثة جسور على نهـر كارون، الأوّل في منطقتنا في مقـر الفتح، والثاني في منطقة مقـر النصر الواقـع إلى يميننا، والثالـث ينصب بـين المقرّين. وقام

العقيد «مسعود»[1] قائد الفرقة 92 المدرعة، ونائب الأخ رشيد في المقر بتحريك كتيبة التمويه ليتمكّنوا من نصب تلك الجسور.

مسألة نصب الجسور المسمّاة PMP، لها قصة طويلة وتستحقّ أن تُدوّن في كتاب خاص بها، فهي تبيّن تفاصيل مهمّة الإخوة في الجيش حول هذه المسألة. وللمرة الأولى، كنت أراقب عن قرب كيف يقومون بوصل القطع التي سيتكوّن منها الجسر، بعضها مع بعض، وكانوا يطلقون عليها اسم «المسطّحة»، ومنها يُعدّون جسرًا بطول 300م، وبفترة زمنية لا تتجاوز الساعتين فقط.

في الجهة المقابلة من النهر، ضخّ العراقيون الماء إلى الشاطئ ليصبح مستنقعًا ضحلًا، وحافظوا على خط المواجهة بموانع أقاموها، كانت شبيهة بالمراكز الحدودية المحصّنة، كما قامت وحدات العدو برفع سواتر ترابية عالية على بعد (7) كلم من النهر. لكن مباغتتنا بالهجوم لم تمهلهم لإكمالها، فبقيت غير مكتملة، واخترنا النقاط التي لا توجد مقابلها قوات للعدو لنصب الجسور فيها. قمنا بعملنا في صمت مطبق، وفي أماكن كانت أقل ضحالة لنتمكّن من العبور إلى الجانب الآخر من النهر، هذه المشكلة حلّتها فرق الاستطلاع بتحديد أماكن العبور.

استخدمت قوات الجيش شاحنات الكروس الضخمة في خطة أمنية دقيقة، بعيدًا عن أعين العدو والطابور الخامس، فنقلت بواسطتها

1- الشهيد مسعود منفرد نياكي، ولد في آمل عام 1929م من قادة الجيش المحبّبين، كان من جملة الأوائل في الجيش، وله دور كبير في انتصارات الحرب، خاصة في عمليات بيت المقدس، كان قائدًا جديرًا وفعالًا، ورغم كونه أكبرهم سنًا، لكنه لم يترك الجبهة في أصعب الظروف. خلال عمليات بيت المقدس أخبروه أن ابنته التي يحبها كثيرًا مريضة، لكنه رفض ترك الجبهة، وبعد شهرين توفي ابنه، لكنه لم يذهب إلى طهران للمشاركة في تشييعه. حتى نال الشهادة في 1985/8/27م خلال مناورات جبلية لفرقة ذو الفقار للمغاوير بالذخيرة الحية.

(1200) مـتر من المسطحات مـن شمال محافظة خوزستان إلى شرق نهـر كارون، وهـي مسافـة تصـل إلى (250) كلم وأخفتهـا في بعض الأماكن قرب النهر.

هذه المسطحات لم تكن جديدة، فقبل الإتيان بها قاموا بإصلاحها وتأهيلهـا في مستودعـات الجيشـ، لتكـون جاهزة عندمـا تصل إلى شاطئ نهر كارون.

ليلـة تنفيذ العمليات، واستفادةً من العتمــة، تحرّك ضباط وجنود الجيش لنصب الجسور سريعًا.

كانـت كل قطعة من المسطّحـات تتشكّل من ثـلاث طبقات، توضع على الضفّة، وتدفعها آليةً باتجاه النهر، وعندما تفلتها تفتح الطبقات الثلاث في الماء، ثم تُلقى القطعة الثانية، وهي تحمل مجموعة أشخاص في النهر، ويقوم هؤلاء بوصلها مع الطبقات الأولى وهكذا، حتى يكتمل بناء الجسر.

في حـين يشرف مهندسو الجيشـ على تلك العمليــة بدقة ليتمّ كل شـيء طبق التقييـم الأوّلي. استمرت عملية وصـل المسطحات بعضها ببعضـ لمدة ساعة ونصف، وأصبـح أمامنا جسر مكتمل بطول (250) مترًا، لكنه ما زال عند ضفّة النهر، عندها أصدر المهندسون أمرًا بأن يقـوم عدد من الأفراد باستخدام أحـد الزوارق لسحب طرف الجسر إلى الضفّـة الأخرى من النهر، مستفيدين مـن تيار المياه. وبهذا، نقل طرف الجسـر بسرعة إلى الضفة الثانية، وتمكّنـوا من تثبيته هنـاك، فصـار الجسر يصل بـين ضفتين، ولكي لا يحطـم تدفّق الماء الجاري الجسر، مـدّ فريق الهندسة أسـلاكًا معدنيّة قويـة - تستخدم لسحب الآليات الثقيلة - على طول الجسر، وربطوها بالضفة الأخرى.

بــات كل جسر من هذه الجسور الثلاثة جاهزًا –قبل ساعة من بدء العمليــات- ليحمل على ظهــره 60 طنًّا، كمــا إنّ الشاحنات التي تحمل الدبابات يمكنها عبوره، لكن مهمة الإخوة النشيطين في الجيش لم تنتهِ.

طوال شهر، ظلّت هذه الجسور تمتدّ وتسحب فوق النهر، فالمقاتلات المعاديــة كانــت تقصف المنطقــة يوميًا، وتحاول تدمــير تلك الجسور، لكنهــم لم يدركوا أننا نستخدم الجسور ليلًا فقط، وما إن يبزغ الفجر حتى يقوم الإخوة بسحب الجســور عبر الأسلاك المعدنية إلى ضفّتنا، ويقومــون بتغطيتهــا بسواتــر عشبية بحيــث لا تتمكن طائــرات العدو الحربية من رؤيتها، فتنال منها طوال مدة العمليات.

شهــر كامل تظافــرت فيه جهود الجميــع لتحقيق عنصــر مباغتة العدو، من خــلال جهوزية الوحدات بدءًا من تأمــين الطعام والمنامة، وصولًا إلى موعد بدء عمليات «بيت المقدس».

## الشجار انطلق

قبل ساعة من الإعلان عن الهجوم، عبرت الوحدات القتالية الجسر، وتمركزت في نقاط خالية من قوات العدو. لقد جرى عبور القوات فوق نهر كارون بهدوء، بحيث لم يلتفت إلى ذلك أي من عناصر الكمائن المعادية وقواتهم المتقدمة.

مع اللحظات الأولى لفجر يوم 29 نيسان، صدر أمر الهجوم من القيادة المركزية، فتفاجأت قوات العدو، وكان معظمهم نائمًا، فدبّت الفوضى في أوساطهم، فمنهم من هرب، ومنهم من هام على وجهه، ومنهم من رفع يديه مستسلمًا، بينما كانت بعض الرشاشات الثقيلة تطلق النار عشوائيًّا، فردّ عليها الإخوة بالأسلحة المناسبة وبقذائف (B7)، وأسكتوها.

لم تجرِ الأمور مع المحورين الآخرين كما جرت معنا، فكان تقدّم محور مقرّ «النصر» بطيئًا، أما محور مقر «القدس» الشمالي فلم يتقدم أي خطوة، لأنّ القوات المعادية، كانت متمركزة في تلك المنطقة بكثافة، فالعدو كان يتوقع أن يشنّ الهجوم المحتمل من ذلك المحور، ولذا لم يحصل شيء إلى الشرق من نهر كارون.

أما نحن فقد قضينا الليلة الأولى من الهجوم حتى الصباح من دون حوادث تذكر، وبقينا ننتظر باقي الوحدات لملاقاتنا، بعد أن

تحقّق تقدّمها.

كانــت الأوامر تقضي أن نتقدم في الليلــة الأولى بشكل محدود بعد عبــور النهر، لكــن قواتنا اندفعــت بسرعة، وتقدمــت مسافة عشرين كيلومترًا حتى وصلت إلى طريق الأهواز–خرمشهر، بينما كانت الأوامر أن نتقدم مسافة (5–6 كلم). فوقعنا في الحيرة والدهشة، إذ إنّ العدو لم يكــن يتوقــع أن نصــل إلى الطريق العــام بسرعة، فأضحــت قوّاته غــرب الطريق ونحن شرقــه، ويفصل بيننا ساتر ترابــي عالٍ بارتفاع (7–8) أمتــار، كانوا قد أخفوا آليّاتهم خلفه احترازًا من مراقبتنا له، ولمنعنا مــن استهدافها من شرق النهر بالصواريــخ أو المدفعية. ولذا، فــإنّ القوات الخلفية للعدو كانــت جاهلة بما حدث، وكانوا يمرون على الطريق باطمئنان، ويقعون في أسر قواتنا.

صباحًــا، قمــت بجولــة في المنطقة علــى الدراجة الناريــة، وجدت أن عــدّة ألوية مــن قواتنا قد تجمّعت داخل مساحــة (500م) بانتظار الأوامــر، بينمــا القوات المعاديــة لم تكن قــد استوعبــت الصدمة، أو تمكّنت من الاستعداد للرد، باستثنــاء إطلاق بعض القذائف المدفعية والرشقات النارية.

وصلــتُ إلى ذلــك التجمع، أوقفــت الدراجة جانبًــا، ودخلت بينهم صارخًا أطلب منهم الانتشار على الخط المواجه استعدادًا للدفاع عنه، لكــن بُحّت حنجرتي من الصراخ من دون نتيجة، ولم أستطع إفهامهم أنهــم الآن موجودون في نقطة خطرة، وأنّ عليهم الانتشار على مسافة 10 كلــم حسب أوامر القيادة، لكني لم أجــد آذانًا صاغية، وإن بدا في الظاهــر أنهم سمعوا مــا طلبت، لكنهم عمليًّا لم يأبهــوا للانتشار، بل كان البعض يقول: «دعنا نرتاح قليلًا ثم ننتشر».

عدت أدراجي وركبت الدراجة مسرعًا نحو المقر، وأبلغت الأخ رشيد

بالوضـع، فحمـل الجهاز وشرع بالصـراخ طالبًا من قـادة الوحدات: «انتشـروا سريعًا قبل أن يقوم العدو بالالتفـاف عليكم ومحاصرتكم، عليكم تغطية خط المواجهة لمسافة (10) كلم!».

مـا إن بدأت قواتنـا بالانتشار حتى بدأ العدو بالـرد، وتولّى الإخوة «أحمـد كاظمـي» و«حسين خـرازي» و«مرتضـى قرباني» قيـادة صدّ الهجـوم المعـادي. وعندما عدت من جديد إلى خـط المواجهة، وجدت الكثـير من قواتنا بين جريح وشهيد. فاعتليـت الساتر الترابي لأتفقّد الجانـب الآخر، وجدت الطريـق مليئًا بالدبابات المدمـرة والمحترقة، وجثثًـا كثيرة للعـدو منتشرة حولها، فلـم أصـدق أن كل هذا من فعل قواتنا المتعبة المرهقة التي كانت قد قاتلت ليلًا أيضًا.

بعـد ساعـة من صد الهجـوم وإفشالـه، وصلت القـوات الداعمة، واطمأننّـا إلى أنّنـا خلال المرحلـة الأولى استطعنـا أن نحسم المعركة لمصلحتنا بأقل الخسائر الممكنة.

إنّ معركتنـا الحقيقيـة مع العـدو لاسترداد خرمشهـر لم تكن قد بـدأت بعد، ذلك أنّ تقدّمنا كان نحو الغـرب وليس نحو الجنوب حيث تقـع خرمشهـر. وكان علينا في المرحلـة الثانية أن نتقـدم بقوات مقر «القدس» القادمة من الجبهة الشمالية. بينما كان العدو يبذل قصارى جهده لمنع حصول هذا اللقاء، لأنه يدرك جيدًا أن وجهتنا النهائية هي خرمشهر.

طبـق الخطّة، فـإن عمليات «بيـت المقدس» كانت ستتـمّ على أربع مراحـل، وكل مرحلـة تحـدد مـدى تقدمنا، ومتـى نصـل إلى نواحي خرمشهـر. لكـن هـذه العمليـات طالـت واستغرقـت (24) يومًا من المواجهة المستمرة، ففي كل ليلة كان هناك هجوم وتقدم نحو خرمشهر لعـدة كيلومترات، طبعًا من دون وجود سواتر ثابتة في المنطقة، كما إنّ

الطعـام لم يكـن يصل في أوقاته المحددة ولا بكميـات كافية، ولا توجد أي فرصـة للاستحمـام وتجنّب آثار الأتربة والغبـار، ولا توجد أماكن للاستراحـة، فكانـت الأرض فراش الإخوة والسمـاء لحافهم. تغيرت ملامـح الجميع، لم يعـد حتى الأصدقـاء يعرفون بعضهـم بعضًا من قساوة تلك الظروف التي يواجهونها.

رأيـت أحـد المقاتلـين يحمـل قـاذف (B7) متجهًا نحـو الدبابات العراقيـة. أعجبتنـي خطواته الثابتـة وطريقة مشيـه، فناديته قائلًا: «قـوّاك اللّه يا أخي». عندمـا عاد، نظر إليّ وقال: «كيـف حالك يا أخ أسـدي؟». نظرت إليه جيدًا، فإذا هو السيد «محمد كد خدا» من قادة لـواء الإمـام السجـاد عليه السلام، وكان موجـودًا معنا لفـترة في فارسيات -واستشهد فيما بعد في عمليات كربلاء الخامسة- تحول رداؤه الأخضر إلى أسود بسبب الغبار والعرق، ووجهه وشعر رأسه قد غطاهما الغبار بطبقـة سميكـة، والشيء الوحيد الذي كان يُرى مـن وجهه هو أسنانه البيضاء عندما يضحك، فكانت لا تزال بمأمن من الغبار.

لم أتوقـف عن التفكير بهيئة السيد «محمد كد خدا» إلى أن التقيت «نبـي رودكي» قائد لواء الإمام السجاد عليه السلام فقلـت له لائمًا: «ما هذا يا حاج؟ هل وصل الوضع إلى حد أن يحمل السيد محمد قاذف (B7) على كتفه؟!».

فأجـاب وهو يرمي على العدو برصاصـ بندقيته: «عزيزي، من منّا بقـي في مكانـه، ليبقى السيد محمـد مكانه؟! إنك تـرى أننا فقدنا كل شيء، وليس لدينا مكان ثابت لإدارة القوات، ولم نعد نسيطر على أحد».

بعـد بدء العمليات بثلاثة أيام، ناديت أخي صالحًا لنتوجّه معًا إلى منطقـة الحسينيـة للاطلاع على أوضـاع الوحدات. كنـا لا نزال عند الطريق المجاور للمستنقعات، وبعيدين عن طريق «الأهواز- خرمشهر»

عندما رأيت خمس طائرات مروحية تحوم على بعد (300) م، أخرجت رأسي من السيارة لأنظر إليها، وقلت لصالح: «هذه طائراتنا لقد اقتربت من العدو كثيرًا، قد يرونها ويطلقون النار عليها بسهولة». وقبل أن أكمل ناداني صالح بصوت يظهر منه الخوف والدهشة: «أخي العزيز، صاروخ، صاروخ، إنها طائرات معادية، وإحداها أطلقت باتجاهنا».

فورًا، ضغطت على دواسة البنزين، ومرّ الصاروخ خلف السيارة بأمتار معدودة، فابتعدت بسرعة عن الطريق، لكنّ الصاروخ الثاني أصاب شاحنة نقل المياه التي تبعد عنا خمسين مترًا، وكانت ترش الطريق الترابي بالماء حتى لا يتصاعد الغبار، فاحترقت كليًّا. أكملت طريقي بسرعة جنونية والغبار يرتفع خلف السيارة حتى وصلنا قرب الطريق العام، حيث كان ينتظرنا مشهد آخر لا يصدّق.

شاحنة تويوتا صغيرة قادمة من طريق «الأهواز - خرمشهر» تسير على الإسفلت، وتحاول أن تميل عن الطريق، كان يركب إلى جانب السائق ثلاثة إخوة، ويجلس في الخلف عشرون شخصًا تقريبًا. كل هؤلاء في سيارة واحدة، ولم يكن الأمر عجيبًا، فهذا هو حال الإخوة المقاتلين، لكن العجيب هو أن السيارة بمجرد أن أصبحت وسط الطريق حتى أطلقت مروحية معادية نحوها صاروخًا، فرأينا ما يشيب منه الإنسان، لقد دخل الصاروخ من نافذة السائق فقُطع أنفه من سلك «صاروخ المالوتكا» وأصيبت يد من كان إلى جانبه من الإخوة الثلاثة، وخرج الصاروخ من النافذة الأخرى. حصل كل ذلك خلال ثوانٍ؛ السيارة دُمّرت، وقفز الشباب منها كل واحد باتجاه.

أدركتُ قواتنا أنّ المروحيات معادية، فباشروا بإطلاق النار عليها وإبعادها. وصلتُ إلى أحد الجرحى، كانت يده متدلية من كتفه، وهو

يحاول فصلها عن جسمه وهو ينادي «يا زهراء»، كان كلّ بدنه ملطّخًا بالدماء، فجمعنا كوفيات وربطنا عضده بها لنوقف النزيف.

وضعُ السائق كان سيّئًا أيضًا، وجهه غارق بالدماء، لكنه ليس في حال خطرة، ذهب أحد الإخوة وأحضر سيارة لنقل الجرحى إلى الطبابة، فتحنا مطرات الماء ورششنا الماء على رؤوس الجرحى، وقبّلناهم في الرأس والوجه..

خلال أيام المعمعة هذه، كان عليّ أن أستخدم الدراجة النارية كل يوم للقيام بجولة تفقّدية على قواتنا؛ أحضر بينهم، وأتفقّد المنطقة ومسار التقدم نحو خرمشهر. كانت تصادفني هناك حوادث ومناظر مؤلمة، وأرى حالات صمود وبطولات مفرحة، كانت تترك آثارها في نفسي وسط هذه الصحراء الواسعة؛ خلال جولاتي وحيدًا، كانت كمن يضع النقاط على الصفحة الورقية البيضاء.

وفي إحدى تلك الجولات، لفتَ نظري شيء أسود رأيته من بعيد، وعندما اقتربت نحوه فإذا به أحد المقاتلين ملقًى على الأرض بعيدًا عن باقي القوات. شكل ولون ملابسه وسلاحه ينبئ أنه من قوات التعبئة. وكأنّ الصحراء قد حُرثت فأخرجته من بطنها؛ بدنٌ وُضع في حفرة، رجلاه منفرجتان، يده اليسرى تحت جسده، ويمناه خلف رأسه. لم أشك لحظة أنه قد استشهد، أطفأت محرك الدراجة وتوجهت نحوه مسرعًا، سحبت يديه من تحت جسده ومن خلف رأسه، كذلك مددت رجليه، كان العرق والتراب عالقين على قدميه وجواربه، وكأنه سار في الصحراء كلها حافيًا، وحذاؤه مرميًّا إلى جانبه. رفعت رأسه، ونظفت وجهه من التراب، فرأيت على بُعد مترين منه هناك حبة شمام صغيرة مرمية، تحسّرت عليه، وقلت: «ليته تناولها قبل شهادته». لكني ما إن مددت يدي نحوها، حتى قال بصوت خافت: «دعها، أنا أريدها».

صعقــت من سماع صوتــه، فنفرت إلى الخلف قليــلًا، ثم اقتربت منه ثانية وقلت ضاحكًا:

- هل أنت حي؟!
- طبعًا، وهل عثرت على رزق مات صاحبه؟!
- لا شأن لي بها، لكن لماذا أنت مرمي هنا وبهذا الشكل المزري؟
- لم أنم منذ ثلاثة أيام.

قبــل أن أتركه سألته: «هل تريد أن أشقّها لك، وألقمك إياها؟»، لم يــردّ، بل غرق في نوم عميق، ولم يعــد يسمعني. تركته، وأخبرت أفراد كتيبته ليذهبوا ويحضروه.

## تحمل اللسع لتذوق العسل

لم يتوانَ الجيش عن تسخير كل ما لديه من إمكانات وقوات، وأما الحرس والتعبئة فقد كانوا في الهضبة، لكنّنا كلما اقتربنا من يوم الحسم الموعود؛ تبيّن لنا وجود الثغرات ونقص الاحتياجات الضرورية. فالقوات التي كانت جاهزة وعلى أتمّ الاستعداد في الأيام الماضية، أضحت اليوم تعبة ومرهقة. كما إنّ الإمكانات تراجعت، والذخيرة صارت محدودة، وطبيعة الهضبة المنبسطة كانت واسعة جدًا. أما قوات العدو التي تقهقرت، فتجمعت كلّها في مدينة خرمشهر، فغمرنا القلق والارتياب حول الطريقة التي سننهي بها الأمر.

التحقتْ بنا وحدات قتالية قدمت من الجبهة الشمالية، فبادرنا بهجمات مستمرة طيلة الأسبوع، واقتربنا من مدينة خرمشهر. مضت ثلاثة أسابيع خضنا خلالها عشرات المواجهات الصعبة المتلاحقة، وتقدمنا ببطء حتى وصلنا إلى المرحلة النهائية، وأضحت خرمشهر محاصرة، ونحن نتهيأ للهجوم الأخير.

بعد ثلاثة أسابيع من الحرب الطاحنة، «بلغ كفكيرنا قعر الطنجرة» كما يقول المثل المعروف، وكنا متعبين للغاية، لكن لحسن حظنا لم يتسرّب هذا الوهن إلى روح الجهاد والإيمان لدى قواتنا، إنما انعدمت الثقة بالنفس عند العدو، بسبب عدم توقعهم لما حدث، فالعدو لم

يكن يتصور أننــا نريد تحرير كل تلك المناطق فضلًا عن خرمشهر في العمليــات ذاتها، بل كان يظن أننــا بحاجة إلى عمليات كبيرة للوصول إلى خرمشهـر، والسعــي لتحريرها، وهذا قد يحتــاج حسب الظروف العاديــة للحروب الكلاسيكية وعقيدة قــوات العدو إلى سنة كاملة، ولا يمكن أن يتمّ بعملية واحدة.

وهــذا الظــنّ قد يكــون في محلّه، لو جــرت العمليــات حسب عقيدة الجيوش التقليديــة، لأن مساحة منطقة غرب نهر كارون إلى خرمشهر تعــادل 30 ضعفَ منطقة عمليــات «ثامن الأئمــة»، و10 أضعاف منطقة عمليات «طريق القدس»، وضعف منطقة عمليات «الفتح المبين» الشاسعة.

وأهــم من ذلك كلّه، أنّ العدو لم يتصــوّر أنّنا سنتمكّن خلال شهر واحــد من أن نعيد تجهيز وترميم وحداتنا بعد عمليات «الفتح المبين». لذا، فإنّه وقع في خطــأ فادح، وغفلة قاتلة في تقييمه وإدراكه لخططنا التكتيكيــة. وحاول خــلال 24 يومًا أن يرصد وضعنــا بدقة ليتمكّن من مواجهــة أي هجــوم نقوم به. لكنّنــا على الرغم من التعــب والإرهاق، استطعنــا أن نسترجع منطقة واسعة بعمليــة واحدة فاقت قدرتنا على استيعابها، حيث كان اعتمادنا على قواتنا التي لم تُظهِر التململ، لا في صفوف القادة ولا في صفوف الأفراد.

إنّ فرحة حصار خرمشهر أنستنا كل ذلك، وكما قال القدماء: «إذا أردت تذوّق طعم العسل، عليك تحمّل لسعات النحل».

عنــد الساعة الخامسة عصر يوم (22 أيار)، طلب منّي الأخ رشيد أن أحمــل رسالة إلى الأخوين: «أحمــد الكاظمي»، و«حسين الخرازي» مفادها أن عليهما مهاجمة خطوط العدو الليلة، حتى لو تمّ ذلك بكتيبة واحــدة لمنعه من الاستقرار. وأكد رشيد في طلبه: «لا تدعوهم ينامون، وإلا فسيرهقوننا غدًا».

كان رشيد قلقًا من وجود 35000 مقاتل، عديد العدو في خرمشهر، خشية أن يقوموا فجأةً بمحاولة لفك الحصار، بينما لا تزال قواتنا مرهقة.

توجهت إلى الخط الأمامي على الدراجة النارية، وقبل أن أصل إلى أحمد، وبالقرب من أحد كتائبه سقطت قذيفة مدفعية، أفقدتني شدة انفجارها توازني، وطرتُ عن الدراجة لأسقط أرضًا. وعندما نهضت وجدت أن ثلاثة من الإخوة قد استشهدوا، وأنّ عشرة منهم قد جرحوا. هرع كثير من الإخوة لمساعدة الجرحى، فسقطت قذيفة ثانية، ووصل قائد الكتيبة مسرعًا، وطلب عبر الجهاز من سيارات الإسعاف الحضور سريعًا.

عندما لم يتلقّ جوابًا، طلب من المسعفين البقاء إلى جانب الجرحى، ومن الآخرين جميعًا اللحاق به، فاقتربت منه وطالبته بأن يسمح للآخرين أن يساهموا في إسعاف الجرحى، سألني:

- من أنت؟

- أنا عبد من عبيد الله.

- عبد الله، ألا ترى أن قذائف المدفعية تتساقط علينا؟ هل تريد أن يصاب هؤلاء أيضًا؟ بينما أُمرنا أن نشنّ هجومًا هذه الليلة على العدو، ونسلبه طعم النوم من عيونه. فإذا كنّا سنستشهد فليكن ذلك في المواجهة، وليس هنا!

وقبل أن يستمع لجوابي، عاد وطلب من قواته اللحاق به.

وزّع قائد الكتيبة المقاتلين على بعض الحفر الصغيرة التي كانت معدّة لتجنّب قذائف المدفعية والهاون. كان يتحرك بين المقاتلين، ويعطي التوجيهات باهتمامٍ بالغ، وكنت أسير خلفه، بينما التفتَ إليّ وقال:

- بعد ساعة سنهاجم خطوط العدو، ونسرق النوم من عيونهم.

تساءلت في نفسي: ماذا أفعل هنا؟ هؤلاء مدركون لما يتطلّبه الموقف جيدًا، لذا أبيتُ أن أخبره أنني إذا لم أتمكن من رؤية أحمد ولم تصلكم أوامر منه، فاسلبوا العدو النوم من أعينه. ركبتُ دراجتي، فناداني قائد الكتيبة بصوت عالٍ:

- لا تقلق يا حاج، وادعُ لنا.

خلال مسيري، كنت مسرورًا لأنني عرفت ما أظهره قائد الكتيبة من فهم ودراية لمجريات المعركة، فانطلقتُ مطمئنًّا بأقصى سرعة، وأنا أستعيد ما حصل عندما كنت سائرًا خلف القائد للاعتراض على منع الآخرين من مساعدة الجرحى. أذكر أنني سمعت أحد أفراد التعبئة يناجي ربّه، فأصغيت لأسمعه جيدًا وخفّفت من خطواتي. كان شابًّا في مقتبل العمر، القبعة الحديدية فوق رأسه تهتز، وهو يدعو بحرقة شديدة ويكلّم صاحب الزمان كأنه موجود أمامه: «سيدي الحبيب، أولسنا على الحق؟ أغثنا، حبًّا لك.. لقد سلبونا النوم ليالي عدة. سيدي الحبيب لقد تعبنا، وها هم شبابنا يتناثرون أشلاءً الواحد تلو الآخر، أما آن الأوان لتغيثنا؟».

كان لأسلوبنا القتالي في الدفاع المقدس خصائصه الفريدة، لكن حربنا هي كباقي الحروب في كثير من أوضاعها، فهي تعتمد الأسس المتبعة عادةً في الحروب، وما يلزم من وضع خطّة واتباع تكتيك معيّن، وما يفرضه الواقع من إدارة وتنظيم، ثم الإشراف من قبل قيادة القوات وإصدار الأوامر والتوجيهات، وإنشاء فريق يعمل إلى جانب المقاتلين يتولى مهمة التشجيع والتبليغ المعنوي.

في تلك الليلة، رأيت بعيني كل ذلك المسار يتحقّق، في كتيبة عمليات.

فــالإدراك العالي للقائــد أرشده إلى تمام الخطــة وإلى تحديد موعد الهجــوم. ووجدت أنّ المقاتل هو الــذي يرفع معنوياته بنفسه في خضم المعمعة عندما يحتاج للمعنويات.

هذه الأمور كلّها، إلى جانب الروح الملحمية للشعب هي التي أرهبت النظــام العراقي والقوى الكبرى التي شنــت ضدنا حربها طيلة ثماني سنوات، فخارت قواها بدل أن ترهقنا نحن.

عندمــا عثرت على «أحمد كاظمــي»، لم أعد إلى المقر بل بقيت بين الإخــوة. في تلــك الليلة، لم تنم أعيننا كي لا تنــام أعين أعدائنا، وكما طلبت القيــادة، أبقينا قوات العدو صاحية حتى الصباح. كان النعاس يغشــي الإخوة ويثقلهم، لكنّهم لم يدعوه يعسكر فيهم، وأبت تلك الليلة إلا أن تمضي ببطء شديد.

ولشدة خوف العدو، أفرغ كل قذائفه في الصحراء واستمرّ بقصفه حتى الصباح، ولم يدرِ أنّ هذا ما كنا نسعى إليه. كان علينا أن نرهقه، فالخطوط الحمــراء للرصاص الخطاط، وصــوت الرشاشات الثقيلة لم تنقطــع طوال الليل. هذا الوضع أظهر لنــا بشائر النصر، وزاد من آمالنا في رؤية خرمشهر ثانية.

عنــد الصبــاح، كما توقعنــا، لم ينفّذ العدو هجومًــا، وتمكنت فرق الرصــد والحراســة من المراقبــة بسهولة مــن داخل بساتــين النخيل بمناظيرهم، فبشّرونا بــأنّ الأمور تجري كما توقّعنا، ولتُصدِر القيادة أمرها بالهجوم النهائي.

عنــد الظهــر، وصلــت إلى المقــر الرئيســي في محطة «نيمــه نود». كان قــادة الحــرب الرئيسيــون هنــاك -كـ«محسن رضائــي» و«صياد الشيرازي»- قد اجتمعوا حول خريطة كبيرة يتفقّدون الوضع. كان يوم

23 أيــار، وكانــوا يبحثون في كيفيــة توزيع قوات الدعم علــى كل كتيبة تحتــاج إليها، بينما سُمع أحدهم يقول إنّه ليس لدينا قوات إضافية في المنطقة مطلقًا، وعلينا أن ننهي الأمر بالقوات الموجودة. كان الاتصال مستمــرًّا عبر الأجهــزة مع قيــادات الحرس والجيش الموجودة حول خرمشهر، لتلقّي التقارير باستمرار.

حــين كنّــا مجتمعين معًــا، تحدّث بعضهم عــن قيام العــدو بإنشاء جســر على نهــر «أروند» لإدخال قــوات وتجهيــزات إلى المنطقة، لكنّ هذا الــكلام لم يؤكّده آخرون. حينها، دعا الأخ صياد الجميع للسكوت وقــال: إذا كان ذلــك صحيحًــا، يجب أن يحــدّد مــكان الجسر بدقة؛ لنقوم باستهدافه بصــاروخ (ماوريك). وطلب أن يقوم أحد بالتحليق بالمروحية للتأكد من ذلك، فسكت الجميع ونظر كلٌّ منهم إلى الآخر.

نظرت إلى أحد الطيارين وقلت له: «يا الله، لننطلق». لم تكن هناك فرصة نضيّعها للبحث عــن الجسر، تحرّك الطيار ومساعده، وذهبت معهم نحو المروحية التي انطلقت بارتفاع منخفض بحيث كنت أغمض عينــيّ أحيانًا، وأنادي الطيار أحيانًا أخرى، خشية أن نصطدم بموانع تعترض المروحيّة.

لم يطــل الوقت حتى وصلنا إلى المنطقــة. ارتفعت المروحية سريعًا، كنــت أتلفّــت في كل اتجــاه بحثًــا عن الجســر، وعندما ارتفعنــا كثيرًا كشفنا العدو، فأمطرنا بوابل من الرصاص. أسرع الطيار بالانخفاض والدوران حــول بستان النخيل، ثم ارتفع مجــدّدًا، كرّر ذلك الدوران، وفي كل مــرة كانوا يمطروننــا بالرصاص. فتشت المنطقــة جيدًا لم أر أي جســر فيهــا، لكن الطيــار لم ينتظر طويلًا، فبعــد إصابة المروحية برصاصات عــدة، لم يبقَ أمامه سوى العودة، لكنّه طار هذه المرة نحو منطقة وجود قواتنا، وما إن وصلنا إلى المنطقة حتى أُمطرنا بالرصاص

أيضًـــا. لقد استُهدفنا من قِبَل قــوات العدو، وقواتنا على حدٍّ سواء؛ بل إن قواتنــا كانت أحرص مــن العدو على إسقــاط المروحية، فأصابوها وأُصيب الطيار بيده، وأصيب أحــد أطراف المروحية، فاضطر الطيار للهبوط والتخفّي خلف النخيل.

تسابــق نحونا أفراد من لواء «الإمام السجاد»عليه السلام، كانوا من أبناء مدينتــي، كان كل واحد منهم يريد الوصول قبل الآخرين ليحصل على الجائزة، وعندمــا اقتربوا منا، قفزت من المروحية صارخًا فيهم: «ما الأمر؟ ماذا تفعلون، لا تطلقوا النار».

لا أدري لأي سبب خفّفوا من سرعتهم، ألأنهم سمعوا صوتي أم لأنهم رأوا زيّي الأخضــر، وعندما اقتربوا عرفوني، فقــال أحدهم ضاحكًا: «الحاج أسدي! لقد فرحنا أننا بعد سنتين من الحرب استطعنا إصابة مروحية وإسقاطها، لكنها للأسف كانت لنا!».

حضــر أحد أبنــاء التعبئة، كان طويل القامــة، ولم يَظْهَرْ وجهه من الغبــار، أخذ يتفقّد المروحيــة باهتمام، وقال: «يــا لسوء الحظ، كانت رماية في غير محلّها».

ركبنــا سيــارة وتوجهتُ مــع الطيــار ومساعــده سريعًا نحــو المقر الرئيــس، وأخبرناهم بعدم وجود جســر. ظهرت الفرحة على الوجوه، ثــم عادوا يدقّقون بالخريطة، تمامًا كمــا حصل يوم 19 حزيران حين كانــت العيون منصبّة على خطوط الخريطة، وعندما دخل شاب فجأةً أثنــاء نقاش القادة، وخاطب «محســن رضائي» من دون مقدمات: «يا أخ محسن، العراقيون أخذوا يستسلمون».

نظــر الجميع إليــه، وصمتوا هنيهــة. كان الشاب واقفًــا فوق رأس رشيــد، فنظر إليه قائلًا: «أي أسلوب هذا في تقديم التقارير؟ كم عدد الجنود؟ في أي محور؟».

أسئلة رشيد كانت جديدة بالنسبة إلي، كان مسرورًا ولم يُبد ذلك. فأجابه الشاب بمرارة: «وهل هذا وقت السؤال عن أصول الدين؟ لا أدري من أين، لكنّي رأيتهم بأم عيني، يخرجون من المدينة زرافات زرافات رافعين أيديهم، ألا يكفي ذلك؟!». ما إن سمع رشيد ذلك، حتى ربّت على كتفي: «أسرع يا أسدي، أسرع».

توجهنا نحو خرمشهر، وعند الوصول إلى التقاطع، رأينا بركات الله تحلّ علينا، فصف الأسرى له أول وليس له آخر، نظرنا إلى صفوف الأسرى بدهشة وذهول. وعندما أفقنا من الدهشة، أخذ رشيد الجهاز واتصل بمحسن ليطلب منه إرسال كل ما يتوافر في الأهواز من حافلات وشاحنات لنقل الأسرى، قبل أن تحلّ بنا المصيبة ونفقد السيطرة عليهم. كان قلق رشيد في محلّه، لأن نقل آلاف الأسرى يحتاج إلى أيام في الحالات الاعتيادية، وخوفًا من أن يتعرّضوا للقصف المعادي. وقف شبابنا أمام الأسرى، وأخذوا يقدّمون لهم البطيخ.

دخلنا المدينة، وتوجهنا نحو مبنى الجمارك، المكان تحوّل إلى مقبرة للملابس العسكرية، والقبعات الحديدية والأحذية العسكرية وأغراض لأفراد العدو. ضباطهم تعرّوا قبل جنودهم وقفزوا إلى النهر، أو استسلموا وهم على تلك الحال. عندما رأيت أسرى العدو ووضع المدينة تذكرت المناجاة الليلية لذلك الشاب التعبوي الذي استغاث بصاحب الزمان، وأدركت مغزاه عندما قال الإمام الخميني «إنّ الله هو الذي حرّر خرمشهر»[1].

1- خلال مواجهات «بيت المقدس» الساطعة التي انطلقت بنداء: (يا علي بن أبي طالب)، تمّ أسر (19000) عسكري من قوات العدو، وقتل أكثر من (16000). فمدينة خرمشهر صمدت في وجه العدوان لمدة (45 يومًا) حتى سقطت يوم 1980/10/25م، وتحرّرت بعد 578 يومًا أي بعد 19 شهرًا. بدأت عملية التحرير في 1982/4/29م وانتهت بتحرير المدينة في 1982/5/23م.

## وثيقة الحاج عمران

كنتُ أرفضُ، وكانوا يصرّون، وعندما فقدوا الأمل في نيل موافقتي، ذهبوا إلى محسن رضائي وجاءوا منه برسالة خطية وقالوا: «لم يعد لديك ذريعة، عليك القبول». إنهما رشيد ورحيم صفوي تكاتفا عليّ إلى أن قبلت ذلك ضمن شروط.

لم يكن ذلك لعدم رغبتي في ترأس وحدة أو كتيبة، كما إني كنت قد تعبت من عمل الأركان، لكني في ذلك الوضع لم أكن أرى من ضرورة لتشكيل قوة عسكرية جديدة لمحافظة فارس مع وجود لواء «الإمام السجاد» عليه السلام. وكنت متردّدًا خشية أن لا أحصل على القوات والتجهيزات المناسبة، فيتكرّر مصير لواء «الإمام الحسن» عليه السلام الذي حُلّ بعد عملية البستان.

لذلك، عندما جاء الدكتور «شجاعي» والسيد «حسام الموسوي» مع «محسن باكياري» كمسؤولين عن قوات حرس الثورة في محافظة فارس، أتوا إلى المنطقة لإحراز موافقتي على تشكيل لواء آخر، أخذت منهم تعهّدًا أن لا يكون ذلك الأمر شكليًا فقط؛ بل أن يتابعوا تعهّدهم بجد حتى النهاية.

جرى تنفيذ قرار المسؤولين بتسليم «لواء 33 المهدي» إلى محافظة فارس عمليًا وبشكل سريع، وسلمني «علي الفضلي» قواته التي كانت

تحت إمرته[1]. كان معظم مسؤولي اللواء والمقاتلين الذين يشكلون النواة المركزية للواء من أهالي طهران وأصفهان وكاشان وغيرها باستثناء أعداد قليلة، ذهبوا والتحقوا بألوية محافظاتهم، وبدأت عملي في اللواء بمساعدة «أمير علي أميري» و«لطف الله يد اللهي» اللذين كانا من القادة الجيدين والمستعدّين للقتال، من وحدات قوات حرس الثورة لمحافظة فارس. وخلال فترة قصيرة، جرى تزويد اللواء بالمقاتلين من أنحاء محافظة فارس، ومن مدينة بوشهر التي لم تكن تشكّل لواءً خاصًا بها، وهكذا أصبحنا جاهزين للقتال.

لكن قبل حصول هذه التغييرات، جرى تنفيذ المرحلة الأولى من عمليات «رمضان» في شرق «البصرة» خلال مهمتي كرئيس لأركان مقر الفتح، وفي المراحل الأولى من هذه العملية، جرى تحطيم الخطوط الدفاعية للعدو في محورين، واستطاع مقاتلونا الوصول إلى نهر «كتيبان» وقناة «السمك»، لكن العوائق القوية والمتعددة التي أقامها العدو حالت دون الالتقاء مع باقي المحاور، ما اضطرنا إلى الانسحاب بعد استشهاد عدد كبير من مقاتلينا.

أتذكر عندما بدأت العملية توجهت للاطمئنان إلى وضع قواتنا، خاصة «لواء 8 النجف» و«لواء 27 محمد رسول الله»، فركبت الدراجة النارية ووصلت إلى منطقة المواجهة، كان أفراد «اللواء 27» قد تركوا العازل (الساتر) الترابي، وأخذوا يتراجعون، بينما كانت الدبابات العراقية تتقدم كالجراد، وتمطر الهضبة بنيران مدافعها. صادفتُ إحدى ناقلات الجند وهي تتراجع. دقّقتُ النظر إليها، فإذا هي للحاج «أحمد كاظمي» قائد «لواء 8 النجف» ومعه الأخ شهبري من اللواء

1- جرى تسليم واستلام لواء المهدي في 1982/6/22م من خلال محضر اجتماع بحضور بعض مسؤولي قوات حرس الثورة لمحافظة فارس والمقر الرئيس.

نفسه. توجهت نحو الناقلة، وطلبت إيقافها والبقاء في مكانه. فقال لي الحاج أحمد: لا تظنّ أنّني أنوي الفرار، لكنّ الدبابات المعادية تتقدّم بأعداد كبيرة نحونا، وأريد أن أبتعد عنها مسافة كافية لئلّا يستهدفوا ناقلة الجند! فقلتُ بصوتٍ مرتفع آمرًا: أوقفها ها هنا.

وكان الحاج أحمد يحترم كلامي وينفّذه لأني أكبر سنًا منه، فطلب من «شهبري» إيقاف الناقلة. قلت للحاج أحمد: «إنّ ناقلتك هذه تشكّل مؤشـرًا لواقع المعركة، فالآخرون لا يطّلعون على نيّتك بالتراجع لمسافة قليلة فقط، بل سيعتبرون أنك تنسحب من المعركة، وسيؤثر ذلك سلبًا على معنوياتهم».

- لكن الدبابات ستدمّر الناقلة.

- فلتدمّرها، ترجّل أنت منها.

ترجّل الحاج أحمد و«شهبري» من الناقلة، وفي اللحظة نفسها مرّت جرافة قربنا، فهرول الحاج أحمد نحوها، وأقنع السائق أن يقيم مانعًا ترابيًّا حولها. كل ذلك لم يستغرق أكثر من خمس دقائق. ما إن أكمل سائق الجرافة عمله حتى ظهرت ناقلة جند أخرى للجيش يقودها شاب، أطلّ برأسه من الناقلة وسأل بلهجة أهل الشمال: «أين هي الدبابات العراقية؟»، ولما سألته عن السبب، قال: «لدينا صاروخ تاو». وبالفعل كان لديه ستة صواريخ تاو، استطاع بواسطتها أن يدمّر ستّ دبابات معادية.

عند اشتعال الدبابات الست، تغيّر الوضع، وارتفعت معنويات قواتنا، وتوقف زحف دبابات العدو. فيما بعد، كان الشهيد «كاظمي» كلما رآني يبتسم ويقول: «كانت ذكرى جيدة».

بعد عمليات «رمضان»، نفّذنا عمليات أخرى هي: «محرّم»،

«والفجر التمهيدية»، «والفجر1». الأولى نفذت بالاشتراك مع الجيش، والثانيـة قامت بها قـوات الحرس وحدهـا، والثالثـة أدارها الجيش. كل تلك العمليـات اصطدمت بسدٍّ قاسٍ من الموانـع والعقبات الكبيرة والمعقّـدة التي أعدّها العدو، وعلى الرغم مـن الانتصارات المحدودة، لم تغير الوضع[1].

ركـز نظـام صدّام بقوة علـى إغلاق الطرق المحتملـة للوصول إلى البصرة، بدءًا بحقـول الألغام الواسعة، والأسلاك الشائكة الضخمة، وأهمهـا بناء قنـاة الأسماك بطول (30كلم) وعرضـ (1كلم)، وضخّ إليهـا الميـاه لتتحـوّل إلى مستنقـع موحل كبـير، هذا كلّـه فضلًا عن الكمائـن والمتاريس والمواقـع المتعدّدة، والعوائـق المثلّثة. ووضع بين كل هـذه الموانـع براميل سعتها 200 ليتر من مـادة الفوغاز التي تنثر عند انفجارهـا مواد حارقة، تلتصق بالأجسام في دائـرةٍ شعاعها خمسون

1- جـرت عمليـات رمضـان بنـداء (يا صاحب الزمـان أدركنـي) بشكل واسع فـي محور شرق البصـرة بين (12/-7 و 1982/7/28م) بقيادة مشتركة بيـن القوات والجيش، وهي أولى العمليات بعد تحرير خرمشهر.

- عمليـات محرم انطلقت بنداء (يا زينـب) في محور موسيان ومرتفعات حمرين الحدودية بين (31/-10 1983/11/10م). وتـم أسـر (3400) عنصـرًا من قوات العدو، واحتـلال سلسلة جبال حمريـن، ومصادر النفط في موسيـان وبيات، والأحواض النفطية في زبيدات، وسبعين بئر نفط عراقيّة، لتعديل الظروف السيئة الناشئة عن فشل عمليات رمضان.

- عمليـات والفجـر التمهيديـة انطلقت بنداء (يـا الله) في محور (فكـة – تشذابه) في (6/-2 1983/2/10م) وتعـد هذه العمليات حرب الموانع والعقبات، فالعدو بعد تلقيه ضربات متعددة في العمليـات السابقـة، وخشيته من الحمـلات الإيرانية الواسعة قام بوضـع (15) نوعًا من الموانع الكبيرة طوال عام كامل.

- عمليـات والفجر 1 انطلقت بنداء (يا الله) في محـور الجبل الفوقي بين (9/-4 1983/4/16م) وكانـت العادة فـي كل العمليات منذ عمليـة «ثامن الأئمة» لفـك الحصار عن عبـادان وإلى بدء عمليـات والفجـر 1 هـي تحطيم خطـوط العدو ومباغتتـه خلال الليـل وساعات نـوم قواته. أما هـذه العملية فـكان أسلوبها هو (الهجوم في ظل ساتر ناري). وانتهـت العملية بقتل وجرح وأسر (7000) عنصـر من قوات العدو، وتحرير بعض مرتفعات حمرين والقرى الواقعة عند شاطئ نهر دويـرج ونقطة بيتش أنغيـزة الحدودية، واستعادة مساحة (150) كيلومترًا مربعًا، لكن لم تتحقق كل أهداف العملية.

مترًا، ليحترق كل من يوجد في المكان ويقضي نحبه.

كل هذا النشاط الذي قام به سلاح الهندسة للعدو، جعلنا نتريث، ويصبح جلّ همّنا هو العثور على طرق بديلة لتجاوز هذه الموانع. وعلى الرغم من كل ما أعدّه العدو، استطعنا بعد مدّة من خلال الابتكار، وشجاعة مقاتلينا واستبسالهم، أن نتجاوز كل تلك الموانع الصعبة، لكن «صدّام» لجأ بأسلوبه الجبان والخسيس إلى استخدام الأسلحة الكيميائية، بدعم من القوى الاستكبارية الكبرى.

ولا ننسى أيضًا دور المنافقين في التجسّس لمصلحة العدو. حين كان المنافقون يشكّلون الطابور الخامس في الداخل الإيراني، أما على الحدود مع العدو، فكانوا العصا التي يستخدمها صدّام في قمع الشعب العراقي، وتعذيب الأسرى الإيرانيين.

ونحن الذين أصبحنا متخصّصين في مباغتة العدو، تمكّن المنافقون خلال هذه العمليات من تسريب خططنا بسهولة، فكُشفتْ لنظام صدّام أساليبنا في المباغتة.

إن عمليات (رمضان، محرم، والفجر التمهيدية، والفجر 1) شكّلت تراجعًا، وأظهرت ضعفًا، بعد انتصاراتنا الكبرى، ورفعت من معنويات قوات صدّام، لا سيّما أنّها أدّت إلى استشهاد قادة كبار أمثال: «حسن باقري» و«مجيد بقائي»، فسيطر الحزن والإحباط على مقرّ «كربلاء».

في ظلّ حالات القلق المتزايدة، دعا محسن رضائي القادة إلى اجتماع في مقر كربلاء، وقال: «لقد استعاد العدو شيئًا من المعنويات، لذا، علينا أن نقوم بعملية كبيرة ناجحة، لاستعادة زمام المبادرة، وقلب الموقف لمصلحتنا».

في ذلك الاجتماع، قدّم «مهدي باكري» اقتراحًا بأن نترك جبهة

الجنوب مؤقتًا علــى أن نتّجه نحو الغرب لتنفيذ عملية هناك. وتحدّث عـن بعض التفاصيـل، وحدّد منطقة «حاج عمـران» للدخول منها إلى الأراضي العراقية.

بعـد دراسة معمّقــة ونقاش مستفيض، جـرت الموافقة على اقتراح «باكري»، واتفقنا علـى الشروع باستطلاع المنطقة المحدّدة. وبعد أيام عدة، أرسل الأخ رشيد بطلبي، وقال: «الحاج عمران لك».

- بسند أو من دون سند ملكية؟

ضحـك وقال: «خـذ الإخوة واذهـب لتحرق شارب الحـاج عمران هذا، وأمسكه من أذنه، وائتِ به لأصدر سند الملكية باسمك».

- أمّن لنا الخبز والماء، وليبقَ السند أمانة لديك.

توجهـت برفقـة رشيـد بالمروحيـة إلى مدينـة «أروميـة»، ثـم إلى «بيرانشهر»، ومن هناك إلى مرتفعات «القمطرة» لإجراء دراسة أولية.

كانت منطقة جيدة لتوافر الماء ولطافة الجو، لكنّها وعرة وموحشة.

فليعنّا الله، من أين أتينا وإلى أين وصلنا!

أراد رشيد أن يطيّب خاطري، فقال: «عليك بأخذ وزن الشباب الآن ثم بعد العملية، لترى كيف ستتحسّن صحتهم».

ضحكـتُ وقلت: «إن كان الأمر يتعلق بـالأكل، فإنهم أكثر نهمًا عند آبائهم وأمهاتهم».

الأيام الأولى التي قضيناها في «خوزستان» حملت معها الصعوبات والمـرارات، واعتدنـا أن لا نـذوق الطعـام الجيد إلا مـرة في الأسبوع. فعندمـا كنّا في «فارسيـات»، كان الحاج «موسى رضـا زاده» يأتي من «الغولـف» محمّلًا بالمكسّرات عوضًا عن الطعام، وعندما كنّا نعترض، كان يقول: «لقد حصلت على هذا الطعام بشقّ الأنفس، فكلوا واشكروا

النعمة!». ولم نكـن نجد داخل أكياس الهدايا الشعبية سوى المكسّرات وعلبة سجائر وعلبة كبريت، إلا أنّ وضع الطعام أخذ يتحسّن تدريجيًا مـع استمرار الحرب، وصارت كل الوحدات تتناول وجبة طعام ساخنة ظهـرًا. أما في غرب البلاد فلم تتوافر تلـك النعمة، وإنما كان الشائع أننا نمرّ في مرحلة من العسر والحرج.

أتذكر أننا كنـا نصلي جماعة أثناء اجتماع في المقر الرئيس، فقال محسـن رضائي للأخ «سنجي»[1]: «الأخ أسـدي، سيذهب مع قواته إلى الغرب، لذا حاول تأمين المنامة والطعام والاستقرار لهم».

فهـزّ رأسـه موافقًا، وقـال: «حسنًا، لا أجد مشكلـة في تحقيق هذا الأمر، فنحن نطهو اليوم لأربعمئة شخص».

لم أتفوّه بكلمة، وماذا عساي أقول؟ في حين أنّ عددنا يفوق الثلاثة آلاف عنصـر، فاكتفيت بإغماض عينيّ، وقلت في نفسي: «يا رب، يبدو أننا سنعيش حال فارسيات مرة جديدة».

1- الأخ «سنجـي» تولّى لأشهر عدّة قيـادة مقر «الحمزة»، وذلك بعد استشهاد الأخ «بروجردي»، وقبل الأخ «إيزدي».

## الشهادة والأحجية

قبل الحديث عن مسألة السفر إلى غرب البلاد، لا بد لي من أن أذكر شخصين من أفراد لواء المهدي شاركا في عمليات «رمضان»، «والفجر1».

استلمت لواء المهدي قبل بدء المرحلة الثانية من عمليات «رمضان»، جهّزنا القوات سريعًا للمشاركة في العمليات، لكنّ موقف معظم قادة كتائبنا بدا صعبًا، وغير مستقرّ، فكان قائد الكتيبة يأتي مع قواته التي تلتحق بنا، واستمرّت هذه الفوضى حتى اكتمل تنظيم كتائب اللواء خلال ثلاثة أشهر.

بدأنا نتحضّر شيئًا فشيئًا للتحرك نحو الخطوط الأمامية فقد حان وقت الهجوم، كان هناك شخص عند شاطئ نهر كارون، يستند إلى حائط طيني، يبدو أنه مهموم ومنزعج. اقتربتُ منه وسألتُه عن حاله.

- الحمد لله، أنا بالخدمة يا أخ أسدي.
- لم أعرفك، ما اسمك الشريف؟
- حميد عارف.
- ها أنت حميد عارف قائد الكتيبة «990».

لملم نفسه، وضبط هندامه، لكنّه لم يستطع إخفاء آثار الهمّ البادية عليه، فأحسست أن عليّ أن أبادره بالسؤال عن حاله، فهو قائد كتيبة، وسيقود ليلًا عددًا من المقاتلين. شرع يتكلّم بسرعة، يبدو أنه كان يريد

أن يُخـرج الضيق مـن صدره، ويبثّ همومه إلى مـن يفسح له المجال. تحـدث عن مشـاكل الحياة، وعن النـاس الجبنـاء الذين لا يهتمون إلا بالنقاشـ السياسـي المحبـط، والتكتّـل الحزبي الـذي لا يجدي، وقد ألصقـوا به التهـم افتراءً وكذبًا. كان رجلًا ناضجًـا له وزنه، لم يذكر اسـم أحـد، ولم يُظهر أي انفعـال، بل تحدّث باختصـار وهدوء. ترك حديثـه انطباعًا حلوًا، وأعجبتني شخصيتـه، فطلبت منه البقاء معنا بعـد انتهـاء العمليات. ابتسم وقـال: «إذا تقبّـل الله، وبقيت حيًّا هذه الليلة، فإني أتمنى البقاء معكم».

بـدأت العمليات باكرًا قبل طلوع الشمس، جاء «سعيد بهادري» أحد معـاوني اللواء وقد غطاه الـتراب، فسألته: «هل كنـت تنثر البذور في الأرض يا سيد سعيد؟».

ضحك وقال: «بل إنّ إطار الدراجة مرّ على شيءٍ ما، فَطِرتُ معه».

لم نكـن نتوقع أن تكون مقاومة قـوات العدو شديدة إلى هذا الحد، لـذا فشلت العمليـة، وحاولت جاهـدًا أنـا وسعيد أن نرشـد المقاتلين إلى طريـق العودة إلى مواقعهم. وبعد أن هـدأ الوضع، نقلنا الشهداء والجرحى إلى خلف الجبهة، أما الباقون، فقد عادوا الواحد تلو الآخر لإنهـاء مهمتهم، ورجع كلٌ منهم إلى مدينته، لكنّي لم أرَ حميد عارف، ولم أجـد اسمه في لائحة الشهداء ولا مع الجرحى. فأرسلت عنصرين للبحـث عنه في المستشفيـات والبرادات من دون الوصـول إلى نتيجة. وبدأت الشائعات تنتشر في مدينة «داراب» ولواء المهدي، بين من يدّعي أنّ حميـد عارف فرّ من الحـرب وأُسر، إلى اتهامات بالخيانة من قِبل المغرضين، وبأنّه لجأ إلى العراق.

بقيـت أحجية حميد عارف مـدة (35) يومًـا، إلى أن وصل الخبر اليقين، حين وجدوا جثّته خلف التلة. عندما وصلنا إلى هناك، ونظرنا

إلى جثته، صرخ سعيد وضرب على رأسه: «آه، أي خطأ ارتكبت!!».

إنّ جسد الشهيد عارف هو الذي ارتطم به إطار الدراجة قبل (35) يومًا، لكن المكان كان مظلمًا، ولم يدرك سعيد ذلك، فترك جسد الشهيد خلف التلة! طبعًا لم يكن مقصّرًا، فالجسد لم يبقَ منه سوى الرأس والكتف، ولا يزيد وزنه عن (4كلغم)، فلن يخطر ببال أحد في تلك العتمة أنه جسد أحد الشهداء، وبقي سعيد يحسّ بالذنب أيامًا عدّة.

عندما رأيت ذلك الجزء من بدنه، تذكّرت كلامه في تلك الليلة، عندما كان في قمة ثورته وغضبه، ولم يذكر اسم أحد ممّن أساء إليه.

وصل خبر العثور على جسد الشهيد حميد عارف إلى «داراب» وأُخمدتْ نار الشائعات. وبلغني أنّ مطلقيها قد خجلوا من أنفسهم، أما الذين بثّوها ونشروها هنا وهناك فقد اختفوا عن الأنظار لأيام.

لم تلبث الأيام أن كشفت سرّ استشهاد حميد عارف، وتبيّن أنّه انطلق في تلك الليلة مع قواته بشاحنة نحو الخطوط الأمامية، وجلس فوق تاج الشاحنة، وعندما اقتربت من الخط الأمامي أصابت حميدًا قذيفة مدفعيّة مباشرة، وفي عتمة الليل ظنّ الجميع أنّه لم يصب أحد بالقذيفة، وأنها انفجرت وحدها في الهواء. لذا قال سائق الشاحنة وباقي الإخوة: «إنّ حميدًا رافقنا، لكننا لم نره عندما ترجّلنا من الشاحنة». الأمر الذي لم يصدّقه أحد، فقام باثّو الشائعات بمهمتهم القذرة في «داراب».

ما ينبغي أن أضيفه حول حميد أنّ بقايا جسده بقيت طوال (35 يومًا) في أرض مكشوفة ذات حرارة ورطوبة شديدتين، من دون أن تتغيّر، وبقي وجهه سالمًا، وما يثبت كلامي صورة رأسه ويده التي احتفظتُ بها طوال سنتين في مكتبي.

في ذكرى أربعين استشهاده، حملت الجموع الغفيرة من أهالي «داراب» جنازة حميد إلى روضة الشهداء، وورد في أحد مقاطع الوصية التي تُليت في مراسم التشييع فقرةٌ ألهبت مشاعر الحاضرين: «إلهي إني أخجل أن أُحشر يوم القيامة بجسدٍ مكتمل أمام الإمام الحسين بن علي عليه السلام، فإذا أخذتني خذني ببدنٍ مقطّع الأوصال».

أما ما يتعلّق بالذكرى الثانية، فمن المفيد أن ندخل إليها من باب لواء المهدي الذي ذاع صيته بين الوحدات والألوية، فحصل أن التحق به ثلاثة من اللاجئين العراقيين: «فائز كاظم حسن الراشد»؛ واسمه المستعار الذي اختاره هو «عبد الجليل»، و«أبو مرتضى»، و«أبو سجّاد» الذين تسلّموا موقع التنصّت، وقضوا أيامًا وليالي حتى تمكنوا من اكتشاف الشيفرة التي يستخدمها العدو، وحدّدوا من خلال التنصت عليها شبكة الاتصالات القيادية الكبرى في الجنوب، ومنذ ذلك الحين أضحى هؤلاء الثلاثة العصا التي بين أيدينا، والمرهم الذي يداوي الجروح القديمة[1] للمقر الرئيس.

كانت القيادة الرئيسة للواء تحتاج إلى المعلومات الدقيقة حول تحركات العدو، وتمكّن هؤلاء الثلاثة من إمدادهم بها بدقة متناهية، فحدّدوا في أي يوم وفي أي ساعة سيشنّ العدو هجومه، ومتى ستنطلق طائراته الحربية لتنفيذ هجومها، وما هي النقاط التي ستستهدفها. وهكذا، كان تركيز العراقيين الثلاثة على طائرات العدو ما أتاح لهم أن يخبرونا تفاصيل مهمة، من أنّ العدو سيقصف المنطقة الفلانية بعد خمس دقائق، فكنّا نستغلّ الفرصة ونبلّغ قواتنا الموجودة في المنطقة التي يريد العدو استهدافها، فيتجنّب جنودنا القصف ووقوع الخسائر في صفوفنا.

1- أي حالات الفشل السابقة.

عندمـا أخبرونا في المـرة الأولى عن هجوم جويّ سيقـع، سألتهم: «كيف تعرفون أن الطيران سيقصف بعد خمس دقائق؟».

قالوا: «في المرات السابقة، عندما صدرت الأوامر من برج المراقبة إلى طائراتهـم، حدّدنـا الوقـت الفاصل بين إعطـاء الأوامر وبين بدء القصف، فعلمنا كم تستغرق الفترة الزمنية بينهما».

ظلّت لغتنا المشتركة هي القرآن ونهج البلاغة والصحيفة السجادية بانتظـار أن يتعلمـوا اللغـة الفارسيـة ويتمرّنوا عليها جيـدًا، وتعمّقت علاقتنـا مع الإخوة الثلاثة يومًا بعد آخـر، وخاصّة مع «عبد الجليل»، وصارت لهم منزلة وحظوة بين أفراد لواء المهدي.

أما قصة هروب «عبد الجليل» من العراق والتحاقه بنا، فهي قصة عجيبة ولطيفة في الوقت نفسه، إلى درجة أنها دفعت أخي صالحًا ليدوّن الرحلة الطويلة والمرهقة لـ«عبد الجليل» في كتاب مستقلّ خاص.

كان «عبـد الجليل» قد قـرّر أن يهرب من العراق بعد أن استمع إلى كلام أمّه عند توجهه إلى الحرب، حيث ودّعته باكية، وقالت له: «ولدي العزيز، عندما تذهب إلى الجبهة إياك أن تطلق النار على الإيرانيين، فإني لن أحـل لك الحليب الذي أرضعتك إياه، هـؤلاء شيعة وقائدهم مولاي الخمينـي».

أتذكّـر أننا قبل عمليـات «والفجر الأولى»، كنـت متوجّهًا نحو مقرّ القيـادة، وأستعرض في ذهنـي المحور، ووقت وصول لـواء المهدي إلى مـكان العمليات، فرأيـت «عبد الجليل» أمامـي، تعانقنا وأخذته معي، لكنّه كان يبدو مضطربًا كأنّ هناك شيئًا ما يعتمل في صدره.

- هل حصل مكروه يا «عبد الجليل»؟
- كلا، كلا لكن بحياة أبنائك عدني.

- بماذا أعدك؟
- عدني يا حاج عدني!
- بماذا أعدك؟
- أن أشارك في العمليات.
- لا يمكن أن أسمح بذلك، فعملك لا يقل أهمية عن المشاركة في العمليات.
- لكنّ وجود «أبو مرتضى»، و«أبو سجاد» يغنيكم عن الحاجة إليّ.
- إنك تعلم أنه لا يحل مكانك أحد يا «عبد الجليل».

قاطعني، وقد تقاطرت دموعه على خدّيه وقال لي راجيًا: «يا حاج لم أعد أحتمل، أرجوك وافق على هذا الأمر».

كانت المرة الأولى التي أرى فيها «عبد الجليل» على تلك الحال، وهو يطلب الموافقة بإلحاح على المشاركة في العمليات، ممّا لم يدع مجالًا لإقناعه بالعدول عن هذا المطلب.

ناديت الأخ «محسنيان» مسؤول الدعم، وطلبت منه تسليم «عبد الجليل» السلاح والذخيرة. ما هي إلا دقائق حتى رأيت «عبد الجليل» يحمل سلاحه على كتفه، ويربط شارة: «يا حسين» على جبينه، وتوجّه بحلّته الجديدة نحو مقرّ القيادة، فتجمهر حوله بعض التعبويين، وراحوا يتفحّصونه.

زيّه العسكري كان كاملًا، ربط الحمالة إلى صدره، ووضع فيها ثلاثة مخازن رصاص. أغلب التعليقات الساخرة من الإخوة ومزاحهم مع «عبد الجليل» كان بسبب الحمالة التي وصلتنا حديثًا، وكان هو أول من ارتداها، منظر القنابل اليدوية، وكل اللوازم بما في ذلك مطرة الماء والحربة، جعلت منه كأنّه أحد أفراد القوات الخاصة، بقي يسير أمام مقرّ القيادة إلى أن وصل قائد الكتائب.

كان مقـرّرًا أن يعقد الاجتمـاع الأخير الذي يسبق بـدء العمليات، عندمـا دخل القادة دخل «عبد الجليل» معهـم، لكنه جلس عند الباب بحذائـه، ورفض الجلوس معنا علـى الرغم من إصرارنا عليه. عندها قلت له: «حسنًا اقرأ لنا بعض الآيات من القرآن لنبدأ الاجتماع». أخذ القرآن وشرع بالقراءة، وبعد خمس دقائق قال له الحاج «مهربان» من أهالي جهرم بصوت عالٍ: «أحسنت». لكنه لم يصغِ له، وأكمل القراءة. إلى أن قال له صالح: «تقبل اللّه». لكنه لم يصغِ وأكمل.

فقلـت له: «سلمت يداك، بـارك اللّه بك». لكنه كما لو كان في عالم آخـر ولم يعـد يسمـع بأذنيـه، استمر بالتـلاوة مدة عشريـن دقيقة. عندهـا، قـام أحد الإخوة وربّـت على كتفه، فانتبه وقـال: «صدق اللّه العلي العظيم». ثم نظر إلي وقال: «يا أخ أسدي، بأي كتيبة سألتحق؟».

أجابـه أحد القادة: «لقد ورد اسمك الآن في كتيبتنا». فنهض «عبد الجليل»، وخرج من غرفة القيادة فرحًا مسرورًا.

عندمـا انتهى الاجتماع، وجدته قد جمع أغراضه، وأتى إليّ، فقدّم لي الصحيفة السجادية وقال: «لقد كتبت لك شيئًا ما، اعرف قدرها». ومـا زلت أحتفظ بتلك الصحيفة. كمـا قدّم مسبحته لصالح، وأعطى سجادته للحاج «كاظم حقيقت».

قلت له: «ما هذا يا «عبد الجليل»، لقد أهديت كل ما تملك!».

تبسّم وقال: «خيرًا فعلت، لم أعد بحاجة لها».

لم تفلـح عمليـات «والفجـر الأولى»، فقد كانت كعمليـات «والفجر التمهيديـة» فلـم تحقّـق أي نتيجة. لـذا، توقفـت سريعًـا، وعدنا إلى مواقعنـا التي انطلقنـا منها. في اليوم التـالي، كان الجميع يبحث عن «عبـد الجليل». بعد ساعـات من البحث والسؤال عنــه، جاء من يقول إنّه رآه آخر مرة داخل حقل ألغام، وجروحه كانت بليغة، فتوجهنا نحو

الساتر الترابي، ومن هناك، أشار إليه، كان وسط حقل ألغام مستلقيًا باتجاه القبلة.

قرّرنا سحب جثته ليـلًا، وكان هناك شهيدان آخران، والعدو يعلم أننـا لا نـترك أجساد شهدائنـا، وأنّنا سنعمل علـى سحب الجثث من مكانهـا، ولـذا نصب العدو رشاشـين ثقيلين ليمطرنـا بالرصاص إذا مـا تقدمنا إلى هنـاك. وبقي يطلـق القذائف مستهدفًـا تلك النقطة حتـى الصباح، ولم نستطـع الاقتراب. واستمر العـدو بقصف منطقة «الشرهاني» ومرتفع «175» بالقذائف بشدّة حتى لم يبقَ من جثة «عبد الجليل» شيء.

بعد مضي سنـوات، وخلال انتفاضة الشعـب العراقي، قام صدّام بطـرد أسرة «عبد الجليـل»، فأتت إلى «الأهواز» بحثًـا عن قبره، فلم نجـد ما نخبرهم به. كان لقـاءً عجيبًا لن أنساه أبدًا، كأنه شيء يشبه مجالـس العـزاء. فكلما ذكرنا كلمـة من كلمات «عبـد الجليل» تعالت الصيحـات وضـجّ الحاضرون بالبـكاء، خاصة عند ذكـر آخر كلمات وصيته عندما توجّه إلى العمليات، حيث قال:

- إذا استشهدت، فلعلّ جسدي لن يُعثر عليه، لكن إن عُثر عليه، فادفنوني في روضة الأهواز، واكتبوا على قبري: إني غريب يا أبا عبد الله.

عندما رأيت كيف كان بكاء أبيه ونحيب أخته وأخيه، لم أتحسّر على غياب أمه، فهي لم تتحمّل فقدان «عبد الجليل» وبُعده عنها، فالتحقت به قبل المجيء إلى إيران.

## رحلة الصخور

كانـت الحيرة التـي تملّكت سائقي القطـارات ناتجة عن الخلل في نظـام الرحلات، فهم لا يـدرون ماذا يفعلون، هـل ينطلق القطار من دون ركاب، أم يتوقف عن السير.

أرسلت «إبراهيم أحمدي»[1] ليجمـع بعض قادة المجموعات ليتمكن الإخـوة من الركوب قبل غيرهم، رأيـت «أحمدي» من بعيد وهو ينادي شبـاب التعبئة ويتنقّل بين العربـات، ووضعَ عنصرين اثنين عند بوابة القطار، كي لا يترجّل أحدٌ منهم.

مضـت سـاعـات والقطـار متوقّف تحت أشعـة الشمـس الحارقة، وأصبحت عرباته كفرنٍ حامٍ، وكل من يدخل إليه لا يتحمّل البقاء أكثر من دقائق، فيخرج من باب آخر.

كان سائـق القطار يرفض الانطلاق مـا لم يركب الجميع. توجّهت إليه وقلت: «يا أخي، أطلق صفارتك، وتحرّك بالقطار قليلًا، ليطمئنوا أنك ستنطلق عندها سيركب الجميع».

انتفخـت أوداجـه وقال: «يـا أخي، أيهـا المسلـم، إن ذلك مخالف للقانـون، وذلـك لا ينطبق على التعليمات، لـذا، لا أستطيع فعل ذلك،

1- رحم الله «إبراهيم أحمدي»، كان دومًا مستعدًا لتنفيذ مهامه، ولم يعرف التعب، وهو من أبناء «جهرم» وذكي، بعد هذه الرحلة استشهد في عمليات «والفجر الثانية»، وارتفع إلى الملكوت الأعلى.

هل تتحمّل أنت المسؤولية؟».

– نعم، أتحمّل المسؤولية.

رفـع رأسه معترضًـا، ورفض التحـرك. فلم أجد بُدًّا مـن أن أرفع صوتي عليه قائلًا: «أبي العزيز، أنا قائدهم، إنهم من مسؤوليتي، هيا، تحرّك».

يبـدو أنّني جعلته يخاف، فلـم يُجب، بل أمسـك بصفارة القطار، وضغـط عليها ثلاث مـرات، ثم أخذ يحرّك القطـار ببطء. نزلت من القطـار، ورأيت الجميـع يركض نحو أبواب القطـار، لقد ركبوا خلال دقيقـة واحدة، بينمـا كان السائق ينظـر في مرآته متعجبًـا، فأشرت لـه، فشعـر بالراحة ونظر إلى أحمدي مدهوشًـا وقد وقف إلى جانبه، وضحك متعجّبًا: من هم هؤلاء؟

لقـد طُلب منّا أن نرسـل الكتائب بكامل تجهيزاتهـا إلى «أرومية»، لنتوجه من هناك إلى «بيرانشهر»، ثم إلى منطقة «الحاج عمران».

توجهت بسيارة مع عدد من الإخوة إلى «أرومية»، للإعداد لاستقبال القـوات، فالقطار يتوجه إلى «طهران»، ومن هنـاك إلى «أرومية». لكنه عندما وصـل إلى طهران، طلب السائق وقودًا إضافيًّا، فلم يُلبَّ طلبه، مـا اضطـره إلى فصل أربـع عربات ليخفّـف حمله، علـى أن يسحب العربات الأربع قطار آخر فيما بعد.

وصلـوا إلى «أروميـة» صباح اليـوم الثالث. لم يُعلمنـا أحد بذلك، فتوجهنـا لاستقبالهم، وتفاجأنا بأنّ السيارات ما زالت داخل القطار، بينمـا بقي سائقـو السيارات في طهـران، غضبت وتوجهـت فورًا إلى السائق، فوجدت أنّه أشدّ غضبًا منّي، وراح يشكو المسؤولين عنه. ولعلّه تصنّع ذلك لينجو من لومنا له.

كنّـا نبحث عن حلـول، في حين غفلنا عـن التعبويـين الذين قاموا بأنفسهـم بإنزال السيارات من القطـار. توجهت إليهم فرأيت منظرًا عجيبًـا، أخذت أفكّر كيف ننزّل الحاويات الكبيرة، فأخبروني أن أحد الإخوة ذهب إلى «تبريز» ليأتي برافعة على شاحنة.

لم يكن أحد ينتظرنا في «أرومية» كما كان منتظرًا. كنا نحن وثلاثة آلاف عنصـر، والأوامـر التـي تلقّيناها تقول: ابقـوا في «أرومية» حتى نخبركـم عن وجهتكـم. توجهنـا إلى معسكر «جلديـان» لنستقر فيه، مـرّ يومان فقط ونفـدت الأموال التـي بحوزتنا، حتـى إنّ كلفة بنزين السيـارات قـام العناصر بدفعها من جيوبهم، ولم نجـد شخصًا نلجأ إليـه، اضطـررت للاتصـال بالسيـد «بشارتي» نائب مدينـة «جهرم» في المجلس، لأنّ معظـم العناصـر كانوا من «جهـرم»، وكانت علاقتي بـ«بشارتي» جيدة، فأجرى اتصالاته، وذهبنا إلى مكتب الشيخ «حسني» إمام جمعة «أرومية».

لم يكـن الشيـخ يملـك مالًا يسـدّ به حاجتنـا، لكننـا لم نعد خالي الوفاض، كتب رسالة إلى الإخوة في الدعم، فأمّنوا لنا بعض الخراف نقلوهـا إلى المطبـخ، فتأمّـن بذلـك الطعـام لمـدة أسبـوع للقوات في «أرومية». وكي لا نقصّر أكثر بحق التعبويين، نَسّقت معهم لنذهب إلى «بيرانشهر».

وافـق العقيد «سنجابي» قائـد معسكر «بيرانشهـر» على مرافقتنا ليعرّفنـا إلى المنطقـة، لكنـه قـال: «سآخذكـم إلى هناك حتـى أثبت محبتي لكم وللتعبويـين، لكنّي أعتقد أنّ الذهاب إلى منطقة «قمطرة» و«تمرتشين» الوعرة غير مبرّر عسكريًا».

قلـت لـه: «لدينـا فرصـة لا تتجـاوز الشهر، لـذا، علينـا أن نبادر

بالعمـل». كان يعتقد أن التعـرف إلى المنطقة يحتاج إلى ستة أشهر في الحـد الأدنى. لأنه قبل مواجهة العدو علينا أن نواجه الطبيعة الصعبة للمنطقة. وذكر لنا حادثة حصلت قبل أسابيع عدّة، عندما سقط عدد مـن الجنود إلى الوادي خلال تنقّلهـم، ولم يتمكنوا من العثور عليهم. كنت مضطرًّا للتحرك فورًا. رافقنا العقيد، ووضعنا القوات في المواقع المحددة سلفًا.

عندما أذكر العقيد «سنجابي»، أتذكر حادثة حصلت معه، فالعقيد هـو مـن مدرّبي الجيش ذوي الخـبرة، وكان يدرّسـ في كلية «دافوس» أيضًا. بعد استقرارنا بأيام عدّة، قال لي ونحن نقف إلى جانب الساتر: «يا سيد أسدي، أريد أن أسألك، فأجبني بصدق».

تبسّمت وقلت: «وهل سمعتني أكذب حتى الآن يا عقيد؟».

إن زوجتي طبيبة، لم تذهب إلى العيادة منذ مدة للاهتمام بالأولاد، لكنهـا تتقاضى من المستشفى (22000 تومان) شهريًا، وراتبي أنا يبلغ (18000 تومـان). إننـا نعيشـ بصعوبة مع ولدين علـى الرغم من أن راتبينا تبلغ (40000 تومان). بينما راتبكم في قوات الحرس لا يتجاوز (2000–3000 تومان) وتقولون إنكم سعداء، فما هو السرّ في ذلك؟!

- إني أتقاضـى (3700 تومـان) وهـي تكفيني، وأوفّـر منها مبلغًا صغيرًا شهريًا، فالحياة تُدار كما تديرها أنت أيها العقيد العزيز.

بالتزامن مع وجودنا، حضرت قوات إضافيّة من الجيش والحرس، استعـدادًا لتنفيـذ العمليـات. إلا أنّ خبر استشهاد أحـد أفضل أفراد قواتنا ترك أثره لأيام على الإخوة، وخيّم صمت ثقيل على وحدتنا.

كان ذلـك الجندي من أهالي منطقة «سيخ دارنغون» شيراز، شاب ذكـي وشجاع، لفـت نظر العميد «صيـاد الشيرازي» بسبـب شجاعته وطاقته الزائدة، فطلبه منّي لنقله إلى الجيش بأمر مهمة خلال عمليات

«والفجر الثانية»، خـلال أسبوع واحد استطاع استقطاب اهتمام قادة الجيش، فقال بعضهم: «إننا مستعدون لتشغيله برتبة ضابط».

– عـذرًا، لكنه عنصر أساسـ في رصد لواء «المهدي»، وينفعنا أكثر منكم.

لم أعد أحتمل غيابـه مزيدًا من الأيام، فطلبت إعادته، فأخبروني أنه استشهد برفقة طيار ومساعده بحادث مروحية للجيش. لم أصدق خـبر استشهاده، وبقيـت أنتظر أن يكون حيًّا، وأن يكون هناك خطأ في إعلان الخبر، لكـن للأسف، كان «ظهراب الجعفـري» يحب الشهادة أكثر مما يحبنا.

أحسّ العدو بانتقال القوات، وظن أن هناك تحضيرًا لعمليات إزعاج بهدف خداعه لتنفيذ الهجوم الأساس في الجنوب. لذلك كانت تصرفات العدو قبل الهجوم بسيطة. وقاموا بأعمال لم يقوموا بها من قبل، ولا أظن أنهم قاموا بها من بعد أيضًا. قاموا في أحد الأيام بإرسال طائرات مروحية لإنزال مظليّين خلف خطوطنا، فكان ذلك مصدر قلق لنا، وأخبرت المقر الرئيس، وتوجّهت مع مجموعة من الإخوة للاشتباك معهم.

خلال الطريق، وصل «حسين ايرلو» أحد قادة لواء المهدي وقال: «لا تستعجلوا، ليس هناك مظليّون».

وماذا كانت كل هذه المظلات التي شاهدناها تهبط؟

إنها تماثيل من البلاستيك بحجم الإنسان، صنعت بدقة.

أنزل واحدًا منها من سيارته، وسلّمني إياه وقال: «هذا واحد منها، إنها قنابل موقوتة، وقد اكتشفته وأفشلت مخطّطهم».

غيّرنا مسارنا صوب المقر الرئيس، والتقيت بالأخ محسن رضائي، فقام بإبلاغ الوحدات الموجودة في المنطقة بعدم الاقتراب من التماثيل المفخّخة.

في تلك الأيام، توجّهت مع الشهيد «مهدي باكري» لاستطلاع إحدى المناطق. وبعد جمع المعلومات، وصلنا ليلًا إلى مقر أمن لوائنا «المهدي». وفي الصباح، صلّينا وأخذ كل واحد منا رغيفين وعلبتين من الحبوب، وتحركنا مع مرشد من الأكراد يعرف المنطقة لإجراء الاستطلاع أيضًا. كان الشاب الكردي يركض في المرتفعات، بينما أنا ومهدي نسير خلفه ونحن نلهث. وكنا كلّما قطعنا مسافة، نتّخذ من الأسئلة ذريعة لنوقفه ونرتاح، ثم نعود للسير خلفه.

عندما انتهينا من الاستطلاع، قال الشاب المرشد إنّ عليه أن يتركنا ليرشد مجموعة أخرى. فذهب وفتحنا علب الحبوب لنتقوّى بها على العودة نحو المقر الرئيس. ولما انتهينا من تناول الطعام، انطلقنا، واستغرقت عودتنا من خلال المرتفعات الملتوية سبع ساعات. وكان مهدي يعرف المنطقة أكثر منّي، لذلك كان عليّ السير وراءه، سرنا حتى وصلنا إلى مسافة (2) كلم من المقر، ولم يبقَ حتى الغروب سوى ساعة واحدة، وقد أخذ منا العطش مأخذه، سرنا مسافة حتى وصلنا إلى نبتة توت بري، لونها الأحمر ينادينا لتناوله، ركضت باتجاه نبتة التوت وشرعت بتناول حبّاتها، ثم جاء مهدي وتناول أربع حبات منها، وتمدّد على الصخرة. فقلت له: «لماذا لا تأكل المزيد يا مهدي؟ ألست عطشان؟».

جوابه جعلني أبتعد عن النبتة. قال لي: «إني أكتفي بهذا المقدار لأصل إلى المقر، أترك الباقي لعلّ بعض العطاشى والجياع يمرّون من هنا فيجدون شيئًا يبلّ ريقهم».

## جبين مرتضى

بلغنــا ليلة 19 تموز، حيث انطلقت عمليــات «والفجر الثانية»، وكما ذكرت آنفًا، فإن المسؤولية الأساس عن هذه العملية تقع على عاتق لواء المهـدي، وبأمر من السيد «صيــاد الشيرازي» توجّه اللــواء الثاني من الفرقة 77 (خراسان) إلى المنطقة بقيادة الضابط ناصري.

قبل وقــت قليل من تنفيذ الهجوم، وبعد أن درسنا وضع قوات العدو وإمكاناتــه، طلــب الأخ محســن رضائي مــن كتائب بعضـ ألوية وفرق الحرسـ، ولــواء من أهــالي المنطقة بقيــادة الشهيد «محمــود كاوه»[1]، مساندتنــا في هذه العمليــات. والتحق بنا من محافظــة فارس كلٌّ من: «هاشم اعتمادي» و«مهدي زارع»[2] والحاج «رسول استوار» لتقديم العون.

وفي مقر قيادة لواء المهدي، بقي من القيادة الأساس لقوات الحرس كلٌّ مــن: محسن رضائي، السيد رحيم صفوي، الأخ رشيد، الأخ إيزدي

1- محمود كاوه، ولد في مدينة مشهد عام 1961م، كان من القادة الشباب، كل من عرفه تحدث عــن نبوغــه وتحركــه المثالي. كان عمره عنــد بدء الحــرب المفروضة تسعة عشــر عامًا، فتولى المسؤوليــة فــي الجبهة، وعندما بلغ سن الثانية والعشرين عامًا عين قائدًا للواء (155 الشهداء) الخاصـ في غرب البلاد، ثم تحول اللواء إلى فرقة. الوحــدة التي كان محمود كاوه مسؤولًا عنها كانــت معروفة بتنفيذ العمليــات الصعبة والمستحيلــة. أتذكر أنه خلال عمليــات كربلاء الثانية (1986/6/31) عندما أصيب بشظية مدفع عند القمة 2519 حاج عمران فاستشهد، تأثرت قواته بشدة، واعتبر قادة الحرس والجيش أنهم فقدوا أحد أهم قادة الحرب في غرب البلاد.

2- القائــد الحاج مهدي زارع كان قائد كتيبــة السيدة فاطمة الزهراء سلام الله عليها. والقائد هاشم اعتمادي قائد لواء الإمام الحسن عليه السلام من الفرقة 19 الفجر، استشهدا في كانون الثاني 1987م في شلمجة..

الـذي تولّى أخيرًا قيـادة مقر «الحمـزة»، إضافـة إلى العميد «صياد الشيرازي»؛ وذلك للإشراف على العمليات.

كان مـن المقرّر أن نحتل 53 قاعدة عراقيـة في منطقة «بيرانشهر» الحدودية، وفي مرتفعات «الحاج عمران» داخل الأراضي العراقية، وفي الحد الفاصل بين مرتفعات «قمطرة» و«تمرتشين».

استمـرت العملية مدة أسبوعين، امتدّت مـن لحظة فتح النار على العـدو وبـدء الهجـوم إلى أن هدأت المنطقـة. الجميـع كان فرحًا من احتـلال أربعين قاعـدة، والإشراف على مدينـة «تشومان مصطفى». وكان أهالي المنطقة أكثر فرحًا وسرورًا لتوقف قصف المدفعية العراقية الثقيلة لمدنهم وقراهم.

كانت خسائر نظام صدّام: إسقاط عشر مروحيات، وخمس طائرات مقاتلة، ومئتي أسير وأربعة آلاف قتيل وجريح. لكنها لم تكن منحصرة بالخسائـر الماديـة؛ إنّمـا بالخسائر المعنويـة أيضًا، ما دفـع بالطاغية صدّام إلى زيارة المنطقة، وأقدم على إعدام اثنين من قادة قواته بتهمة السماح بتراجع المعنويات التي تحقّقت في الجبهة الجنوبية.

مـررتُ سريعًا على هـذه الذكريات لأصل إلى إحـدى معجزات الحـرب التي حصلت خلال هذه العمليات، إنها الحادثة المعجزة التي أدّت إلى انتصارنا، وكان لها صدى واسع داخل إيران. فصمود ومقاومة عدد قليل من قوات لواء المهدي المحاصرين بقيادة «مرتضى جاويدي»* عند قمة «بـرد زرد» كـان عظيمًا ليخلّد في تاريخ هذه المنطقة إلى الأبد.

كان من المقرر أن يجري الاستيلاء على ثماني قواعد عراقية هامة خـلال المرحلـة الأولى من العمليـات، وتثبيت مواقعنـا لإكمال المهمة.

*– صدر كتاب حول ذكريات الجبهة بإسم «تلة جاويدي وسر أشلو» وهو قيد الترجمة ويصدر قريبًا.

كانت إحدى تلك القواعد على هضبة «برد زرد» التي تقع وسط وادي بين مرتفع «كدو» 2500 متر عند المحور الجنوبي، ومرتفعات «قمطرة» 3000 متر عند المحور الشمالي. وهي تشرف على الممرّ الاستراتيجي لعبور الآليات والسلاح انطلاقًا من مدينة «تشومان مصطفى» إلى هذه المنطقة. استطاعت قوات كتيبة «الفجر» السيطرة على هذه الهضبة منذ الليلة الأولى لانطلاق العمليات، فأسرت عددًا من الأعداء، وأغلقت الممرّ، لكن قامت قاعدتان أخريان بمحاصرة الأخ مرتضى وتسعين فردًا من قواته، وقطعت التواصل بيننا وبينهم.

واجهنا أزمة حادة؛ إمكانية التقدم محدودة، وقد حوصرت مجموعة من خيرة قواتنا. لكنّ التواصل عبر الأجهزة اللاسلكية بقي جيدًا، وحسب مصطلح الاتصالات خمسة على خمسة. فكان الصوت واضحًا وشفافًا، لأننا كنّا موجودين في مرتفع أعلى، ومرتضى وسط الهضبة.

أخذ «صياد الشيرازي» الجهاز وخاطب مرتضى: «لقد فتحنا كوّة ضيّقة، مدّ يدك لنا سريعًا». أي حاول الانسحاب ما دامت الفرصة متاحة. أجاب مرتضى بصراحة ومن دون تشفير: «لقد وعدت جعفر بالإمساك بالهضبة، والطريق الأساس تحت إشرافنا، اطمئن، لن نسمح بتكرار الرماية من أحد».

لذلك ركّزت قوات صدّام هجماتها القوية لاسترداد تلك التلّة. كان عليهم المرور من تلك الطريق لإيصال القوات والأسلحة إلى قواتهم، وإفشال هجومنا بالكامل. كانت الهجمات العراقية متلاحقة، وكنّا منزعجين وقلقين لأنّنا لا نستطيع مساعدة مرتضى في هذه الظروف. علمًا بأن هجومنا استمر، وكنا نحتلّ القاعدة تلو الأخرى لنقترب من قواتنا المحاصرة.

في هـذا الوضـع الصعب، قرّر الإخـوة في كتيبة الفجـر الاستمرار بالمقاومة والصمود وعدم الانسحاب. ففي الهجوم الأول للعدو، دمروا شاحنة «إيفا» بمـن فيها من الجنود، وشاحنة وذخيرة وسط الطريق، وأغلقـوا بذلك الطريق. فأرسلت القوات المعاديـة جرافة لفتحه، لكنّ الإخـوة تمكّنوا مـن إصابتها فبقيت في مكانهـا. وبعد ذلك استطاعت قوات «جاويدي» تدمير أي آلية تقترب لفتح الطريق.

استمـرّت مقاومة هؤلاء الإخوة أربع ليالٍ علـى الرغم من النقص الحـاد في الماء والطعام والذخيرة. واستطاع مرتضى أن يصلح مدفعًا مضادًّا ذا أربع فوّهات، وهذا ما مكّن قواته من إعطاب كل تلك الآليات والقوات الداعمة بذلك المدفع، لكن بفوهة واحدة منه.

باقـي الكتائـب التي علمت بصمـود ومقاومة هـؤلاء الإخوة تابعت المراحـل التالية من العمليـات بمعنويات أعلى، وكانـوا يتقدّمون حتى استطاعـوا في أواخر الليلة الخامسة إلحاق الهزيمة بقوات العدو التي تحاصر الإخوة، وتمكّنوا من الوصول إلى «جاويدي» وقواته.

كنت أول من وصل إلى تلك القمة، وشاهدت على ضوء القمر جسد أول شهيد، فعرفته وبكيت لفقده. إنه «إبراهيم الأحمدي» الذي تحدّثت عـن جهوده في نقل المقاتلين بالقطار. وعندما رأيت الأخ مرتضى، كان جسمه محطّمًا وليس فيه رمق، عيناه حمراوان من السهر، ولم يبقَ من قواته سوى ثمانية عشر شخصًا ينهشهم الجوع والعطش.

سـارع الإخـوة في الجهـاز الصحـي والدعـم لنقلهـم إلى الجبهة الخلفيـة، واستمرت العمليات حتى ليل الثاني من آب، بعد أن سيطرنا علـى معظم القواعد. لكن العدو استمر بتنفيذ هجماته، ففرض علينا ظروفًا صعبة جدًا كادت تودي بنا.

ليلـة الثالـث من آب، جـاء الأخ رشيد وقـال: «غـدًا سينتهي الأمر

وتذهبـون للاستراحة». نظرت إليه بتعجـب، فقال: «غدًا سنقوم بأمر ما يجبر العدو على ترك المنطقة».

انطلقـت عمليات «والفجـر الثالثة» شمال مدينـة «مهران»، وتمّت السيطرة علـى مرتفعات «كله قندي» المعروفة، فجرجـر العدو أذياله مغادرًا المنطقة، وتنفّسنا الصعداء.

لم تكـن تلك نهاية مهمتنا. بل لعلّه مـن الأجدر أن أقول إنّ الفصل النهائـي مـن عمليات «والفجـر الثانيـة» كان في بيت سماحـة الإمام الخمينـي الراحـل. فمـا إن انتهـت العمليـات القتالية حتـى أعطونا بطاقـات لزيارة الإمام الخميني ولقائـه، كل الإخوة الذين شاركوا في العمليات علموا بالخبر، فتقاطـروا إلى مقر القيادة، وكل واحد منهم يريد أن يكون في عداد الزائرين، وكان أعضاء التعبئة أكثر إلحاحًا من غيرهم. وحصّتنا كانت محدودة ولا يمكننا بواسطتها إرضاء الجميع. مثـلًا الأخ «عباسـي» من أهـالي «زرقـان» بفارس، أخـذ يشكو ويبكي ويتوسل، مـا اضطرني للتخلي عن بطاقتي لتهدئته. وانتهى الأمر على خير، واصطحبنا عددًا منهم إلى طهران.

خلال اللقاء مع سماحة الإمام، قدّم كلٌّ من محسن رضائي وصياد الشـيرازي تقريـرًا حـول العمليات، وأشـاروا فيـه إلى بطولة وصمود وخـبرة الأخ «مرتضى جاويدي» وقواته. عندمـا سمع الإمام الخميني كلام صياد، نهض واقفًا واحتضن «جاويـدي»، وتسمّرت الأعين على الإمام وشفتيه المباركتين على جبين مرتضى.

اختفـى لونُ مرتضى من شدة الخجل ودُهش، وأفاقَ من صدمته، وأخذ يقبّل يد الإمام ووجهه وكتفه وهو يجهش بالبكاء.

## الاسم العظيم

بعد أن توقّفت عمليات «والفجر الثانية»، كنّا في معظم المحاور نتسلّق القمم والمرتفعات، بينما بقيت قوات العدو خلف السواتر والمتاريس. وبعد أسبوعين من هذه العمليات، زرتُ أحد المحاور المتقدمة مقابل قوات العدو، حيث تزداد الخطورة، وبينما كنت أتفقّد المواقع، وأتطلّع من خلال المنظار إلى سواتر العدو، لفت نظري شيء ما.

حدّقت بإمعان من خلال المنظار، لأرى جسدَي اثنين من إخوتنا ملقَيَين على أحد السواتر، وبالقرب منهما رشاش غرينوف وجهاز لاسلكي (PRC57)، وقبل أن أبدي أي ردّ فعل، اقترب مني قائد الكتيبة «دلاور زارعي»، وهو من أهالي «نور آباد»، وقال: «والله، إني أسعى منذ الأمس لسحبهما من مكانهما، ولم أتمكّن من إنجاز هذه المهمة».

لم أعقّب على كلامه، بل رحت أتطلّع إلى البعيد، فعاد يهمس بأذني: «اطمئن، سنأتي بجسدي الشهيدين، فضلًا عن السلاح والجهاز أيضًا».

لم أستطع النوم تلك الليلة، وأنا أفكر بهذين الشهيدين. وفي الصباح، عدت لأتفقّد المحور، وما إن وصلت حتى لاقاني «دلاور زارعي» مبتسمًا، وقال: «أرأيت؟ قلت لك اطمئن!».

في الليلة نفسها، كلّف الأخ «دلاور» اثنين من الإخوة بالبقاء خلف

الرشاش الثقيل وأن يظلّ مسلطًا نحو الموقع المعادي المقابل، وطلب منهما أن يرشقا ذلك الموقع بطلقات رشّاشاتهما كل بضع ثوان، ثم توجّه مع ثلاثة إخوة آخرين واقتربوا إلى مسافة عشرين مترًا من الساتر المعادي، وتقدّم «دلاور» بنفسه حتى صار على بعد خمسة أمتار من الساتر. في ذلك الوقت، كانت قوات العدو خلف الساتر، توقّيًا للرصاص المنهمر عليها، فحمل «دلاور» الشهيد تلو الشهيد وسلّمهما على التوالي لمرافقيه الثلاثة.

لقد شهدت لـ«دلاور» أعمالًا بطولية شبيهة بهذه، فهو طويل القامة وشجاع، وما زلت أذكر تلك المواقف الشجاعة. وكما وعد، تمكّن من إعادة جسدي الشهيدين والرشاش الثقيل والجهاز أيضًا.

كان يتحدث بلهفة وحرارة عن عملية سحب جسدي الشهيدين، وليتني -في تلك اللحظة- كنت أعلم أنه بعد أيام سيسقط جسده عند ساتر آخر، ويقوم مقاتل آخر بسحبه.

## قمرتشين

لا أدري لماذا كان الإخوة ينادونه بالحاج علي من دون ذكر كنيته، فهو قبل الحرب كان يعمل في إحدى الدول الخليجية، وما إن التحق بالجبهة حتى لمع نجمه، وأظهر إمكانيات ومهارات فرضته علينا فرضًا، وقرّرنا سريعًا تعيينه قائد كتيبة. إلا أنه كان يرفض ذلك، لكن إصرارنا نفع معه، فقد أصررتُ عليه بإلحاح لقبول عرضنا لأنه كان رجل ثبات وقرار.

في الليلة التي سبقت انطلاق عمليات «والفجر الثانية»، وصل الأخ «علي شمخاني» إلى المقرّ، وقال: «أريد الاجتماع بقادة الكتائب لأرى كم مفلحًا فيهم!». فأجبته: «بسم الله».

عقدنا الاجتماع، وتحدث الأخ «علي شمخاني». ولمّا حان دور الحاج علي ليتكلم، وكان الحاج علي لا يكترث للخرائط وقراءتها، حتى إنه لم يكلّف نفسه عناء تعلّمها، وأما الأسوأ من ذلك -بالنسبة إلى كونه قائد كتيبة- فقد أخطأ بلفظ «تمر تشين»، وقال عوضًا عنها: «قمر تشين»، وهو يقف أمام «شمخاني» الذي لم يعلّق على الاسم؛ إما لأنه لا يعرفه، وإما لأنه لم ينتبه، والله أعلم.

ثم فجأةً، بدا الأخ «شمخاني» وكأنّه اكتشف شيئًا ما، فتنحّى بي جانبًا، وأصرّ عليّ أن أستبدل الحاج علي بشاب آخر، فهو ليس أهلًا لقيادة الكتيبة.

عــذرًا، كيف يمكننــي استبدال أفضل قائد كتيبة عنــدي بآخر أقلّ قدرة منه؟!

ربّت على كتفي بهدوء، وقال: «يا أخ أسدي، هذا ليس كما تظنّ».

ابتسمت، وقلت له: «اطمئن، إنه الأفضل في مجال العمليات».

كان من الصعب عليه القبول برأينا، لكنّه عاد ووافق.

عند انطلاق العمليات، كان الحاج علي أول قائد كتيبة يقدم تقريرًا بوضعه، اتصل عبر الجهاز وقال: «لقد استولينا على القواعد والمخافر الأربعة، واستقررنا داخلها».

قلــت له: «كــرّر تقريرك بوضــوح، ماذا فعلــت؟»؛ وأعطيت الجهاز لــلأخ «شمخــاني». يبــدو أنّ الحاج علــي أدرك أنّ الجهــاز أصبح بيد «شمخــاني»، فأخذ يتكلّم كالبلبل، وقدّم تقريرًا كاملًا عن وضع قواته. دهشــ «شمخــاني» وهــو يصغي إليــه، وقــال لي: «هل أنــت متأكد أنه الشخص نفسه؟!».

- وهل تشك في كلامي؟

في المرحلــة الثانيــة مــن العمليــات، أصيب الحاج علــي بشظية في قلبــه، فاستشهد على الفور، وبذلنا ما بوسعنا لتهدئة قواته، حيث كان أفرادها يبكون ولا يطيقون فراقه.

رغــم أني كنت ملتزمًا بحضور مراســم تشييع شهداء لواء المهدي، لكــن حساسية المنطقة وخطورتهــا لم تسمح لي بالمشاركة في المراسم، لكنــي بعد مــدة أردت التعويض عــن تقصيري السابــق، فتوجهت إلى مدينة «لامرد» وأصرّت والدة الشهيد علينا لتناول الغداء في بيته.

جلــس الإخوة المقاتلون وأخذ كلٌّ منهم يذكر رواية عنه، أو ذكريات خاصــة معه، ليظهــروا مدى حبهم وتعلّقهم بالحــاج علي، بينما كانت

والدته تحدّق بعيون المتحدّثين، وتهز رأسها أحيانًا تصديقًا لكلامهم.

طلبتُ من والدة الحاج علي أن تخبرنا شيئًا عن الشهيد، فسألت: «عن أي شهيد أحدّثكم؟»، عندها أدركت أنّ لديها ولدًا آخر قد استشهد. لكنّ المفاجأة التي نزلت علينا كالصاعقة، أنّها تحدّثت عن أربعة من أبنائها قد استشهدوا، ما جعلنا نطأطئ رؤوسنا خجلًا منها، واحترامًا لها.

أخبرتنا أنها أنجبت خمسة صبيان، كانوا صغارًا قبل انتصار الثورة. قالت: «في إحدى الليالي كنت في هذه الغرفة التي تجلسون فيها، فرأيت في المنام رجلًا خيّالًا يمتطي فرسًا يقترب من بيتنا، فتوجّهت نحوه لاستقباله، وكان النور يشع منه بشكل عجيب. هرولت نحوه، وأمسكت بلجام فرسه وقبّلته، وقلت له من دون إرادة منّي: «يا بن رسول الله، فدتك نفسي، انزل لأسقيك الماء». أجابني: «يجب أن أذهب، أتيت لآخذ أبناءك». فأمسكتُ بيد أحدهم، وقلت له: «سيدي العزيز، دع أحمد عندي، وليذهب الباقون معك». فوافق على ذلك. وما هي إلا لحظات حتى كان أبنائي الأربعة جاهزين، ركبوا خيولهم وذهبوا، وبقي أحمد معي. وهو معي إلى الآن».

فاض بها حنين الأم لتقطر دمعة من عينها، وخاطبتني: «بني، لقد وهبتُ أبنائي إلى سيدي ومولاي الإمام الحسين عليه السلام منذ زمن، ولستُ عاتبةً ولا معترضة».

رأيت طودًا من العزة والاستقامة أمامي، وأحسسنا جميعًا بالحقارة. أخبرناها عن كيفية استشهاد ابنها، وأنّ قذيفة انفجرت بين الإخوة قبل أيام، واخترقت شَظِيَّةٌ ورقةً في جيبه وأصابت قلبه وقد كتب في الورقة مسبقاً: «الشهيد الحاج علي النوري».

## تصديق المهندس

سرعان ما سألني: «كم طالت المدّة؟»، أجبتُ: «ثمانية عشر يومًا!». فأشار إلى السائق ليتوقف. ثم نظر إليّ بعينين حائرتين سائلًا: «أحقًّا ما تقول أم إنّك تمزح؟».

- ولمَ أمزح؟ وهل بيننا مزاح؟

عندها، ترجّل من السيارة، وترجّلنا خلفه جميعًا.

بعد عمليات «والفجر الثانية»، جاء السيد «بشارتي» - نائب مدينة «جهرم»- ومعه عدد من النواب لزيارة المنطقة. كنا نسير في الطريق عند كتف الجبل باتجاه القمة. كان أحد النواب الموجودين مهندس طرق، دُهش عندما علم أن الإخوة في جهاد البناء لمحافظة فارس، استطاعوا شقّ الطريق خلال ثمانية عشر يومًا.

عندما ترجّلنا من السيارة، التفتَ نحو السيد «بشارتي»، وقال له: «إنّ إنجاز خرائط هذه الطريق يحتاج إلى سبعة أشهر في الحد الأدنى. في حين أن هذا الأخ يقول إنهم قد أنهوا تنفيذ وإنجاز خرائط الطريق خلال ثمانية عشر يومًا!».

ضحكت وقلت له: «أخي العزيز، لقد أنجز الإخوة في جهاد البناء خلال فترة الحرب أعمالًا أعظم من هذا. فلا تعجب».

- مستحيل! هل كنت بنفسك حينها؟

- نعم، كنت بنفسي.

- وهل رأيت طريقة عملهم هذه؟

فأكّـدت له أني رأيت ذلك بنفسي عن قـرب. ابتعدتُ قليلًا عنهم، وأشـرت بيـدي إلى إحـدى الجهات قائـلًا: «كان هنـاك أخ من جهاد البناء اسمه شمايلـي، كان يتسلّق قمة ويشير إلى سائق الجرافة كيف يتحرّك، ويرشده إلى مسار الطريق، وعندما تصل الجرافة إلى القمة، يركض ويتسلّق قمة أخرى، ويكرّر لسائق الجرّافة إرشاداته ليصل إلى القمة الأخرى».

وضع المهندس يـده على خصره، ونظر إلى الطريق بدهشة فائقة، وهزّ رأسه، كأنّ شيئًا ما قد فاته.

وتابعـتُ كلامي: «نعم يـا جناب المهندس، كانـوا يقضمون الجبال نهارًا، ويعملون في الليل بآليات أخرى لتسطيح الأرض، وجعلها صالحة لمرور الشاحنات والآليات، بهذه البساطة!

بعد أن أكملوا جولتهم وجاء وقت الوداع، اقترب المهندس مني، وكأنه يخشى أن يسمعه الآخرون، ويستخفّون به، فقال لي هامسًا: «إنّ تصديق ذلك أمر صعب جدًّا، لكني سأصدّقه لأنك أنت قلته، وأنا أثق بك».

فتلفـتُّ حولي وقلت له همسًا: «معك حـق! إنّ تصديقه أمر صعب، لكن لو أكثرتم من زياراتكم هذه، فستصدّقون كلّ ما حصل».

## آه لما أنت عليه

من مهامي الدائمـة والطبيعيّة خلال سنوات الدفاع المقدس، كانت إلقـاء الكلمات خـلال اجتماعـات الفرقـة أو اللقاءات بـين الكتائب، وبالتحديـد في ليـالي العمليـات، وفي أحيان كثيرة بمناسبـة ومن دون مناسبـة، فالمفروض أن أكون جاهزًا على الـدوام للتحدّث إلى قواتي. لكـن للأسف، لم أملك أيّ فرصة للتحضـير وكتابة الخطابات، وتهيئة الأفـكار التـي سأطرحها، ولم أكـن أكترث لذلك. لكنـي في أحد الأيام تحدثت مع أحد أفراد التعبئة في مستشفى شيراز، وتغيّر رأيي بالكامل..

بعد عمليات «والفجر الثانية»، توجّهت إلى المستشفى لعيادة الجريح الحـاج «كاظم حقيقت»، وكان من قادة الفرقة. وعلمت هنـاك أن أحد أفراد التعبئة جريح وموجود في طابق آخر، فقمت بزيارته أيضًا، وكان اسمه «رنجبر»، وقد فرح لزيارتي كثيرًا، وانطلق لسانه بالكلام، ومما قاله: «بالله عليك سامحني يا حاج».

- وهل حصل شيء ما؟

- كلا، لكن لعلّي لم أنفّذ بعض أوامرك بدقة.

- فداك، خيرًا فعلت إذ لم تنفذها.

- كلا، كلا، لقد نفّذتها كلّها.

- حسنًا الحمد لله.

- عندما قلت: لا تتناولوا حصة الطعام الاحتياطية إلا عند الضرورة، لم أعد أتناول حتى اللوز. وسلّمت السلاح إلى الإخوة عندما أُصبتُ، وليلة الهجوم صمتّ ولم أتفوه بكلمة. كل أوامرك التي صدرت عنك كنت أدوّنها في ورقة كي لا أنساها.

- بارك اللّه بك، إذًا كانت سيرتك جيدة.

- والآن إذا كان هناك أي تقصير منّي فسامحني. هل ستسامحني؟

دمعتْ عيناي، فقبّلت جبينه، وقلت له: «عزيزي، أنت نور عيني، ومبعث فخري وبركتي. فعندما يقبّل الإمام الخميني أيديكم، فما علينا إلاّ أن نقول: نحن الذرة التي لا يُحسبُ لها حساب».

ما إن خرجتُ من زيارته حتى عاهدت نفسي أن أدرس بدقّة كل كلمة ألقيها موجّهة للقوات، خاطبت نفسي قائلًا: «عندما يصغي أحد أفراد التعبئة بعمر الرابعة عشرة إلى كلامي، وينفّذ توصياتي وأوامري بدقة متناهية، ثم يطلب المسامحة منّي لعلّه قصّر في تنفيذها، فآه لما أنت عليه يا أسدي! إذا كان كلامك غير مدروس وفيه ضعف! والويل لك يا أسدي إذا حرّفت الأمور وتكلّمت جزافًا! والويل لك إذا كانت وصاياك خاطئة وغير مناسبة. آه لك لما أنت عليه!»

## دائرة الرسالة

في منطقة العمليات الغربية، وفي ظل إطلاق نار متواصل يُمطرنا به العدو، كنت مع جمع من قادة الفِرق ننتظر فرصة لتهدأ القذائف ويتوقّف الرصاص، لنعقد اجتماعًا. كنت داخل القناة أنتظر أن هدوء الأوضاع، عندما قام الشيخ الميثمي[1] بالتلويح بعمامته البيضاء، ثم نادى من الجانب الآخر للقناة: «الإخوة الذين يريدون عقد اجتماع، فليأتوا إلى هنا».

حمل اثنان من القادة خريطة المنطقة، ونظرا ناحية الشيخ الميثمي بتعجّب، كأنّهما يريدان أن يسألاه عن مكان الاجتماع في ظلّ تساقط شظايا قذائف (60ملم)؟

توجّهنا الواحد تلو الآخر نحوه، فوجدناه قد نشر عباءته فوق القناة، ووضع أربعة أحجار على أطرافها، وقال: «سوف نجلس هنا تحت العباءة!».

كلامه هذا أوحى بنوع من الثقة الناشئة عن الروح المعنوية العالية

1- العالم الفاضل الشيخ عبد الله الميثمي، ولد في اصفهان عام 1955م، اعتقل قبل انتصار الثورة لثلاثة أشهر وتعرض للتعذيب على يد عملاء النظام الملكي، بعد بدء العدوان الصدامي ضد إيران تولى مسؤولية مكتب ممثلية الإمام الخميني في مقر خاتم الأنبياء، وكان له الدور المؤثر في التوجيه المعنوي لقادة الدفاع المقدس. استشهد في عمليات (كربلاء الخامسة) في 1987/1/29م. قال الإمام الخامنئي عنه: كان لهذا العالم الشهيد جهاد كبير ومضنٍ في ساحة المواجهة، وكان يؤدي ذلك بوجه عاشق، وكانت شهادته جائزته السعيدة لحياته الملكوتية.

بين الإخوة. لذلك، نظر بعضهم إلى بعض بارتياب وتردّد، ومن دون أن يعترضوا، أتوا ليجلسوا معنا تحت العباءة. سأله أحدهم: «مولانا، ألا تعتقد أن هذا تصرف خطير». أجابه الشيخ ضاحكًا: «إذا لم تتوكل فهو خطرٌ، تعالَ أخي ودع الوسوسة».

بُسطتْ الخريطة على الأرض، وطال الاجتماع لأكثر من ساعة، كانت الشظايا خلالها تتطاير حول القناة وتسقط داخلها، أما المكان الذي جلسنا فيه، فكان في أمانٍ ومنعةٍ من كل ذلك.

عصر ذلك اليوم، كنت عائدًا إلى المقر، فتقدّم أحد الإخوة نحوي وهمس في أذني: «إنّ أخا الشيخ الميثمي قد استشهد. كان ملتحقًا بكتيبة الفجر من فرقة المهدي كعالم دين ومبلّغ».

لكن سماحة الشيخ الميثمي كان أذكى من أن يَخفى هذا الأمر عليه، فسألني: «يا أخ أسدي هل حصل لأخي مكروه؟».

كانت نظراته تجعل إخفاء الأمر صعبًا عليه. لذا، قلت له: «لقد جرح شيخنا». ابتسم كأنّه يقول لي إني أعرف ما حصل، وقال: «إنّ لهجتك تنبئ أن الأمر يتجاوز الإصابة».

سكتّ، فتابع حديثه: «قل للإخوة أن يحتفظوا بعمامته كما هي من دون أن يفكّوا بعضها عن بعض».

اتصلت عبر الجهاز بكتيبة «الفجر»، وأبلغتهم طلب الشيخ، ثم توجّهنا معًا إلى براد مستشفى «بيرانشهر» لرؤية جسده.

عندما سحبوا الجثمان من الجرار، مرّر الشيخ الميثمي يده على رأس أخيه الذي بدا كأنه نائم إثر جروح عميقة، ويريد الشيخ أن يداعبه. تعرّق جبينه، ثم انهمرت الدموع من عينيه فوق رأس أخيه.

أمسكتُ بيده وأبعدته عن الجثمان، لكنه عاد وتناول عمامة أخيه التي

بقيت كما هي. خرجنا من المستشفى، فسألته عن سبب إصراره على الاحتفاظ بعمامة أخيه. قال: «إنه يريد وضعها فوق تابوته يوم تشييع جثمانه ليعلم الناس أن عالم الدين مثل سائر المجاهدين في الحرب، وأنّه لم يأتِ للوعظ والإرشاد فقط، بل إنه يقاتل إلى جانب المقاتلين».

طبعًا، حينها لم يعد خافيًا على أحد حضور العلماء كمشاركين في الحرب، فها هو سماحة الشيخ الميثمي يحضر دومًا في خطوط المواجهة، ويرفع من معنويات القادة، ولا يرى لنفسه أي فضل على غيره ويبتعد عن التظاهر؛ عندما أصيب في عمليات «كربلاء الخامسة» بشظية في رأسه واستشهد، رأينا جميع المقاتلين متأثرين، وكأنّ أخًا كبيرًا وعزيزًا لهم قد فقدوه.

كفاه عظمة ومرتبة كلام الشهيد الشيخ «المحلاتي» ممثّل الإمام الخميني في قوات حرس الثورة الإسلامية عنه: «إن سماحة الشيخ الميثمي بدا وكأنه عاش لتسعين عامًا، فغادر الدنيا مرة، وعاد إليها ثانية».

بدوره، أخو الشيخ الميثمي كان يتحلّى بهذه الروحية، ففي بدايات وجوده في الفرقة لم يكن معروفًا، بل كان يجلس بين الإخوة المقاتلين، ويعلّمهم الأحكام الشرعية ومحاسن الأخلاق، ويومًا بعد آخر أحبه الجميع، ولذا، استأثر به الإخوة في كتيبة الفجر.

قال عنه قائد مجموعات كتيبة الفجر: «كان يقف مصلّيًا في منتصف الليل، وعندما يسجد سجدات طويلة كنت أظنّه نائمًا، لكنه كان يرفع رأسه ثانية ويكبّر، فأُدرك أنه كان في بكاء وتهجّد».

## لا هذا ولا ذاك

اشتاق الإخوة المقاتلون إلى العودة إلى الجنوب، وضاقت صدورهم من البعد عنه، وعظم عليهم الأمر. جاز لهم أن يكونوا محقّين، فهم قد شهدوا في الجنوب انتصارات كبرى، ولم يعتادوا أجواء جبهة الغرب. كان هدفنا منذ اليوم الأول حين قدمنا إلى الجبهة الغربية أن نشغل العدو حتى تتمكّن القيادة من الإعداد لعمليات كبرى في الجنوب. أما اليوم، بعد عمليات «والفجر الثانية»، فإنّنا نشعر أنّه لم يبقَ لنا ما يشغلنا، ولا بد من العودة. فنحن نحسب حسابًا للمسافة الطويلة والمرهقة من محافظة «فارس» إلى «بيرانشهر»، فالإخوة من أهالي «لار ولامرد» كانوا يسافرون لمدة سبع ساعات حتى يصلوا شيراز، ثم السفر عشر ساعات ليصلوا إلى الأهواز، ومن هناك إلى أن نصل إلى مكان وجودنا في الغرب يستغرقون عشرين ساعة. وكان عليهم أن يتحمّلوا المواجهة في منطقة وعرة، بعد عناء السفر الطويل هذا. لكن ماذا نفعل؟ فليس باليد حيلة، خاصة بعد أن أصبحنا خبراء في المنطقة ومرتفعاتها، وبات لدينا معلومات جيدة عن وضع العدو فيها، كل هذا زاد من صعوبة انتقالنا إلى الجبهة الجنوبية.

لكنّنا كنا على علم أنّ مسؤولي الدفاع ينوون الاستفادة من لواء «المهدي» في الجبهة الجنوبية، ما أراح بال الإخوة. لم يطل الأمر حتى أتت وحدات أخرى وتسلّمت منّا المواقع. وتهيّأنا للعودة إلى الجنوب.

لكـن قبـل أن نتحـرّك في الساعات الأخـيرة، تمّ إقـرار خطة عمليات «والفجر الرابعة» في مرتفعـات «بنجوين»، وكنا جزءًا من الخطة، لذا توجّهنـا إلى تلـك المنطقة. أظـنّ أنّه في ليلة الثامـن عشر من تشرين الأول انطلقـت العمليـة. وكان هدفها وصل جبهـة الدفاع في مرتفعات «سـورن» و«سوره كوه» ليكون هنـاك تواصل وتكامـل بينهما، ولنتمكّن مـن المحافظة على المحاور بعدد أقلّ من القـوات. وعلى الرغم من أنّ العمليـة كانت محـدودة، سيطرنا على مرتفعات هامـة، وأُغلق طريق تسلّل أعداء الثورة من العراق إلى إيران.

بعـد تنفيذ تلك العمليـة بأيام عدّة، توجّهنـا إلى الجنوب، وهناك كانت تنتظرنا ظاهرتان هامتان ومقلقتان: الظاهرة الأولى؛ طُلب منا تحويـل اللواء إلى فرقـة، فرفضنا ذلك، وعـدّدتُ الأسباب، لكن تبيّن لنـا أنّ معظم ألويـة الحرس قد تحوّلت إلى فِرَق قبـل عملية «والفجر الثانية»، وسرت عملية التحوّل هذه حتى طالتنا، فأذعنتُ للأمر.

الاستعـدادات والتجهيـزات داخـل لـواء المهدي كانـت جيدة منذ البدايـة عـدّةً وعددًا، بحيـث إن تحويله إلى فرقة لم يكـن يحتاج إلى تغيـيرات أساسيّة. لا سيّمـا أنّ الحرب كانت قائمـة، ولم يكن الوضع كمـا هو في حال السلم، حيث يحتاج مثـل هذا التغيير إلى مسار طويل ومعقّـد. فالقـوة التـي تتجهّز خـلال شهر، وتنتقـل انتقـالًا متعبًا من الجنوب إلى الغرب، وتستعدّ قواتها لسماع الشروح النظرية خلال ليلة واحـدة لتنفّذ عمليات هجومية، فإنّها تستطيع أن تتحول إلى فرقة من دون صعوبة تذكر، فليست أمور الفرقة شبيهة بأمور اللواء. والتغييرات الطارئة تتمّ بالتدريج، وهذا هو الصحيح.

الظاهـرة الثانية كانت جديدة كلّيًـا، بل أكثر ممّا نتوقّع، وقد لمسنا

ذلك من التحضير لعمليات خيبر التي ترتكز على نقل قوّاتنا جوًّا[1] إلى خلف نهر «دجلة» لإغلاق طريق «العمارة-البصرة». كانت هذه المهمة مختلفة تمامًا. كنّا قد سمعنا في الحروب السابقة بعمليات إنزال القوات خلف خطوط العدو عبر نقلها بطائرات مروحية أو طائرات الإنزال الكبيرة. لكنّ قوّاتنا، لم تمرّ بتلك التجربة حتى ذلك الوقت، لم تكن أي قوة من الحرس قد تدرّبت على مثل هذه العملية، كذلك لم يفسَح المجال للتبريرات وطرح الأعذار، فتقرّر أن نذهب إلى منطقة «غاوخوني» أصفهان لبناء منطقة مشابهة لمنطقة العملية، نتدرب عليها ونعود باستعداد تام إلى الجنوب.

كانت عمليات خيبر التي ينبغي تنفيذها في منطقة «هور الهويزة» تشكّل استراتيجية جديدة وأسلوبًا جديدًا في القتال. فالجيش العراقي قد تعرّف إلى أساليبنا القتاليّة، وأردنا تغيير هذه الأساليب من خلال تنفيذ عملية قتالية (برمائية) تُبَاغت العدو. وحسب لغة العلم العسكري لا بد من تغيير استراتيجية العمليات، لإيجاد خلل في إدراك الجيش العراقي الاكتسابي عن سلوك إيران العسكري، لذلك كانت العمليات البرمائية نوعًا جديدًا من القتال بديلًا عن العمليات البرية.

كانت كل الوحدات في طور تدريب القوات على هذا الأسلوب الجديد، والتعرف إلى المنطقة المستهدفة واستطلاعها، لذا، توجّهنا إلى أصفهان.

إزاء هذا التطوّر الاستراتيجي، بات من الضروري أن يتدرب الإخوة على كيفية الصعود إلى المروحيات والنزول منها، وعلى كيفية نقل الذخائر والأسلحة كقذائف الهاون والآر بي جي والرشاشات الثقيلة إلى

1- هليبرن (الإنزال) أحد الأسس الأولى للحرب غير المتكافئة، وبتعريف بسيط جدًا هي عملية إنزال القوات وتجهيزاتها في عمق أرض العدو، لإلحاق ضربات مهلكة به، وإضعافه.

المروحية، وكيفية إنزالها بسرعة والتمكّن من التموضع في أرض العدو.

العميد «صياد الشيرازي» والضابط «عبادت» قائد «اللواء 55» المحمول جوًا، كانا موجودين في أصفهان. جرت التدريبات المكثفة لتنفيذ الخطّة، ولاحت بشائر نجاح التجربة لدى الجميع، وسُرّ صياد حين رأى جهوده تثمر، ويمكنه أن يعوّل على نقل القوات ليلًا إلى الخطوط الخلفية للعدو.

عدنا إلى الجنوب، فأخبرونا بحصول تغييرات أساسيّة في المهمة، فمهمتنا في الإنزال خلف خطوط العدو قد ألغيت، لأنّ اختلافًا في وجهات النظر قد حصل بين صياد ومحسن حول هذا الموضوع، ما أدى إلى فصل قوّات الجيش عن الحرس في تنفيذ عمليات خيبر.

قامت قوات الحرس بالانتشار العسكري داخل الهور، أما الجيش فقد اختار محور زيد، وكان رأيي يميل إلى رأي صياد، بينما شعرَ قادة فرقة المهدي بالقلق نتيجة تغيير الظروف. لا أدري، باعتقادي كان يمكن لقوّاتنا أن تكون بوضع أفضل فيما لو تموضعت في الهور، لكنّنا على أي حال نتبع القيادة، وقد تأقلمنا سريعًا مع الظروف الجديدة.

تجهّزنا للعملية، وتوجهت مع «خليل مطهر نيا» بحثًا عن مكان قريب من منطقة العمليات لتستقر فيه قواتنا حتى موعد العمليات، ويكون الوصول إلى نقطة الانطلاق أسهل.

النقطة التي اخترناها كانت تبدو مكانًا آمنًا، وتبعد مسافة خمسة كيلومترات عن نظام صواريخ «هوك» التي يمتلكها الجيش، واعتبرنا أننا سنكون في دائرة آمنة تمتدّ كيلومترات عدّة، ولأجل ذلك لن تستطيع الطائرات المعادية الاقتراب منا. فأقمنا السواتر والمتاريس، ونصبنا الخيام، وقبل بدء العمليات نقلنا قواتنا إلى النقطة التي

اخترناهـا، وقرّرنا أن نجمع الكتائب في اليوم الأخير لأشرح لهم خطة العمليات.

عـدت من خط المواجهة إلى المقـر الرئيس، تناولت قطعة خبز، ثم توجّهت لإلقـاء كلمة، وكان أبي رحمه اللّه هناك. فقال لي: «ابقَ قليلًا لأعدّ لك طعامًا ساخنًا»، وبينما كنت متردّدًا بين الذهاب والبقاء مرت طائرتـان حربيتـان بسرعة وعلـى ارتفاع منخفض. فخطـر لي أنّهما تريدان استهداف منظومة صواريخ «هوك».

مـا هي إلا لحظات حتى دوّى انفجار مهيب. بـتُّ شبه متأكد أنهما أصابتـا النظام الصاروخي، لأنّـه كان هاجسي الأوّل، وغاب عن بالي أن الانفجـار كان لجهة مقرنـا. وفي وسط الطريق إلى مكان القصف، أدركـت ما حصـل، وعندما وصلـت إلى المخيم، كانـت الفوضى تملأ المكان: النار مشتعلة، والدخان يرتفع من الخيم، كما إنّ الذخائر التي جهّزناهـا للعملية انفجـرت في الجو. سقط في كل زاوية من المقر كثير مـن الشهـداء والجرحى، وكانت تجـري عملية الإنقـاذ بين صرخات الجرحـى وأنينهـم، ونداء (يـا حسين...يـا حسين) يتعـالى ويختلط بصرخات المسعفين.

منظـر جسّد أمام ناظريّ صحراء كربلاء. وشيئًا فشيئًا، استطعنا السيطـرة على الأوضاع، جرى نقل الجرحـى بسيارات الإسعاف التي أتـت مـن الوحدات المجاورة، أمـا الحصيلة، فكانـت ثمانية وعشرين شهيـدًا، وأكثر من مئة جريـح، وهذا مـا أدى إلى اضعاف المعنويات، وبسبـب الإصابات والخسائر خرجت كتيبتان من المشاركة في العملية، عـدد أفرادهما ستمئة عنصـر، فالتفكير بالشهـداء والجرحى أنسى القوات استعدادها للعمليات.

يبدو أنّ هدف المقاتلات كان يبعد كيلومترين عن مكاننا، حيث تجمعت مروحيات الجيش للبدء بالهجوم، لكن الجو كان ضبابيًا، ولم تتمكن الطائرات المعادية من رؤية المروحيات على ارتفاع منخفض، فرأت مخيّمنا فقصفته. للأسف، لجأنا إلى حماية صواريخ «هوك»، فأضحت هي ابتلاءنا.

انتشرت الشائعات التي أُطلقت حول خسائر فرقة المهدي سريعًا. ووصل الخبر إلى شيراز حاملًا أنباءً لخسائر جسيمة. قيل إنّ هناك ثلاثة آلاف شهيد، والجميع كان يحاول الاتصال بنا لمعرفة حقيقة الأعداد المتداولة، ولم أسلم من استهدافي بالشائعات، فقد قيل إنني استشهدت، وقام ابن عمي في شيراز بجمع الأقارب ونقلهم بالحافلة وأبقاهم على بعد خمسين مترًا من بيتنا، ونزل إلى البيت يسأل الحاجة عنّي، فأجابته: «لقد اتصل بي وهو بخير». عندها، عاد إلى الحافلة وقال للأقارب بلوعةٍ وأسى: «لقد احترق قلبي عليها، علينا التفكير بطريقة أخرى، وأن نرسل الليلة اثنين من كبار السن لزيارتها والوقوف على حقيقة الأمر». على الرغم من أنني كنت قد اتصلت صباحًا من المقر، وتحدثت مع الأهل، ونفيت خبر استشهادي.

لم تبقَ لدينا فرصة أخرى لتنفيذ العملية، لذا أحضرت كتائب الاحتياط والدعم ليحلّوا محلّ الشهداء والجرحى، وأخبرتهم أن الجيش قد اختار محور زيد، والحرس اختار منطقة الهور.

عندما بدأت العمليات لم يحصل تقدم في محور زيد، بينما استطعنا التقدم جيدًا في المحاور الأربعة: «جزر مجنون»، «العزير»، «القرنة»، و«الطلائية». ووصلنا إلى مدينة «القرنة».

في اليوم الرابع للعمليات، تمكّنت قواتنا من قطع طريق «البصرة-بغداد»، في المحور الشمالي، فجنّ جنون العدو وأقدم على استعمال

القنابـل الكيميائيــة، وكانت المسافـة الفاصلة بين خطوطنـا الأصلية واليابســة بعـد الهور تبعـد 13 كلم، فشكّلـت لنا مشكلـة، إن كان على صعيد تأمين الدعم أو مواجهة الهجمات الكيميائية، فضلًا عن قصف المدفعية العراقيــة الثقيلة. كل تلك العوامل جعلتنا نكتفي بأن نتموضع في جزر مجنون بصعوبة كبيرة.

قبـل دخول فرقة المهدي إلى المعركة، تحدثـت مع الأخ رشيد دقائق معـدودة حول منطقــة «طلائيــة» التي اعتـبرت خط المواجهــة لفرقة المهدي، وأبلغته معارضتي لاختيارها؛ لأننا كنا نعلم أن الجيش العراقي قـد ركّز فيها معظم استحكاماته الحصينة، وفي حال حقّقنا الانتصار الأوّلي، فإنّ الحفاظ عليها سيكون أمرًا صعبًا. وافقني رشيد على ذلك، لكنّه كان يعتقد بعدم وجود نقطة بديلة للهجوم، وأنه ليس أمامنا سوى العبــور من هذا المحور للاقتراب مـن البصرة، وبذلك يمكن التخفيف من حجم الاستهداف العنيف لجزر مجنون، وأن نبقى نحتفظ بها.

عندما تنظر إلى الخريطة تجد أنّ شكل خط الحدود في «الطلائية» متصـل مـع جنوب غـرب خوزسـتـان على شـكل (L) ويشبـه هندل[1] السيــارات القديمة، فشمــال غرب «الطلائية» هــور، وجنوبها يابسة. ومؤشّر تحركنا نحو الهور لم يختلف عن غيرنا.

لكن بعـد أن انسحبت كل القــوات من «القرنة» وطريــق «العمارة-البصــرة» في اليوم الرابع، واستقرت في جزر «مجنون»، جرى إبلاغنا أن الهجوم أصبح من «طلائية» نحو الجنوب. وفي بداية الهجوم، تمكنّا من عبور الكمائن الملغومة، والكمائن المفخّخة المتعدّدة، واستولينا على متاريس خط المواجهــة الأمامي للقوات العراقية. عندها، قام الجيش

1- الهندل: مقبض ذراع مشغّل محرّك السيارة القديمة.

العراقي باستخدام قنابل قوية جدًا، حفرت خنادق، ففتحت ممرات لتفريغ المياه من الهور إلى اليابسة ليمنعنا من التقدم أكثر.

عند الصباح، توقفت قواتنا قرب الساتر الترابي المرتفع الذي يفصل ماء الهور عن اليابسة والذي يستخدم كطريق أيضًا. وهكذا، أصبحت قواتنا محاصرة بين الماء وقوات العدو، ولا يمكننا إرسال قوة لدعمهم، ولا يمكنهم الانسحاب وهم مكشوفون تمامًا للعدو. وبمجرد أن وضح النهار، حولت مدفعية العدو المنطقة إلى جحيم، فكانت حال لم أرَ مثلها من قبل، كانت قذائف الهاون والمدافع تحرث الأرض، حتى أصبحت اليابسة غير صالحة لعبور السيارات والدراجات النارية، لكثرة الحفر المتلاصقة.

كنت قلقًا على المجموعات التي غرقت متاريسها بالماء، ولم يعد لدى أفرادها مكان للاحتماء سوى ذلك الساتر. صبرنا ليوم كامل، وفي الليل عندما أُرهق العدو، وهدأت المنطقة قليلًا، استفدنا من عتمة الليل وسحبنا الإخوة من هناك. وبهذا الانسحاب، انتهت مهمة فرقة المهدي في تلك العمليات.

تلك الليلة، كانت قذائف العدو تنهمر على فرقتنا وفرقة النجف8 كالمطر، وهذا ما سمح للمحاور الأخرى أن تستغلَّ تلك الفرصة لتثبيت مواضعها في جزر مجنون الشمالية والجنوبية.

وفي صباح اليوم السابع أو الثامن للعمليات، أي في اليوم الثاني من عمليات فرقة المهدي ناداني السيد «رحيم صفوي» عبر الجهاز:

- يا جعفر... جعفر معك رحيم.

- يا رحيم أرسل.

- تكلم بالخط الأسود (ويقصد بذلك الهاتف الموصول سلكيًا

بالقيادة).

- لم يعد هناك خط أسود في جهنم التي أُشعلت هنا. (قام الإخوة في هندسة الاتصالات بإعادة وصل الأسلاك التي تقطّعت بسبب انفجار القذائف).

- الأخ الأكبر يريد التكلم معك. (يقصد محسن رضائي)

- إنك ترى أن الخط الأسود مقطوع.

استلم محسن رضائي الجهاز، وقال: «علي إسحاق، مفهوم» (يقصد مقر خاتم الأنبياء).

- نعم مفهوم.

- أحسنتم لقد أرعبتم الجيش العراقي كله.

مسؤول عمليات الفرقة «خليل مطهر نيا» أشار إليّ: «قل له لا فرق، الآن صاروا مثلنا».

وكان إلى جانب جهاز اللاسلكي مكبّر الصوت، فسمع كل الإخوة كلام رحيم صفوي.

كانت حال الإخوة في الجزر أسوأ من حالنا، فالمدفعية العراقية كانت ترمي قذائفها كمن يضرب على الطبل، في كل ثانية تسقط عشرات القذائف على كل النقاط، لقد ذكرت وثائق الحرب أن عدد تلك القذائف بلغ أكثر من مليون قذيفة، وهو ما لم يشبه أي عملية في تاريخ العمليات. ولما وصل العدو إلى مرحلة اليأس من استعادة الجزر بسبب صمود الإخوة وثباتهم فيها. عندها، شرع بالقصف الكيميائي، وملأ المنطقة بالدخان الأصفر السام.

كان الأمر شبيهًا بالانسحاب من طريق «العمارة-البصرة»، ومن مدينة «القرنة» أيضًا بسبب شدّة القصف الكيميائي، وانقطاع الدعم

اللوجستي عن قواتنا. حتى عندما استخدمت المروحيات لإعادة المقاتلين، كان بعض منهم يتعلق بسكة المروحية ليعود.

في مثل هذه الظروف الطاحنة، وبعد ستة عشر يومًا من القتال، استسلمنا نحن وقوات العدو، وعاد الهدوء النسبي إلى المنطقة. فلا نحن استطعنا تحقيق كل أهدافنا، ولا العدو استطاع استعادة جزر مجنون.

على الرغم من أنّ المدفعية العراقية ووحدات الهاون لم توقف قصفها لتلك الجزر، يبدو أن كل قوات اللواء أو الفرقة كانت تتناوب على قصف الجزر بالمدافع والهواوين. وفي زخم أمطار القذائف المنهمرة، استشهد كل من: «إبراهيم همّت»، و«حميد باكري» في الأيام الأولى للمواجهة.

ذكرت الإحصاءات الدقيقة أنّ العراق خسر في هذه العمليات (17000) قتيل وجريح وأسير. بينما كان من المؤلم أن نعترف، بل إن بعضًا رفض أن يعترف أننا خلال هذه العملية وعلى الرغم من كل الإمكانات التي حشدناها، والتخطيط الواسع لها، لم نحصد سوى 20% من النجاح، واضطررنا لإقامة خطّ دفاعي في جزر مجنون.

نعم، علينا أن نقرّ بأنّ حربًا استمرت لثماني سنوات، وعلى امتداد ألف كيلومترٍ، وشهدت الكثير من الانتصارات والإخفاقات -فكما شهد شعبنا انتصارات ملحمية عظيمة، كانت لدينا إخفاقات كبيرة أيضًا- فعلى الخبراء الصادقين تحليلها، لتتعرف الأجيال القادمة إلى حقيقة ما جرى في كل ساحات الدفاع المقدس، ولمنع انتشار الروايات غير الصحيحة.

ما دمنا وصلنا إلى هنا، عليّ أن أقول -بأسف شديد- إنّ ثقافة

الدفـاع المقدسـ لم تعرض أحيانًـا بشكل جيد. فبعضٌ عندما يتناول الحـالات المعنوية للحرب، ويصف المقاتلين، يبالغ في كلامه إلى درجة يُظهـر فيهـا الجميع وكأنهـم جـاؤوا مطهّرين ورحلـوا مطهّرين، ولم يرتكبـوا طوال حياتهـم أي خطأ أو معصيـة. وفي المقابل، نجد هناك محاولات التشويه أحيانًا، حيث ترى في بعض الأفلام أن المقاتلين كانوا متهتكين وغير منضبطين. في كلتا الحالتين، إنّه نوع من الجفاء الفارغ الذي لا يغتفر ولا ينفع، ولا أدري متى سيوضع له حدّ.

لا يمكـن أن ننسـب حربنـا إلى هذا المفهـوم أو ذاك، فقد كان من الواضـح جـدًا أن معظم المقاتلين كانـوا يتوجهون نحـو الجبهات عن التـزام وقناعة، منهم من كان يصبح ملكوتيًا ويلتحق بالرفيق الأعلى، ومنهم من كُتب له عمر جديد. وأغلب هؤلاء بقي على عهده والتزامه، وبعض آخر ندم لما كان عليه.

أعتقد أنّ كثيرين تأثروا بظروف الحرب، فتحمّسوا للقتال وتطوّعوا، منهم الذين جاهـدوا وعادوا، ومنهم الذين بقوا وتغيروا واستشهدوا. لذا، علينا أن نوقف المبالغات في الاتجاهين، وأن نعلم جيدًا أن الإفراط والتفريط في روايـة وقائع ثماني سنوات من الدفاع المقدس سيوجهان صفعة لا تجبر لقيم هـذا البلد السامية، وسيؤديان إلى تحريف تاريخ الدفـاع المقدس بما حمل مـن ملاحم وإيثار، وسيعرضـ كرامة وعزة أشرف الناس في المزاد.

## واسطة إلهية

كـرّر قولـه: «يا اللّه» مرتين، فرفعـت رأسي لأرى مـن القادم. كان يقـف في المدخـل عند الباب، لـه إطلالة لافتة ببدنـه الطويل الممتلئ، بحيـث إنه حجب كل النور من خلفـه، ولم يترك للمتراس سوى القليل من الضوء.

عرفته من صوته. كان وجهه يلمع رغم استدباره للنور.

- تفضل ادخل يا «علي» الورد.

- شكرًا لمحبتك، لم آتِ للجلوس إنما لي طلب صغير.

- رحمة إن شاء اللّه، تفضل.

- عذرًا عم، أريد تعريفًا منك.

- اطلب.

- نعم يا عم.

- ما هو طلبك؟

- ذهبت لأدوّن اسمي في كتيبة الاقتحام، فرفض قائدها انضمامي إليها، وقال: حسنًا، يمكن انضمامك في العمليات القادمة.

- ما شاء اللّه، لا ينقصك شيء من الطول أو القوة، فلماذا رفضك؟

- هـذا ما سألتُ عنه، فقال إنّ القتـال ليس بضخامة الجسم. لقد

آلمني هذا الكلام، لذا أتيتك لتجد لي حلًا.

- إذًا أتيت طلبًا للواسطة؟

- نعم.

- لكن سائر الكتائب جيدة أيضًا عزيزي، فلا فرق بين كتيبة وأخرى.

بدا عليه الخجل والغضب، وبهت صوته. فجلس قائلًا: «إذا لم يقبلوني في كتيبة الاقتحام فسوف أعود إلى شيراز».

لم أجبه. صمتنا لحظات فكرت فيها بوالديه، خشيت أن يشكواني يومًا ما: لماذا أرسلت ابننا عند أول تطوّع إلى أصعب مكان من الفرقة. وتخيّلت والده جالسًا مكانه، وهو يستنطقني: «لمَ لم تبقه ليكتسب خبرة، ويتمرّس في الحرب ثم ترسله إلى الخط الأمامي؟ لقد أرسلته مباشرة إلى كتيبة الاقتحام؟!».

عاد ليتحدث ثانية بصوت خافت: «يا حاج، أعدك وأقسم بالله أن أقاتل أفضل من الآخرين. لقد أخبرت الإخوة أني من أقاربك».

لم يبق لي حيلة، ولم أرضَ أن يتأذّى أكثر من ذلك، فأرسلته إلى «مرتضى جاويدي» ليبقى عنده.

مسح دموعه، وقال: «يعني لا حاجة لرسالة منك، أو أي ورقة أخرى؟».

- كلا يا عم، عزيزي أره هذه فقط وسيقبل.

بعد أقل من أسبوع، انطلقت عمليات خيبر، لاحظ الإخوة القدامى في كتيبة الفجر أسلوب علي في القتال منذ الليلة الأولى، ووجدوه يقاتل ببسالة، فقد دمّر دبابة معادية بقذيفة آر بي جي، وحمل عدة جرحى ونقلهم إلى المسعفين، وصرخ بالمقاتلين مرات عدة: «ماذا تفعلون؟

اضــرب، اضرب، أحسنت، انتبه إلى يمينــك»... وهكذا كان يتصرّف وكأنّه يقود مجموعة أو فصيلًا.

في اليوم التالي، كان علي موجودًا على الساتر الترابي جنب الهور، فأصابتــه رصاصة في كتفه. زحف بصعوبة إلى الخلف حتى وصل إليه اثنان من المسعفين، وضعاه على الحمّالة، وساروا به خطوات فسقطت قذيفة هاون قربهم، وأنهت الشظايا الحامية حياة علي وأحد المسعفين، وقام المسعف الثاني بإبلاغ قائد الكتيبة باستشهاده.

الانسحــاب من المــكان جعلنا نبتعــد مسافة ثلاثــة كيلومترات عن شهدائنــا أمثال «علي». ولم يمضِ وقت طويل حتى جاء والده إلى المقرّ بحثًا عنه، وقال لي: «بلغني أن ولدي جريح».

- يــا حاج أكــبر، لن أكذب عليــك! لقد استشهد عــدد من الإخوة، وكان علي من بينهم.

كانــت معنوياته عالية، لكنه كان قلقًا على والدة علي، فقال: «لا بد أن أعثر على جسده وأعود به».

- لو كان بإمكاننا العثور عليه، لما قصّرنا في ذلك.

لم يقتنــع بكلامنا؛ بل بقــي مدة أسبوع يحاول أن يجد حلًّا. عندها أمسكــت بيــده وأخذته إلى الجبهــة، وأدخلته أحد متاريســ الكمائن، وأشــرت بيدي لمسافة كيلومترٍ واحدٍ، وأخبرته أنّ ابنك ينبغي أن يكون هناك، خلف خطوط العدو، وأعتقد أنّهم قد طمروه بالتراب.

تأوّه بصوتٍ عالٍ، وأخــرج منديلًا من جيبه ليمسح دموعه. أمسك بالمنظــار وأخــذ يتفقّد المنطقــة بدقة، ثم فتح القــرآن الذي كان معه، وجلس يقرأ، ودموعــه تتقاطر. لم أتمكّن من البقاء إلى جانبه هناك، فأوكلــت به أحد الإخوة وعــدت. قبل الغروب، رجع إلى المقرّ وبدا عليه

الاطمئنان، فودّعني وعاد إلى شيراز.

أهــالي محلــة «مهدي آبــاد» شــيراز كلهم تابعــوا قلق والــدة علي وحزنها. يقول أبناؤها: «إنها ترتّب غرفته دومًا، وتبكيه، وأوجبت على نفسهـا النذور لعودتـه، وكلّما طرق الباب في أي وقـت، تنهض وتقول: لعلّه علي قد عاد».

والــدة علي هي ابنة عــم زوجتي، وعندما أكــون في شيراز أزورهم أحيانًــا. إنّ تفقّــد حالهم كوالديّ شهيد في كل أسبــوع وشهر كان أمرًا مستغربًا.

ثلاثــة عشر عامًا مضت، عدت إلى شيراز بعد غياب عنها، وتولّيت قيــادة فرقــة (19) الفجر، عثرت فــرق البحث على عــدد من أجساد الشهداء، فأتوا بها لتسليمها إلى ذويها.

كان محمد أخو الشهيد علي قد أصيب أيضًا، وهو جريح يتكئ على عصاه، جاء إلى مقرّ قيادة فرقة الفجر وقال لي: «أتيت إليك لتتوسّط ويسمحوا لنا برؤية الأجساد».

- إنّ أسمــاء الشهداء باتت معروفة، أما أجساد الشهداء المجهولين فلم يبقَ منها سوى بعض العظام، فماذا تريدون أن تروا؟!

- وهل يضيرك ذلك في شيء يا حاج؟

- هــذه المسألة ليست ضمن سلطتي، فمركز الشهداء تحت إشراف مؤسسة الشهيد.

- يعني ألا يسعك أن تكون واسطة لنا لنرى الأجساد؟

كلامــه هذا ذكّــرني بالشهيد علــي، فلم أتكلم؛ بـل حملت الهاتف واتصلت بمسؤول مركز الشهداء.

مــا إن سمع «الحاج كلاهــي» صوتي، حتى شرع يعتــب ويشكو: «إنّ

عوائـل الشهـداء لا يغادروننـا، وأطلب منهم أن يصـبروا حتى صباح الغـد، لكنهم لا يصغون إلينا!». وعندما علم أنّ طلبي من نوع الطلبات نفسها التي تزعجه، قال: «لم أكن لأتوقّع ذلك منك بالتحديد».

- إنها حالة استثنائية، ألا يمكنك أن تفعل شيئًا؟

صمت لحظات، ثم وافق بتململ شرط أن يأتوا عند منتصف الليل.

صبـاح اليوم التالي، كنت في مكتب القيـادة أتابع أعمالي، لأتمكن مـن الذهاب باكرًا، وأشـارك في تشييع الشهـداء. رنّ جرس الهاتف، وكان محمـد على الخط. تحدّث من دون أن يلقـي التحية أو يدخل في مقدّمات: «أرأيت؟ كان قلبي دليلي، لقد عثرنا على جثمان علي».

للوهلـة الأولى، لم أصـدّق كلامه، فقلت له: «لكـن اسمه لم يرد في لائحة الشهداء!».

- بلى، إنّ اسمه قد ورد، لكن اسم العائلة دُوّن خطأً.

فكّـرت قليلًا وقلت في نفسي: «أخشـى أن يدفنوا شهيدًا آخر مكان علـي»، لذلـك خرجت من المكتب باتجـاه المراسم. وطلبـت هناك من الإخوة العثور على محمد، وعندما التقينا لم يمهلني لأسأله؛ بل بادرني قائلًا: «والله لن تُصـدّق، فلباسه الداخلي الذي حاكته له أمي ما زال على حاله، حتى إنّ لحيته ما زالت سليمة أيضًا».

جـرى دفن علي في «مهـدي آباد»، لكني كنـت حينها في مقبرة دار الرحمـة بشيراز، إلا أنّ جميـع أهالي المحلة الذيـن رأوا جثمان علي، أكّدوا أنه هو بنفسه.

بعد مـرور سنوات، ما زلت أفكر في العلامـات والآثار، كيف بقيت علـى جسد علي، رغم مرور ثلاثة عشر عامًا في جو «خوزستان»، حيث الحـرارة الشديدة والرطوبـة العاليـة، وأعتقد أنّ ذلـك حصل لتهنأ

بذلـك عينا والدته التـي بقيت تنتظره. وكأن الله تعـالى قد توسّط له في ذلك أيضًا.

- لست نادمًا

كان يـوم الجمعة من أيام صيف عـام 1984م، بعد مدة وجيزة من انتهـاء عمليات خيـبر، توجهنـا إلى مدينة «كرمانشـاه» للمشاركة في اجتماع «مقر رمضـان». وصلنا عصر الجمعة، على أن يكون الاجتماع عصر يوم السبت.

أذكـر أنّني أمسكـت بيد الشهيد «مهدي زين الديـن» وتوجّهنا معًا نحو المطبخ، في اللحظة التي خرج فيها الطباخ من الباب، سأله مهدي: «ماذا أعددت طعامًا للعشاء؟».

فكّر الطبّاخ قليلًا وقال: «هل تحب الفاصولياء؟».

ضحـك مهدي وأجابه: «يا رجـل إننا نـأكل الفاصولياء ليلًا طوال الأسبوع!». ثم نظر إليّ وقال: «أليس لنا مشاعر وأحاسيس أيضًا، تعال ولو مرة واحدة لنتناول الطعام في أحد المطاعم». وافقته الرأي، ودعونا الأخ «وفائي» -قائد وحدة الهندسة في المقر- ليرافقنا، فردّ قائلًا:

- لست من أهل الشام (أي العشاء).

- وهل أنت من أهل الكوفة؟

ضحك وقال: لا فرق، فكلاهما «كوفتة»[1].

لم يلبِّ الأخ «وفائي» دعوتنا، على الرغم من إلحاحنا عليه، فذهبت أنـا ومهـدي وجلنا في المدينـة. في المساء، غالبًا مـا تواجهنا صعوبة في العثـور على محلٍّ يحضّـر السندويشات، فهكذا هـي أجواء الحرب في

1- فـي الحديث لعبٌ على الألفـاظ: كلمة «شام» الفارسية تعني «العشـاء»، و«كوفتة» هي الكباب لكنه استعمل لفظ «كوفتة» لقربه من «كوفة».

المدن الحدودية الكئيبــة. تناولنا شيئًا ما وخرجنا. صادفنا محلًا لبيع الألعاب، فاشتريت «بازل»[1] خريطة الكرة الأرضية، واشترى مهدي كرة من القماش لابنته، ثم عدنا إلى المقر، ونسي مهدي الكرة في سيارتي.

وبعــد أسبوعــين أو أكــثر، قــرّرت أن أعيــد الكرة إليــه، لكن خبر استشهاده سبق ذلك. ولم تتح الفرصة لي لزيارة أسرته.

بعــد مرور سنوات، ذهبــت برفقة جمع من الإخــوة لزيارة أسرته، وكانت ابنته قد كبرت، فسلّمتها الأمانة التي احتفظت بها. دمعت عينا الفتاة، ولمستُ حلاوة هدية الوالد الشهيد في وجهها، وشعرتُ بالخجل لأنني سهوت عن إعادتها طوال تلك السنين...

1- وهي صورة لخريطة الكرة الأرضية، مؤلفة من قطع متفاوتة الأشكال يمكن نزعها من مكانها وخلطها، ثم إعادة تركيبها بوضع كل قطعة في المكان المناسب.

## بدر المهدي!

بعد استخـدام النظام العراقـي الواسع للأسلحة غـير التقليدية، قـام بنقل الحرب إلى مناطق أخرى كجزيـرة «خارك» مركز تصدير النفـط الإيراني، جمـد وضع الجبهات. وللمرة الثانيـة، شهدنا ركودًا في العمليـات مفروضًا علينا. مرت سنـة كاملة بعد عمليات خيبر على هذه الحال، فاقترحت القيادة المركزية مجموعة خطط للتنفيذ، وكان هنـاك إجماع على العودة إلى الهور ثانية، وتنفيذ عملية شبيهة بعملية خيبر، لكن باسم «بدر».

الهـدف الذي ركّزنـا عليه في المقر هو ضـرورة الوصول إلى طريق «البصرة-العمـارة»، وإلى المركز الرئيس للأهـوار الموجود غرب نهر «دجلـة». مع العلم أنّ العدو كان قد ملأ المنطقة بالاستحكامات القوية مثل: البراميل الخطرة لقنابل النابالم المشتعلة، لكن بحمد الله تمكنّا في الليلـة الأولى للهجـوم (1985/3/10م) من تحطيـم كل الخطوط الدفاعية للعدو، والوصول إلى اليابسة الواقعة بين الهور ونهر «دجلة».

كانت فرقة المهـدي قد أجرت المناورات المطلوبـة قبل هذه العملية على غرار تمارين ومنـاورات أصفهان السابقة. لكن هذه المرة، جرت المناورات في النقطة الواقعة عند الكيلومتر (75) من طريق «الأهواز-الأميدية»، وبلغت حالة الاستعداد القصوى بمساعي «صياد الشيرازي»

وحضوره الدائم.

وجرت تغييرات في الخطة أيضًا، بحيث استخدمنا في المرحلة الثانية من العمليات «هاور كرافت[1]» وزوارق لعبور الهور، والوصول إلى اليابسة لمواجهة الهجمات المعادية والاستمرار في العمليات. أي إن الفِرق والألوية الأخرى اقتحمت خطوط العدو، بينما قمنا نحن بإكمال المهمة.

عندما وصلنا في الليلة الأولى نفسها، أجبرنا العدو على تنفيذ العمليات، لأنه كان قد وضع لواءً كاملًا في اليابسة ليمنعنا من الوصول إلى نهر دجلة. لذا ومنذ الساعات الأولى من الليل شرعوا بقصف مواقعنا، ليكون ردّنا محصورًا في هجوم محدود. في حين كانت سائر القوات العراقية والمدرعات المعادية غرب نهر دجلة.

في الليلة الأولى، لم نتمكّن من فعل شيء، لأنّ خطتنا كانت محصورة بإرعاب العدو وإرهاقه، كي لا ينفّذ هجومًا عند الصباح.

وفي الليلة الثانية، قدّم لنا الدعم والمساندة لواء الشهداء ولواء (55) المحمول جوًّا، وعلى الرغم من أنّ اليابسة بين الهور ونهر دجلة كانت ضحلة، وقد حوّلتها سدود سيول الهور إلى مستنقع؛ لكن الإخوة استطاعوا الوصول إلى قوات العدو، وأجبروا معظم قواته على التقهقر خلف النهر.

في الليلة الثالثة، كان بعض قوات العدو لا يزال على اليابسة يمنعنا من الوصول إلى نهر دجلة، فتطوع بعض الإخوة لاقتحام متاريس قوات العدو ليلًا. فتبيّن لنا أن معظم هؤلاء كانوا قد استعدوا للاستسلام، بينما رفض القليل منهم ذلك، فتمّت معالجتهم برمي قنابل يدوية داخل متاريسهم، وجرى إسكاتهم. فرفع الجميع أيديهم عاليًا

1- المراكب البرمائية.

مستسلمين، فأخذناهم أسرى.

من اليوم الرابع وحتى السادس، كانت المواجهة غرب هور الهويزة، وأضحت اليابسة بين الهور ونهر دجلة بيدنا.

خلال اليوم السادس، جاء أبي مع ثلاثة من إخوتي بزورق من مقرّهم في جزر «مجنون» إلى ناحيتنا من الهور، وكان المقر الرئيس لفرقة المهدي على بعد مئة متر من الهور. عندما خرجت من المقر متوجهًا نحو الهور، رأيتهم يترجّلون من الزورق، فسألتهم عن سبب مجيئهم؛ فأنا ومحمد جواد وصالح منذ البداية كنا في المعركة، والآن بمجيء الباقين أصبحنا سبعة من أسرة واحدة.

أجابني والدي: «لا داعي للسؤال، أتينا لنراك، وقد رأيناك». ثم تصرّف معي كقائد يريد استلام تقرير، واضعًا يده على خصره وهو يخاطبني: «ولدي العزيز، ما الأخبار؟ هل تقدمتم أم لا؟». ما إن أتمّ جملته تلك حتى سقطت قذيفة، فانطرحنا جميعًا على الأرض، وبقينا مستلقين بعضنا حول بعض فترةً وجيزة نتحدث معًا. فمرّ «محمود ستودة» نائب قائد اللواء بدراجته النارية، وعندما رآنا توقّف، وتقدم نحوي قائلًا: «ما هذا يا أخي؟ هل تنوي القضاء على رأسمال العجوز دفعة واحدة؟»، ثم أخذ بيد أحد إخوتي ورفعه، وقال لهم: «تحرّكوا وتراجعوا، ليس من الحكمة البقاء هنا». ثم نادى لإحضار زورق، وحمل فيه والدي وإخوتي الثلاثة وذهبوا.

تركت صالحًا ومحمد جواد، وركبت الدراجة مع «ستودة»، وتوجهنا نحو الخط الأمامي، كنت قد اتفقت مع «ستودة» أن نلتقي عند المقر لزيارة الإخوة في الخط الأمامي. عندما وصلت وجدت أنّ قوات العدو تنشط خلف النهر، الشاحنات تقلّ الدبابات بكثافة عابرة طريق «البصرة- العمارة».

قذائـف الـ«آر بي جــي» خاصّتنا لم تكن تصـل إليهم، والرشاشات الثقيلـة التـي نستخدمهـا لا تؤثر في الدبابـات. ناديت قـادة الكتائب وقلـت لهم: «إنهــم ينقلون الدبابات ليعبروا بها الجســر». أيّد الشهيد «جاويـدي» كلامــي وقال: «بالفعـل، لقد وصلت دبابات عـدّة إلى هذه الجهة فدمّرناها، لكنهم لن يتوقّفوا حتى الليل وسيكملون عملهم».

عبر «رحيم صفوي» و«صياد الشيرازي» وغيرهما من القادة الهور، واستقروا في المقر المؤقت عند اليابسة قرب الهور، ليطّلعوا مباشرة على وضع قواتنا. كانـت ظروفنا تسير نحو التعقيد أكثر فأكثر، فالطائرات الحربيـة والمروحيات المعادية تحلّـق فوق اليابســة باستمرار وتقصف مواقعنا. لم يبقَ أمامنا ســوى عبور نهر «دجلة»، والسيطرة على طريق «العمارة- البصرة»، وتثبيت أقدامنا، أو التخلي عن كل ما أنجزناه.

بعـد ثمانية أيام من القتـال الضاري، تقرّر تنفيـذ الخيار الثاني، علـى الرغم من أنّ قوات فرقة «عاشــوراء» قد نقلت جوًا إلى اليابسة، ووصلت إلى طريـق «البصرة- العمارة»، لكنّ حشـد القوات العراقية الكثيف في الجهة الغربية للنهر أفشل خطتنا.

ركبت الدراجة مع الأخ «ستودة»، وعدنا أدراجنا لعقد اجتماع نشرح فيــه للقيادة العليا تفاصيل ما جرى في معركة الليلة الماضية. في وسط الطريق، التقينا بشاب من قواتنا وضع جعبته خلفه على الدراجة وهو يســرع نحو الجبهة، ذلك لأن تنقّل السيــارات لم يكن متاحًا، فالإخوة مضطــرّون للتنقّل على الدراجات النارية، ونقل عتادهم عليها. نظرت إليــه بعد أن تجاوزنــاه، فوجدت الخرج الخلفي للدراجــة مثقوبًا، وقد أطـلّ منــه رأس قذيفة آر بي جي، بحيــث إذا اصطدم بأي حجر فإنها ستنفجر حتمًا.

أوقفت الدراجة وأخذت أصرخ وأناديه، لكنّه لم يسمع، فغيّرت وجهة

الدراجـة نحوه ولحقت به، والـكل يناديه: «غل تقـي»، وقد نسيت اسم عائلتـه فهو مـن أبناء منطقة «زرقان فارس». انتبـه إلينا قبل أن نصل إليـه، سمـع صوتنا فتوقف، قلت له: «يا غل تقـي إنك تخاطر بحياتك، لأنّ الذخـيرة لا تُنقل على هـذا النحو!»، فضرب على صندوق الذخيرة بيده بقوة وقال: «إنه مربوط بإحكام، هل تريد أكثر من هذا يا حاج؟!».

- انظر إلى خرجك أيضًا.

نظـر فرأى رأس القذيفة متدليًـا من ثقب الخـرج، ثبت دراجته، ووضع كوفيته مكان الثقب وانطلق مجددًا.

كنّـا قد توضأنـا للتوّ بماء نهر دجلة، قال لي محمـود: «ما دمنا قد توقفنا فلنصلِّ هنا». دفعته ليقف أمامي رغم احتجاجه، وصلّيت مؤتمًّا به. عندما عدنا إلى الخلف، أشار «ستودة» إلى مقرّ عراقي وقال: «في الليلـة الماضيـة سيطرنا عليه! إنـه مكان جيد ومحصّن، مـا رأيك أن نعقد الاجتماع فيه؟».

كنت قلقًا على وضع الخط الأمامي، لذلك قلت لصالح: «نادِ الإخوة ليأتوا».

ودخلـت مع محمـود إلى المقر، كان على شـكل هلال، ينخفض عن سطـح الأرض قليلًا. عندما دخلت كانـت معدتي تؤلمني، فتذكّرت أني لم أتنـاول الإفطـار، اتصلت بالإخـوة في الدعم عـبر الجهاز وطلبت منهم أن يرسلوا لي مع صالح عند عودته شيئًا من الخبز والجبنة.

كان الأخ «رفيعـي» معاون أمـن العمليات هناك، وسمع طلبي، فحمل الطعام معه، وجاء إلينا برفقة الأخ «روغني» مسؤول الاتصالات. ثم جاء صالح، وتبعـه الأخ «فرخي» مسؤول التدريب برفقة السيد «ميردامادي» عالم دين اللواء، وكان يرافقنا منذ عمليات تأمين ««ثامن الأئمة»».

بينمـا كان الإخـوة يتقاطـرون ويتحدّثـون معًـا، تناولـت الطعام، وفرشـت الخريطة على الأرض لمناقشـة ظروف هجوم الليلة، والتوجّه بعدها إلى «رحيم» و«صياد» لتقديم التقرير.

لكـن يبـدو أنّ أحـدًا من الأعداء قـد رصد أحد الإخـوة عند دخوله المتراسـ، فقبـل أن نكمل النقاش انهار كل شـيء، كان «محمود ستودة» يقول لي إنّه انتهى من قضاء صيام الأيام المطلوبة منه، حتى دخلت قذيفة دبابة بشكل صاعق من باب المقر، وأصابت «حسين ايرلو» مباشرة، فهو كان آخر من حضر إلى المكان، وكان واقفًا ينظر إلى الخريطة.

شـدة الانفجـار لم تـترك لنـا مجـالًا لأي تحـرك سوى نـداء «يا حسـين»، وأنـين أحـد الإخوة الذي سرعـان ما خمـد، ولم يعد يصدر صـوت من أحد. فقدت وعيي للحظـات، وعندما فتحت عيني، وجدت نفسـي أتشهّد وأصلّي على محمـد وآله، بينما الدخان الأسود يملأ جو المتراس. وأحسست أنّ الهواء كان يحترق، وحلّ مكانه الدخان ورائحة البارود. استجمعت قواي وأخذت أنادي الإخوة واحدًا تلو الآخر، لكني لم أسمع جوابًا.

أول شخـص رأيتـه كان «محمـود ستودة» نائب قائـد الفرقة، وقد فقد نصـف رأسه، وسقط على صدره، في حين تناثرت قطع من جسد «ايرلـو» على بدني كأنّهـا اللحم المفروم. لم أتمكّن مـن رؤية الباقين، فالمـكان بات مظلمًـا، شعرت أنّ بـدني قد أصيب معظمـه بالشظايا. أحسسـت بالاختناق، فركزت قواي على ركبتي ووقفت، وما إن خطوت أول خطواتـي حتـى ارتطـم رأسي بقـوة بحديد سقـف المتراس الذي أذابته حـرارة الانفجار فتقوّس نحو الأسفل، فسقطت على جسد أحد الإخـوة، نظـرت إليه فإذا هـو الأخ «روغني» وقد قُطعـت يداه وما زال الدم ينزف منهما. اهتز بدني كله من شدة البكاء، مددت يدي لأمسح

رأسي، فإذا بدماغ أحد الإخوة قد التصق به. خرجت من المتراس، ولم أجد أحدًا حولي.

بقـي صوت الانفجار المهيب يدوّي في أذني لمدة ثلاثة أشهر، ورائحة البـارود والدخان لم تفارق أنفي. ما إن ابتعدت حوالي عشرة أمتار عن المتراس، حتى وصلت سيارة. كنت أقوم وأسقط على الأرض في كل مرة، وظننـت أنه لم يبقَ أحدٌ حيًّا سواي، لكن تبيّن فيما بعد أنّ أخي والسيد «ميردامـادي» كانا قد خرجـا من طرف المتراس قبلـي، لذلك بقيا في مأمن من الانفجار، ولم يصابا، فذهب السيد «ميردامادي» إلى محسن رضائي ورحيم صفوي، وقال لهما: «لقد انتهت فرقة المهدي».

فسـارع رحيم متوجهًا نحونـا ومعه صياد أيضًـا، وصلنا في الوقت نفسه إلى شاطئ النهر. الدكتور أبو محمد من الأطباء العراقيين، وقد رافقنا منذ بـدء تشكيل لواء المهدي، شرع بتمزيـق ملابسي بمقصّه، لكنـي منعتـه، وقلت له أخـرج ملابسي مـن دون تمزيقهـا، وأعطيت ملابسـي لمحمد جواد، وما زلت أحتفظ بتلـك الملابس حتى الآن، وقد مُلئت بالثقوب من الشظايا.

قال صياد: «اصبروا قليلًا ستصل المروحية».

أجابه رحيم: «لا مجال للانتظار، ليُنقل بالزورق سريعًا».

عندما ركبت الـزورق قلت للأخ رحيم: «من الأفضل أن تطلبوا من فرقة المهدي الانسحاب، فلم تعد لهم قيادة تعطيهم الأوامر».

فيوم أمـس، أصيب كلٌّ مـن: «خليل مطهر نيا» مسـؤول العمليات، و«كاظـم حقيقت» مسـؤول الأمن، وسُحبا إلى الخلـف، وبعد ما حدث معنا لم يبقَ أحد من القادة مع الإخوة.

وافـق الأخ رحيم على طلبي، وهكذا بدأ الانسحاب بعد الظهر، وفي

اليوم التالي انسحبت كل الوحدات من منطقة دجلة، ولم يكن ليحصل ذلك لولا خشيتنا من أن نتعرّض لخسائر أكبر.

عـاد صالح الذي كان قـد خرج من المتراس قبلـي، وتحسّن وضعه خــلال دقائـق، ودخل إلى المتراسـ، وقال لي: «كان مـن الصعب عليّ أن أعـثر عليـك بين قطع أجسـاد البقية، ولم أعثر علـى أثر لك، فيدا «روغني» المقطوعتـان كانتا واضحتين، وأدركـت أن الساقين المعلقتين في سقف المتراس همـا لـ«إيرلو»، وجسد «ستودة» مطروح على صدره، وقـد شقّ رأسه لكني عرفته، أما جسـدا «فرخي» و«رفيعي» فقد ظهرا بوضـوح، لكني لم أجد لـك أثرًا رغم بحثي عنـك». وعندما خرج من المتراسـ مجددًا، قيل له إنّهم قد نقلـوني إلى مستشفى ميداني، لكنه لم يصدّقهم.

كان مصـير عمليات بدر مثل عمليـات خيبر، رغم احتلالنا لمسافة (800كلم$^2$) من أراضي الهور، وتكبيد العدو عشرة آلاف قتيل وجريح، وأسرنا من قواته أكثر من ثلاثة آلاف جندي وضابط، لكننا بعد ثمانية أيام من المقاومة والصمود أمام القنابل الكيميائية والهجمات المتوالية والثقيلـة للمدرعات العراقية، اضطررنـا إلى ترك شاطئ شرق دجلة الجاف، والاكتفاء بالمواقع الجديدة داخل الهور العظيم.

في المستشفـى، كان الغـمّ يسـري في كل خلايـا جسمـي، فأصوات «إيرلـو»، «روغنـي»، «رفيعـي» والباقـين بقيـت لأيامٍ تـتردّد في أذنيّ، وتتراءى أمامي الصلاة التي صلّيتها بإمامة الأخ «ستودة»، ولم أتصوّر أنّني عندما أعود إلى الفرقة لن ألتقيهم وأراهم مجدّدًا.

## حصة ساقي الماء!

قبـل بدء عمليات بدر، كان انتشارنا يمتدّ حتى «طلائية» إلى جانب الهـور. وعندمـا حلّ فصـل الشتاء، كان علينـا أن نتكيّف مـع الوضع الصعـب للمنطقة: الأرضـ لزجة وطينية، والمسافـة التي كنا نقطعها خلال عشر دقائق، علينا الآن أن نقطعها خلال ساعة.

في الصبـاح الباكر، كنت أسير بسيارة الجيـب بهدوء، فالسيطرة على السيارة لم تكن كاملة، فهي تنزلق يمنة ويسرة. رأيت شاحنة الماء آتيـة من بعيد، فخشيت الاصطدام بها، لـذا توقفت حتى تصل وتمر، لكـنّ الشاحنة توقفـت وترجّل منهـا سائقها، لذلـك أكملت مسيري. وعندمـا اقتربـت، رأيـت السائق يحمل أوعيـة الماء من فئـة 20 ليترًا بصعوبة ويضعها أمام المتاريس.

أما حركته في الأراضي الترابية التي تحولت بفعل الأمطار إلى طينية لزجـة جدًّا، جعلت خطواته تزداد صعوبة. تعجّبت من هذا الأمر، فقد جرت العـادة بأن لا يبذل العاملون على سيـارات توزيع الماء أي جهد، بـل ينادون المقاتلين ليأتي كلٌّ منهم ويأخذ الماء الذي يخصّه، من دون أن ينزلوا من الشاحنة. لكنّ هذا الرجل، طوال الخط، كان يُنزل الماء ويضعه أمام المتاريس ويأخذ الأواني الفارغة من دون أن ينادي أحدًا. وعندمـا دققت النظر فيه، فـإذا به السيد «حبيـب التشمني» مسؤول

تأمين المياه للفرقة.

- عافاك الله يا أخ «تشمني».

- هذا أنت يا حاج؟ شكرًا على محبتك.

- أليس عندك سائق حتى أتيت بنفسك؟

- لديّ سائق، لكنّ اليوم هو دوري أنا.

- لكنّك تؤذي نفسك، هيا نادِ ليأتي الإخوة ويأخذوا الماء.

- وهل يجوز أن نقصّر في هذا العمل البسيط الذي يمكننا القيام به؟!

- لكنّك غرقت بالطين، وعليك أن توصل الماء إلى خمسين متراسًا!

- لم أشأ أن أناديهم، إنهم تعبون بعد حراسة الليل.

إيصال الماء إلى المتاريس أساسًا هو من الأعمال الشاقة والخطرة في الجبهة، ولا يرغب القيام به إلا القليل، لأنه يتطلّب قلبًا جريئًا. أخي الصغير محمد جواد كان بعمر الرابعة عشر، لكنّه كان ذا قلب شجاع وجريء، لذلك خدم في هذا المجال، كان يقود سيارة التويوتا التي تجرّ خلفها خزان الماء، ويوزّعه على المحاور المختلفة، وكان يقود باطمئنان من دون أن يأبه لاحتمال سقوط قذيفة مدفع هاون عن يمينه أو شماله في أيّ لحظة، يضع ساعده الأيسر على باب السيارة، ويقود باطمئنان وسكينة، إنّما بسرعة. وكان جسمه صغيرًا إلى درجة أن من يرَ السيارة من بعيد يظنّ أنها تسير من دون سائق.

كان بعضٌ يُشكل علينا أنّ محمد جواد لم يبلغ السن القانونيّة، ولا يحمل إجازة قيادة السيارات، لذا لا ينبغي أن يقود بنفسه. وكان جوابنا على المعترضين جملة واحدة: «إن كنت تمتلك الجرأة على إيصال الماء إلى الإخوة في خط المواجهة، فتفضّل باسم الله».

عندما استلمت لواء المهدي كان الأخ «تشمني» منضويًا فيه، والباقون كانوا من أهالي أصفهان و«كاشان»، لكنهم غادروا اللواء بالتدريج، وحلّ محلّهم الإخوة من أهالي محافظة فارس. خلال أيام انتقال واستبدال القوات، جاء إليّ الأخ «تشمني» وقال لي: «أنا لم ألتحق بهذا اللواء وبالجبهة، لا من أجل الأخ «فضلي» (قائد اللواء السابق)، ولا من أجلك، إنّما لأني أحب لواء المهدي، فأرجو السماح لي بالبقاء فيه».

وهكذا بقي معنا، وحتى نهاية الحرب كان مسؤولًا عن قسم إيصال الماء. رجل صابر وقليل الكلام، نشيط، يحبّه الجميع ويحبّهم، بحيث لا يشكو منه أحد. يقول إنّه كان يعمل قبل الحرب في طلاء المباني، ويمتلك محلًّا مستأجرًا ويعتاش من ذلك العمل.

عندما وقع العدوان الصدّامي على إيران، ترك كل شيء على حاله وتوجه نحو الجبهة. طلب إجازة بعد أشهر، واضطرّ إلى إعطاء مالك المحل كل البضاعة الموجودة فيه، ودفع أيضًا مبلغًا من المال ليسدّد بدل إيجار المحل. ولم ينتسب رسميًّا إلى قوات الحرس، بل بقي تعبويًا.

وعندما انتهت الحرب عاد إلى مهنته السابقة، يعمل بالأجرة، مبتدئًا من الصفر، مقتنعًا ببيته الصغير الذي حصل عليه بصعوبة ومشقّة، وبمدخول بسيط، ومحبة وحنان بذلهما بإخلاص للمقاتلين طوال سنيّ الحرب.

أصدقاؤه القدامى، وهم كُثُر، كانوا كلما سافروا إلى «كاشان» لا يحلو سفرهم ويكتمل إلا بزيارة «حبيب تشمني» والمبيت عنده ليلة. وعندما يزورونه يحسّون أنهم قد تخلّصوا من الحياة الرتيبيّة، وأقبلوا نحو الصفاء والبساطة مع رجل قلّ نظيره، على الرغم من فصل الصيف وحرّ «كاشان» الشديد الذي يضاعف من تعب السفر.

أتذكـر أني زرته بعد انتهاء الحــرب، فاستضافني عنده ليلة، قلت لوالدتــه: «أمي العزيزة، متى ستزوّجين حبيب؟». فأشارت إلى سجّادة تُحيكهــا في زاوية من الغرفـة، وقالت: «هذه هي كل مــا أملك، عندما أنتهي من حياكتها سأصرف ثمنها على عرس حبيب».

أردت أن أبــيّن أن وضعه لا يسمح بــأن يستضيف أحدًا ما كل أسبوع إذا مــا رغب في الــزواج، لكنّي أعتقد أنّ في وجود هــذا الشاب شيئًا ما يصعــب تفسيره. وكأن الله سبحانه قد بارك له في ماله، وجعل أخلاقه سماوية. وإلا فمن أيــن هذا الصبر والتحمّل لاستقبال الضيوف بشكل دائم؟!

في هذا الزمن، حيث يبتعد الناس بعضهم عن بعض يومًا بعد آخر، مــن الصعب تصوّر وجود شخص تتفتّح أساريره كلما جاءه ضيف، قد لا يعرفه أبدًا، إلا أنّه يعتبر يوم حلول الضيف عليه يوم سعده، وساعات حياتــه الجميلة يقضيها في استضافتــه للمقاتلين والجرحى وأسرهم. وهــذه الحقيقة تقــول إنّ الله اجتبى رجالًا على هــذه الصفات يحبّهم ويحبّونه.

## الاعتماد على العين!

خـلال عمليات بدر، أتتني رسالة لأوقّعهـا، قرأتها فإذا هي شهادة تؤكـد استشهاد «خير اللّه» أحـد مقاتلي الفرقة من أبنـاء «زادون» أو «زاهد شهر فسا». وقد شهد شخصان أنّه استشهد بالفعل. أنا لم أره، لكـنّ «محمود» من الأشخاص الذين أثق بهم، وللاطمئنان أكثر طلبت حضوره إلى متراس القيادة.

- هل رأيت بعينيك أنه قد استشهد؟
- نعم، رحمة اللّه عليه لم يبقَ منه شيء.
- هل تعلم أنك تتحمّل المسؤولية إذا لم يكن ذلك صحيحًا؟

قطع كلامي وقال: «اطمئن يا حاج، حتى الشعرة أراها بوضوح».

- إني مطمئن، ولكن ...

قاطعنـي ثانية وهو جالـس على ركبتيه، ووجهـه إلى وجهي، وأخذ يقص عليّ تفاصيل استشهاده:

كانـوا أربعة أشخاص، سقطت قذيفة هاون معادية بينهم. وعندما مرّت سيارة، وبمساعدة «رمضان» الذي وقّع الورقة، وضعناهم بسيارة التويوتا، وتوجهنا نحو مخزن الماء، وعند العودة إلى متراس الحراسة، دوّى صوت انفجار أصابنا بالرعب؛ قذيفة دبابة أصابت السيارة بشكل مباشر، وحوّلتها إلى كتلةٍ من اللهب أحرقت كل شيء، كنّا نبعد مسافة خمسمئة متر حين رأيت دراجتين قد توجهتا نحوهم.

سرح نظري بنار المصباح النفطي وسط المتراس. اقترب مني أكثر

وركّز نظره في وجهي.

- عزيزي الحاج، أنت معي؟ هل أدركت ما حصل، لقد استشهد مرتين، وبتوقيعي ومصادقتك، لن تبقى أسرته تنتظر لسنوات، أليس كذلك؟

وصل خبر استشهاده إلى مدينة «فسا»، وعقدوا المجالس التأبينية، وانتهى كل شيء.

لكن انتشرت شائعة في الفرقة تقول إن «خير الله» حيّ، ويعالج حاليًا في المستشفى.

عندما جاء محمود سألته: «هل سمعت الأخبار؟!».

- يا حاج هناك خطأ، إنه شخص آخر، والله لقد رأيت بعينيّ هاتين كيف تناثروا في الجو.

- على أي حال سنعلم حقيقة الأمر سريعًا.

- أسأل الله أن يكون حيًا، لكنه ليس كذلك.

بعد أيام من انتهاء عمليات بدر، عُثر على «خير الله». لقد اجتمع الإخوة حوله، وهو يشرح لهم: «بعد انفجار القذيفة غبت عن الوعي، حتى أحسست أني في المقعد الخلفي لسيارة تسير بنا مسرعة، عدت إلى وعيي، وأدركت أني قد أصبت بعدة شظايا، وجسمي ملطخ بالدماء، نظرت حولي فرأيت ثلاثة من إخواني قد استشهدوا وأجسادهم إلى جانبي، فصعقت وأخذت ألطم رأسي ووجهي وأصرخ، فجأة دوّى انفجار جديد قذفني خارج السيارة، غبت عن الوعي ثانية، وعندما فتحت عينيّ فإذا بي في المستشفى».

بينما كان «خير الله» يتحدث بحرارة، وصل محمود لاهثًا، ما إن رأى «خير الله» حتى صُدم وتغيّر لونه، وعندما أفاق من الصدمة، قفز نحو «خير الله» ليحتضنه، وبينما كان معانقًا لـ«خير الله»، نظر إليّ وقال: «يا حاج، والله ما دمت حيًّا لن أثق بعينيّ هاتين أبدًا».

## في صف الجنة!

بعد سماعي خبر استشهاد الأخ «مهدي باكري» في عمليات بدر، أول ما خطر ببالي هو يوم لقائنا بسماحة الإمام الخميني الراحل، حيث كان كل قادة قوات حرس الثورة الإسلامية موجودين. عندما عبرنا نقطة التفتيش ووصلنا إلى الباب الصغير، حضر السيد «سراج الدين الموسوي» من أعضاء مكتب الإمام، وقال: «انتظروا هنا بضع دقائق حتى نسمح لكم بالدخول».

كان لقاء سماحة الإمام مشوّقًا جدًا لنا، بحيث وقفنا في صف واحد إلى جانب الجدار من دون أيّ حركة. وكان أمامي «مهدي باكري» وخلفي «مصطفى إيزدي». فقال «الإيزدي» لمهدي: «هل عرفت أنّ أحد الإخوة رآك في المنام؟».

- خيرًا إن شاء اللّه.

- هل تعرف فلانًا؟ (وذكر اسم أحد الأصدقاء، لا أذكر اسمه الآن)

- تقصد أخا قائد حرس «بيرانشهر» الذي استشهد؟

- أحسنت، هو الشهيد نفسه، جاء في المنام لأخيه، فسأله أخوه: ما الخبر عندكم؟ فأجابه: هنا قيامةٌ قائمة.

- حسنًا، أمر جميل، إذًا لقد أخبره عن الجنة؟

- نعـم، قال له إنّ الجميـع هنا قد تظافرت جهودهـم لبناء قصر فاخـر. فسأله أخوه: لمن هذا القصر؟ أجابه إنه للسيد «مهدي باكري» القادم إلينا.

كان «باكـري» يتابع كلامه ضاحكًا، لكنه عندما سمع اسمه، أصبح جدّيًـا وقـال: «أيّ جنة تلـك، وهل سيسمـح لنا أفـراد التعبئة بدخول الجنة؟».

بما أني كنت بينهما وسمعتُ ذلك الحوار، ضغطت على ساعد الأخ مهـدي وقلت له: «مـا هذا الكلام يا سيد مهـدي؟ ومن يستحق الجنة أكثر منك؟».

تـأوّه وقال: «هناك سيقف كل أفراد التعبئة أمامي، ويقولون لي: لم تستطـع توجيهنا بشكل صحيح، لم توصـل لنا الماء في الوقت المناسب، لم تعطنـا خبـزًا، أرسلتنا إلى حقل الألغام، مـا شأنك بالجنة وأنت لا تذكرنا يا مهدي باكري؟!».

وقبـل أن يكمل كلامه نادانا السيد الموسـوي: «تفضّلوا إلى الداخل أيها الإخوة».

## خمس سنوات تأخير!

اثنا عشر شهرًا ليست مدة قصيرة، لكن ماذا نفعل؟ يجب أن نؤمّن الكثير من التجهيزات لنستطيع أن نستفيد من خبرتنا الحربية، ونوجّه ضربة أساسيّة للآلة الحربية العراقية، علمًا بأننا لم نكن عاطلين من العمل خلال هذه المدة، فبين عمليات «بدر» وعمليات «والفجر الثامنة» التي سأتحدث عنها الآن، نفّذنا عمليات صغيرة معدودة مثل: الظفر، القدس، عاشوراء. في محاور الشمال والجنوب، وأبقينا بذلك تنور الحرب ساخنًا لنخدع العدو، وشكّلت هذه العمليات تدريبًا عمليًّا لتقوية الوحدات.

عمليات «والفجر الثامنة» تُذكّرني دومًا بالعام 1981م وما قبل عمليات ««ثامن الأئمة»»، وكلام الأخ «الجزائري» أحد أفراد جهاد البناء في محافظة «فارس».

في الصباح الباكر، توجهت إلى الإخوة في جهاد البناء للتنسيق معهم ليقيموا لنا ساترًا ترابيًا في المحطة السابعة. كانوا قد فرغوا للتو من درس القرآن عندما وصلت، وما إن رآني الأخ «الجزائري» حتى أخذ بيدي وتنحّى بي جانبًا يريد التحدث إليّ، قلت له: «إني أصغي إليك، تفضّل». يبدو أنه كان لا يريد أن ينتبه إليه أحد. نظر يمينًا وشمالًا، ثم فتح باب الغرفة ودعاني للدخول، وأغلق الباب كي

لا يستمـع إلى حديثنا أحد. أثار ذلك فضـولي، حتمًا لديه ما هو مهم ليتصرّف هكذا، وما إن جلست حتى بدأ بالكلام: «إن لكل أرض ثمنًا، ولكل منطقة قيمة، وإنّ من أصول الحرب تحديد أهمية ومكانة الأرض التـي نقاتل العدو لأجلها»... تحـدّث كثيرًا حتى أدرك من نظراتي أني أنتظر أن أسمع أصل الموضوع.

أشار بيده إلى جنوب عبادان، وقال: «إني أعتقد أن الجهة الأخرى من نهـر أروند من أهم أراضي مناطق الحـرب، فالعدو الآن جاء إلى هـذه الجهة مـن نهر بهمن شير، وإذا استطعنـا أن نأخذ تلك المنطقة (يقصد الفاو) فسينسحب العدو من كل المناطق حتى من خرمشهر».

كنـت كمـن هو جالـس في محضـر الأستـاذ أصغي لكلامـه وأهزّ برأسـي، وهو يتكلم بحماسة: «أنـا في الأساس أعمل في شركة النفط، وأعلـم أن حياة العـراق ومماته في الجانب الثاني لنهـر أروند، فلديه مينـاءا «البكـر» و«الأمية» لتصديـر النفط، وهما منفـذه إلى الخليج الفارسـي، إذا أخذنـا تلك المنطقـة نكون قد أمسكنـا بحلقوم العراق لنضغـط عليه، وتصبح البصرة في خطر، مـا يضطره إلى الانسحاب من كل مناطقنا».

كنـت لأول مـرة أسمـع مصطلح «البكـر والأمية»، كلامـه الدقيق جعلني أغرق في أفكاري. أجبته: «ما تقوله جميل، لكنه غير ممكن».

- أبـدًا ليست هناك أي مشكلة، فالعـراق لم يضع أيّ استحكامات في الجانب الآخر للنهر، ويمكننا السيطرة على تلك المنطقة بسهولة.

اقتنعت بصوابيّة كلامه، وتمنيت لو أنّ ذلك كان ممكنًا، لكني كرّرت كلامي: «إنّنا نواجه الآن نقصًا حادًا في السلاح والذخيرة، ولو كان بإمكاننا فعل شيء لفككنا الحصار عن عبادان، فكيف نترك

هذه المنطقة التي نعرفها جيدًا، ونذهب إلى منطقة لا ندري ماذا سيحصل فيها».

سكت الرجل، وبدوري دفنت الفكرة هناك، وذهبت لمتابعة اهتماماتي. بعد أربع سنوات جرى البحث في المقر الرئيس في مسألة العبور من نهر أروند، واحتلال الفاو، عندها تذكّرتُ كلام الأخ «الجزائري»، وتذكرت تلك الأيام، وأحسست بالذنب، لعلّني لو أخبرت المسؤولين الكبار بكلامه، لكان وضعنا اليوم مختلفًا، لكني أقنعت نفسي بأنّ إمكانياتنا حينها وظروفنا تختلف عما نحن عليه اليوم، حينها كنا إذا أردنا أن نحصل على مدفع هاون (120 ملم) وقذائفه، فلا بدّ أن نتوسل إلى الجيش ومستودعاته، بينما تغير كلّ شيء اليوم، واختلف وضعنا من الأرض إلى السماء. لكنّ حماسته وفهمه الدقيق تركا في ذهني أثرًا طيبًا.

النقاش حول مشروع عبور نهر أروند أبرز الخلاف بين محسن رضائي وصياد الشيرازي، فصياد كان يصر على الاعتماد على إمكانيات الجيش، والعبور بالمروحيات لمحاصرة قوات العدو فورًا، بينما يفضّل محسن رضائي الانتقال عبر الزوارق والغواصين.

وفي قيادة الحرس أيضًا، واجهت خطة عبور نهر أروند مشكلة، فبعض القادة مثل السيد رشيد والشهيد «حسين الخرازي» كانا يعارضانها، ولديهما استدلال قوي لمعارضة الخطة. وليس لكلامهما معنًى آخر، فقد قالا: «إن العبور من نهر أروند أمر صعب، والبقاء في الجهة الأخرى أمر أصعب».

معارضو الخطة لديهم فهم صحيح للأمر. لقد أدركوا الوضع، ويشيرون إلى ضيق المنطقة في الفاو، وإلى القصف الكيميائي الذي

سيبــادر إليــه العدو. لذا، فــإنّ بعض الوحدات قالــت: «لن نشارك في المرحلة الأولى، لكن إذا أخذتم الفاو فسنشارك».

جرى تصحيح الخطة ثم إقرارها، وكان محسن رضائي يركّز على أصل المباغتة، والتدريب الدقيق للقــوات، وتأمين التجهيزات المطلوبة لمواجهة هجمات العدو.

مــا إن بدأ ســلاح الهندسة عملــه، حتى أكد محســن رضائي على التحــرك في نهر أرونــد ومنطقة الهور لخداع العــدو. بحيث إذا كانت خمسمئــة شاحنــة تعمل في شاطئ نهر أروند، لا بــد أن تعمل خمسمئة شاحنة أيضًا في الهور، كان يخشى من الجواسيس، وخاصة أنّ الأقمار الصناعيــة الأمريكيــة والسوفياتيــة نشطت بعــد خمسة أعــوام على الحرب لمساعدة العراق.

وبهــذا التمويه انخدع العدو، وتصور أن خطة نهر أروند هي خدعة لتنفيذ هجوم في الهور، فعندما أسرنا عميدًا كبيرًا من الجيش العراقي اسمه «عبد الكاظم»، ادّعى أنه كان على علم بنيّتنا مهاجمة الفاو، وأنه أبلــغ رئيسه العميد الركن «شكر شاهــين» بذلك، لكنه كال له الشتائم وقــال له: «إنّك لا تعلم ما يجــري في نهر أروند، إنهم يحاولون خداعنا ليشنّوا هجومهم من الهور. وذكر له العميد الركن «شكر شاهين» أدلة علــى صحــة تحليله: إنّ الإيرانيــين لديهم خبرة في الهــور، وعبور نهر أرونــد أمر غير ممكــن، وحتى لو فعلوا ذلك فعبــادان جزيرة، ويمكن محاصرتهم فيها، وحجم تحركهم في الهور أكبر بكثير من غيره.

هذا الكلام يدل على أن عامل المباغتة كان صحيحًا. لكن ذلك كان جــزءًا مــن القصة، حيث كنّــا كلّما اقتربنا من موعــد تنفيذ الهجوم؛ انخفض أملنا بالنجاح. والسبب يعود إلى أنّ نهر أروند هائج، وحركته غير منتظمة، وهو يجري بسرعة فائقة نحو البحر أحيانًا، بينما تدخل

مياه البحر إليه أحيانًا أخرى، وعندما يحصل المد يزداد عرض النهر. لذلك اعتبر مهندسو جهاد البناء وقوات الحرس أن وضع جسر على نهر كهذا هو عمل مستحيل. وفريق الاستطلاع كان يواجه وضعًا عجيبًا. وعلينا أن نتصرّف بحذر بالغ بحيث لا يقع لنا أسرى بيد العدو، وأن تكون حساباتنا دقيقة. ففِرق الاستطلاع التي بذلت الجهود المضنية، لم تتمكّن من الذهاب والعودة في توقيت محدّد ودقيق، فسرعة جريان الماء كانت توصلهم إلى أماكن بعيدة عن الأماكن التي يقصدونها.

فنهر أروند يشبه العمود الفقري، ومجراه الرئيس له فروع جانبيّة تسقي بساتين النخيل، وهي غير منتظمة، إلّا أنّها مناسبة لإخفاء وستر الزوارق، ومشكلة هذه التفرّعات أنها ليست متقابلة، ما كان يخل بحساباتنا.

المنطقة التي نريد التحرك فيها هي الأقرب إلى الخليج الفارسي ومصبّ النهر، فعرض النهر فيها يصل إلى (600م)، وعند حصول المد يصبح عرضه (1000م). تصوّر أنّنا في ليلة الهجوم علينا التحرّك في الظلام الحالك مسافة (500م) حتى نصل إلى النهر، ثم عبور (1000م) داخل النهر، والتقدم (500م) أخرى داخل فروع النهر من الجهة المعادية، وهذا يعني التحرك في مدى (2000م) من المياه الهائجة وغير المستقرة.

كنت أسير برفقة «خليل مطهر نيا» عند ضفّة النهر خلف الساتر الترابي، فتوقف وحدّق بالنهر وقال: «أنا أستبعد أن نتمكن من عبور النهر، لكنّنا إذا عبرناه، على الرغم من قصف العدو لنا، فإن خبراء الحرب في العالم اليوم، وفي المستقبل سيدهشون كيف استطاع الإيرانيون عبور مثل هذا النهر!».

من خلال الاستطلاع الذي قمنا به، وصلنا إلى هذه النتيجة: إن

ضفّة النهر لجهة العدو، هي مسلّحة بالأسلاك الشائكة ذات الحلقات الشمسيـة المفتولـة - وهذا ديدنهم- وبقطع الحديـد الموصول بعضها ببعض. وبالحـراب المنصوبة داخل المياه لمنع مـرور الزوارق واقتراب «الهاوركرافت»، وخلف كل تلك الموانع والعوائق توجد المتاريس المجهزة بالرشاشات الثقيلة.

هذا ما جعل خليلًا قلقًا من استحالة العبور. ناديت الأخ «علي أكبر رحمانيـان» معـاون خليل الـذي استشهد فيما بعد في هـذه العمليات، وقلـت له: «عليك القيـام بأمرين لنا: حدد لنا الوقـت اللازم للوصول إلى الجهة الثانية، وأوقات الدخول إلى فروع النهر المعادية».

أكد خليـل أننا بحاجة إلى عشر دقائق، وكان رأيي أنه إذا استغرق ذلك أكثر من دقيقتين فلن يبقى منا أحد حيًّا.

طلبـي الثاني من «علي أكبر» هو المصادقـة على تقرير الاستطلاع الـذي يقول: كلما توجهنا نحو تلك الجهـة، يحرفنا ماء النهر الجاري بقوة عن بلوغ منتصف المسافة بين الضفتين؛ بسبب صد ماء البحر له.

ذهـب الإخوة وعادوا بجـواب لسؤالي، لكن لا يوجـد ما يقهر هذه الظواهـر الجديدة، وكلما مرّ يـوم جديد، واجهنا أمـرًا جديدًا. ففي هـذه المدة كانت تقارير المد والجزر مختلفـة، وأدركنا أن النهر يشهد أمورًا عجيبة، لم نكن نعلم ما هي، لكننا من خلال التجربة اكتشفنا أن حركـة المد والجزر في الليـالي الأولى للشهر القمري تختلف كثيرًا عن ليلـة النصف. لم نكـن نعلم أن الشهر يمثل حركة مـد متكاملة، لكننا أدركنا ذلك بالتجربة.

ففـي إحدى الليالي، لاحظنا فجأة أن كل الطرق والمتاريس والبيوت القريبة من النهر قد امتلأت بالماء، ولم ندرِ ماذا نفعل. لذلك أحضرنا

الإخـوة من «بوشهر» لمعرفتهم بالبحر، فكان كلامهم مختلفًا ومتفاوتًا وغير متفق، إلى أن جاء أحدهم وقال: «هذا يسمى المد السنوي».

وما هو المد السنوي؟

لدينـا كل شهر مد كامل، وفي كل عام مـد أكمل، وكل عشرة أعوام مد أعظم.

هـذه المعلومات المتضاربة جعلتنا نشكّك في نجاح العمليات التي لم يصدّق أحد أنها ممكنة.

أمـا الجهود الجبارة التي تواصلت ليـلًا ونهارًا للإخوة، فهي قصة بحـدّ ذاتها. فجميع الفرق والألويـة عملت لآلاف الساعات تحت قيادة قوات الحرس العليا من أجـل الاستطلاع والتخطيط لكيفية عبور نهر أروند، وكيفية تأمين الغطاء الناري ودعم العمليات ومواجهة الهجمات.

جـرى تدريب عـدد كبير من الأفـراد على الغوص، وتأهيل الذين يقـودون الزوارق على السير بسرعة، وإنـزال قوات الدعم في الأماكن المحـددة. آزر الجيشـ مدفعية الحرسـ، «سايت هـوك» لدى الجيش كان بكامـل جهوزيته لضرب المقاتـلات الحربية المعادية، جهاد البناء والهندسة العسكرية بذلوا قصارى جهدهم، واستخدموا كل ما لديهم من الإمكانات، فتحوا عدة طرق بين بساتين النخيل، بنوا عدة أحواض وأرصفة نهرية لدعم العمليات.

تواصل الليـل والنهار في التدريب والاستطلاع وحُشدت الإمكانيات حتـى وصلنـا إلى ليلـة 1986/2/9 حـين كان علينـا عبور نهـر أروند المتوحش.

## المعجزة المائية

كان قلقنـا منصبًّـا علـى الغواصين أكثر من غيرهـم، لأننا نعرف صعوبة عبـور نهر أروند وفتح المعابر لتتمكن الـزوارق الاقتحامية من الوصـول بسهولـة إلى الشاطئ العراقي من النهـر، خشية أن لا يصل بعضهـم إلى الشاطـئ، وهـو مـا حصل. وكنّـا قلقين مـن أن تفتضح العمليـة، ويتعرضوا لنيران العدو الكثيفـة وهم تعبون وعلى آخر رمق، وهـذا ما حصل للبعض. أو أن يفشلوا في تحدّي تيـار النهر، وهذا ما وقع لبعض منهم. أو أن يجرف النهر أجسادهم المرهقة، ويدفعها إلى البحر ليجعل منهم وجبة دسمة لأسماك القرش الشرسة.

لكـن مـاذا نفعل لأولئـك الذين بأيديهـم نبضُ قلقنـا وهواجسنا، كمـا مفتاح نصرنا؟ وأضحـت حالاتهم المعنوية حسـرة في قلوبنا. ولا أبالـغ إن قلت إنّهم كانوا يعدّون اللحظات انتظارًا لسماع نداء انطلاق العمليـات، وتراهم يمرحـون ويمزحون، وهم يعلمـون أنهم قد لا يرى بعضهم بعضًـا ثانيةً. وكان الأروع من كلّ ذلـك، تنافسهم ليتسامحوا فيما بينهم، ويسارعوا لتقبيل جباه بعضهم بعضًا.

كانت المنافسة التي تقارنت بنحو جميل مع إحساسنا بالقلق من دون مبرّر، وهو بالتأكيد ليس مبالغة أبدًا وبعد سنوات من انتهاء الحرب، ما زالوا يتابعوننا كالظل، من دون أن يسمحوا لنا بإدراك جوهرهم!

مـا إن دخلـوا الماء، حتـى أصبح الجـو ضبابيًا، وتقاطـرت أمطار

خفيفـة. الغواصـون الذيـن بقوا سالمين، عـبروا نهر أرونـد، وواجهوا الأسلاك الشائكـة، والموانع الشمسية، والمتاريسـ الإسمنتية، ووصلوا إلى الشاطئ العراقـي. كانوا أكثر راحـة مما كانوا يتوقعـون. فرؤية العراقيـين كانت شبه معدومـة، وصوت هطول المطـر غطّى الأصوات المنبعثة من تقدّمهم. بينما في أماكن أخرى، انتبه أفراد العدو لوصول الإخـوة، فظنوا أنهم فرق استطلاع، فوجّهـوا إليهم نيران رشاشاتهم الثقيلة، ولم يردّ الإخوة عليهم لأنّ أمر الهجوم لم يصدر بعد، ورفضوا أن يكشفوا أمر العمليات، فاستشهدوا مظلومين.

قدم لنـا المدّ الكامل الذي حصل في تلك الليلـة العون أيضًا، حيث ارتفـع الماء في بعض النقاط عن مستوى الأسلاك الشائكة والشمسية. بحيـث إنّه عندما تقدمت الدفعـة الأولى من فرقة المهـدي، أي كتيبة الفجـر، وصلوا إلى الجانـب الآخر من النهر، فاصطـدم زورقان لهم بالعوائق هناك، وكأنّ قواتنا قذفت فوق متراس للعدو، ما يعني أن الماء قد ارتفع في بعض النقاط إلى مستوى المتاريس.

ناديت «مرتضى جاويدي» مشفرًا ليرسل سرية لاقتحام الخط.

أجابنـي بـدوره: «لقـد أسكتنا البلبل المغـرد ها هنـا» (أي إننا قد أسكتنا الرشاشات الثقيلة للعدو).

- إذًا فماذا تنتظرون، لينطلق الباقون.

- أنت أمرتنا أن تذهب كل الكتائب، ونحن جميعًا ها هنا.

لقـد أخطأ في فهمي، لكـن النتيجة كانت جيـدة، فالتحقوا سريعًا بقوات فرقة الفجر وفرقة «25 كربلاء».

كل المحاور أدت مهامها بنجاح، وانتقلت القوات تدريجيًا إلى الجهة الأخـرى من النهـر، أمّنّا المواقع المبدئية قبل طلـوع الشمس، وفرضنا سيطرتنـا على مدينـة الفاو. وبقي من أهدافنـا في الجنوب السيطرة

على «خور عبد الله»، وفي الغرب منطقة معمل الملح.

عندما تتوقّف عواصف التجاذبات السياسية، سيجري تدريس ذلك العبور المدهش عبر نهر أروند والعوائق المتعددة للعدو في مختلف الجامعات العالمية. فلعل الملاحم التي سطّرها شبابنا تتحوّل يومًا ما إلى قصص وأساطير خيالية لم تخطر في بال أحد منذ بداية الفكر البشري وحتى عصر التطور البشري العجيب.

تقع مدينة الفاو بين نهر أروند شرقًا والخليج الفارسي جنوبًا وخور «عبد الله» واليابسة غربًا، تتصل بمدينة البصرة عبر إحدى الطرق، وبينهما منطقة تعرف بمعمل الملح، وهي الهدف النهائي لتقدّمنا.

في محورنا، كان هناك رامي رشاش ثقيل، رفض الاستسلام، وأوقع فينا الخسائر البشرية. فتصدّى له «أصغر سرافراز» من أهالي «ني ريز» بشكل بطولي، ووصل إلى رامي الرشاش وقتله، قبل أن يستشهد.

عندما عبرنا النخيل واقتربنا من المسجد، كان بضعة أفراد للعدو يرموننا بالرصاص من مئذنتي المسجد، فطلب السيد «عرب نجاد»، مسؤول الوحدة المدرعة لمقر كربلاء، من دبابة عند شاطئ النهر، أن تستهدف مئذنتي المسجد، وبعد أن أُطلقت عدة قذائف أصابوها. فتقدّمنا لكنّنا واجهنا أعدادًا كبيرة من الجنود العراقيين الذين توجهوا نحو خور «عبد الله» للفرار، لكنهم علقوا في مستنقع طيني ظهر أمامهم بسبب حصول الجزر، إلا أنّ بعض الإخوة ساعدوهم، فنجا أكثرهم.

المرحلة الثانية من العمليات، وهدفها احتلال معمل الملح، جرت أسرع من الوقت المحدد لها، لكن تثبيت المواقع استغرق مدة طويلة، وواجه مشكلة، ما جعل هذه العملية من أطول العمليات خلال الحرب المفروضة.

حشد صدّام كل قواه وتجهيزاته في الساحة لاستعادة المنطقة، وتقدّمت عدة فرق وألوية إليها، فيما كان القصف الكيميائي مستمرًّا،

لكـن صمـود قواتنا، والدعم الكامـل لمدفعية الحرسـ والجيش قضّتا مضاجع العدو.

تصاعدت المواجهة إلى درجة أن قادة الفرق والألوية المعادية كانوا يقومون بالاستطلاع شخصيًا، ويصلون إلى مسافات قريبة من مواقع قواتنا.

في هذه المنطقة، قام الشهيد «مطهّر نيا» بأسر أحد القادة العراقيين بعـد أن اقترب من مواقعنا. وكما ذكرت سابقًـا، كان الإخوة في فرقة المهـدي ذوي خبرة عالية في رصد الاتصـالات اللاسلكية للعدو، وكان أسر قائـد اللواء العراقي نتيجة ذلك التنصّت. قـال هذا القائد: «إنّ مدفعيّتكـم أرهقتنا، فأجسـاد قتلانا منتشرة فـوق كل متر، والمنطقة تعـجّ بفرق الحرس الوطني والمدرعات، بحيث إنّهم سلّموا أحد الألوية خطًـا على امتداد أربعمئة متر، وأبلغوهم أنّه إذا استطعتم التقدم ولو لعدة خطوات فتعطون مأذونيات».

وبالفعل، لم تكن العملية مزحة، فقد سيطرنا على ثمانمئة كيلومترٍ من أفضل النقاط العراقية، وسددنا ممر العراق نحو الخليج الفارسي. وسعى الجميع لإخراجنا منها، لكنهم فشلوا.

بعـد (75) يومًا، هـدأت المنطقة ورفـع العدو يديـه عاليًا، واعترف بالهزيمة. لم يكن صدام الشخص الذي يقبل الهزيمة، لكنّه ماذا يستطيع أن يفعـل بعـد أن خسر خمسين ألفًا بين قتيل وجريـح وأسير؟ وسقطت لقواتـه الجويّـة إحدى وسبعـون طائـرة، ورأى أنّ القصـف الكيميائي والمدفعية القوية فشلا في ردع الإيرانيّين، كما فقد فرقة كاملة من حرس القصر الجمهوري، ولم يبقَ أمامه سوى القبول بالهزيمة.

ولا ننسى أنّ الطيران الحربي العراقي قام في اليوم الثاني للهجوم بقصف كل الجسور فوق نهر «بهمن شير»، وكل طريق تتّصل بعبادان،

منعًا لتقدم الدعم. بحيث كان علينا أن ندخل عبادان، ومنها نعبر بالزوارق حتى نصل إلى الفاو، استمرّ الأمر هكذا لفترة حتى تمكن الإخوة في جهاد البناء أن يمدوا جسرًا بطول (800 متر) فوق النهر، وكان بناء هذا الجسر بحد ذاته من عجائب الحرب.

من أجل مدّ جسر فوق نهر أروند، قام الإخوة في جهاد البناء بأعمال مدهشة. جاؤوا بأنابيب بطول (12 مترًا) وبقطر كبير، سدّوا طرفيها وتركوها تطفوا فوق الماء، وقاموا بوصل القطع بعضها مع بعض لتصبح كسلسلة، وأنزلوها الواحدة تلو الأخرى، حتى وصلت إلى قعر النهر ورصفوها فوق بعضها حتى سطح الماء، ثم فرشوا التراب فوقها، وعبّدوا الجسر بالإسفلت.

وكانوا كلّما قام العدو بقصف الجسر، أعادت الهندسة العسكرية وجهاد البناء ترميمه، وتعبيده بالإسفلت. سُمّي الجسر بجسر «البعثة»، وكان له دور هام في نقل القوات والتجهيزات إلى «الفاو»، وكان الجسر بحق من الأعمال الهندسية المميزة في الدفاع المقدس.

عمليات «والفجر الثامنة» لم تدهش القيادة العراقية فقط، بل هزّت العالم. فالجيوش التي كانت تعرف الأنهار والبحار لم تصدّق ما جرى. فبعد هذه العمليات زار «ماكفرلين»[1] إيران، وطالبت الكثير من الحكومات بضرورة وقف إطلاق النار، على الرغم من أنهم قبل ذلك لم يكونوا ينطقون. لكنّهم مارسوا شيطنتهم، ولم يحدّدوا المعتدي، إلى أن أجبرهم مقاتلونا في عمليات «كربلاء الخامسة» على التحرّك، والإعلان عن العراق كمعتدٍ خشية أن يفقدوا السيطرة ويخسروا كل شيء.

1- صفقة أسلحة حاولت إيران الحصول عليها من السوق السوداء؛ لكن تبيّن أنّ بعض المسؤولين الأمريكيّين متورّطين فيها منهم «ماكفرلين» الذي أتى إلى إيران بطريقة غير علنيّة ورفض المسؤولون استقباله فعاد من المطار خالي الوفاض. ربما حاول الأمريكيون توريط إيران بفضيحة أو حاولوا إيجاد شرخ بين الشعب والمسؤولين وبين المسؤولين أنفسهم.

## الفراشة التي لا تخاف

ناديتـه عبر الجهاز مرات عـدة حتى أجاب. النبـأ الذي أحمله لم يسمـح بسؤالـه عن سبب تأخره في الردّ. قلت لـه: «لديّ صيد جيّد، لا يحسنه إلا أنت».

- خيرًا إن شاء اللّه؟

- هناك قائد عراقي تقدّم نحونا.

تغيّر صوته وكأنه قد تحمّس:

- وكيف عرفت بذلك يا حاج؟

- الإخوة في التنصّت التقطوا ذلك.

جـاء ليستطلع بنفسه. طلـب منّي تحديد مكانـه، فأعطيته عنوانًا تقريبيًّا لموقعه. لقد كان القائد العراقي على بعد (50–70) مترًا منه.

- توكلت على اللّه.

لقد كلّفت الشخص المناسب الذي يستطيع أن يجد حلًّا حتى لو وصل إلى طريق مسدود. وهذا ما حصل معه في عمليات «والفجر الثانية» في منطقـة الحاج عمران. ففـي صباح الليلة التي استطعنـا فيها أن نفك الحصار عن الأخ «مرتضى جاويدي» وقواته بعد أربعة أيام من حصاره في المرحلة الثانية من العمليات، اتصل بي من وسط المرتفعات المشرفة على معسكر الحاج عمران وقال: «أين أنت يا حاج؟ هل تراني؟».

نظرت من المرتفع إلى الأسفل، كانت الساعة الرابعة عصرًا، وكانت الشمس قد ابتعدت عن سفح الجبل، لكن تحديده وهو يمسك بمدفع رشاش ويقف أمام القوات لم يكن بالأمر الصعب. يبدو أنّ الشك قد ساور من معه بسبب قلّة التنسيق، فتردّدوا بمهاجمة المعسكر، لكنه أنهى ذلك التردّد بنداء «الله أكبر»، ونزل نحو المعسكر، وكانت معظم القوات تنتظر من سيبادر، فهرولوا خلفه، وبعد نصف ساعة اتصل ثانية ليقول: «اطمئن يا حاج، لقد أحرقنا شوارب الحاج عمران» ...

كذلك هذه المرة، فمنذ قطع الاتصال بيني وبينه، إلى أن وصل وهو يقتاد القائد العراقي مكبّل اليدين، استغرق الأمر معه نصف ساعة فقط، وأتى به إلى متراس القيادة. فهذه لم تكن مهمّته الأولى لأتعجّب من سرعته في التنفيذ.

منطقة العمليات في الفاو كانت ذات حساسية خاصة. نحن في منطقة معمل الملح ومعلوماتنا عن وضع العدو ضئيلة. تبيّن أن هذا الأسير العراقي هو قائد لواء، وقد أجبره قائد الفرقة أن يتوجه للاستطلاع بنفسه. لذلك تحركنا بسرعة، وانتزعنا ما لديه من معلومات. فكان لديه الكثير ليقوله لنا، بحيث استغرقت كتابة كل ما لديه يومين.

إنه الشهيد «خليل مطهر نيا» أعجوبة الدفاع المقدس، الذي غادرنا فيما بعد خلال عمليات «كربلاء الخامسة»، بعد أن أصابته قذيفة مدفع عراقي فقطّعت أوداجه، وفار دمه منها، وارتمى جسده على التراب، من دون رأس.

## برج العروج

قبـل عمليات «والفجر الثامنة» شكّل عرض نهر أروند عائقًا أمامنا مـن الوصـول إلى العدو، ولم نكـن على اطلاع على وضـع قوات العدو خلـف الخطـوط الأمامية. ذهـب الإخوة مرات عـدّة في الليـل، وأتوا بمعلومـات دقيقـة عن المواضـع والاستحكامات العراقيـة في الشاطئ المقابـل. لكننا لم نكن نعلم ما يجري خلـف الخطوط الأمامية، وكيف تجري التحرّكات، وما هي الإمكانات المتوافرة.

بقينـا أيامًـا عـدّة نفكر في طريقة للحـل، إلى أن لفـت نظرنا برج سفينـة غارقة وسط النهر، فبرجها كان يرتفع عشرة أمتار، ونستطيع منه رؤية الكثير من مواقع العدو.

تسلُّـق البرج لم يكن أمرًا صعبًا، لكـن المشكلة تكمن في العثور على مقاتل نحيف وقـوي، يستطيع البقاء من الصباح إلى الليل داخل علبة صغيرة مكشوفة السقف.

لم يمضِ وقت حتى تطوّع لهذه المهمة شاب يافع عمره ثمانية عشر عامًـا مـن أهالي مدينـة «فسا»، ذكي وفطـن، وجسمـه مناسب لهذه المهمة، ولا يتجاوز وزنه الخمسين كيلوغرامًا.

عندما جاء إليّ قلت له: «هل تعلم أن عليك البقاء هناك في الأعلى ليوم كامل؟».

- نعم، لقد أخبرني الإخوة بذلك.

- هـل تعلـم أنـك لا تستطيـع أن تمدّ رجليـك، وعليـك أن تمسك بركبتيك؟

- نعم، لا بأس.

- وأن تقدّم لنا تقريرًا دقيقًا عن وضع العدو وتحرّكاته؟

وضـع يده على خصره وعدّل صدره، وقال: «أعلم أنّ عليّ أن أصلّي صلاتـي الظهـر والعصـر، ولا أتنـاول شيئًا لئـلّا يفسـد وضوئي، ولا أتحرك لئلا يكتشفوا وجودي».

- بـارك اللّه بك، إذًا تعرف مدى صعوبـة المهمة التي لا تناسب أيًّا كان؟

- أيهـا الحاج العزيز، لـن أبقى هناك أربعة عشر يومًـا، إنها أربع عشـرة ساعـة، أقضيها بإذن اللّه بعدة حبات مـن اللوز، ومطرة ماء، لتبقى عيناي تعملان جيدًا.

دمعت عيناي، فقبّلت جبينه وقلت له: «اذهب آجرك اللّه».

قبل صـلاة الصبح أوصله الإخـوة إلى السفينة من دون أن تراهم عـين. ارتقـى إلى البرج وجلس لأربع عشرة ساعـة داخل علبة معدنية (50×50سم) وبارتفاع (70سم) لا أدري كيف فعل ذلك، كل ما أعلمه أنه بقي طوال هذه المدة قرب قوات العدو، ولم يروه.

وهكـذا عاد إلينا بإحصاء دقيق لآليـات العدو وأسلحته، وبخريطة لجميع المتاريس والمواقع والمباني.

سألتـه عن مهمته، وعـن الأربع عشرة ساعة كيـف قضاها، وكيف استطـاع أن يباعـد بين رجليه عندما عاد، وكيـف تحمّل الآلام، وكيف استطـاع النزول مـن البرج، وكيف صلّـى، وكيـف أكل وشرب، وكيف

تحمل أشعة الشمس طوال تلك الساعات؟!

سكت ولم ينبس بحرف. استلقى من الصباح حتى الليل، ولم يجمع رجليه؛ هذا ما قاله فقط.

في ليلة تنفيذ العمليات، وفي الجانب الآخر من النهر، وفي مقابل تلك المتاريس والمواقع التي رسمها في خريطته بدقة، أصابته شظية فشقّت خاصرته.

سنوات مرت على ذلك اليوم، لكن لعلكم لا تصدّقون أني ما زلت أتحسّر على ذلك اليوم، وأفكّر بذلك الشاب، وأعتقد أن الشهادة كانت الجائزة لـ«حسن أشرافي» البطل الصغير من أهالي مدينة «فسا».

## الهداية الثالثة

مـن نشاطات الوحدات في الحرب، استقبـال الشخصيات المعنوية المختلفة لزيارة الجبهات. فهذا الأمر مفيد لتلك الشخصيات الزائرة للتعـرف إلى الأجـواء الخاصـة في الجبهـات. كما هو مفيـد للإخوة المقاتلين للاستماع إلى بعض الزائرين البارزين ممن كانوا يؤجّجون الجـو المعنوي للجبهـة بكلامهم، حيث كانوا كالوقـود الذي يشحن آلة الحرب بالمعنويات للاستمرار بحرب رجولية هادفة.

وصـادف أن جـاء الشهيـد الشيخ الميثمـي إلى المنطقـة العامة في «الفاو»، ودخل المتراس بنحو مربك، وطلب من الجميع الاستعداد للخبر الجديد. سكتنا جميعًا لـنرى ماذا سيقول، فرأينا خلفه آية اللّه «صدر الدين الحائري» العالم المشهور وشقيق إمام جمعة شيراز السابق.

مـا إن دخـل سماحته ورآني حتـى قال: «يا شيخ ميثمـي، هذا الأخ أسدي ابن منطقتنا، فهو سيأخذنا حيث نريد الذهاب».

فأسرع الشيخ الميثمي ليقـول لي: «إيّاك أن تصطحب سماحته إلى الخط الأمامي». لكن أول جملة نطق بها الشيخ كانت: «يا سيد أسدي، خذنا إلى الخط الأمامي لنرى ما يجري هناك في المقدمة».

أجبتـه بالمجاملات الشيرازيـة: «لم تصل بعد مولانـا، تريّث حتى تلتقـط أنفاسك»؛ وقدمت له الماء والشـاي، وحاورته لعلّه بذلك ينسى

الذهاب إلى الخط الأمامي.

فتبسّم وقال: «لا ضير في ذلك، نتناول الماء والشاي، ثم نذهب».

لم أجد حيلة لصرفه عن الذهاب، واضطررت لتشغيل الجيب، وسرت برفقة هذين العالمين، واثنين من ضباط الجيش نحو الخط الأمامي في المنطقة، وعندما وصلنا إلى مصنع الملح قلت له: «تفضّل مولانا، هذا هو الخط الأمامي».

نظر إليّ نظرة ثاقبة، وكأنه يقول: هل تهزأ بي يا سيد أسدي؟ وأضاف: «إنّ المرحوم والدي خدعنا في طفولتنا بالمقدار الكافي. خذنا إلى الخط الأمامي».

أخبرته أنّ القصف شديد هناك، ولا يمكننا الذهاب بالسيارة. لكنه بدا كمن كان لديه ما يفتقده في الخط الأمامي، فقال لي:

- نذهب سيرًا على الأقدام.

لم أستطع ردّ طلبه. سرنا مشيًا، وكانت حرارة الجو (45 درجة) والعرق يتصبّب منا، وسقطت رصاصات عدّة بالقرب منا، حتى وصلنا إلى الخط الأمامي. عندها قلت له: «الآن لا يمكننا أن نتقدّم أكثر من ذلك».

هزّ الشيخ الميثمي رأسه مرات عدّة مؤيدًا كلامي، عندها سألني سماحته: «هل تقصد أنك يا سيد أسدي لم تتقدم بعد هذا المكان ولا مرة؟».

مولانا من هنا تستطيع أن ترى قوات العدو، فلماذا تصرّ على التقدم أكثر؟ توجد أمامنا كمائن لقواتنا، يتقدمون منها ليلًا للاستطلاع ويعودون ليلًا لئلا يرصدهم العدو.

ضاق صدري وصدر الشيخ الميثمي من إصرار سماحة آية الله

الحائري عندما قال: «إذا كان ذلك خطرًا، فسأذهب وحدي».

عندهـا طلبت من الإخـوة في الجيش أن يبقـوا إلى جانب السيارة حتـى نعـود، لأن عددنـا كان لا يستوعبـه المـكان بين القنـاة ومتراس الكمـين. لذلك وافقوا على طلبـي وعادوا إلى السيـارة، وأكملنا نحن الثلاثـة المسار. سرنـا في قناة العبور بصمت وهـدوء حتى وصلنا إلى متاريس الكمائن.

سُـرّ الإخوة الموجـودون في متاريس الكمائن وتعجّبـوا. وسُرّوا أكثر برؤيـة عـالم دين جليـل، وتعجّبوا كيـف استطاع الوصـول إليهم هذا الرجل العجوز الذي يسير بصعوبة.

سماحـة آيـة الله الحائري والشيخ الميثمي أصبحـا الدرّة، والإخوة المقاتلـون الخاتم في ذلك المتراس، قـام سماحته بتقبيل جبين كل فرد منهم، وتناول نصف قدح الماء، ثم قال: «لقد تعمّدت المجيء إلى هنا، لأقـول لكم أمرًا هامًا في أقرب خط دفاعي». أصغى الإخوة إلى كلامه جيدًا، فأكمل سماحته:

إذا كان هنـاك مكان لا تعرفونه، وسألتـم أحدًا عنه، فإنه في النوع الأول مـن الإرشاد سيذكر لكم اسم الشارع والزقاق ورقم المبنى الذي تقصدونه. وفي أفضل الحالات سيذكر لكم اسم مبنى كبير أو مؤسسة مشهورة قربه لتستدلوا عليه بسهولة.

وفي الحالـة الثانيـة: يكتب لكم على ورقة العنـوان الدقيق، ويرسم لكم خريطة.

لكنـه في الحالة الثالثة: يمسك ذلك الشخـص بأيديكم ويجلسكم إلى جانبـه في السيـارة، ويقودهـا حتى يوصلكم إلى أمـام باب البيت الـذي تقصدونه، ثم يطـرق الباب، ويضع أيديكم بيـد صاحب البيت

ليتأكد بذلك أنكم قد وصلتم.

إن الإرشاد والهداية الثالثة هذه هي أسمى من النوعين الأول والثاني. والله سبحانه وتعالى أرشدكم في هذا الطريق عبر الهداية الثالثة. فالكثيرون يحبون أن يكونوا هنا مكانكم لكنهم ليسوا أصفياء، بل لديهم كدورات. لذلك اعرفوا قدركم عند الله، إنكم أعزاء جدًا عنده، وادعوا لنا نحن الكهول الذين أضلوا الطريق.

انهمرت عيون بعض الإخوة المقاتلين عند سماع الجملة الأخيرة، ولم ألحظ دموع الشيخ الميثمي، لكنني لاحظت احمرار عينيه عندما طأطأ رأسه وتعرّق جبينه.

تحدث سماحته مع الإخوة أهل الثغور لمدة نصف ساعة، وعدنا إلى القناة نسير فيها بهدوء متوجهين إلى السيارة.

في طريق العودة، فكرت بكلام سماحته، وعبارة «الهداية الثالثة»؛ كانت الحرارة شديدة جدًا، لكنني أحسست أنّ النسيم البارد يلفح وجهي.

## الانتقام لإيران غيت!

لم يكن الانتصار في الفاو تجربةً بسيطة لنغفلها، فتغلّب الغواصين على ماء نهر أروند السريع، وعبور المقاتلين عرض هذا النهر، دفع الجميع للتفكير في تكرار هذه التجربة العظيمة.

اجتمع القادة في مقر قيادة «كربلاء»، وجرى التشاور بينهم لاختيار منطقة تسمح لنا بالاقتراب من مدينة البصرة بطريقة أسرع. كان هناك جزيرة مقابل مدينة خرمشهر وسط نهر أروند، اسمها جزيرة «أم الرصاص»، يتفرّع عندها النهر إلى رافدين، قرّرنا أن نسيطر على الجزيرة ومنطقة «أبو الخصيب»، لنثبّت أقدامنا لمهاجمة البصرة. وهذا يعني عبور نهر أروند ثانية، لكن هذه المرة من منطقة أقل عرضًا، والهدف هو إيجاد فاصل بين الفرقة الثالثة والفرقة السابعة للعراق، والسيطرة على الطرق المؤدية إلى البصرة.

المحور الذي كُلّفت به هو «محلة كوت الشيخ». كان لدينا سابقًا خط هناك، ونعرف المنطقة جيدًا. قرب جزيرة «مينو» والمنطقة التي يلتقي فيها نهرا الكارون وأروند، هناك موقع جغرافي أفضل، مقارنة مع منطقة الفاو، كوجود بيوت كثيرة عند شاطئ النهر. داخل باحة أحد تلك البيوت الكبيرة حفرنا حوضًا، ووضعنا أمامه ساترًا ترابيًّا، ونفخنا زوارق عدّة، ووضعنا بعضها فوق بعض، ليركبها الإخوة ليلة

الهجوم انطلاقًا من الحوض إلى نهر أروند مباشرة.

قبل بدء العمليات، قمنا كالعادة بجولات رصد، وتحديد طرق للنفاذ إلى خط العدو.

اتّخذنا السفينة الغارقة وسط نهر أروند دليلًا جيدًا للذهاب والإياب عبر النهر، وملجأ لفرق الاستطلاع ومستقرًا لهم. كما وضعنا عددًا من المصابيح ذات الوميض، والتي تُرى من جهتنا فقط، ولا يراها أحد حتى من الأعلى، وركّبناها على السفينة الغارقة لتُظهر لنا مسارنا بوضوح.

في منتصف ليل 1986/12/23م، عندما انطلق نداء عمليات «كربلاء الرابعة» وهاجمت قواتنا خطوط العدو، كنا نحن أول الوحدات التي عبرت نهر أروند، ووصلنا إلى الطريق المعبّد. وكان إلى يسارنا فرقة ولي العصر السابعة التي وصلت إلى الجانب الآخر من النهر أيضًا.

اتصلنا وأخبرنا «حسين علائي» بوضعنا، فعمليات «كربلاء الرابعة» كانت بإدارة مقرات: نوح، النجف، كربلاء والقدس. ونحن تابعون لمقر نوح بقيادة «حسين علائي». قال لي: «لا تهتم بيمينك أو يسارك، وتوجّه نحو العمق».

تقدّمت كتيبتا «الفجر» و«أبو ذر» إلى مكان ما، ثم اتصلوا وقالوا لقد سيطرنا على الطريق الثاني أيضًا.

من الأشرطة المسجلة التي ما زالت موجودة، اتصال رشيد بـ«علائي» وقوله: «اتّخذ من فرقة المهدي خطًّا أماميًا لك، واعلم أنّ الجيش العراقي إذا قام بهجوم صباح الغد، فسيقضون على الفرقة السابعة، لذلك عليك تأمين قوات داعمة وذخائر لفرقة المهدي».

وكلامــه هذا يعني أنهم مطمئنّــون إلى أننا سنحافظ على المناطق التي سيطرنا عليها، وأنّ جميع الوحدات ستلتقي بعضها مع بعض قبل طلوع الصباح. لكننا سرعان ما أدركنا أن فرقة الإمام الحسين، وفرقة النجف8 وكل الوحـدات التابعة ما زالوا في جزيرة «أم الرصاص»، ولا يمكنهم تحطيم خطوط دفاع الجيش العراقي. ما جعل «علائي» يتردّد خشية أن يكون قد ارتكب خطأً، ولا سيّما أن فرقة المهدي ليست هناك عند الجانب الثاني.

قـال لي: «اذهب وتأكد هل سيطروا على الطريق الثاني حقًا». فقطع «علي فدوي» مسؤول أمن المقر الحوار قائلًا: «الخبر صحيح، أرسلتُ أحد أفرادي مع مقاتلي المهدي، وأخبروني أنهم استولوا على الطريق الثاني».

أُبلغنــا بإبقاء القوات حاليًا في أماكنهــا، فأرسلت الكتيبة الثالثة إلى الجانــب الآخر من النهر لتطهير الشاطئ كــي لا يقوم العدو بالالتفاف عليهم.

كانت منطقة المواجهة مغطــاة بالدخان الكثيف نتيجة الانفجارات المتتاليــة، فضــلًا عــن ظــلام الليــل، وازداد قلقــي لاستمــرار صوت الرشاشــات الثقيلــة والمدافع التي لم تهدأ. رأيــت أن الظروف لا تشبه العمليــات السابقة، حيث كانت أصوات الانفجــارات والرصاص تخبو عادةً بعد احتلال خطوط العدو.

وفي الصباح، عادت أصوات الانفجارات والرصاص أشدّ قوة لترتفع إثــر بدء الهجمــات العراقية. عدت ثانية إلى «علائــي» فوجدته يائسًا فاقدًا للأمل. وكان كلّما اتصل بالوحدات الأخرى لا يتلقّى جوابًا.

قررنا سحب قواتنا، لكن ذلك الأمر جاء متأخرًا، فالنور قد انتشر، وقواتنا التي استجابت لأوامر الانسحاب أصبحت مكشوفة ومحاصرة.

لقد كانت أصعب لحظات خمس سنوات من الدفاع المقدس في نظري. الكتيبة الوحيدة التي استطاعت أن تعود هي الكتيبة التي أرسلناها لتطهير المنطقة، أما الباقون فقد وقعوا في الأسر، واستشهد بعضهم خلال الانسحاب.

فالعدو كان يطلق النار وقذائف الآر بي جي باستمرار، مستهدفًا القوات المنسحبة وهي داخل الزوارق.

باقي الكتائب كانت تطلق كل ما لديها مستهدفة قوات العدو في الجانب الآخر ليخففوا من حجم نيرانهم، لكن للأسف لم يبقَ من الذين عبروا سوى عدد قليل، في حين استشهد الباقون أو أسروا.

كنت غاضبًا من مسؤولي المقر الرئيس إلى درجة أني ركبت السيارة وأسرعت إليهم، خلال الطريق كنت أتخيل كيف سأهاجم محسن رضائي، وأقول له كذا وكذا. ما إن وصلت وتوجهت نحوه، وجدته يتكلم بالهاتف، وقفت على بعد ثلاثة أمتار منه، وبينما كنت أفكر أن أتقدّم إليه، وأسحب الهاتف من يده وأرميه إلى الأرض، فهمت من كلامه أنه يتحدث مع السيد أحمد الخميني، وكان يقدّم تقريرًا عن وضع الجبهة، وقد جمد الدم في وجهه بينما كانت يداه ترتجفان.

لم يهدأ قصف الطائرات العراقية والمدفعية الثقيلة للعدو أيضًا، وكانت الطائرات تقصف كل مكان تصل إليه نيرانها. طال كلام محسن على الهاتف، وهدأ غضبي بعض الشيء، وأدركت أن الأوضاع الحالية أسوأ من أن أخفّفها ببعض الكلمات النابية والغاضبة. سيطرت على نفسي، وقرّرت العودة.

عندما عدت إلى مقري لم أجد شيئًا في مكانه، فكتيبتنا التي كان عددها أربعمئة شخص، لم يعد منها سوى ثلاثين شخصًا. وكان وضع

الأحياء منهم سيّئًا، فكلّ واحد جلس في زاوية وهو يبكي. «مرتضى جاويدي» كان أسوأ حالًا من الجميع. قال لي: «يا حاج ادعُ لي أن أستشهد سريعًا، فكيف سأقابل عوائل الشهداء؟».

لم يكن وضعي أفضل حالًا، لكنّي سيطرت على نفسي لأتمكّن من التخفيف عن الآخرين. عندما هدأت، حملت الهاتف واتصلت بمحسن رضائي. كان صوته حزينًا ومهمومًا، فجاملته بكلمة: «لا تقلق، إننا مستعدّون للذهاب إلى حيث تقول، ننفّذ ونساعد لتحسين الأوضاع».

تحدث بوقت قليل عن كل ما يخطر بذهنه، تحدّث عن الماضي، عن مظلومية الشيعة وما لاقوه من جفاء، قال كلامًا غريبًا، وكأنه يريد التخفيف عن نفسه، ويخفّف عنا الضغوط النفسية.

في اليوم التالي، أصبح شغلنا الشاغل الرد على اتصالات الناس من قضاء فارس الذين يسألون عن أبنائهم. الكثير منهم يعرفون مرتضى وقد وقع أخوه «قدم علي» في الأسر، وكان يجيب الناس: «اطمئنوا ابنكم بخير، إنه مع أخي».

فيما بعد، تبيّن أن أمريكا قدّمت خريطة كاملة، وصورًا جوية دقيقة عن مواقعنا، وعن المعبر الرئيس للهجوم، لتمنع بذلك هزيمة صدام في الحرب، وفي هذه العمليات التي كنّا نأمل منها السيطرة على البصرة، وتغيير ظروف المنطقة، أرادت أمريكا بذلك أن تدفع إيران ثمن فشل «ماكفرلين» في فضيحة إيران غيت[1].

1- روبرت ماكفرلين مستشار الأمن القومي للبيت الأبيض، وصل في 1986/5/24م إلى مطار مهر آباد طهران وهو يحمل جواز سفر إيرلنديًّا باسم مستعار «شون دولين» في طائرة شحن تحمل أسلحة وهدايا: مسدس وقالب كعكة، ونسخة من الإنجيل وقّعه الرئيس الأمريكي رونالد ريغان. فرفض المسؤولون الإيرانيون استقباله والتفاوض معه. وأمر الإمام الخميني بفضح الأمر، ما أدى إلى غضب القيادة الأمريكية، لكن هذه الفضيحة أفشلت مؤامرة سرية أمريكية صهيونية. هذه الفضيحة أبرزت فشل الأمريكان في الداخل والخارج وسميت بأزمة إيران غيت.

هذا الدعـم المعلوماتي جعل العدو يسدّ المعابر الأساسيّة لهجومنا، ويشـنّ هجمات دفاعية قوية مستفيدًا من الموانع الطبيعية والصناعية المتعددة، ويمنع تقدم قواتنا.

علمًـا بأن العـدو تكبد خسائر تزيـد عن سبعـة آلاف عسكري إثر القصـف الـذي قمنـا به عـبر المدفعيـة الثقيلـة، وطائـرات الجيش ومروحياته، ونفاذ قواتنا المحدود إلى جزيرة «أم الرصاص» و«بوارين». مـا أدى إلى غضب القيادة المعاديـة، وانهيار الحالة النفسية في جبهة العدو.

لكن علينـا الإقرار أنّ هذه العمليات شكّلـت ثاني فشل كبير لنا في الحرب بعد عمليات «بدر». وهي حقيقة قاسية.

## من الفرعي إلى الأساس

العـراق المسرور بإفشالـه إحدى أكبر عملياتنـا، قام بنقل الحرب وتوسيعها إلى العمق الإيـراني باستهداف المدن الإيرانية، وأعدّ العدة لاستعـادة الفـاو. الخطأ الـذي كان قـد وقع فيه العـدو، أنّه ظـنّ أنّ العمليـات السنويـة الإيرانية قد انتهت، ويمكنـه أن يتنفّس الصعداء، وأصبـح ذلك نقطـة ضعفه، عندما أعدنا الإمسـاك بزمام الأمور من خلال عملية ناجحة واحدة.

في الحقيقـة، كانـت خطـة خداع هـي الأسـاس للتخطيـط لعملية «كربـلاء الخامسة» في غرب نهر «كارون» نحو «الشلمشة». حيث جرى تنفيـذ عملية إزعـاج وإشغال للعـدو، حتى يتم تنفيـذ عملية «كربلاء الرابعة» بشكل صحيح، لكن الذي حصل لم يكن يصدّقه أحد، فالفرقة (19) الفجـر واللـواء (57) أبـو الفضل تمكّنا مـن تحطيم الخطوط الدفاعية للعدو، والعبور من قلعة «الشلمشة». هذه الخطوة نفسها غير الضرورية ظاهريًا، شكلت الأساس لخطة عمليات «كربلاء الخامسة».

خلال الاجتماع في المقر الرئيس بحضور الشيخ «رفسنجاني»، قدّم محسن رضائي اقتراحًا بخطة لعمليات «كربلاء الخامسة» بالانطلاق مـن النقطـة نفسها التي نفذ منهـا كل من: فرقة «الفجـر» ولواء «أبو الفضـل». وعندما عارض ذلك بعض القـادة، قدّم محسن توضيحات

أيّدها الشيخ «رفسنجاني»، وقبل بها الجميع.

عند اتخاذ القرار، جرى إبلاغ الوحدات كي توقف الإجازات الممنوحة لقواتها.

خطة محسن المقترحة أسقطت من حساباتنا عبور نهر أروند، على أنه يمكننا مهاجمة «التنومة» من منطقة «الشلمشة»[1]، وهي قريبة من البصرة. أما سبب معارضة الباقين الذين رأوا أنّ هذه المنطقة غير واسعة، وهي بالكاد تستوعب لواءً أو فرقة واحدة، وهو ما يحتّم علينا أن نجمع خمس عشرة وحدة في نقطة محدودة ضيّقة.

وبالفعل هذا ما حصل، ففرقة المهدي تكدّست في مساحة لا تزيد عن كيلومترٍ واحدٍ، وباتت محصورة بين لواء «الغدير يزد»، ولواء «25 كربلاء». وعند خطّ المواجهة، أصبح الكيلومتر نصف كيلومتر، وأمامنا مستنقعات، لكن ليس في اليد حيلة. إلا أننا شرعنا بالعمل، وقررنا في الليلة الأولى أن نرسل أشخاصًا للاستطلاع، وأصرّ الشهيد «مطهر نيا» على مرافقة فريق الاستطلاع، ولم أتمكن من منعه. ارتدى بدلة الغوص وذهب. استمر الاتصال اللاسلكي بيننا مدة ساعتين، لكنه انقطع فجأة، ولم نعد نتلقّى ردًّا، فبات من المؤكّد أنهم إما وقعوا في الأسر أو استشهدوا.

جهّزنا الإخوة في العمليات للذهاب بحثًا عنهم، لكن قبل أذان الصبح

1–شلمشة هي أقرب نقطة حدودية مع البصرة، يحدها: من الشمال الحسينية، ومن الجنوب نهر أروند، ومن الشرق خرمشهر، ومن الغرب الحدود الإيرانية– العراقية. هذه النقطة كانت من المحاور التي هاجم منها الجيش العراقي إيران، وتعد أهم مناطق الحرب استراتيجيًا، وأوجد فيها الجيش العراقي استحكامات كثيرة جدًا بمساعدة أمريكا والاتحاد السوفياتي. لكن كل تلك الموانع المتعددة تحطمت على يد قواتنا في عمليات كربلاء الخامسة في 19986/12/25م، وأضحت الشلمشة تحت سيطرة القوات الإسلامية.

بدقائق عاد أفراد فريق الاستطلاع مرهقين. ما إن رآني خليل حتى شرع يعاتبني: «قلت لك يا حاج، لا يمكن تنفيذ هذه العملية، لا يوجد شيء جاهز، المنطقة تعيش الفوضى، بين المتر والآخر هناك لغم وأسلاك شائكة وشمسية، وبراميل الفوغاز والمثلثات أصبح بعضها فوق بعض».

- لكن لماذا لم تردّوا على اتصالاتنا؟

- عجزنا عن الردّ، لقد تجمدت أبداننا، ولم تسعفنا أيدينا لتضغط على الجهاز، تيبّسنا من البرد.

لما سألته عن عمق المياه، قال: «المياه مليئة بالتعرّجات بين مرتفع ومنخفض، ففي أحد الأمكنة بلغ العمق نصف متر، وفي مكان آخر بلغ مترًا، وفي وسط المياه، هناك طريق معبد بعمق ثلاثين سنتيمترًا، أي إنّ علينا ليلة العمليات أن نحمل الزوارق بأيدينا لنقلها إلى الناحية الثانية من الطريق المعبد.

شيئًا فشيئًا، بدأت باقي الوحدات تتذمّر من ضيق منطقة العمليات وعدم إمكانية تنفيذها.

توجهت إلى مقر القيادة لعلّي أستطيع تغيير الظروف، لكن نتيجة الحوار لم تفلح، وظلّ القرار هو تنفيذ العمليات بعد أسبوع حتمًا. عندما لمست إصرار القيادة العليا لقوات الحرس على التنفيذ، عدت إلى المقرّ، ووضعنا أيدينا بأيدي بعضنا بعضًا، وشرعنا بتجهيز قواتنا وتوجيهها.

هكذا كانت الأمور تجري دومًا؛ مهما كان مستوى القوات التي تعترض على ما لا يعجبها، لكن عندما يُتّخذ القرار بإدارة جماعيّة، يهبّ الكل للعمل.

بعد تجارب استمرّت ستة أعوام من الحرب، كان واضحًا أنّ الاعتراض والنقد لا يعنيان الخوف من القتال ومن القتل، بل هما

إصرار على السلوك العقلائي لنحصل على أفضل الإنجازات بأقل الخسائر. وكنّا عندما نلتقي بقوات التعبئة والقوات المستعدة نقع في الحيرة والدهشة من معنويات الإخوة المرتفعة، ومن الاستعداد لتنفيذ العمليات. فهم كانوا ينتهون من عملية صعبة، ومن دون أن يستريحوا، يسارعون ويشاركون في عملية أخرى.

وصلنا إلى ليلة 1987/1/9م، وهذا يعني أنّه ينبغي أن ينطلق الغواصون وفرق الاستطلاع معًا. سلّمنا قيادتهم إلى أحد الإخوة من أهالي طهران، أرسلته القيادة المركزية. قال إنه يعرف المسار جيدًا، وإنّه استطلعه مرات عدّة. فقلت له: «توكّل على اللّه، هذه مجموعة الاستطلاع تفضّل رافقها، وعجّل بالذهاب».

قبل انطلاقه، وضعت في يده قليلًا من السمسم والسكر، كان أحد الإخوة قد أعطاني إياها، وقبّلت جبينه، وقلت له: «اذهب بعون اللّه».

جلست خلف الجهاز، وأطلقت نداء العمليات. قامت الكتائب الجاهزة بمهاجمة خطوط العدو، وبعد مضيّ ساعة، حطّموا الخط والتحقوا بقوات فرقة «عاشوراء». ناديتُ «خليل مطهر نيا» وسلّمته الجهاز ليتابع الاتصالات. لم أطلب منه شيئًا، وخرجت بهدوء من الباب، وركبت ناقلة جند كانت تنقل الفوج الثاني من القوات إلى الأمام. داخل الملالة ظلام دامس لا يرى أحدٌ أحدًا، تسمع همهمات فقط، فالكل يتحدث. وبعد أن تقدّمنا قليلًا، نادى أحدهم بصوت عالٍ: «اصمتوا أيها الإخوة لأرى أين أصبحنا». كان صوت خليل. تعجبتُ من ذلك، وسألته: «ماذا تفعل هنا، ألست خلف الجهاز؟».

- أنا الذي يجب أن أسألك ماذا تفعل هنا، ولماذا أتيت؟

لم أجد جوابًا، وقبل أن أقول شيئًا، صاح أحد الإخوة من التعبئة:

«هل هذا وقت العتاب، هل ضاق المكان على أحدٍ ما؟ وهل نحن ذاهبون إلى ضيافة؟!».

عندما وصلنا ونزلنا من الملّالة، كان مسؤول الاستطلاع الذي أعطيته السمسم أول شهيد رأيته، أتذكر أنّ اسمه حسين، أخذت نصف «البلاك» منه، وسلّمته للإخوة في قسم التعاون. كنت أحمل رشاشًا، وتقدّمت مع الإخوة حتى وصلنا إلى خلف الخط الثاني العراقي، وتموضعنا قبل نهر «جاسم»، فيما كانت باقي الوحدات تشتبك مع العدو خلف قناة «السمك». والقوات العراقية تتراجع مترًا بعد آخر، محاولين أن لا يخسروا موقع قناة «السمك» و«الأضلاع الخمسة» خشية الوقوع في الحصار[1].

في المرحلة الثانية من العمليات تحرّكنا بشكل أسرع وأقوى، وتمكنّا من دحر العدو من السواتر النونية[2]، والقلاع وخماسيات الأضلاع ونهر جاسم وجزر خيّن.

استمر القتال ستة عشر يومًا. خلال هذه المدة تمكنّا من صد هجمات معادية قوية، وألحقنا بقوات العدو أشد الخسائر طوال الحرب، حتى فاقت خسائره الخسائر التي تكبّدها في عمليات الفاو. وأشارت الإحصاءات إلى إسقاط إحدى وثمانين طائرة للعدو، وأكثر من تسعين ألفًا بين قتيل وجريح وأسير. لذا، ممّا لا شك فيه أنّها لا

1- توجد في منطقة الشلمشة أنهار وقنوات كثيرة، وسواتر ترابية خماسية الأضلاع وهلالية الشكل، منها ما هو طبيعي ومنها ما هو صناعي. ومنها قناة تربية السمك التي أوجدت قبل الحرب، لكنها أسست بطريقة توحي أن الهدف منها هو صد الهجمات المباشرة للقوات البرية، لحماية مدينة البصرة، ولإعاقة حركة المدرعات، لذلك فإن عبور المستنقعات التي أوجدتها هذه القناة جعل حركة المشاة في المنطقة صعبة جدًا.

2- كانت هناك سواتر ترابية على شكل هلال يطلق عليها اسم نونية «ن» وكانت مدعمة ومسلحة بالكامل.

تقاس بأي عملية أخرى، ومن دون مبالغة كانت من أصعب المواجهات طوال سنوات الدفاع المقدس تلك التي جرت خلف قناة «السمك».

كما ارتفع لنا الكثير من الشهداء، ومنهم الشهيد «حسين الخرازي» قائد فرقة الإمام الحسين عليه السلام، والشيخ الميثمي ممثل الإمام الخميني الراحل في مقر كربلاء المركزي، وعدد آخر من قادة الألوية.

«مرتضى جاويدي» استشهد في هذه العمليات، وسأتحدث فيما بعد عن كيفية استشهاده. «خليل مطهر نيا» أيضًا استشهد خلف نهر جاسم.

كانت الفرقة «41 ثار الله» إلى يميننا، ونهر أروند إلى يسارنا. والجيش العراقي يشنّ الهجمات بشكل متوالٍ. كان خليل يتصل باستمرار بـ«محسن نيا» مسؤول الدعم اللوجستي لإرسال الذخيرة والطعام. في حين أنّ الانفجارات المستمرة لقذائف الهاون والمدافع والرصاص تمنع أفراد الدعم من إيصال كل ذلك في الوقت المحدد إلى الخط الأمامي. وكان خليل مسؤول الأمن يمتلك «فركانس»[1] الجميع، لذلك كنت أسمعه وهو يتصل بـ«محسن نيا» ويناقشه حول إيصال الذخيرة والدعم إلى الخط الأمامي. وأدركت أنّ خليلًا قد استاء وقطع الاتصال. توجهت إلى الخط ورأيت السائق الذي ينقل الدعم قد استشهد على بعد ثلاثين مترًا من الخط، والدعم موجود في السيارة. كان الوقت ليلًا والظلام يلفّ المكان فلم يره أحد. تقدّمت، فوجدت دعمًا آخر قد أُفرغ هناك من سيارة أخرى وذهب السائق.

عثرت صباحًا على «محسن نيا» وجمعته مع خليل في متراس صغير كان قد أعدّه خليل لنفسه، ولا يتسع إلا لشخص واحد. وبينما نحن نتحدث عن كيفية مواجهة الهجمات العراقية، وإذ بقذيفة مدفع تقع خلف ذلك

1- الذبذبة الخاصة بمحطة الإرسال.

المتراس. فارتفع الغبار والدخان، وتساءل خليل: «ماذا حصل؟»، قلت له: «لا شيء». قام بفتح الزر العلوي من قميصي، ومدّ يده خلف كتفي وأخرج يده ملطخة بالدماء. فقال لي: «كيف تقول لم يحصل شيء؟!». أمسك بيدي وقال: «انهض لأنقلك إلى الخلف». ثم نادى أحد أفراد الاستطلاع ليأتي بدراجته النارية وينقلني إلى المركز الصحي.

كان مسؤول الصحة «صداقت» هناك، فقلت له: «أسرع وضمّدني لأنّ عليّ العودة سريعًا».

- يجب أن أحقنك بإبرة.

- لا داعي لذلك، عليّ العودة سريعًا.

لكنّي لم أستطع منعه. ما إن حقنني بالإبرة حتى غبت عن الوعي، وبعد مضي وقت، فتحت عينيّ فرأيت «صداقت»، وشرعت بالصراخ: «ما هذه الإبرة، يجب أن أكون في الخط الأمامي الآن!».

- إنها إبرة منوّم، كل من أعطيته إياها ينام ثلاث ساعات كحد أدنى، أما أنت فقد استفقت بعد نصف ساعة.

خرجت من متراس الصحة مشيًا باتجاه الخط لعدم وجود آلية نقل. وفي الطريق، التقيت بنائب قائد الفرقة «الحاج يد اللهي» الذي كان مضطربًا. خشيت أن يكون الخط قد سقط وخسرناه، لكنه قال لي: «خليل ومحسن قد استشهدا!»، ثم أراني كمّه وقال: «إنها قطع من دماغ محسن نيا».

أسرعت راكضًا، وعندما وصلت وجدت رأس خليل قد انفصل عن جسده، وأفراد الإسعاف ينقلونه إلى خلف الجبهة.

أخذت الرشاش وتوجهت نحو الساتر، وما إن رفعت رأسي حتى أحسست بأحدٍ يجرّني من قدميّ. نظرت إليه، إنه «أصغر ماهوتي»

قائد كتيبة كميل.

- ماذا تفعل هنا؟

- سيشنون هجومًا الآن.

- لكن هذا من مهمتنا نحن، لا ينبغي أن تكون هنا.

لم يصغِ إلى كلامي، بل جاء شخص آخر، وحملوني ووضعوني داخل السيارة. قال لي أصغر: «اذهب إلى متراس القيادة، لتقوم بعملك، نحن وباقي الكتائب موجودون هنا، الكل ينتظر أوامرك».

أجبروني على الذهاب إلى الخلف. وبعد دقائق، بدأ الهجوم العراقي. كان «مرتضى جاويدي» يقف بكامل طوله فوق الساتر، ويوجه قذائف الآر بي جي إلى الدبابات، وإخوة آخرون كانوا يوجّهون قذائفهم لأربع دبابات أخرى، بينما ثلاث دبابات أخرى التصقت بالساتر واستسلم طواقمها.

في اليوم التالي، عقدنا اجتماعًا في الأهواز، وأخبروني خلال الاجتماع أن «محسن نيا» لا يزال حيًّا، وقد فقد إحدى عينيه، وأُجريت له عملية جراحية في رأسه، بعد أن حملوه مع الشهداء إلى خلف الجبهة، كان رأسه مفلوقًا، وقد خرجت منه مادة بيضاء، ما جعل الإخوة يعتقدون أنه ميت لا محالة، لكنه بقي حيًّا.

مع انتهاء عمليات «كربلاء الخامسة»، كانت خسائر العدو كبيرة جدًّا، وقد عوّضنا عن الانسحاب في عمليات «كربلاء الرابعة»، وازداد الموقف السياسي الإيراني منعةً بعد عمليات «والفجر الثامنة».

لذلك قلق حماة صدّام من هذا الانتصار الكبير، وأقروا القرار الأممي رقم (598) الذي لم يحقق لنا كل ما نريد من حقوق. لكنّ أحد أسباب إقراره هو الهزيمة النكراء للموانع والعقبات والاستحكامات

التي أقامها حماة صدّام له، وكانوا يقولون إنّه ليس هناك قوّة تستطيع تحطيمها. فجاءت هزيمة صدّام وجيشه لتُسرّع نجدتهم له. وإلا فإنّ هذا القرار كان ينبغي أن يصدر بعد استعادة خرمشهر مباشرة. وهذا جواب الذين كانوا يطالبون بوقف الحرب بعد استعادة خرمشهر، لأنّ القوى الكبرى وصدام حينها لم يكونوا مستعدّين للصلح، والمؤسسات الدولية لم تكن تهتم لطلباتنا، على الرغم من أنّنا البلد الذي تعرّض للعدوان والظلم، وحينها لم يكن صدّام قد أعلن موافقته على اتفاقية عام 1975م في الجزائر، ولم يكن حاضرًا لدفع غرامة الحرب.

إن الذين كانوا يطرحون هذا السؤال كانوا يعلمون حتمًا أن قوات صدّام كانت لا تزال تحتل مناطق من أرض إيران، ولم تتراجع عن نية العدوان، وأن قرارات مجلس الأمن الصادرة بعد تحرير خرمشهر كانت تؤكد وقف إطلاق النار فقط، من دون أن تتناول باقي الأمور، لذلك كانت تلك القرارات لمصلحة المعتدي. فلو قبلنا بوقف إطلاق النار حينها لبقيت قوات العدوان في أراضينا، وهو ما يعني حال اللا حرب واللا سلم. والحل الآخر كان الاستمرار بالحرب لإجبار العدو على الحد الأدنى من الشروط الإيرانية. وهو ما فعلناه، ولم نكن نمتلك خيارًا غيره.

## بقيت وحدي و...

اُشتهر بين القوات العراقية باسم «أشلو» لكثرة ما كان يصل إلى المتاريس المعادية، ويتحدّث معهم بلهجتهم مسلّمًا «اشلونك؟»، أي كيف الحال؟، وبعد أن يذهب يدركون أنّه من القوات الإيرانيّة، وقد تقمّص شخصيّة العراقي ليحصل منهم على معلومات حول المنطقة.

قيادة أركان الحرب العراقية أعلنت جائزة لمن يأتي برأسه، وأعلنوا كذبًا مرات عدّة من إذاعتهم أن «مرتضى جاويدي» المعروف بـ«أشلو» وهو من القيادات الهامة في جيش العدو، ومن عملاء الخميني، قد هلك اليوم على يد الأبطال العرب.

لهذا، كان كل قائد فرقة يتمنّى لو أن عنده قائد كتيبة مثله. وقد أدركت جيدًا أن مرتضى وكتيبة الفجر يمثّلان فرصة ذهبية لفرقتنا في الحرب.

ففي عمليات «كربلاء الخامسة»، عندما سمعنا صوت الحاج «قاسم سليماني» قائد فرقة «41 ثار الله» عبر الجهاز وهو ينادي الإخوة في المقر صارخًا: «لقد حاصرنا العراقيون، إنهم على بعد أمتار منّا ... لا أظن أنّه سيبقى أحد منّا حيًا ... نلتقي يوم القيامة». حينها أول اسم تبادر إلى ذهني هو «مرتضى جاويدي».

أخذت الجهاز وناديت: قاسم، قاسم، جعفر.

- جعفر معك أرسل.

- أرسلت «أشلو» إليك.

- افعل ما يمكنك، لكن بسرعة يا جعفر.

كان مرتضى ينتظر كلامنا، فأجاب: «لا تقلق، سأصل».

أجـاب وكأنه على بعد مئة متر منه، في حين أنّ المواجهة كانت قائمة خلف نهر جاسم في منطقة «الأضلاع الخمسة». حيث أشكل الأمر، وكان العبـور لاختراق السواتـر النونية صعبًا، توجه مرتضـى بقواته سريعًا، وطردوا القوات المعادية، وأنقذوا قوات فرقة «ثار اللّه» من الحصار.

ظهـرًا، كنـتُ لا أزال أتابع وضع كتيبة «الفجـر» عبر الجهاز، حين أُحضر الغداء. وقف أحد أفراد التعبئة بيني وبين الطعام وقال: «عذرًا يـا حاج، ليس لك حصة هـا هنا، عد إلى الخلف». تعجبتُ من كلامه، فأنـا قائـد الفرقـة، وهذه الجبهـة كلّها تحـت إمرة فرقتـي، لكني لا أستطيع أن أفعل ما أريد مع التعبويّين، لذلك سألته بمحبة: «ولماذا؟».

- أنـت قائـد الفرقـة، وإذا مـا استشهـدت هنـا - لا سمح اللّه-، فستضعـف معنويـات الجميع، أرجـوك عد إلى خلـف الجبهة، ودعنا نتناول غداءنا براحة.

أكمـل كلامه وذهب، وضحك الإخـوة وقالوا: «ليس في اليد حيلة يا حاج».

عدتُ إلى الخلـف لأستريح قليلًا ثم أعود، وفي الطريق مررت على أحمـد كاظمـي، فأصرّ عليّ كي أبقـى وأتناول الغـداء، لكني اعتذرت وذهبـت إلى الإخـوة في المقر، مـا إن وصلت حتى بلغنـي أن «مرتضى جاويـدي» قـد استبسل في القتـال واستشهد. لم أستطـع الجلوس إلى مائدة الطعام، بل أجهشتُ بالبـكاء، ومن غير المستحسن البكاء أمام

الباقين، لأنهم سيفقدون معنوياتهم، لذلك اختليت بنفسي وبكيت وأنا أنـوح بشـدّة مدة ربع ساعة، ثم غسلت وجهي وعـدت إلى الإخوة بحثًا عن جسد مرتضى لأني كنت أعلم أنّ العدو لن يتخلّى عن جسده، لكن الإخوة طَمأنوني أنهم سيأتون بجسده مهما كلّف الأمر.

لقد ذهب مرتضـى، وبقيت أنا والحاج «قاسـم سليماني» يحدّثني بحسرة عن قتال مرتضى الأسطوري وعن استبساله.

لقد رحل مرتضى، وبقيـت أنا والإذاعة العراقية التي تبث الموسيقى الفرحة والزغاريد، لأنّ «أشلو» عميل الخميني قد هلك هذه المرة حتمًا.

لقـد استشهد مرتضى، وبقيت أنـا و«صياد الشيرازي»، الذي طلب من مرافقيه في إحدى رحلاته إلى شيراز زيارة مرقد مرتضى، فتوجّه إلى مدينة «فسا»، ومنها إلى قرية «جليان».

يقول مرافقوه إنّه ترجّل من السيارة على بعد خمسين مترًا من القبر، ورتّـب ملابسه، وسار باحـترام كامل وبخطوات هادئـة، وعندما وصل القبر قدّم له التحية العسكرية وقرأ الفاتحة، ورغم إصرار قوات الحرس هناك ليبقى ويتناول الغداء، إلّا أنّه رفض وقال: «إنّي في مهمة، إنما أتيت لأؤدّي الاحترام للرجل الذي قبّل الإمام الخميني جبينه، وعليّ الذهاب». إنه صيّاد الذي قبّل الإمام الخامنئي تابوته بعد شهادته.

لقد ذهب مرتضى وترك لي أجزاءً من وصيّته التي يقول فيها:

لا أدري ما الذي فعلته حتى لم أستشهد، لعلّ قلبي أسود، رحم اللّه الحـاج «محمود ستوده» عندما كنّا نتحدث معًـا ونتساءل: «ماذا نفعل إذا انتهـت الحرب وبقينـا أحياء؟ حقيقة لا يمكن أن نعيش وننظر إلى وجوه أسر الشهداء!..».

## طردته إلى السماء!

جثوتُ على ركبتيّ أمامه، إنه يسأل عن الجبهات وهو يحتسي الشاي. بينما أنا كنت أحاول أن أشدّ انتباهه نحو المدينة، وأقدم له السكر المكعب والبسكويت. لكن يبدو أنه لا يحتمل تغيير الموضوع، بل يريد العودة إلى أصل الحديث. وضع الفنجان على الأرض، وأدخل يده إلى جيبه عبر عباءته، وأخرج ظرفًا وقدمه لي بكلتا يديه: «إنه مبلغ زهيد، اصرفه على المقاتلين كيفما شئت».

ما زال الظرف بيدي، حين شرع بشتم بعض أفراد الفرقة، كان يمتلك ملفًا في ذهنه عن كل واحد منهم، يفتح الملف تلو الآخر مع ذكر الأسماء، ثم عدّل عمامته واحتسى ما بقي من الشاي وأكمل: «يا أخ أسدي عليك إخراج هؤلاء من الفرقة، توجّهاتهم السياسية ليست سليمة، لا يحسنون سوى الأكل والنوم، ولا ينفعون للحرب، أنت تعرف كيف!».

كان يتحدث من دون توقّف، لم يمهلني للرد. أشحت بوجهي عنه، وقدّمت له الظرف بكلتا يديّ، وقلت له: «إنّنا لسنا بحاجة إلى المال حاليًا، أعده إلى أصحابه».

نظر إليّ بدهشة وانزعاج، لكنني لم أهتم، نهضت وخرجت من المتراس لأتنفّس بعمق.

مضت مدة وما زال الذين يستحقّون الطرد بنظره يشكّلون النجوم

المضيئة في فرقة المهدي. أحـد هؤلاء الذين كان مصرًّا على طردهم، أُصيـب في إحدى العمليات إصابة خطرة، وهـا هو يعالَج في مستشفى يبعـد عن مدينته مسافـة مئة كيلومترٍ. لم يخبر أحـدًا بإصابته، حتى زوجتـه ذات الثمانيـة عشـر ربيعًا. كل ذلـك ليتمكن بعـد أسبوع من الخروج من المستشفى، ويتوجه مسافـرًا مسافة (800كلم) بعيدًا عن بيته ليصل إلى الجبهة. وكانت إصابته بليغة، ودمه ينزف، رأيته كيف يضطر بين صلاتي الظهر والعصر أن يبدّل ملابسه.

ماذا أقول؟ من عجائب الدنيا، أنّ ذاك المعمم خرج من نهج الثورة بعـد وفاة الإمام الخميني، وأصبح معاديًـا للنظام الإسلامي وللقائد. في حين أنّ ذاك الذي أوصى بطرده، وكال له التهم، شارك في عمليات «كربـلاء الخامسة» وهو على تلك الحال، وأصابته رصاصة في صدره، طردَتْه من الفرقة.. إلى السماء!

## شمس حلبشة!

مرة أخرى، انصبّ اهتمامنا على غرب البلاد، لكن في هذه المرة، كان الهدف تنفيذ عمليات في المرتفعات الغربية لمحافظة «السليمانية» العراقية. فالانتصار الذي سطّرناه في عمليات «كربلاء الخامسة» كان كبيرًا واستراتيجيًا، لكنها لم تحقّق لنا مخرجًا للطريق المسدود في الجنوب.

توجهنا إلى الغرب لعلّنا نجرّ قوات العدو إلى هناك، وتتاح لنا فرصة أفضل في الجنوب، فالمبادرة ما زالت بأيدينا، لكن العراق لم يعد كالسابق، فالظروف أضحت لا تسمح بتحطيم الآلة الحربية العراقية بالكامل. فصدّام كان يركّز خلال العامين الأخيرين من الحرب على استخدام السلاح الكيميائي، وهو ما لم نفكر باستخدامه. كما إنّنا كنّا نتعرّض لمقاطعة شاملة، حتى الأسلاك الشائكة وأكياس الخيش كنّا نؤمّنها من السوق السوداء، وإذا تعرّض أيّ سلاح، أو أيّ آليّة لعطل ما، فلا نستطيع إصلاحه.

في حين كان العراق ينعم بمليارات الدولارات من السعودية والكويت، ويعمل ميناء «العقبة» الأردني والكويت على مدى الليل والنهار ثلاث نوبات من أجل تأمين وصول الآلة العسكرية لصدّام من سلاح وذخيرة، كنّا نحن محرومين من الدعم من أيّ دولة كانت. وبهذه الإمكانات الضعيفة، نقاتل نظام التسلّط العالمي مباشرة، وعندما شنَّ صدّام عدوانه على إيران، كان يمتلك اثنتي عشرة فرقة مدرعة إضافةً إلى

المشاة، وقد دمّرناها بالكامل في أغلب المرات، وفُقد أفرادها بين قتيل وجريح وأسير، لكن الدعم الـذي حصل عليه العراق من بعض الدول العربية والسلاح الأمريكي والسوفياتي جعل العراق عند انتهاء الحرب يمتلك اثنتين وخمسين فرقة مجهزة بالكامل، وتتزوّد بالمعلومات من الأقمار الصناعيّة الأمريكية. ولولا ذلك لانتهى أمر الجيش العراقي في السنة الثانية من الحرب، ولكُنّا وصلنا إلى بغداد.

الدليل على ذلك أنّ صدّام وجيشه احتلَّ من أرضنا بداية العدوان (17000كلم$^2$) وهو ما يعادل (1.5) مساحة لبنان. واستطعنا تحرير معظم هذه المساحة بواسطة ثلاث عمليات كبرى هي: «ثامن الأئمة»، الفتح المبين وبيت المقدس. وهذا يعني التفوق العسكري والمعنوي والنفسي لنا مقارنة بالعدو. لكن عالم الاستكبار وقف بأجمعه خلف العراق مساندًا له، وقدم له السلاح الكيميائي، وسمح باستخدامه، ورفض شروطنا المحقّة للسلام دومًا.

في شتاء عام 1988م، تعرّضت معظم مدن إيران وخاصة طهران العاصمة إلى هجمات بصواريخ أرض- أرض العراقية. وفي تلك الأثناء، بحث المسؤولون في إيران إعادة تقييم «القرار 598». وبدورنا قمنا بعمليات بسيطة في جبهات مختلفة، ثم توجهنا نحو الغرب تحضيرًا لعملية كبرى هي «والفجر العاشرة»، المعروفة بعملية «حلبشة».

إن الحديث عن عملية ذقنا فيها الأَمَرّين هو أمر صعب للغاية، فهذه عملية نُفّذت في ظروف قاسية، وعند مرتفعات عالية جدًا ووعرة، لكنّها كانت عملية ناجحة، وأسرنا أثناءها (5000) جندي وضابط، وحرّرنا مدينة «نوسود» التي احتلت لمدّة سبع سنوات، واخترقنا الحدود لمسافة (30 كلم)، ووصلنا إلى «سد دربندي خان». لكن صدّام لجأ إلى القصف الكيميائي الوحشي ضد أهالي مدينة

«حلبشـة» المظلومين. وعلى الرغم مـن أننا لم نتضرّر كثيرًا، وحافظنا علـى مواقعنا، لكن بالنسبة إلينا، فنحن ننظر إلى الحرب من جانبها الإنساني أيضًا، ولم نكن نتصوّر ما حصل، ولا أظنّ أنّ له شبيهًا في أي حرب جرت في العالم.

أضحـى الحاج «يد اللهي» نائـب قائد فرقة المهدي بعـد استشهاد الأخ «ستـودة»، كنت وإياه عند مرتفعـات «دلايكو» المشرفة على هضبة «خرمـال» ومعنـا السيد صـادق. عندما أتاني «محمـد قاسمي»، أحد أبنـاء كازرون، حاملًا رسالة، وهو يصرخ: «أين أنت يا أخ أسدي؟ خذ هذه الرسالة».

– لماذا تقف بعيدًا؟ تقدّم.

مسح عينه بيده وقال: واللّه إنّي لم أعد أرى.

- ماذا حصل؟

– لا أدري، لكنّ عينيّ عميتا، ولا أدري كيف أعود.

أحسسـت أنّ أعيننـا أيضًا أخـذت تؤلمنا، لكنّ «محمـد قاسمي» لا يرى شيئًـا. اتّجاه الريح كان لناحيتنا، وهـذا يعني خطر وصول المواد الكيميائيـة إلينا. ركبنا سيارة الجيب، وسرنـا نحن الثلاثة إلى مكان آمـن، ارتدينا ملابس ضد التلـوّث، واغتسلنا. وبعد ساعات، عدت مع «يد اللهي» إلى المنطقة، عندما وصلنا وجدنا الوضع قد تغير بالكامل. شاهدنا مناظر عجيبة ومؤلمة جدًا، المقاتلات العراقية لم ترحم أهالي «حلبشـة» الذين فرّوا باتجاه إيـران، وكذلك بعض الإخوة الذين كانوا في المنطقة، مثل الحاج «موسى رضا زاده» الذي عثرنا على جسده بعد ثلاثـة أيام. ظننا في البداية أنهـم أخلوه مع الجرحى والمصابين، لكن عندما لم يصل عنه أي خبر، فتشنا المنطقة فوجدناه مرميًا إلى جانب كومة أحجار أعدت لبناء سور حديقة.

لم يكـن جسده خلـف تلك الأحجـار فقط، بل الذكريـات الجميلة والمرة لما قبل انتصار الثـورة، ومرحلة الجهاد، وتشكيل قوات الحرس في «نـور آباد»، ورحلة «تبريز»، وسبعة أعوام قضيناها معًا في الحرب، وعمر من الفداء والتضحيـة. كان ملقًى على الأرض، قد لفظ أنفاسه وليس فيه رمق، ليصقل ويتلألأ في روايتي وأسطري.

كانـت هنـاك جثث كثيرة منتشـرة في المكان، مرّ «يـد اللهي» قرب رأس أحدهم وناداني: «أليس هذا طيارًا برأيك؟».

تقدّمـت لأرى جسـد شاب جميـل جدًا، شعـره ملوّن، قـد افترش الأرض، وملابسه تشبـه ملابس الطيارين. كان نصف جسده مغطّى؛ ولمّـا كشفت البطانيـة عنه، رأيته يرتـدي سروالًا كرديًـا. وإلى جانبه جسـد آخر، رفعت البطانيـة الأخرى، فإذا هي زوجتـه؛ ما زالت على هيبتها وقامتها، وإلى جانبها طفل بعمر السنتين. كل آلام وعناء ثماني سنـوات من الدفاع المقدس في جانب، ورؤيـة منظر أكثر من (5000) قتيل مدني بالأسلحة الكيميائية في جانب آخر.

عندمـا بـدأ نظـام صـدّام بقصـف مدينـة «حلبشـة» بالسـلاح الكيميائـي، حمـل الأهالي ما خـفّ حمله، وفـرّوا باتجـاه إيران، وفي الطريـق كان الإرهـاق وصعوبة التنفّـس تثقلهم، فيرمـون أغراضهم شيئًا فشيئًا. فتجـد بطانّيةً هنا، ومخدّة هناك، وطعامًا هنالك. كانوا يتخلّون عن كل ما يمنـع احتمال وصولهم إلى إيران؛ فهنا أغراضهم، وبعـد مسافة تسقـط أجسادهم. بينما تمكّن بعضهـم من المغادرة مع الأبقار والأغنام.

تجمّدت دموعنـا في أعيننا من رؤية الأطفال الصغار الذين ساروا خلف آبائهم وأمهاتهم، حتى افترشوا الأرض جثثًا هامدة.

بعد أسبوع، ذهبت إلى «نور آباد» للمشاركة في تشييع جنازة الحاج

«موسى رضا زاده». قبل دقائق من بدء المراسم كان جمع من الإخوة في الحرس يجهشون بالبكاء عند جثمانه، يرافقهم صوت عجيب وغير مألوف لنساء يغطّين وجوههنّ وينتحبن، أتين مع زغاريد وأناشيد خاصة بمراسم الزفاف، اقتربن من الجنازة، فأفسح الإخوة الطريق.

تقدّمت لأعرف ماذا يجري، فرأيت امرأة تتقدمهنّ تحمل كأسًا، تقدّمت نحوي وسألتني بلهجة أهالي كازرون: «أين هي جنازة أخي العزيز؟».

- ها هي، إنّها هنا، لكن لماذا تتصرفن هكذا؟

- وماذا حصل؟ أخونا، ونحن فخورون به، لقد استشهد ولم يمت.

- ماذا يوجد في هذا الكأس!

- حناء.

- حناء؟

- نعم حناء، أريد أن أحنّئ يدَي ورجلَي أخي، وأخضّب لحيته بها.

ثم نظرت إلى بناتها وقالت: «لماذا لا تزغردن؟ ابتهجن، فأخي يريد الذهاب للتزيّن».

فتحت التابوت وأخرجت وجه ويدي أخيها من الكفن، وشرعت بتقبيله، وقامت بهدوء خاص بوضع الحناء على وجهه ويديه وقدميه.

قلت لها: «إنّ جثمانه ملوث بالمواد الكيميائية الخطرة مثل السيانور».

رفعت رأسها وقالت بابتسامة مرة: «هذا المسجّى هنا هو كل حياتنا، لم يعد لدينا شيء، فلنتسمّم ونرحل معه».

تحوّل بكاء الإخوة من الحرس والحاضرين إلى نحيب وهم ينظرون إلى عشق الأخت المفجوعة بأخيها.

## الصخور الشاهقة

كان الشهيد «علي صياد الشيرازي» أحد عناصر نجاح قوات حرس الثورة الإسلامية في عمليـات «والفجر العاشرة»، بل هو مقوٍّ لقلوبهم. ورغـم أنّــه لم يُحدّد حضـور خاص للجيشـ في العمليـات؛ إلا أنّ الأخ صيـاد بحميميتـه الدائمة مع قـوات الحرس، أعلـن استعداد الجيش التامّ للتعاون. وعندما جاء إلى منطقة العمليات، تبعه الإخوة في سلاح المروحيات والنقل الجوي، وتهيّأت الظروف لتنفيذ العمليات الناجحة.

قبـل تنفيذ العمليات، أكد محسن رضائي عليّ أن أصطحب العميد صيـاد إلى الخـط الأمامي، ليطّلع بدقّـة على مكان استقـرار قوّاتنا، وتحديد مواقع العدو، وأن نستفيد من آرائه.

كان الجـو غائمًا والضباب يغطّي الطريق، وخشينا من أن تواجهنا المخاطـر. لذا حاولت بشتى الطرق عـدم اصطحاب صياد معي، لكنه كان مصرًا أكثر من رضائي، ولم ينفع تحذيري له، فذهبنا معًا.

بعد دقائق من الانطلاق، هطل المطر الشديد، وكان الضباب كثيفًا إلى حـد أنّنـا لم نكن نرى أمامنـا أكثر من خمسة أمتـار. وخشيت أن نضلّ الطريـق، ويضيع معي بين هذه الصخـور الوعرة أحد أهم قادة الجيشـ. كنت أميل يمينًا أحيانًا ويسـارًا أحيانًا أخرى، يبدو أن صياد أدرك أني غـير متأكد من الطريق الذي نسير فيه، لذلك سألني: «هل أنت متأكد أننا نسير في الاتجاه الصحيح؟». وفي كل مرة كنت أردّ عليه

لطمأنته من ناحية، وكي لا أخجل منه إذا ضعنا من ناحية أخرى.

كنت أبحث عن صخرات خاصة وكبيرة، اتخذتها كعلامة في الممرات السابقة، منها صخرتان كبيرتان يجب أن نمرّ بينهما. لم تكن المسافة طويلة، لكن الصخور الكثيرة والصمت الرهيب الذي يلف القمة، وهدير المطر، وكثافة الضباب تجعل من يعرف الطريق يضيع فيه.

بدأت تلوح في بالي الأفكار السوداء؛ ماذا لو كمن لنا جنود العدو خلف صخرة، وأخذونا أسرى. حقيقةً، لم أكن قلقًا على نفسي من رصاص يصيبني أو أن أقع في الأسر، ما كان يقلقني أن أكون قد قدّمت للعدو قائدًا مهمًا في الجيش. لما نظرت إلى وجه صياد وجدته مبتسمًا، فشعرت بالاطمئنان.

عندما نسير وسط الضباب الكثيف، تبدو أبداننا أنّها فرغت ممّا تحويه، لكنّها لا تلبث أن تعود إلى وضعها الطبيعي. حضّرت نفسي لأعتذر منه وأقترح عليه العودة، لكن رأيت فجأة تلكما الصخرتين الكبيرتين. وكأني اكتشفت شيئًا هامًا، فصرخت: «يا أخ صياد، تعال لقد سرنا بشكل صحيح»، وبقيت أحدّق بالصخرتين خشية أن تغيبا عن نظري. لكنّي حُرمتُ من أملي الوحيد برفع الرأس عاليًا بكلّ اعتزاز أمام صياد، ذلك لأنّه ضحك قائلًا: «يا سيد أسدي، أنت من البداية كنت تعرف الطريق، لكنك أردت أن تمازحني».

الإخوة في الاستطلاع كانوا على مسافة مئة متر من كلتا الصخرتين، بمجرد أن سمعوا صوتي، هرولوا نحونا، لم يصدقوا أن الأخ صياد معي، أضحوا كالممسوسين، يأتي الواحد تلو الآخر ويعانقونه ويقبّلون جبينه ووجنتيه. كلانا كنّا مبلّلين بالماء، فأتوا بملابس جافة فارتديناها. لم يكن لديهم ملابس بقياس صياد، فأخذ يضحك. كان بين الإخوة كعزيز عائد من سفر بعيد، اجتمع الكل حوله، بانتظار

سماع صوته وأرهفوا أسماعهم له.

أخرج الإخوة كل ما وجدوه في جيوب ملابسه وحقيبته المبلّلة، وأخذ كل واحد منهم شيئًا ليتبرك به: سجادة، سجدة، مسبحة، صورة الإمام الخميني وغير ذلك. ما عدا القرآن الصغير، أخذه صياد منهم وقال: «أعتذر عن إهدائه، فاسمحوا لي أن أحتفظ برفيقي ومؤنسي الوحيد».

عندما جفّت ملابسنا، قال صياد: «دعنا نرتدي ملابسنا ونعود». لكن الإخوة في الأمن والاستطلاع أبلغونا أن وضع الجو والمنطقة سيستمر على هذه الحال، ومن غير المناسب إكمال الطريق. لكن العميد صياد قال: «الوقت يدهمنا، وعلينا أن نتعرّف إلى المنطقة سريعًا». خفّ هطول المطر، وتحركنا، لكن هذه المرة باطمئنان أكثر، ولم نعد بعيدين عن الخط الأمامي للفرقة، وكنت أعرف ما تبقّى من الطريق جيدًا.

لم يكن استقبال الإخوة في الخط الأمامي أقلّ حفاوةً من استقبال الإخوة في الأمن والاستطلاع. أصبحنا في أقرب نقطة من قوات العدو، يفصلنا عنهم مسافة مئتي متر فقط. ما زلت أذكر دقّة نظر الأخ صياد وحبّ الاطّلاع لديه واهتمامه بأدق التفاصيل وتسجيلها، وعلمت فيما بعد أنه يقدمها لطيّاريه للاستفادة منها في العمليات.

تعامل صياد مع أفراد التعبئة وحبّه لهم وعلاقته الخاصة بهم، هي صفات قلّما رأيتها لدى أحد من قادة الجيش. فقد توجّه بنفسه إلى متاريس عدّة، وجلس في كلٍّ منها بضع دقائق، وتحدّث مع المقاتلين. وكان في كل متراس يتحدث بشيء جديد فلا يكرّر كلامه الذي لم يكن مملًّا.

حلّ الغروب، وكان علينا أن نعود. في طريق العودة، كان صياد يبادرني بالكلام ويقول: «عزيزي الأخ أسدي، أظن أن علينا أن نمر من جانب تلك الصخرة السوداء»...

## هل أذهب أيضًا؟

يتّسعُ المكان لسبعة أشخاص كي يناموا فيه أو يتناولوا طعامهم. إنّه متراس بطول أربعة أمتار وبعرض مترين، سقفه غير عالٍ، كان علينا الخروج منه لأداء الصلاة. وضعوا الأحجار بعضها فوق بعض، وغطوها بألواح من حديد البراميل. في الحقيقة، كانا متراسين تفصلهما عشرة أمتار، قد أعدّهما الإخوة الأكراد، وجعلوا واحدًا لهم، والآخر سلّموه لنا.

استغرق مسيرنا ساعتين من «مرتفعات ملخ خور» نزولًا إلى الهضبة. وصلت متعبًا ومرهقًا، فوجدت عشرين شخصًا يجلسون معًا.

تناولت طعام العشاء من علبة فاصولياء، وتبادلنا الحديث لنصف ساعة قبل أن نتوجّه إلى النوم. لكنّني سرحت بأفكاري، فلا يمكنني النوم مع كل هذا العدد داخل المتراس. والإخوة الذين كانوا فوق المرتفعات، كان عليهم الصعود من جديد لنقل العتاد إلى المتراس عند الصباح.

ناديت أخي صالحًا وقلت له: «خذ أربعة بغال واصعد إلى الأعلى، وائتِ بالخيام وبعض الوسائل الأخرى». ثم طلبت من الأخ رضا أن يذهب معه ليساعده.

- وحدي؟

- كلا، خذ معك من يلزمك من الرجال.

ارتفع صوت من داخل المتراس: «يا حاج هل أذهب أيضًا؟».

كان صوت «مراد رحمانيان» من أهالي «جهرم»، ويعدّ مسؤولًا عن المتراس، فهو الذي يهتم به، وكان قد ارتمى داخل كيس النوم، لكنه لم يستطع التمدّد لضيق المكان.

- رحم الله والدك، فلِمَ لا تذهب أيضًا؟

قام وخرج من المتراس، وسار خلفه صالح وخمسة آخرون. مازحني أحدهم قائلًا: «يا حاج لقد أفرغت المتراس بطريقة جيدة».

ضحك الإخوة، وضحكت معهم، لكنني لم أقل شيئًا، لعل في ما قمت به أمرًا منكرًا، ويدلّ على الدهاء، وهؤلاء الذين ذهبوا صباح الأمس كانوا قد استراحوا وناموا، وكانوا سيقضون الليل يتحدّثون، ويحرمونني من النوم، ولديّ غدًا اجتماع في المقر.

دفع الإخوة تلك الحمير أو البغال إلى الخارج بصعوبة، فالجو في شهري كانون الثاني وشباط بارد في كل إيران، أما غرب البلاد فهو مسرح الصقيع ومرعاه. اغتاظ «مراد رحمانيان» من عناد الحمير، فأخذ يضربها ويقول: «تحرّكي!». وعندما تتحرك الحمير يعود فيضربها ويقول: «ليتني أخسركِ بسمّ الحيّة، يا عديمة النطق، تحركي».

وفي وسط الطريق تأذّى من شدة البرد، فقال بصوت مرتجف: «لقد تخلّيت عن كيس نومي، أستحق «الزقنبوت»[1]».

وعندما وصل أفراد هذه المجموعة إلى المرتفعات، وحملوا الخيام، أخذ مراد يشتم نفسه. قال صالح: «إنّنا لم نتوقف لحظة عن الضحك،

1- الموت بالسمّ.

أساسًا لم نشعر كيف مضى الوقت ووصلنا إلى المرتفعات».

عـادوا صباحًا، وعندما اجتمعوا حول مائـدة الإفطار، كان الإخوة يردّدون ما قاله مراد ويضحكون. وبعد مضي أعوام عدّة ما زالوا كلما رأوه يستعيدون تلك الذكريات.

ذهبتُ إلى المقر للمشاركة في الاجتماع، وعندما عدت ألقيت نظرةً إلى داخل المتراس وقلت: «ما دام الجو جيدًا، عليكم الصعود مجددًا إلى الأعلى للإتيان بباقي العتاد».

قال صالح: «يا حاج هل أذهب أنا أيضًا؟».

انفجر الجميع بالضحك، وكان مراد أكثرهم ضحكًا.

## الاعتداء مجددًا!

يوم 19نيسان 1988 كنا لا نزال في غرب إيران، عندما بلغنا نبأ هجوم الجيش العراقي على الفاو. كنا في الغرب لا نزال منشغلين باستشهاد أهالي «حلبشة» المظلومين، ولذلك طال بقاؤنا.

كان صدّام يخطّط لاستعادة الفاو منذ مدة، لكن قدرة قواتنا ومقاومتها السابقة في الفاو شكّلت رسالة له بأنّ استعادة الفاو ليست أمرًا سهلًا. لكنّه في هذه المرة عندما رأى أنّ العالم قد غضّ النظر عن جرائمه الكيميائية، قام بقصف الفاو بمادة «السيانور» السامّة، فضلًا عن استخدام سائر الأسلحة الكيميائية وبشكل واسع ومكثّف، لتصبح المنطقة المستهدفة غير قابلة للحياة.

وما إن وصلنا إلى الجنوب، وقمنا بإعداد القوات حتى كانت الفاو قد سقطت. أصبحت اليد العليا للعراق، ومن خلال مخازنه وأسلحته الكيميائية أوصل صدام الحرب إلى مرحلة خطيرة.

بعد شهرين من سقوط الفاو واستخدام الأسلحة الكيمائية، وافقت إيران على القرار (598)، وكان القبول به يعني الاقتراب من نهاية الحرب. الأمر الذي كان يبحث فيه رجال السياسة منذ مدة طويلة، لكنّه كان مفاجئًا للمقاتلين ومثيرًا للدهشة والحيرة.

اختلطت حيرة المقاتلين بالقلق والشك، ما جعل ممثّليهم، أي

القـادة، يجتمعـون في الأهـواز، وقـرّروا الذهاب إلى طهـران ليقولوا للإمام الخميني: «إذا كنا قد قصّرنا في الدفاع، فسنعوّض عن ذلك».

لم يستقبلنـا أحد في طهران، وقالوا بما أنّ الظروف متأزّمة عليكم العـودة إلى المنطقة. عدنـا، لكننا لم نكن مطمئنّين مـن الوضع الذي حصـل. كنـا قلقين علـى صحة الإمـام الخميني، ونريـد أن نجدّد له طاعتنا واستعدادنا للاستمرار بمواجهة العدو.

عندما وصلنا إلى الأهواز، عقدنا اجتماعًا آخر في قاعدة ««منتظِري الشهـادة»»، لكـن النقاش لم يصـل إلى نتيجة محـددة، وبينما نحن كذلك، بلغَنا أن صدام شنّ هجومًا، ويسعى إلى احتلال خرمشهر بعد «الشلمشة»، مستفيدًا من تجربة الفاو وقصف المنطقة بالمواد السامة.

فتحركنا، وانتشر الخبر في البلد، وأصدر الإمام الخميني بيانًا دعا فيه إلى المقاومة، وتقاطر المتطوّعون من أنحاء إيران، كما حصل عند بداية الحرب.

قـام المقاتلون الذين كانوا في الأهواز ومحيطهـا بسدّ الطريق أمام القـوات المعتدية، لكن لم يكن هناك خط محدّد لندافع عنه، ولم ترتفع السواتـر لتفصلنـا عن العـدو، ولم يتبيّن وجود جبهـة معينة. بل كانت المواجهة تشبه القتال وجهًا لوجه، وهو القتال الذي اعتدناه طوال ثماني سنـين من الحرب. وحصل تداخل بـين المتحاربين، ففي بعض الأماكن تقدم الجيش العراقي ودخلنا وسطه، وفي أماكن أخرى حصل العكس.

أتذّكر أنه في أحد الأيام قام الجيش العراقي بالعبور من بين قواتنا أنـا و«قاسم سليماني» ثـلاث مرات عند طريق «الأهـواز- خرمشهر» قبـل الحسينية في نقطـة تسمى «نيمه نود» وتقدمنـا لمواجهتهم ثانية، بحيث كدنا نقع في الأسر. بل وبتنا في إحدى الليالي حتى الصباح قرب

الجيش العراقي، على مسافة قصيرة.

عنـد الفجر، نهضنا وذهبنا لتحضير الكتائـب للمواجهة، فوجدنا دبابات فرقة «ثار الله» بالقرب منا. قلت للأخ «سليماني»: «حسنًا قبل أن تشرق الشمس أرسل الدبابات لتتقدم».

أي دبابات، أوليست هذه لك؟

نظـرت إلى تلك الدبابات ثانية، وقلت لـه بتعجب: «كلا ليست لي. أين كانت دباباتنا؟».

وقبـل أن يتضح نور النهار تقدّمنا بحذر، فأمسك «سليماني» بيدي وقـال: «توقّف لعلهـا دبابات عراقية». ثم نظر ثانيـة وقال: «والله إنها عراقية».

ناديـت «أصغـر ماهوتي» الـذي كان يعدّ فصيلًا ليتقـدم، وقبل أن يصل إلينا قلت له: «أين فصيلك؟».

ظـنّ أن مقصودي هو لماذا تأخرت ولم ترسلهم بعد، فارتبك وقال: «سأرسلهم الآن».

- قل لهم ليترجلوا.

- كلا سأرسلهم الآن.

- يا أخي أين سيذهبون؟ إذا كانوا يبحثون عن العدو، فها هو العدو.

- أوليس هؤلاء من فرقة ثار الله؟

- قائدهم ها هنا، وهو يقول إنها دبابات عراقية.

ركض نحو قواته وطلب منهم التموضع هناك، وجرى الاشتباك على مسافـة لا تزيد عن مئتي متر. ما إن بدأ الإخوة بإطلاق النار وقذائف الآر بي جي، حتى تفرقت القوات العراقية، وقام بعضها باستهدافنا.

عندمـا قلـت إنّ هناك تداخـلًا في الحرب فهو هـذا. كان كل واحد يسـير باتجاه، وهكذا كان وضع الجيشـ العراقي لا يدرون إلى أي جهة يتجهون، إلى اليمين أم اليسار، إلى الأمام أم إلى الخلف. بعد 24 ساعة، بـدأ الوضع يعود إلى نصابه، الأعداء تموضعوا خلف طريق خرمشهر، وشرعنـا نحن بإعداد خط للمواجهة، ووصلت القوات الجديدة. أمواج المتطوعين الغفيرة أقلقت صدّام خشية أن يتكرر الوضع كبداية الحرب، ويتكـرر أسـر قواتـه. لذلك قـرر الانسحـاب، فطاردناهـم إلى حدود «الشلشمة». توقف الجيش العراقي عند الحدود، وكنا على بعد كيلومتر واحد منه. وبدأ تثبيت الخطوط الدفاعية، واستبدال بعض الوحدات.

هذه المرة بلغنا خبر هجوم جديد، لكن هذه المرة من حدود محافظة «كرمانشاه» التي كانت تسمى حينها «باختران».

فمنظّمـة مجاهدي الشعـب «المنافقين» دخلـت إلى الطريق المؤدي إلى المحافظـة بقافلة كبيرة مـن القوات والدبابـات وناقلات الجند، متّجهة نحو مدينة «كرمانشاه».

## الكذبة الخالدة!

لم يكن الوضع في الجنوب مطمئنًا، لكنّه لم يكن مكانًا للسكوت أيضًا، سلّمنا الأمر هناك للكتائب، وتوجّهت مع «قاسم سليماني» وعدد من المسؤولين في فرقة المهدي إلى جهة الغرب. تبيّن فيما بعد أن المنافقين كانوا قد ظنوا أن ظروف إيران غير جيدة، وإذا تحرّكوا فسيكونون مثل قبضة ثلج، ما إن تصل إلى طهران حتى تصبح كرة الثلج التي تسقط الحكومة. لذلك قدم لهم صدّام كل ما يحتاجونه من الأسلحة من مدافع مضادة للطائرات، ودبابات، وناقلات الجنود إلى مختلف أنواع الأسلحة الخفيفة والمتطورة. إنها مؤامرة أمريكية - سعودية بالتعاون مع صدّام، وكان نتيجتها هجوم جاهل ومخدوع ضد بلدهم.

قبل أن نصل إلى هناك، قاموا بارتكاب جرائم كثيرة في مدينة «إسلام شهر» منها: إطلاق النار على الجرحى داخل المستشفى فاستشهدوا جميعًا. وتوجهوا نحو «كرمانشاه» لاحتلالها والتوجه إلى طهران.

عند تقاطع «تشارزبر» الواقع بين «إسلام شهر» و«كرمانشاه»، واجهوا أول سد بوجههم. ففي ذلك اليوم، كان هناك عدد من أفراد فرقة «(27) رسول الله ﷺ» في مخيم قريب من «تشارزبر» ينتظرون الحافلة للذهاب في إجازة وتأخرت الحافلة، فاضطروا لانتظارها، ووصلهم خبر هجوم المنافقين، واقترابهم منهم.

قاموا بإغلاق المضيق، واتخذوا ساترًا ترابيًا، فتقدمت نحوهم

سيارة تويوتا عسكرية مسرعة تقودها امرأة من المنافقين، تسير أمام الركب، فارتطمت السيارة بالساتر الترابي، وطارت فوقه لتقع عند الإخوة، فقتلوها، وشكل هذا الحادث بداية المواجهة مع الغزاة.

وصلتُ أنا و«قاسم سليماني» إلى المنطقة قبل غيرنا. وعند وصولنا إلى تقاطع «إسلام شهر» تعرّضنا لإطلاق نار من قبل المنافقين الذين أغلقوا الطريق.

يوجد مطار طوارئ قبل ذلك التقاطع. توجهنا إليه فوجدنا محسن رضائي مع أشخاص عدّة هناك، يتحاورون فوق تلة قريبة، قدمنا له تقريرًا بالوضع، ولم يكن محسن يمتلك أجهزة اتصال، لكن بمساعدة «كريم» مسؤول الاتصالات في فرقة المهدي استطعنا الاتصال بالأهواز، وأمرهم قائد الحرس أن يرسلوا قوات. تحرك مسؤولو إرسال القوات في الأهواز، وقاموا بتحويل القوات الواصلة إليهم إلى الغرب.

قمة الخطوات التي اتّخذت ضد المنافقين قام بها الأخ صياد الشيرازي، حيث استنفر طائرات الجيش ومروحياته سريعًا إلى المنطقة. وبينما كنا نعد القوات ونجهز المدفعية، كانت الطائرات والمروحيات تقصف قوافل المنافقين وتشتّت جمعهم.

في اليوم الثالث من العدوان، كان كلُّ شيء جاهزًا عندنا، وبدأنا الهجوم النهائي تحت اسم عمليات المرصاد من ثلاثة محاور. وكانت معنا قوات من فرقة «محمد رسول الله ﷺ» وفرقة «ثار الله» وفرقة «أنصار الحسين» وفرقة «المهدي».

كان المنافقون قد تلقوا ضربة قوية من الجو، وأدركوا أن ما قيل لهم من وقوف الناس إلى جانبهم هو وهم باطل، لذلك أصيبوا باليأس ولاذوا بالفرار، وفي طريق فرارهم وقعوا بين قتلى وأسرى، وعاد القليل منهم إلى العراق. وعندما جرى دفن أجساد الذين قتلوا،

تبيّن أن كثيرًا منهم قد تناولوا حبوب «السيانور» خشية اعتقالهم.

أتذكّر أننا كنا نطارد المنافقين، فوصلنا قرب مدينة «كرند» في الغرب، فأشار لنا رجل عجوز، فتوقفنا. ليس طاعنًا في السن، بل في الخمسينيّات من عمره، وهو عجوز في نظر الإخوة الشباب الذين هم بين العشرين والخامسة والعشرين من العمر، وكنت أنا السائق. فقلت له: «تفضل يا أبي».

كان مترددًا، وشرع بالدعاء للمنافقين، وقال: «لقد ساعدتكم كثيرًا». فقلت له: «اركب معنا». وما إن جلس حتى عاد ليقول: «لقد سلّمت لكم سبعة من قوات الحرس، وقدمت لشبابكم وفتياتكم الماء والخبز»...

كنا أول سيارة تصل إلى هناك، فظن أننا من قوات المنافقين. فقلت له:

هل تحب أن ترى «مسعود رجوي»؟

إي والله.

لقد قدّمت خدمة ولا بد أن تحصل على أجرك.

شرع ثانية بالشتم، وأقسم أنه حتى الآن لم يأخذ أي قسيمة تموينية وأقسم: «كنت أنتظر مجيئكم لتخليصنا».

عندما وصلنا المدينة سلّمته للأمن وقلت له: هؤلاء سيأخذونك إلى «مسعود رجوي».

خلال الطريق، رأينا سيارة تقودها إحدى المنافقات، وقد أصيبت برصاصة في رأسها، وسقطت القبعة العسكرية على المقعد المجاور لها. فأخذت القبعة وما زالت معي، دونت عليها اسمها ثم بين قوسين «مريم». فيما بعد وجدنا أن رجالهم أيضًا قد دونوا أسماءهم وبين قوسين «مسعود»، كان ذلك تصرفًا يدل على الحماقة والمسخ.

لم تكـن عمليات «فروغ جاويـدان» أي «النور الخالد» -برأيي- سوى «الكذبـة الخالدة» حيث قامت فئـة مخدوعة بخدمة أحد أكثر مجرمي التاريخ ديكتاتورية بمهاجمة شعبها عسكريًا، وهُزمت خلال أربعة أيام.

إن بـروز قدرة وقوة إيران ثانية، ومقتل أكثر من أربعة آلاف منافق وجندي عراقي، الأمر الذي لم يكن يتوقعه أحد، وأن يتم بهذه السرعة. هذا الأمر بـث الرعب مجددًا لدى صدّام، لذلك أسرع ليعلن موافقته على القرار الأممي.

كمـا إن التعبئـة العامـة للبلد في آخـر أيام الحـرب، دفعت الدول الغربية للإسراع بمفاوضات السلام.

إن الحرب المفروضة التي نسميها نحن بالدفاع المقدس انتهت بعد ثمـاني سنوات، لا شك أنها ستبقى إلى الأبـد في واجهة تاريخ ملاحم الشعـب الإيراني. بعد أن كان صدّام قبل بدء عدوانه على إيران، يقف أمام الكاميرات ليمزق اتفاقية عام 1975م، ليبدأ الحرب، ويعلن: «إن العراق قد حدد حدوده، وعلى الخميني أن يعلن أين هي حدوده».

قال كذبًا بعد سنتـين، عندما طردنا قواته من خرمشهر، إنه يريد السلام، وفي أواخر الحرب استخدم الأسلحة الكيميائية قاصدًا إعادة احتلال خرمشهر، لكنه هزم مجدّدًا واضطر للانسحاب.

وفي العام 1990م وجّـه رسالة إلى رئيس الجمهورية الإسلامية قال فيها: «إن أساس الصلح مع إيران هو اتفاقية 1975م». ما يعني أن إيران هـي المنتصر الأكبر في حرب السنوات الثمـاني، وأنه هزم في الحرب، بل وخسر حياته بسبب طمعه وجنوحه نحو التسلط والتوسع. وعلّق على حبـال المشنقة أحد أكبر مجرمي التاريخ في العالم معلنًا أن الجمهورية الإسلامية الإيرانية كانت السبب الأساس وراء مصيره المشؤوم.

# الوثائق والصور

1 - شيراز 1963م.

2- دزفول– التجنيد 1965م.

3 - دزفول 1966م.

5 - بطاقة الجندية.

6 - الكويت 1971م.

4 - دزفول–التجنيد 1966م الثاني على اليمين.

11 - الأخوان محمود ومهدي الفيروزي.

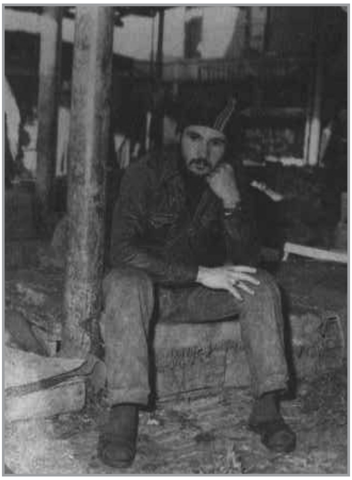

7 - سوق الكويت 1971م.

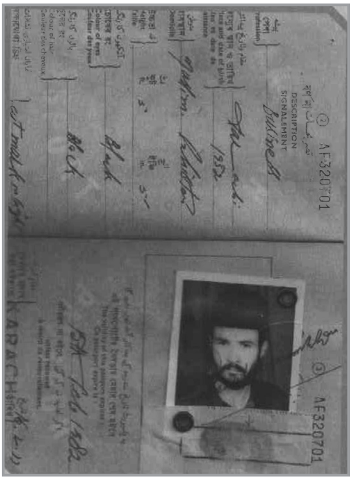


8 - جواز السفر الباكستاني المزور.

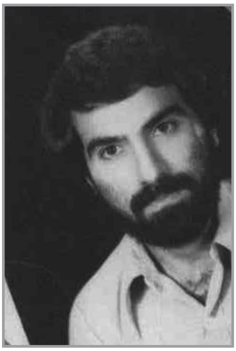

9 - الشهيد مهدي الفيروزي.

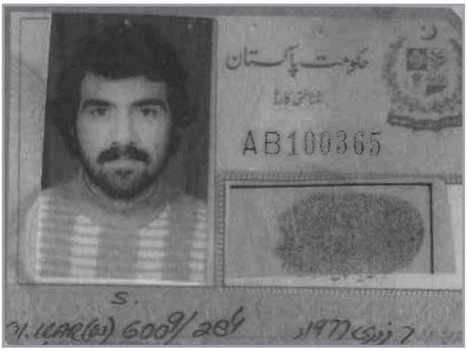


10 - جواز السفر الباكستاني المزور للشهيد مهدي الفيروزي.

12 - الثاني يسارًا الشهيد بورزادي.

13 - في الوسط الشهيد بورزادي.

14 - مجموعة من مسؤولي قوات الحرس بعد الحرب.

15 - مجموعة من مسؤولي قوات الحرس خلال الحرب.

16 - مع قادة فرقة المهدي.

17 - عن اليمين الشهيد ستوده، عن اليسار الشهيد خليل مطهر نيا.

18 - يسارًا الشهيد آذربيكان.

19 - الشهيدان مطهر نيا وآذربيكان.

20 - الثاني عن اليمين الشهيد الحاج موسى رضا زاده.

21 - الشهيد صياد الشيرازي.

22 - الأول عن اليسار والد السيد أسدي.

23 - مع الشهيد ستوده.

24 - إلى جانب الشهيد صياد الشيرازي.

25 - مجموعة من مسؤولي قوات الحرس في الحرب.

26 -الشهيد إبراهيم أحمدي.

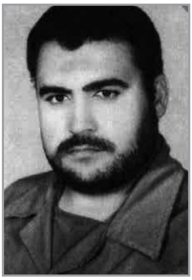

27 - الشهيد الحاج شير على سلطاني.

28 - الشهيد الحاج محمود ستوده.

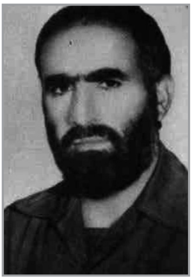

29 - الشهيد الحاج موسى رضا زاده.

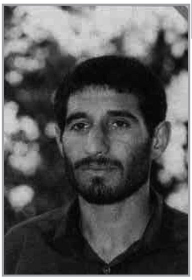

30 - الشهيد مرتضى جاويدي.

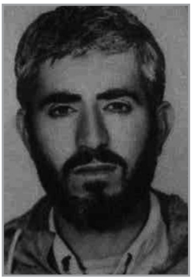

31 - الشهيد الحاج علي النوري.

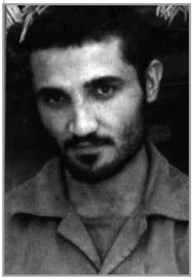

32 - الشهيد السيد محمد كد خدا.

33 - الشهيد حسين إيرلو.

34 - الشهيد حميد رضا فرخي.

35 - الشهيد علي أكبر رحمانيان.

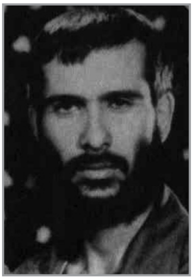

36 - الشهيد علي أصغر سرافراز.

37 - قرار تشكيل قوات الحرس في نور آباد.

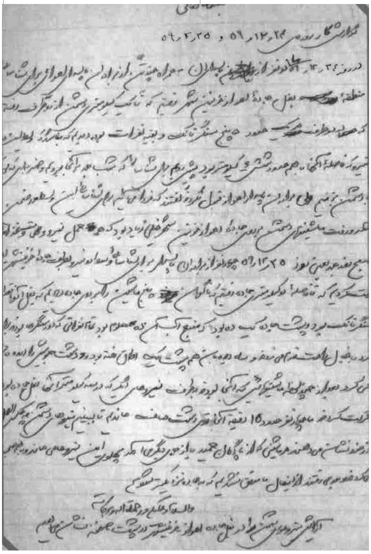

40 - التقرير اليومي حول جبهة فارسيات.

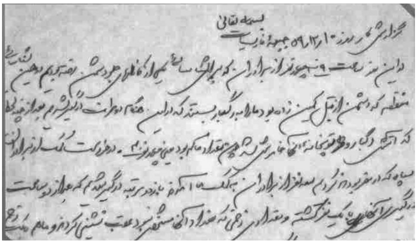

38 - التقرير اليومي حول جبهة فارسيات.

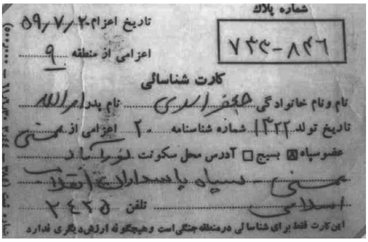

شماره پلاک

کارت شناسائی

نام ونام خانوادگی ... نام پدر ...

تاریخ تولد ... شماره شناسنامه ...

عضو سپاه ☒ بسیج ☐ آدرس محل سکونت ...

تلفن ...

این کارت فقط برای شناسائی در منطقه جنگی است وهیچگونه ارزش دیگری ندارد

39 - أول بطاقة تعريف للجبهة.

41 - محضر اجتماع في قاعدة «منتظِري الشهادة».

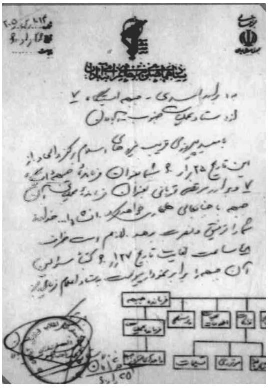

42 - حكم قيادة المحطة السابعة قبل عمليات «ثامن الأئمة».

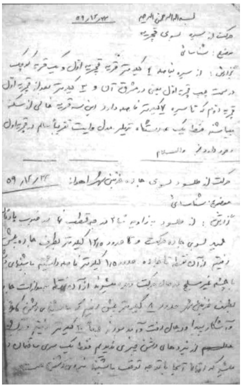

43 - الملاحظات اليومية في جبهة فارسيات.

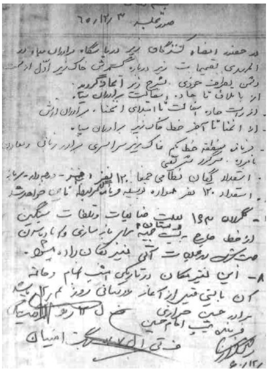

44 - الاتفاقية الموقعة للتعاون بين قوات الحرس والجيش.

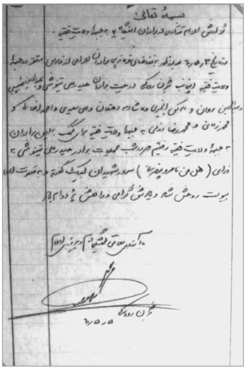

45 - تقرير الانتقال من المحطة السابعة إلى جبهة ولاية الفقيه.

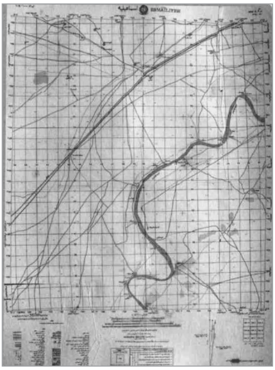

46 - خريطة نهر كارون وجبهة فارسيات.

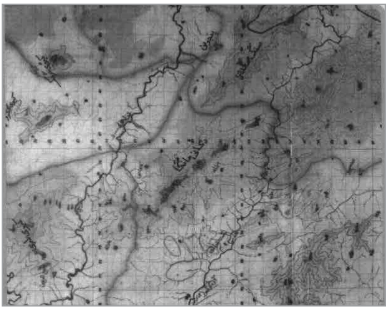

47 - خريطة منطقة العمليات في غرب إيران.

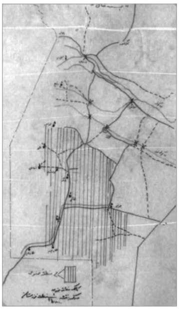

48 - خريطة لمنطقة غرب خوزستان.

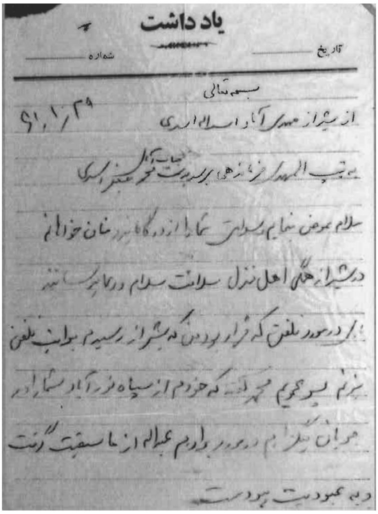

یاد داشت

تاریخ

شماره

49 - رسالة من شيراز.

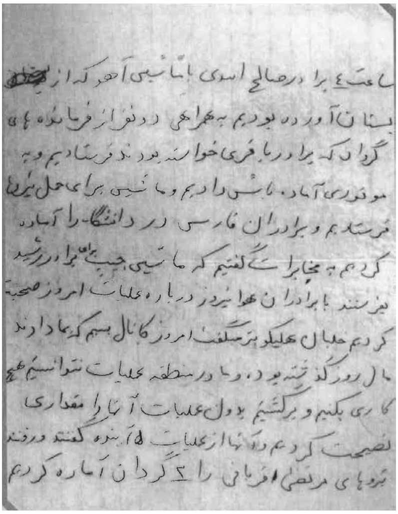

50 - التقرير اليومي.

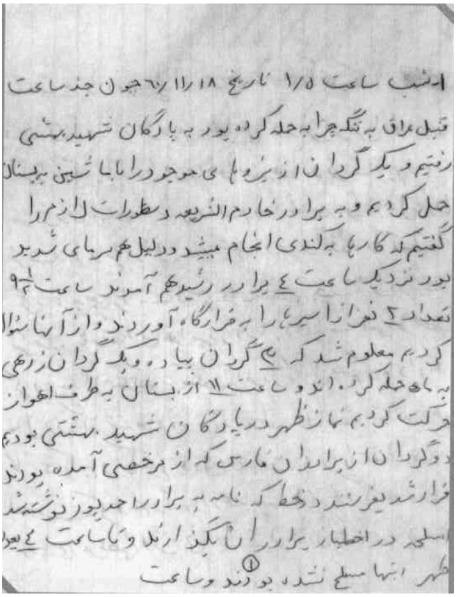

51 - التقرير اليومي.

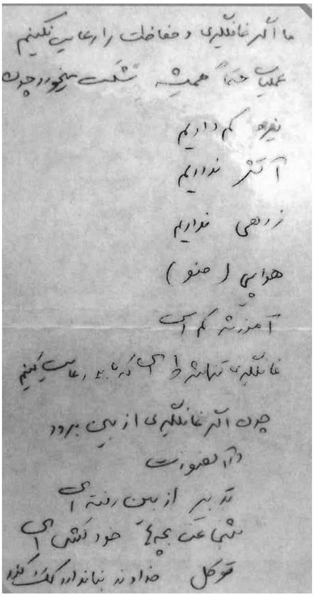

52 - الملاحظات اليومية.

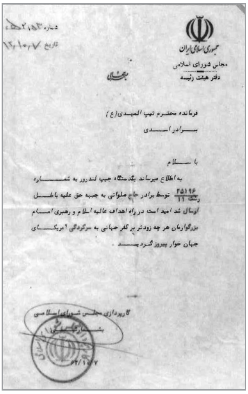

53 - هدية الحاج صلواتي إلى الجبهة.

54 - أمر مهمة بتوقيع الشهيد حسن باقري.

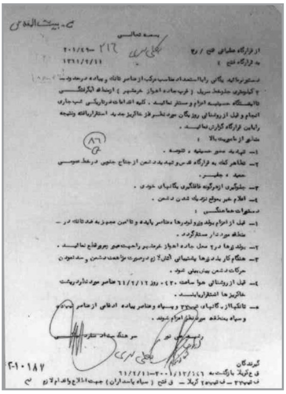

55 - من أوامر مقر الفتح قبل عمليات بيت المقدس.

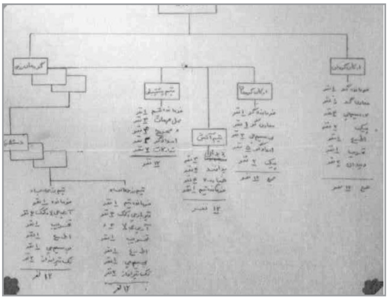

57 - هيكلية الكتيبة في الجبهة.

56 - صور الهوية القديمة.

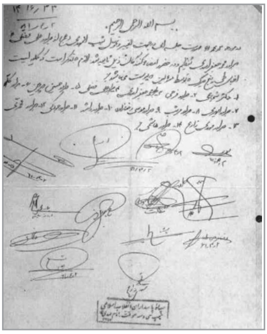

59 - محضر اجتماع لنقل لواء المهدي من علي فضلي إلى محمد جعفر أسدي.

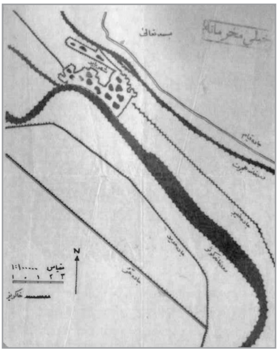

58 - خريطة عمليات.

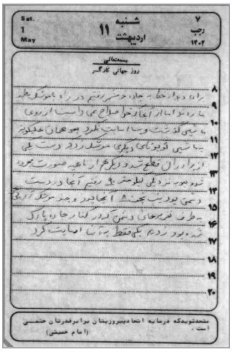

60 - ملاحظات شخصية.

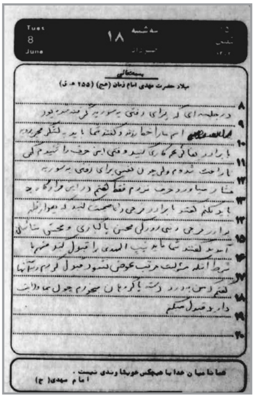

Tues 8 June

سه‌شنبه ۱۸

بسمه تعالی

میلاد حضرت مهدی امام زمان (عج) (۲۵۵ هـ.ق)

ضامنا میان خدا با هیچکس خویشاوندی نیست.
امام مهدی (ع)

61 – ملاحظات شخصية.

بسم الله الرحمن الرحيم

سردار سرتیپ پاسدار محمدجعفر اسدی

با استعانت از خدای سبحان و با کسب مجوز از محضر مبارک مقام معظم فرماندهی کل قوا، بنابه پیشنهاد معاونت بازرسی و با توجه به سوابق ارزشمند آن سردار ارجمند در عرصه‌های نورانی دفاع مقدس و تجارب مفیدی که از خدمت در مشاغل فرماندهی و ستادی در سپاه پاسداران انقلاب اسلامی بدست آورده‌اید شما را به عنوان جانشین معاون بازرسی ستاد کل نیروهای مسلح با حفظ جایگاه سپهبدی منصوب می‌کنم.

امید است با سوابق گرانبهای معنوی و تعهدی که در شما مشاهده شده است خداوند رحیم توفیق عنایت فرماید تا در تحقق منویات مقام معظم رهبری و فرماندهی کل قوا حضرت‌آیت الله خامنه‌ای عزیز منشأ خدمات برجسته‌ای در نیروهای مسلح پرافتخار جمهوری اسلامی ایران باشید.

انتظار می‌رود در همه امور رعایت امانت و تقوی را بنمائید.

رئیس ستاد کل نیروهای مسلح
سرلشکر بسیجی دکتر سید حسن فیروزآبادی

62 – أمر تكليف بالمسؤولية.

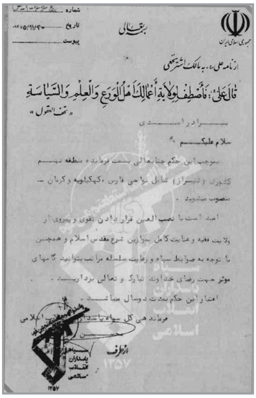

شماره ...
تاریخ ...
پیوست ...

بسمه تعالی

جمهوری اسلامی ایران

از نامه علی ع. به مالک اشتر نخعی

قال علي: فاصطف لولاية أعمالك أهل الورع والعلم والسياسة
«تحف العقول»

برادر اسدی

سلام علیکم

بموجب این حکم جنابعالی بسمت فرمانده منطقه نهم کشوری (شیراز) شامل نواحی فارس، کهکیلویه و کرمان منصوب میشوید.

امید است با نصب العین قرار دادن تقوی و پیروی از ولایت فقیه و رعایت کامل موازین شرع مقدس اسلام و همچنین با توجه به ضوابط سپاه و رعایت سلسله مراتب بتوانید گامهای موثر جهت رضای خداوند تبارک و تعالی بردارید.

اعتبار این حکم بمدت دو سال میباشد.

فرماندهی کل سپاه پاسداران انقلاب اسلامی
محسن

از طرف

سپاه پاسداران انقلاب اسلامی
۱۳۵۷

63 – أمر تكليف بالمسؤولية.

بسمه تعالی

جمهوری اسلامی ایران

سردار سرتیپ پاسدار محمدجعفر اسدی

جناب

سلام علیکم

64 – حكم تعيين الرتب.

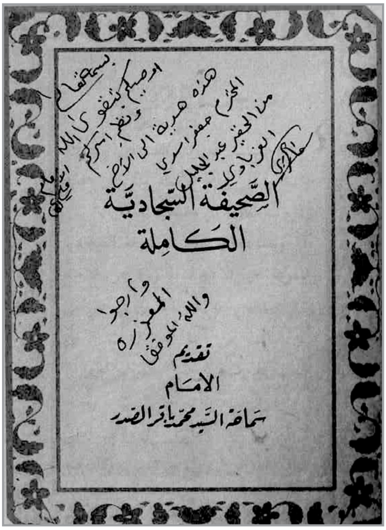

بسم الله

هذه هدية إلى الأخ المحترم جعفر اسدي من الحقير عبد الجليل الزبيدي

الصحيفة السجادية الكاملة

تقديم
الإمام
سماحة السيد محمد باقر الصدر

65 – الصحيفة السجادية المهداة والموقعة
من الشهيد عبد الجليل.

# سلسلة سادة القافلة:

## تصدر عن دار المعارف الإسلامية الثقافية

1 .

تراب كوشك الناعم

2 .
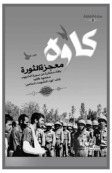


كاوه –معجزة الثورة

3 .

قائدي

4 .

كتيبة كميل

5 .

هاجر تنتظر

6 .
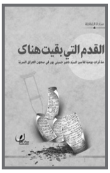


القدم التي بقيت هناك

7 .

وداع الشهداء

8 .

سأنتظرك..

9 .

همت..فاتح القلوب

10

حفلة الخضاب

11

فرقة الأخيار

12
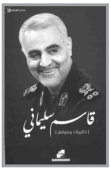


قاسم سليماني
(ذكريات وخواطر)

13
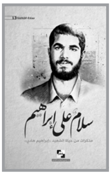


سلام على ابراهيم

14

نسائم الذكريات النديّة

15

جوهرة هامون

16

الهداية الثالثة

---

## يصدر قريبًا:

**1** . نور الدين ابن ايران

**2** . ملحمة تل برهانى البطولية

**3** . دا – أماه (ج1) / دا – أماه (ج2)

**4** . أولئك ال 23 فتى

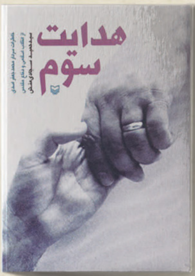


منذ عام ١٩٧٥م وبداية انتقالنا في **"نور آباد"** وحتى الآن لم أدرك من أين اكتسب "مهدي" ذو الثمانية عشر عامًا كل هذا الوعي وهذه المعلومات الدقيقة، وبمن كان يلتقي وأيّ كتبٍ يطالع. كان يتحدث حينها عن شخصيات بطريقة لم يتقبلها كثيرون؛ وأنا منهم؛ ولم نستحسن كلامه عنهم. لكن تبين لنا مع مرور الزمن أنّه كان محقًّا..كان يُحدّث شبّان تلك المدرسة بكلام جميل، ويمازحهم، أكثر ممّا يقدم النصح والأحكام الدينيّة. فقد كان يعتقد أنّ الحسّ الذاتي عند الشباب قوي، يمكّنهم من اكتشاف الحقائق بأنفسهم. وكان يقول: «إذا دخل لصّ إلى بيتٍ ما، فلن يخاف من استيقاظ الرجل الكبير والمرأة الكبيرة فيٍ السن؛ بل يخشى من استيقاظ الشباب. الآن في بيتنا لص، فأمريكا تنهب أموالنا وشرفنا وعزّتنا وحيثيّتنا، لذا علينا أن نوقِظ الشباب».

**مركز المعارف للترجمة:** مركز متخصص بنقل المعارف والمتون الإسلامية؛ الثقافية والتعليمية؛ باللغة العربية ومنها باللغات الأخرى؛ وفق معايير وحاجات منسجمة مع الرؤية الإسلامية الأصيلة.

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION
لبنان - بيروت - المعمورة - الشارع العام
تلفون: 471070 1 961+ فاكس: 476142 1 961+
www.almaaref.org.lb
Email:info@almaaref.org.lb

ISBN: 978-614-467-002-6
9 786144 670026